البحوث التاريخية

الثغور ودورها العسكري والحضاري

الدكتور
توفيق سلطان اليوزبكي
عميد كلية الآداب

تمهيد :

تحتل العلاقات العربية البيزنطية مكانة هامة في التاريخ العربي لانها تمثل صورة الصراع الحربي الطويل عند الثغور الذي استمر دون انقطاع طوال قرون ، وتبدأ قوة العلاقات الحربية بين العرب والبيزنطيين بقيام الدولة الأموية حيث اندفعت الجيوش والاساطيل العربية حتى بلغت أبواب ـ القسطنطينية . وقد استدعى الدولة الأموية هذه الاعمال لتأمين حدود الشام على تخومها من الشمال والشمال الشرقي ، وفي ظل هذه السترانيجية استدعى الموقف ان تؤمن الشام بفتح الجزيرة ومصر وفي بناء الحصون والقلاع والثغور على الحدود في الوقت الذي حشدت الدولة البيزنطية كل قواها وامكانياتها للاحتفاظ بالمناطق الحصينة . غير ان العرب نجحوا في تحصين الشام والجزيرة وأرمينية وثبتوا حدودهم في مواجهة الروم وكان عليهم أن يضعوا خططاً ستراتيجية تتمشى مع خطة حركات التحرر العربي فقاموا بتأسيس قواعد عسكرية في مناطق الحدود وأعادوا بناء المدن المهجورة والمخربة وبناء مدن بحرية وتحصينها ، أطلق عليها اسم الثغور على أن تحصين المدن الحدودية لم يقتصر على المواقع البرية بل حصنوا السواحل ،البحرية فأقاموا الثغور البحرية وأنشأوا أسطولا حربياً لحماية الحدود العربية بحيث استطاع العرب سنة ٣٤هـ = ٦٥٥م في انزال ضربة قاضية في الأسطول البيزنطي وقد هدف الأمويون والعباسيون من وراء عنايتهم بالثغور الى تأمين حدودهم البرية والبحرية لضمان استقرار الدولة السياسي والعسكري .

معنى الثغور :

مفردها (ثغر) وتعني كل موضع يكون في ارض العدو في بطن واد أوفرجةجبل قرب ارض المسلمين (١)ويسمى من يسكنها ويلازمها من الناس بالمرابطين (٢) ويرى بعض الباحثين وهو المكان أو الثغر الذي يرابط فيه الجنود العرب للجهاد في سبيل الله ويلازمونه لرصد العدو (٣) وقد ورد ذكرها في القرآن فقال تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (٤)وقال تعالى ايضاً «وصابروا ورابطوا»(٥) وورد في الحديث الشريف « رباط يـــوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » (٦)وقد حث الفقهاء على حماية الثغور والمرابطة فيذكر الماوردي: ان من واجبات الامام (تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظهر الاعداء بقوة ينتهكون فيها محرماً ويسفكون منها لمسلم أو معاهد دما) (٧)

ومن الجدير بالذكر أن هذه الربط تقع في الثغور على الحدود المواجهة للدولة البيزنطية وتشحن عادة بالمقاتلة وتخزن فيها المواد الغذائية والأسلحة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان جـ٣ ص١٦ ، ابن منظور لسان العرب جـ٥ ص ١٧١ .

(٢) المرابطين : جاءت من كلمة (الرباط) مفرد (ربط) و (رابطة) ووردت في القرآن(سورة ٨آية ٦٠)وأصل الرباط أن يربط فيه الخيل(ابن منظور، لسان العرب جـ٩ ص١٧٣) كذلك ربط النبي في أحاديث كثيرة بين الخيل والجهاد (انظر ابن هذيل حلبة الفرسان وشعار الشجعان تحقيق عبدالغني ،دار المعارف ص ٤٧) ويرى المقريزي : اما الرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله ثم صار لزوم الثغور رباط (المقريزي المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٤٢٧ القاهرة ١٢٩٤هـ).

(٣) فيصل السامر ودكسن : محاضرات في تاريخ الحضارة الاسلامية ص٧١، بغداد ١٩٧٠.

(٤) سورة الانفال : اية ٦٠.

(٥) سورة آل عمران : اية ٢٠٠.

(٦) البخاري : صحيح البخاري جـ٤ ص ٤٣، القاهرة ١٣١٣ هـ.

(٧) الماوردي : الاحكام السلطانية ،ص ١٣ .

ويكون واجبها الأساس هو مواجهة الخطر الخارجي الموجه من قبل الاعداء(١) وقد ازدادت أهمية الربط في العصر الأموي والعصر العباسي الأول وخاصة في عهد الرشيد الذي كان حافلا بالجهاد ضد البيزنطيين .

حدود الثغور :

وكانت الثغور تمثل حزاماً لمنطقة شاسعة ممتدة من شمال انطاكية وحلب إلى طرسوس وطوروس ، بعضها مقترن بثغور الشام وبعضها مقترن بثغور الجزيرة وكلاهما من الشام ، وذلك ان كل ما وراء الفرات من الشام انما سمي من ملطة إلى مرعش ثغور الجزيرة ، لأن أهل الجزيرة بها يرابطون وبها يغزون ،« لانها من الجزيرة وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل الحكام وهو الحد الفاصل بين الثغرين ، وجبل الحكام هو جبل داخل في بلد الروم ، ويظهر في بلد الاسلام بين مرعش والهارونية وعين زربة فيسمى اللكام إلى أن يتجاوز اللاذقية ثم يسمى جبل بهراء ، وتنوخ إلى حمص ثم سمي جبل لبنان ، ثم يمتد على الشام حتى ينتهي إلى بحر القلزم (الاحمر) »(٢). اما الحصون الحدودية فأطلقوا عليها في عهد عمر وعثمان بالعواصم الواقعة بين انطاكية ومابنيدي (٣) (منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر ، ومنها بحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر ، ومنها ما يجتمع فيه الأمران وتقع المغازي من أهله في البر والبحر) (٤) ويذكر ابن خرداذبة في معرض حديثه عن العواصم فيقول : انما سمي كل واحد منها عاصماً لأنه يعصم الثغر ويمده في أوقات النفير ثم ينفر اليه من أهل أنطاكية والجومة والفورس (٥) وهذا يتنافى مع ماذكرته بعض المصادر من أن تعابير الثغور

---

(١) محمد جاسم حمادي ،الجزيرة الفراتية والموصل ص٤٤٩ دار الرسالة بغداد ١٩٧٧.

(٢) الاصطخري : المسالك والممالك ص ٤٣ ،دار القلم ٩٦١، ابن حوقل ،صورة الارض ص ٥٤ مكتبة الحياة بيروت .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (مادة العواصم) ج١ ص٧٦١.

(٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٢٥٣ .

(٥) المصدر السابق ص٢٥٣ .

والعواصم هي أسماء مختلفة لنفس الشيء (١) وهذا غير صحيح لان كليهما متميز تماماً :

ان منطقة العواصم مثلها مثل الثغور كانت مسرحاً لحروب دامية بين الدولة البيزنطية والعرب وبقيت مستعملة كمصطلح جغرافي من قبل الجغرافيين العرب حتى فترة الحروب الصليبية والمماليك .

وقد عرفها ياقوت سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين وبذلك تتميز عن الحصون الشمالية الخارجة الملاصقة للحدود الشرقية المسماة بالثغور (٢).

وقد فرق ابن قدامة: (بين الثغور والعواصم بقوله: ان الثغور المقابلة لبلاد الروم منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر ، ومنها بحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر ، ومنها ما يجتمع فيه الامران...وعواصم هذه الثغور وما وراءها لأن كل واحد منها يصلح الثغر ويمده في أوقات النفير) (٣) .

والعواصم أنشئت لتكون الخط الثاني للثغور الملاصقة للروم بقصد ان يعتصم بها المسلمون من العدو اذا خرجوا من الثغر ويجتمع فيه المتطوعة قبل الانطلاق للغزو (٤).

والثغور بعضها تعرف بثغور الشام وبعضها تعرف بثغور الجزيرة وكلاهما من الشام فالثغور الواقعة بين ملطية ومرعش تسمى ثغور الجزيرة وتشمل ملطية والمدن والمارونية والكنيسة السوداء يجتاز زربة والحمصيصه واذنه وطرسوس ومرعش (٥).

والثغور الجزرية فأنها تمتد مابين دجلة والفرات وتشمل على ديار ربيعة ومضر ومخرج ماء الفرات من داخل بلد الروم من ملطية ثم يعدى حد

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية (مادة العواصم) جـ١ ص٧٦١.

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ص ٣٢٩.

(٣) قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة (ملحق بابن خرداذبة ص ٢٥٣).

(٤) عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الاول ص ١٧٥

(٥) ابن حوقل صورة الارض ص ١٥٣.

الجزيرة في سمت الشمال إلى تكريت والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ثم يتجاوز آمد وحذ دجلة على بعد من حد ارمينية ثم ينتهي إلى خروج ماء الفرات ومخرج ماء دجلة فوق آمد (١). وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللكام وهو الفاصل بين الثغرين، وجبل اللكام هو جبل داخل في بلد الروم، ويظهر في بلد الاسلام بين مرعش والهارونية وبين زربه فيسمى اللكام إلى أن يجاوز اللاذقية ثم يسمى جبل بهراء، وتنوخ إلى حمص ثم يسمى جبل لبنان ويمتد على الشام حتى ينتهي إلى بحر القلزم (٢).

والثغور البحرية هي سواحل جند حمص انطرطوس وبلنياس واللاذقية وجبلة والهرباذة وسواحل جند دمشق جبيل بيروت وصيدا وعدقون وسواحل جند الاردن وصور وعكا وسواحل جند فلسطين وقيسارية وارسو ويافا وعسقلان وغزة، وسواحل مصر ورفح والفرماء والعريش (٣). وتمتد الثغور مابين البحر المتوسط حتى سلسلة طوروس الارمنية ، وكانت ارمينيا تعتبر اقليم حدود بين الامبراطوريتين حيث يتعاقب الحكم العربي والبيزنطي عليها (٤) وقد حدد الجغرافيون العرب اقليم الثغور بانه : (يبتديء من الشرق فيمر ببلاد التبت ثم على خراسان ... وسرمنرأى والموصل ونصيبين وآمد ورأس العين وقالي قلا وشمشاط وحران والرقة وقرقيسيا ويمر على الشمال ففيه من المدن بالس ومنبج وسميساط وملطية وزبطرة وحلب وقنسرين وانطاكية وطرابلس والمصيصة والكنيسة السوداء واذنه وطرسوس وعمورية واللاذقية ثم يمر في البحر الشام على جزيرة قبرص ورودس ثم يمر في ارض المغرب على بلاد قنجة وينتهي إلى بحر المغرب (٥) والحقيقة ان قسم من هذه الثغور

(١) الاصطخري المسالك والممالك ص٥٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣.

(٣) ابن خرداذبة المسالك والممالك ص ٢٥٣ ،ص ٢٥٥.

(٤) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية جا ص١٣١ .

(٥) ابن رسته : الاعلاق النفسية ص ٩٧-٩٨ .

الي ورد ذكرها هي ليست ثغور وانما هي عواصم كانت تمد الثغور بالامدادات

لقد سكن العرب الثغور ومنهم الاراميون وكثروا هناك قبل الاسلام بقرون عدة وغدت هذه المناطق ديارا لهم عرفت باسم قبائلهم التي استقرت فيها مثل ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر كما وجدت فيها عناصر من السكان المجاورين ، وكانت تلك الثغور تعرف باسم (المسالح) ومنها المسلحة ، وهم (القوم الذين يحفظون الثغور من العدو ، وسموا مسلحة لانهم يكونون ذوي سلاح . او لانهم يسكنون المسلحة وهي كالثغر (١) .

وكان يسكن تلك المسالح جماعة من العرب واجبهم مراقبة تحركات الاعداء ضد بلاد العرب ، وتنبيه اخوانهم الذين فيها عن تقدم العدو إلى داخل الاراضي العربية ويسمى المرقب فيقول ابن منظور (والمرقب يكون فيه اقوام يرقبون العدو لئلا يطوقهم على غفلة ، فاذا رأوه اعلموا اصحابهم ليتأهبوا ...) (٢) .

وقد تعرضت هذه الثغور قبل الاسلام الى غزو الفرس والروم ولم يكن لها كيان مستقل وجاءت حركة التحرر العربي للعراق والشام إلى تنحية الجيوش البيزنطية عن مواقعها في هذه الثغور وقد تهيأ للثغور الجزرية بحكم موقعها الجغرافي المتوسط وكونها معبراً بين العراق والشام والامبراطورية البيزنطية وارمينيا واذربيجان ان تكون ذات أهمية خاصة بين أقاليم الخلافة الاموية والعباسية(٣) وكان لجزر البحر المتوسط اهميتها بالنسبة لمناطق الثغور والعواصم على الحدود العربية وقد جعلت في هذه الجزر حاميات عربية . وكانت العمليات الحربية في الجزر البعيدة عن الشام مثل صقلية تؤثر على قوة البيزنطيين الرئيسية وتعطى لحملات الثغور العربية فرصة سانحة لمهاجمة بلاد الروم ، ومن أهم هذه الجزر قبرص واقريطش وصقلية وارود التي افتتحها العرب سنة ٥٤هـ (٤) .

(١) ابن منظور : لسان العرب (مادة سلح).

(٢) نفس المصدر السابق والصحيفة .

(٣) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ج١ ص١٤٢ .

(٤) لي سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٥٩.

والثغور البحرية على الاطلاق سواحل الشام ومصر كلها والمجتمع فيها الامران غزو البحر وغزو البر وهي سواحل جند دمشق وانطرطوس وبلنياس واللاذقية وجبلة والهرباذة وحصن الصرفند وعدمون وسواحل جند الاردن وصور وعكا (تصنع فيها المراكب) وسواحل جند فلسطين وقيسارية وارسومن ويافا وعسقلان وغزة وسواحل مصر رفح والفرما والعريش (١).

الثغور وحركة التحرر العربية :

ترجع صلة عرب الجزيرة بعرب العراق والشام الى قبل الاسلام بقرون كثيرة حيث ان حركتها تجاوزت حدود الجزيرة وكانت ترمي قصد الشام والعراق وشمال وشرق أفريقيا تمارس حياتها في الائتلاف فيما بينها تتأثر وتؤثر فيها وتكون نتيجة ذلك صلة ما بين الجزيرة العربية وخارجها لأن المجتمع العربي قبل الاسلام بوجه عام لم يكن مجتمعاً انطوائياً ولامغلقاً على نفسه وانما كان هنالك تيار دائم في تنقل القبائل وتمازجها وكان لهذا التمازج انعكاس في الحياة اللغوية والادبية فقد كانت لها آثارها العميقة في التقريب ما بين لهجاتها وفي تشذيب الخلافات التي كانت بينها ، وبعد أن ثبت الاسلام أسس الوحدة العربية داخل الجزيرة العربية بتطبيق مبدأ المؤاخاة وانكار الدماء التي كانت في الجاهلية وانكار الدعوة الى العصبية وتصفية أحقاد الجاهلية لصهر المجتمع العربي بالغاء الفروق والعصبيات والتالف بين الناس على أساس العقيدة لا الدم ووحدة الكلمة مكان التشتت والافتراق والمشاركة في البذل والتضحية من أجل هذه المثل والمبادىء (٢) .

ولكن الأمر لم يقف عندها وانما تعداها الى عمل أبعد أفقاً وأكثر شمولا في الحركة التحررية العربية التي قادها العرب في ظل وحدة الامة لتحقيق رسالة الاسلام ، وهذا يقودنا الى ابراز حقيقة تاريخية هي أن العرب الذين خرجوا لنشر العقيدة الاسلامية لم يكونوا ليتخذوا شكلا قبلياً بل كانت

---

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٢٥٣ ، ص ٢٥٥ ، ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص١٦ . ج٦ ص٢٣٧ .

(٢) شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية ص٢٨ ، ص ٣٠ .

(٣) شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري ص٢٨ ط٣ ، دار العلم بيروت ١٩٧٣ .

تتوافد الجموع من القبائل كافة ويؤمر عليها الأمراء فقد روى الطبري قول عمر بن الخطاب (لاتدعوا أحدا الا وجهتموه اليّ والعجل العجل) (١) لان الهدف من خروجهم هو وحدة الامة والارض وتحرير الانسان من العبودية والضلال بما حمله العرب من رسالة الاسلام ونتج عن ذلك المزج والصهر بين الطوابع القديمة الموجودة خارج الجزيرة والتي حملها أهل الجزيرة فاستطاعت ان تؤلف وحدة اجتماعية جديدة تتعاون وتتزاوج وتختلط وتكون لها روحها وعقيدتها فهذه الظاهرة الواضحة في الحياة العربية تشكل الامة وصورتها (٢) .

ان التعرف على الآثار الكبرى التي نجمت عن حركة التحرر العربي يجد ان تيارات هذه الحركة هي الارض التي تتشقق فيها هذه البذور عن اولى اوراقها الخضرة وبراعمها النضرة ومن العسير فصل البراعم أو الاوراق النضرة عن التربة التي بدت فيها لانها لا تعيش الا بها ولا تملك الانفصال عنها ومن هذه الخطى الاولى (حركة التحرير) نتج عنه التعريب اللغوي وصلة القرابة بين العرب في جزيرتهم وبينهم في خارجها وما للاسلام من أثر فعال في توحيدهم بحيث أنه لم تكد تمضي سنوات قليلة على ظهور الاسلام في قلب الجزيرة العربية حتى حرر العرب حصن بصري العربي (البتراء) التي كانت خاضعة للبيزنطيين وكان تحرير ذلك الحصن كما يقول كيبون (حادثاً تافهاً لو لم يكن مقدمة لثورة عظمى) (٣) وكانت انتصارات العرب الحربية تبعث على الدهشة ففي سنة ١٤هـ ٦٣٥م سقطت دمشق وفي سنة

---

(١) الطبري : ج٤ص٨٢ ، انظر اليوزبكي: دراسات في النظم الاسلامية ص٤٠.

(٢) شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية ص٣٥.

(٣) Cibbon, The Decline and fall of the Roman Empire·P 95(London 1898)

١٥هـ ٦٣٧م سلمت بيت المقدس وعادت فلسطين ولاية عربية ، وفي الوقت ذاته انتهت دولة الفرس ، وفي سنة ٢٠هـ ٦٥١م حرر العرب الاسكندرية وبعد ذلك بسنوات قلائل بعد تحرير مصر تقدم العرب الى ابعد من ذلك على سواحل الوطن الغربي في شمال افريقيا ولم تحل سنة ٢٩هـ ٦٥٠هـ حتى كانت سوريا والقسم الشرقي من آسيا الصغرى والعراق وفلسطين ومصر جزءاً من الولايات الخاضعة للنفوذ العربي والمغرب العربي قد تحرر نهائياً ، وفي نهاية القرن السابع للميلاد حرر العرب شمال افريقيا كله وبدأوا عند مطلع القرن الثاني للهجرة الثامن للميلاد فتحهم لشبه جزيرة ايبريا (الاندلس)(١).

ان السرعة الفائقة والنجاح السريع التي تمت بها حركة التحرير العربية كانت من الامور التي احتلت جزءاً في تفكير المؤرخين المحدثين ففي خلال أقل من قرن من الزمان امتد الاسلام من الصين شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً ومن جبال القفقاس وأسيا الصغرى شمالا الى البحر العربي والمحيط الهندي جنوباً . واذا كان ضعف الفرس والروم عاملا مهماً من العوامل المساعدة التي سهلت مهمة العرب الا أنه لابد من وجود قوة دافعة دفعت العرب الى التقدم حتى استطاعوا أن يحدثوا هذه الثورة الضخمة في تاريخ العالم آنذاك (٢)،ان حركة التحرر العربي في القرن الاول للهجرة السابع للميلاد ؟ لم تكن مفاجئة وانما هي حلقة من سلسلة طويلة بدأت من قبل ذلك بعدة قرون ترجع قدمها الى الالف الرابع قبل الميلاد وادت الى خروج الكثير من الهجرات العربية من قلب الجزيرة العربية تتجه خارجها لشعور العرب أن الوطن العربي يمثل الساحة الواسعة التي يتحرك عليها العرب بحرية فلما تدهورت الاحوال الاقتصادية في الجزيرة دفع قسم من سكانها الى الانتقال خارجها فيرى برنارد لويس : (أن بلاد العرب شهدت في

---

(١) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ص٣٦١.

(٢) عاشور : اوربا في العصور الوسطى ص ١٤٤ ط٥ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٢

قديم الزمان خصباً عظيماً أعقبه جفاف مستمر مما أدى الى زحف الصحراء على حساب الاراضي الخضراء حتى أخذ السكان يخرجون منها على هيئة هجرات بعد ان ضاقت سبل العيش في وجوههم (١) وأعقبها حركات انتقال عديدة ومستمرة كان آخرها مع بزوغ فجر الاسلام الذي دفع العرب الى تحرير الوطن العربي ذلك هو العامل الديني والرغبة الصادقة في الجهاد والاستشهاد في سبيل العقيدة والمبدأ .

لقد كانت حركة تحرير الشعوب الخاضعة للنفوذ الفارسي والبيزنطي حدثاً خطيراً في مجرى التاريخ فقد قضت حركة التحرير العربي على الامبراطورية الفارسية وهزت القوة البيزنطية وواصلت حملاتها التحررية الى أسبانيا بعد تحرير الشام والعراق وتتابعت على أثرها الجزيرة وأرمينيا من جهة الشرق ومصر والمغرب وجزر البحر المتوسط من جهة الغرب .

ان تأمين حدود الوطن العربي الشمالية المجاورة للدولة البيزنطية استدعى السيطرة على تخومها من الشمال والشمال الشرقي ، وفي ظل هذه الستراتيجية اقتضى الموقف ان تؤمن الشام والجزيرة ومصر ومن الارجح انهم ناقشوا هذه السياسة وتقررت في مؤتمر الجابية حيث اجتمع عمر بن الخطاب بقواده . على ان القادة قاموا بتأسيس قواعد عسكرية في مناطق الحدود واعادوا بناء مدن المهجورة والمخربة وبناء مدن جديدة وتحصينها ، وهكذا نشأت الثغور العربية .

على ان حركة حماية الحدود لم تقتصر على البر فتتابعت الحملات البحرية على جزر البحر المتوسط فكانت معركة الصواري ٣٤هـ/٦٥٥م بداية لتكوين أسطول عربي قادر على حماية الحدود البحرية للدولة العربية وكانت ضربة قاضية للاسطول البيزنطي (٢) .

---

(١) برنارد لويس : العرب في التاريخ ص ٢٨.

(٢) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ج٢ص٩.

وقد لعب الموقع الجغرافي للوطن العربي دوراً أساسياً في توزيع المعسكرات العربية المجاورة للحدود البيزنطية فيؤكد ابن رستة : أن عمر بن الخطاب جند الشام الى اربعة أجناد وعين عليها قادته وهم : أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن ابي سفيان وعمرو بن العاص فبقيت الشام على ذلك التجنيد حتى زاد فيها يزيد بن معاوية قنسرين ، وكانت من أرض الجزيرة فصارت اجناد الشام أربعة هي جند فلسطين في الرملة وجند الاردن في طبرية وجند دمشق وجند قنسرين (١) .

وقد اتبع معاوية بن ابي سفيان في ولايته وخلافته للشام اسلوب اسكان القبائل العربية الضاربة في شمال العراق في جهات بعيدة عن المدن والمعرضة للغزو البيزنطي ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون تشبه العواصم والثغور الشاميه وخصص لها حاميات دائمة (٢) كما عقدت سلسلة من المحالفات مع بعض دول الطوائف التي تحتل اماكن حساسة على الحدود فتعاهدوا مع الجراجمة في جبل اللكام وتعاونوا مع البيالغة على اطراف الدولة البيزنطية القريبة من حدود المسلمين عند الفرات الاعلى (٣)ولقد عامل العرب سكان العراق والشام ومصر من عرب وغيرهم معاملة حسنة مبنية على التسامح الديني فيذكر فيليب حتى : ان أهل الشام لم يكونوا متجاوبين مع حكامهم البيزنطيين بسبب الخلافات الطائفية بينهم ورحبوا بالعرب المسلمين لعلمهم وتسامحهم ولأنهم حققوا لهم الأمن والطمأنينة (٤) وربما قاموا من وحدات عسكرية لحماية حدود الدولة العربية في حصون الروم التي هربوا عنها واتخذوها قواعد ترتكز اليها القوات العربية وبنوا الثغور وحصنوها وشحنوها بالجند فلقيت هذه الثغور والحصون عناية فائقة من الخليفة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فكتب عمر الى ابي عبيدة بن الجراح يقول (أن رتب بانطاكية

---

(١) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص ١٠٥ .

(٢) العدوي : الامويون والبيزنطيون ص ١٠٣ (٣) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ج٢

(٤) فيليب حتي : تاريخ العرب المطول ج١ ص ١٨٧ .

جماعة من المسلمين أهل ثبات وحسبه وجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطا وفي ولاية معاوية للشام كتب اليه عمر بن الخطاب بمثل ذلك ثم ان عثمان كتب اليه يأمره أن يلزمها قوما وان يقطع القطائع .. وشحنها بالمقاتلة وأسكنها قوماً من العرب) (١) .

وكان جند الثغور يتكونون من الجند المستقرة الدائمة من سكان الامصار والاجناد ومن البعوث التي تأتيهم من سكان المناطق المجاورة في أوقات الحرب ، وقد استعان العرب بالمرتزقة في حروبهم مع البيزنطيين فكان الجيش يتكون من العرب والفرس والاتراك والزنج والبربر وصارت الجيوش كبيرة وقد اسكن الخلفاء هولاء الجند المرتزقة في الثغور وزادوا في مرتباتهم وأعطياتهم وإلى جانب المرتزقة كان هناك الجند المتطوعة الذين سكنوا الثغور في أوقات الحروب طلبا للجهاد في سبيل الله ، وقد اشترك عدد كبير من المسلمين زمن الأمويين في حروبهم مع البيزنطيين باعتبارهم متطوعة ، وانضوى عدد كبير منهم تحت راية العباسيين للدفاع عن بلاد الاسلام او للاغارة على ارض العدو (٢) كما عزز معاوية المناطق الساحلية ، بالجند فنقل قوما من بعلبك وحمص وانطاكية إلى سواحل صور وعكا ، ونقل اساورة البصرة والكوفة إلى انطاكية ونقل من زط البصرة وأنزل بعضهم انطاكية (٣) ونقل الوليد بن عبد الملك قوما من زط السند وأسكن مروان بن محمد الفرس والصقالبة في شرق جيجان عند المصيصة (٤) .

وقد اهتم الخلفاء الامويون والعباسيون ببناء الثغور والحصون والعواصم فقد بنى عبدالله بن عبد الملك المصيصة سنة ٨٤ هـ وشحنها بالرجال وبنى هشام ابن عبد الملك المربض كما بنى حصن المثقب وقطر عاش وموره ويونا وبفراس . ولما صار العباس بن الوليد بن عبدالملك إلى مرعش عمرها

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص١٥٤ ص ١٥٦ ص ٦٦

(٢) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية جـ٢ ص٢٧١.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص١٢٣ ، ص١٣٣ ، ص١٦٠ ص ١٦٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧٣ .

وحصنها ونقل الناس اليها وبنى مروان بن محمد الحصون في شرقي جيجان(١)
وبلغ من اهتمام العباسيين بالثغور أنهم كانوا يولونها إلى ابنائهم واخوتهم
وأقرب المقربين اليهم ففي خلافة ابي العباس السفاح ولى أخاه جعفر الجزيرة
والموصل والثغور وأرمينيا وأذربيجان (٢) وعين المأمون ابنة العباس أميرا
على الثغور عام ٢١٢ هـ / ٨١٧ م جريا على سنة خلفاء المسلمين الذين يشركون
أبناءهم وأخوتهم في حرب الثغور (٣) وقد بذل العباسيون الأوائل جهودا
كبيرة في حماية حدود الدولة العربية من الهجوم البيزنطي بالعمل على تحصين
المراكو الواقعة على الحدود والممرات الجبلية وشحنوها بالرجال والسلاح
(ففي أواخر أيام أبو العباس سنة ١٣٣ هـ حاصر الروم بقيادة قسطنطين
ثغر ملطية فكتب أبو العباس إلى عبدالله بن علي يعلمه ان العدو قد كلب
بالغفلة عنه وامره ان ينفذ بالجيوش التي معه فيبث جيوشه في نواحي الثغور
وزحف حتى قطع الدرب ولم يزل يعبيء حتى أتاه خبر
وفاة أبي العباس (٤) . وتابع المنصور والمهدى تحصين المصيصة
واعادة بناء سورها سنة ١٤٠ هـ وسماها المعمورة ونقل اليها الرجال من فرس
وصقالبة وانباط وبنيت أذنه سنة ١٤١ هـ وأعاد المهدى بناء وتحصين طرطوس
والحدث سنة ١٦٣ هـ (٥) ولم يكن هدف المنصور من غزواته وتحصيناته
ماكان يهدف اليه الخلفاء الامويون من حيث القضاء على دولة الرول والسيطرة
على حوض البحر المتوسط وانما كان هدفه الاستيلاء على معاقل جبال طوروس
لمنع الروم من مهاجمة حدود الدولة العباسية (٦).

---

(١) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية جـ٢ ص٢٤٢.

(٢) اليعقوبي : تاريخ جـ٣ ص٨٠، دار الفكر ،بيروت ١٩٥٦.

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ١٠ ص ٢٨٠ .

(٤) اليعقوبي : تاريخ جـ٣ ص ٧٣ .

(٥) اليعقوبي : تاريخ جـ٣ ص ١٠٨ .

(٦) عبدالجبار الجومرد: داهية العرب أبو جعفر المنصور ص ٣١٣ دار الطباعة بيروت ١٩٦٣.

وفي خلافه المنصور تحرك الخزربناحية أرمينيا ودخلوا بلاد الاسلام فلما انتهى الخبر الى ابي جعفر أخرج سبعه الآف من اهل السجون وبعث يجمع من كل بلد خلقاً عظيماً ووجه بهم وبفعله وبنائين فبنى مدينة كمخ ومدينة المحمدية ومدينة باب واق وعدة مدن جعلها رداء للملسمين وأنزلها المقاتلة فردوا الحرب وقوى المسلمين بتلك المدن وأقام بالبلد ساكتا (١)

وأراد المهدى ان يحمي حدود الدولة العباسية الشرقية فوجه رسلا إلى الملوك يدعوهم إلى الطاعة فدخل اكثرهم في طاعته فكان منهم ملك كابل وملك طبرستان (الاصبهبذ) وملك السفد (الصفد) (الاخشيد) وملك طخارستان (شروين) وملك باميان (الشير) وملك فرغانه (فريران) وملك اشروسنة (افشين) وملك سجستان (رتبيل) وملك الترك (طرخان) وملك التبت (جهورت) وملك السند (الراى) وملك الصين (بقبور) وملك الهند (واشراج وملك الغز (خاقان) (٢).

وفي خلافة الرشيد امن هرثمة بن أعين بناء طرسوس سنة ١٧١ هـ فأحكم بناءها وجعل لها خمسة أبواب وحولها سبعة وثمانون برجا ولها نهر عظيم يشق وسطها وعليه القناطر المتعددة ثم انصرف الرشيد إلى العراق واستخلف على الشامات والجزيرة جعفر بن يحيي وعين عمه عبد الملك بن بن صالح أميرا على الجزيرة وبعض بلاد الشام (٣) وبنى الرشيد عين زربة سنة ١٨٠ هـ وحصنها وأسكنها من الجند الخراساني ، كما بني الهارونية سنة ١٨٢ هـ وشحنها بالمقاتلة والمتطوعة وكذلك بنى حصن الكنيسة السوداء وحصنها (٤).

---

(١) اليعقوبي : تاريخ جـ٣ ص ٩٠.

(٢) اليعقوبي : تاريخ جـ٣ ص ١٠٩ .

(٣) اليعقوبي : تاريخ جـ٣ ص١١٨.

(٤) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية جـ٢ ص٢٤٦ .

كان الخلفاء الأمويون والعباسيون يزودون أهل الثغور بما يحتاجون اليه من النفقات والكسوة ويرتب لهم الأطباء والجراحين وما يحتاجون اليه من الادوية والاشربة والذخائر (١) كما كانوا ينفقون بسخاء ويزيدون في اعطاء الجند اضافة إلى اعتماد مرتبات الجند على خراج المنطقة فقد بعث معاوية مثلا إلى قبرص باثني عشر الف كلهم يتلقون مرتباتهم من الديوان فبنوا المساجد بها ونقل اليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة وأقاموا يعطون الأعطية إلى ان توفي معاوية (٢) .

وكان للعباسيين الأوائل آثار مشكورة على خط الحدود العربية البيزنطية (فلما استخلف المنصور أسكن ملطية اربعة ألاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها ثغورهم وعلى زيادة عشرة دنانير في عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار سوى الجعل الذي تتجاعله القبائل بينها ووضع فيها شحنتها من السلاح وأقطع الجند المزارع فقد جرى ذلك لتشجيع المرابطين في الثغور على مايواجهون من مخاطر فكان المرابط يتلقى باديء ذي بدء حصته يتجهز بها وينال سكنا وزيادة في العطاء ثم اقطاعا في ريف الثغر (٣) .

وفي عهد الرشيد نشط الاسطول العربي في تحركاته في البحر المتوسط فيذكر البلاذري أن الرشيد أقام دورا لصناعة السفن لم يقم قبله وقسم الأموال والسلاح في الثغور (٤)

وربما فكر أن يصل مابين بحر الروم (المتوسط) وبحر القلزم (الاحمر) وفي عهده أعاد فتح رودوس (٥) عام ١٧٥ هـ/ ٧٩١م كذلك شن الاسطول العباسي حملات على اقريطش (٦) (كريت) كما غزا قبرص سنة ١٩٠ هـ

---

(١) الحسن بن عبدالله آثار الاول في ترتيب الدول ص ١٦٦ .

(٢) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية ج٣ ص١٤٨.

(٣) شعيرة (المرابطون في الثغور العربية الروحية) بحث في كتابه (إلى طه حسين في عيدميلاده السبعين).

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٩٣.

(٥) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص ٣٠٠.

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ج٤ص ٢٧٩ .

/ ٨٠١ م (١) وحاول الرشيد الاستفادة من ضعف الروم فاستولى عام ١٨١ هـ/ ٧٩٨م على قلعة الصفصاف (٢) وواصل السير حتى وصل افسوس (انقرة) (٣) وفتح حصون جديدة منها حصن مطمورة عام ١٩٢ هـ/ ٨٠٨م (٤) .

وفي خلافة الامين تولى عبد الملك بن صالح جميع ما كان اليه من الجزيرة وجند قنسرين والعواصم والثغور ورد اليه أمواله وضياعة وولى اسحاق بن سليمان الهاشمي أرمينيا (٥) .

وفي سنة ٢١٧هـ غزا المأمون بلاد الروم وصار الى حصن لؤلؤة فاقام عليه حينا لم يفتحه فبنى عليه حصنين أنزل فيهما المسلمين (٦) وغزا في سنة ٢١٨هـ بلاد الروم واستعد لحصار عمورية ووجه الى العرب فأتى بهم من البوادي ثم انزلهم كل مدينة افتتحها حتى قرب الى القسطنطينية فأتاه رسول ملك الروم يدعوه الى الصلح فلم يقبل فلما قرب من حصن لؤلؤة أقام أياماً وتوفي في موضع بين لؤلؤة وطرسوس (٧) .

وفي خلافة المعتصم سنة ٢٢٣هـ دخلت الروم ثغر زبطرة فقتلوا وأسروا كل من فيها فلما انتهى الخبر الى المعتصم خرج بعسكر كبير وقصد عمورية وكانت من أعظم مدائنهم وأكثرها عدة ورجالا فحاصرها فلقي الروم وأوقع بهم هزيمة فأوفد ملك الروم من قبله وفداً الى المعتصم يقول : ان الذي فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمري وأنا ابنيها برجالي ومالي وأتيت اليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة ، وفتحت عمورية

---

(١) الطبري : تاريخ جـ١٠ ص ٩٨ ومابعدها .

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ٥ ص ٣٦٨ .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٢٣ .

(٤) الطبري : تاريخ جـ١٠ ص ١٠٩ .

(٥) اليعقوبي : تاريخ جـ٣ ص ١٣٦ .

(٦) المصدر السابق : جـ٣ ص ١٦٠.

(٧) المصدر السابق : جـ٣ ص ١٦٢ الطبري : جـ١٠ ص ٢٩٥.

لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان عام ٢٢٣هـ وسبى جميع من فيها وأخذ باطس خال ملك الروم (١) وأقام المعتصم بعد فتح عمورية جملة من الحصون منها الحسينية وبنى الموض وابن رحوان ويلي هذه الحصون ثغر كيسوم ثم ثغر حصن منصور وثغر شمشاط وثغر ملطية وكل واحد بينه وبين بلد العدو درب وعقبه ، ومن الثغور الأخرى التي بناها وحصنها الثغر دلوك ورعان ومنبج (٢) .

تدهور الثغور والعواصم :

لقد أصاب الخلافة العباسية الضعف منذ منتصف القرن الثالث للهجرة بسبب سيطرة العنصر الأجنبي على مقاليد الحكم من أتراك ثم بويهيين وسلاجقة وظهور خلفاء ضعاف وتقاعسهم عن مواصلة الجهاد وحماية الثغور دفعت الروم الى مهاجمة الثغور العربية واحتلال اجزاء من ثغور الشام والجزيرة (٣) مما دعا الى انقسام الدولة العباسية وظهور دويلات صغيرة ابرزها الدولة الحمدانية التي تسيطر على الاراضي الواقعة في الجزيرة وبلاد الشام والتي حدودها ملاصقة لحدود الدولة البيزنطية فتحتم على الدولة الحمدانية ان تقوم بدورها الديني والسياسي في الجزيرة مما جعل الخلافة العباسية في بغداد تنظر الى قيام الدولة الحمدانية نظرة ارتياح لحماية البلاد الاسلامية من غارات الروم بل انهم شرطوا عليهم في عهود التولية القيام بالجهاد والدفاع عن الثغور(٤).

فهذا كتاب تولية من الخليفة العباسي المطيع لله عهداً أورده أبو اسحق الصابيء لسيف الدولة الحمداني وفيه قلده (الصلاة وأعمال الحرب والمعادن والاحداث والخراج والضياع والجهبذة والصدقات والجيش والمظالم والاشراف على العيار في دور الضرب والطراز والحسبة في مناطق الجزيرة كلها وهي

---

(١) المصدر السابق : جـ٥ ص ١٦٦ الطبري : ١٠ ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٢٥٣ ، طبعة بريل ١٨٨٩ م.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١١ ص ٢٤٤ ، اليوزبكي : الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ط٢ ص ٢١٩ .

(٤) فيصل السامر : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب جـ٢ ص ١٤٢ .

الموصل وديزبدي وبهذما والرحبة وديار ربيعة ومضر والثغور الجزرية والشامية وجند قنسرين والعواصم (١) .

ويعتبر القرن الرابع للهجرة من اغنى عصور الصراع في التاريخ العربي وعلى منطقة من اخطر مناطق الثغور هي شمال بلاد الشام والجزيرة الصامدة في وجه الحرب البيزنطية التي أعلنها الروم على الثغور العربية ذلك أن حروبهم التوسعية التي قادها نقفور والدستق وغيرهم كانت تتميز بظهور الروح الدينية وهدفها استعادة السيطرة على بيت المقدس واقتطاعها من الوطن العربي ، وان كانت الصيغة الدينية في الحالين تخفي وراءها المصالح الاقتصادية والتجارية والتوسع السياسي (٢) .

فقد كان الزحف العربي قد توقف عند أبواب كيليكية تاركاً جبال الامانوس وطوروس ضمن الاراضي العربية الاسلامية ثلاثة قرون ونصف القرن على الاقل حتى عاد الهجوم البيزنطي (ضد الحمدانيين) زمن الاسرة المقدونية في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة فاخذ طرسوس ثم انطاكية واتاخ في شمال وغرب حلب الى ان ازاحته الموجه السلجوقية(٣) .

ولعل من عوامل تدهور الثغور هو ضعف الموقف العربي في عصر الخلافة العباسية بسبب انتقال عاصمة الخلافة الى الشرق (بغداد) وغدت الدولة العباسية بعكس الاموية دولة قارية برية آسيوية شرقية ، أما الدولة الأموية فكانت دولة قارية بحرية وغربية تركزت حول البحر المتوسط ولهذا بذلوا ما استطاعوا منذ عهد معاوية للسيطرة على هذا البحر ونجحوا بذلك بعد معركة ذات الصواري بينما لم يهتم العباسيون بالاسطول البحري ولا بالبحر المتوسط وتركوا السيطرة عليه للروم حتى ظهرت قوة الاغالبة ثم قوة الفاطميين البحرية في هذا البحر فاقتسمت مع الروم تلك السيطرة (٤) .

---

(١) الصابيء : رسائل الصابيء (المختار في رسائله) جـ١ ص ١٢٦- ١٢٧ .

(٢) شاكر مصطفى : (من سير الثغور) مقالة بمجلة كلية الآداب جامعة الكويت العدد الثالث.

(٣) شاخت وبوزورث : تراث الاسلام ص١١٠ ترجمة السمهوري تحقيق شاكر مصطفى.

(٤) شاخت وبوزورث : تراث الاسلام ص١١١ .

ثم أن العباسيين كانوا بعكس الأمويين يعتبرون حدود الدولة نهايات لها لا مراكز انطلاق وقد حاولوا تحصينها بالثغور والعواصم والقلاع (ولا سيما على جبهة الروم) وعلى السواحل بدلا من أن ينطلقوا حتى الى ما وراءها لمتابعة السياسة الأموية. وقد استمرت الحدود العباسية البيزنطية ممتدة وراء الثغور الشامية والجزرية وفي أرمينية على ما كانت عليه في العهد الاموي واصبحت الحروب عليها نوعاً من التقاليد الحربية السنوية (الصائفة) لاظهار القوة وليس للفتح ولم يمثل الروم بلاد الشام الا بعد أواسط القرن الرابع اذا استطاعوا التمركز في الزاوية الشمالية الغربية من الشام باحتلال انطاكية وقد استردها السلاجقة منهم في اواخر القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد قبيل الزحف الصليبي على البلاد (١).

ومن عوامل تدهور الثغور راينا ضعف الخلافة العباسية واضطراب الوضع السياسي في الداخل وانفصال بعض الولايات عن جسم الدولة العباسية نتيجة سيطرة العناصر الأجنبية من أتراك وبويهيين على الحكم وتوجيه سياسة الدولة وفق اهوائهم ورغباتهم الشخصية.

وأصبح الخليفة العوبة في أيديهم يولون ويعزلونه متى ما شاءوا كما سيطروا على الخزائن لنفقاتهم الخاصة وأصبحت صلاحيات الخليفة لاتعدوا صلاحية أئمة المساجد (٢).

فوقع عبء الدفاع عن الثغور الاسلامية واحتمال كل ثقل الجيوش البيزنطية على عاتق اولئك الملوك العرب (بني حمدان) الذين جعلهم الفراغ السياسي في منطقة الجزيرة وشمال الشام يبرزون مكرهين أو راغبين، لقيادة عمليات الدفاع وكان في فاتحة المعارك ان اخذ الروم بنتيجتها طرسوس وأذنه والمصيصة وعدداً من الثغور الجزرية واستردوا كريت وقبرص و دخلوا حلب نفسها(٣).

---

(١) المصدر السابق والصفحة.

(٢) انظر اليوزبكي الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ص ١٢٥ ومابعدها، ص ٢٢٥ ومابعدها ص ٢٢٧.

(٣) شاكر مصطفى (من سير الثغور) مجلة كلية الآداب الكويت العدد الثامن ص٨.

غير ان هذه الاقاليم الشاسعة أخذت تتقلص وتنكمش في اواخر ايام بني حمدان انتهت بتفوق الروم وأصبحوا أصحاب السيادة في أملاك الدولة الحمدانية (١) .

الاهمية الاقتصادية للثغور :

على الرغم من استمرار الحروب بين العرب والبيزنطيين في مناطق الثغور والعواصم والتي أدت الى تعطيل الزراعة وعرقلت التجارة وشردت السكان وحولت تلك المناطق الى اراض قفراء الا أنها أدت في أوقات السلم الى ازدهار العلاقات السياسية والى احتكاك تجاري حيث أصبحت مناطق الثغور أسواق تجارية لتبادل السلع والمواد المختلفة المتوفرة في الدولتين العربية والبيزنطية وكانت له آثاره البعيدة في الحياة الاقتصادية في الثغور العربية والبيزنطية . والحقيقة أن التجارة لم تكن تتوقف حتى في أوقات الحروب وكان التجار يستخدمون شتى السبل لايصال بضائعهم بين الشرق والغرب ، وكان البيزنطيون خاصة والاوربيون عامة بحاجة الى منتجات الشرق كالقمح والعقاقير الطبية والحرير والتوابل والسلع والعود والكافور والحجارة الثمينة والاقمشة المصنوعة والخزف والكاغد (٢) . وكان التجار اليهود الراذانية يجيدون عدة لغات يتكلمون العربية والفارسية والافرنجية والصقلية ويسافرون براً وبحراً من الشرق الى الغرب ، ويحملون من الشرق المسك والعود والكافور والدارصيني والبهار ويعودون الى البحر الأحمر ثم يذهبون الى القسطنطينية يبيعون سلعهم ويذهبون الى انطاكية ثم ينحدرون الى بغداد فالبصرة فالخليج العربي ومنه الى المحيط حتى يصلوا الهند والصين (٣) .

كان التجار في كلا الدولتين قد أقاموا علاقات تجارية بينهم فقد ظهر التجار البيزنطيون في كثير من المدن العربية وكان التجار العرب كذلك

---

(١) فيصل السامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب جـ١ ص٥ .

(٢) رشاردولسن : ماركوبولو مغامراته واستكشافاته ص ٨٩ مطبعة السعد بغداد .

(٣) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٣- ١٥٤ .

يفدون على بيزنطة للتجارة وأصبحت طرابزون في القرن الرابع للهجرة من أهم مراكز الاتصالات التجارية بين التجار البيزنطيين والتجار العرب (١) واشار اليها المسعودي بقوله (٢) (ان لها أسواقاً في السنة يأتي اليها اكثر من الامم للتجارة بين المسلمين الروم والأرمن وغيرهم ويصف الاصطخري مدن الثغور والعواصم بقوله : انها كان لها اسواق حسنة وحمامات وفنادق ومحال ولم تزل أسعارهم في الأغذية وجميع المآكل واسعة ورخيصة (٣) .

وأشار جب : (٤) إلى أنه ليست هناك على مايظهر أخبار عن عراقيل أقامها الولاة العرب في وجه التجارة برا في القرن الأول من تاريخ الاسلام ، إن هذا الخبر يشير كذلك إلى الشام وإلى التجارة بين الموانئ الشامية والاقطار البيزنطية فكانت أنطاكية واللاذقية من الاماكن التي بقيت مزدحمة بعد الفتح العربي وكان من الصعب أن تكون كذلك لولا التجارة . وكان وجود المقاتلين في الثغور يعزز النشاط التجاري بما يقومون به من تأمين الطرق ورواج التجارة خاصة في أوقات السلم .

لقد أشار المؤرخ ابن العديم إلى العلاقات العسكرية والتجارية والاجتماعية بين المسلمين والروم في القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد مما تدل على رواج التجارة وازدهار العلاقات الاجتماعية بين سكان الثغور كما أن الثغور لعبت دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية لأنها احتلت مركز الصدارة في المواصلات التجارية العالمية (٥) ومن هذا يتبين أن استمرار العلاقات التجارية

---

(١) فيصل السامر : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب جـ٢ ص ١٤٧ ، نورمان بينز : الامبراطورية ص ٧٧ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ٢ ص١٣ (طبعة باريس) .

(٣) الاصطخري : المسالك والممالك ص٣٠ .

(٤) هاملتون جب : دراسات في حضارة الاسلام ص ٧٦ ، دار العلم للملايين بيروت ط٢ ١٩٧٤ .

(٥) ابن النديم زبدة الحلب في تاريخ حلب جـ١ ص ١٦٤ .

جعل تبادل المجاملات بين البلاطين (العربي والبيزنطي) امراً ممكنا حتى حين كانت الدولتان في حرب وخصام (١) و يؤيد نورمان بينز (٢) ماذهب اليه جب: من أن العلاقات السياسية مع العرب في الشرق والغرب أمرٌ أساسيٌ بالنسبة لبيزنطة فقد كانت مراسيم استقبال السفارات العربية التي كانت توفد إلى القسطنطينية في فترات الصلح تجري على أسلوب دقيق محكم .

الاهمية الاجتماعيــة للثغــور :

رافق حركة التحرير العربي استقرار العرب في الثغور لتأمين حدود الدولة العربية من هجمات البيزنطيين وفي الوقت نفسه وقفت القبائل العربية التي كانت مستقرة في العراق والشام منذ آلاف السنين قبل الاسلام من بني كلاب ونمير وقضاعة وسليم وربيعة ومضر وتغلب وغسان وتنوخ موقف المؤازر والمؤيد لحركة التحرير العربي التي قادها العرب لنشر رسالة الاسلام وكان من ذلك أن تيقظت روح القرابة بين القبائل العربية التي سكنت العراق والشام قبل الاسلام وبين اصولها في الجزيرة العربية ولعبت اللغة العربية دورها في تمتين صلة العرب فيما بينهم لأن قرابة الفكر (اللغة) هي أقوى من قرابة النسب (الدم) (٣) .

وأدى ذلك إلى اختلاط القبائل مع بعضها في هذه الجيوش وإلى اختلاطهم بالمدن وسكانها بعد الاستقرار (٤) .

فتآلفت معها وتأثرت بها وأثرت فيها وتكون من هذا التأثر والتأثير صلة مابين الجزيرة وخارجها من العرب وما بينهم وبين الأجناس الأخرى (٥) وفي هذا الجو الصافي استيقظت الروح القومية بين عرب الضاحية وعرب الجزيرة ، وقد أحست القبائل العربية بحاجتها إلى أن تعتد بهذه الروح الأصيلة ، ومكنت لها

---

(١) المصدر السابق : ص ٧٧ .

(٢) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٧٠ .

(٣) شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٦٨ .

(٤) فلهاوزن : الدولة العربية ترجمة أبو ريدة ص ٢٤ — ٢٥ .

(٥) شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٢٧ .

وحدة اللغة في انبعاث الروح القومية التي كانت أبعدمدى وأشد أثرا من الدور الذي لعبته القرابة (١) .

وأخذ تيار التعريب الاجتماعي واللغوي يلعب دوره الكبير في المدن والثغور وكان سبب ذلك أن أقبل غير العرب على الدخول في الاسلام كما أقبلوا على الزواج بالكتابيات (الذميات) وكان طبيعياً أن يستقروا في المدن والثغور (٢) اضافة إلى العناصر الأجنبية التي جاءت من الهند جلبها معاوية إلى أنطاكية والزط التي نقلت أيضاً إلى نفس المنطقة من قبل معاوية ثم الوليد بن عبد الملك بعد ذلك(٣) فأقبل هؤلاء على الحياة العربية في مواطنها فخالطتها وتمازجت معها فسادت اللغة العربية وتواصلت العلاقة وتواشجت الروابط وأدى إلى تسرب كلمات من العربية الى اليونانية وبالعكس كما أدى إلى تسرب الأساطير والحكايات (٤) . وقد لعب سكان الثغور والأسرى دوراً مهماً وبارزاً سواء في أوقات السلم أو الحرب في نقل وتبادل الأفكار والتقاليد الاجتماعية .

الاهمية العلمية والدينية :

لعب أقليم الثغور والعواصم دوره الحضاري والثقافي كما لعب دوره التجاري والحربي فقد كانت أنطاكية (وهي احدى مدن الثغور) مركزاً للثقافة اليونانية في بلاد الشام وظلت على الرغم من وضعها القلق بين الدولتين الا أن مدرستها بقيت زاهرة نحو ١٣٠ سنة ثم انتقلت إلى حران بالعراق على عهد المتوكل وظلت مزدهرة نحواً من أربعين سنة حتى دخل الفلاسفة والعلماء منها إلى بغداد في خلافة المعتضد (٥) .

---

(١) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية ج٣ص ٣٥١ .

(٢) شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١١٠.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ج١ ص٧٦١.

(٤) فيصل السامر : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ج٢ ص١٥١.

(٥) العدوي : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٣٨، ص ١٤٣.

ومما يؤكد حقيقة مهمة أن العرب لم يكن منغلقين حضارياً عن الشعوب المجاورة ولا الاقوام المستوطنة في الوطن العربي بل أنفتحوا على الشعوب ونقلوا اليها تراثهم الحضاري والاجتماعي والثقافي والديني وأخذوا من الحضارات السائدة في المنطقة مايلائمهم فقد اعتمدوا أول الأمر على مانقله النساطرة العرب في الفلسفة اليونانية وكانوا حلقة الاتصال بين الفلسفة اليونانية الاغريقية وبين الحضارة العربية الاسلامية (١) .

والواقع أن الحضارة العربية لم تكن لتلتهم كل شيء تصادفه وانما كانت عملية الانتقال الحضاري قائمة من جانب العرب على اختيار وانتقاء ثم إدماج وصهر حتى يبدعوا ثقافتهم المتميزة ، فكانت الحضارة العربية تتخير غذاءها تخيراً دقيقاً فلقد تقبلت من الخارج كل مساهمة من شأنها أن تساعدها على الاحتفاظ بذاتيتها (٢) . ولقد قامت الثغور بدور حضاري مهم ولا سيما في مجال تبادل الأفكار والآراء والمعارف وفي مجال الحياة الاجتماعية من تقاليد وعادات ومثل أجتماعية فقد احتلت هذه الثغور إضافة إلى ماذكر بدورها في الحياة الدينية والثقافية فقد كانت عند المسلمين أماكن للجهاد ضد الروم يقصدها المتطوعة من المؤمنين والزهاد والصوفيه واستقروا فيها طمعاً في الاستشهاد في سبيل الله وانشأوا في الثغور الربط وهي نوع من أماكن العبادة حيث يرابط فيها الاتقياء والزهاد والمحاربون من المتطوعين ثم أطلقت على أماكن المتصوفة من حيث أنهم يجاهدون فيها في سبيل الايمان (٣) . وقد بنيت في الثغور ربط خاصة بالنساء يقمن فيها ويتعبدن ويتلقين فيها دروسا في الوعظ والدين وكانت الربط مأوى يلجأ اليها الرحالون طلاب العلم(٤) وصارت الربط فيما بعد مأوى

---

(١) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦٠ ومابعدها .

(٢) جرونبيلوم : حضارة الاسلام ، ترجمة جاويد ص١٢ ، ١٤ .

(٣) ديموبين : النظم الاسلامية ص ١٥٩.

(٤) عبدالله عبدالدائم : التربية عبر التاريخ ص ١٦١ ، دار العلم للملايين بيروت ط ١٩٧٥٢.

للعاجزين والنساء المطلقات والمهجورات واليتامى والفقراء ومسكناً للفقهاء واصبحت هذه الربط تؤدي خدمات اجتماعية ودينية وثقافية كالوعظ والتحدث والأفتاء ومنح الاجازات العلمية وتصنيف الكتب ومما ساعد على ذلك أن الواقفين عليها أنشاوا فيها الخزائن وأوقفوا عليها الكتب (١) كما اجتذبت الربط البحرية الاتقياء والمتحمسين على الجهاد فقد روي عن سفيان الثوري قوله لرجل من اليمن : (عليك بسواحل الشام فان هذا البيت يحجه كل عام ألف ومائتا ألف وثلثمائة ألف وما شاء الله من المستضعفين لك مثل حجهم وعمرهم ومناسكهم) (٢) ومما يجدر الاشارة اليه أن الثغور البيزنطية كانت تنتشر فيها الاديرة وكانت تقام فيها مناسك العبادة والتأليف ، والترجمة (٣) اضافة الى مهامها العسكرية مما يعطي صورة التشابه في دور الثغور في الدولة العربية والدولة البيزنطية .

(١) محمدجاسم حمادي : الجزيرة الفراتية والموصل ص ٤٤٥.
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٤٠ ،ابن عساكر :تاريخ مدينة دمشق تحقيق المنجد ط١ ص ٢٧١ .
(٣) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية ج٢ ص ٣٣٠ .

(مصادر ومراجع البحث)

ابن جعفر :قدامة (ت ٣٣٧ هـ ـ ٩٤٨م) .

١ـ(الخراج وصنعة الكتابة)

طبع ليدن ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة.

ابن حوقل: ابي القاسم محمد .

٢ ـ (صورة الارض)

نشر مكتبة الحياة بيروت .

ابن خرداذبة: ابي القاسم عبيدالله ابن عبدالله (ت ٣٠٠هـ)

٣ ـ (المسالك والممالك)

طبعة بريل ١٨٨٩ م .

ابن رستة :٤ ـ (الاعلاق النفيسة)

طبع ليدن

ابن العبري: غريغوريوس ابي الفرج هارون ابن توما الملطي (ت ٦٨٥هـ ـ ١٢٨٦م).

٥ ـ (تاريخ مختصر الدول)

المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥٨م

ابن كثير : ابي الفدا الحافظ اسماعيل ابن عمر (ت ٧٧٤هـ ـ ١٣٧٢م)

٦ ـ (البداية والنهاية في التاريخ) .

طبع مكتبة المعارف ـ بيروت ١٩٦٦م

ابن منظور: ٧ ـ (لسان العرب) باعتناء مرجليوث

الاصطخري: ٨ ـ (المسالك والممالك)

طبعة وزارة الثقافة والارشاد / القاهرة .

البخاري : ٩ ـ (صحيح البخارى)

القاهرة ١٣١٣ هـ

البلاذري : احمد بن يحيى ابن جابر (ت ٢٧٩ هـ — ٨٩٢م) .
١٠ — (فتوح البلدان)
نشر صلاح منجد مكتبة النهضة المصرية
الصابي :ابن الحسن هلال ابن الحسن (ت ٤٤٨ — ١٥٦م) .
١١ — (رسائل الصابي) — المختار من رسائله .
المطبعة العثمانية — لبنان ١٨٩٨ م .
الطبري : ابن جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ — ٩٣٢م)
١٢— (تاريخ الرسل والملوك)
طبع دار المعارف ٦٠ — ١٩٦٣م .
الماوردي : ابي الحسن علي بن محمد ابن حبيب المصري (ت ٤٥٠هـ)
١٣ — (الاحكام السلطانية والولايات الدينية)
مطبعة البابي الحلبي : القاهرة ١٩٦٠ م.
المقريزي :تقي الدين احمد ابن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥ هـ — ١٤٤١م).
١٤ — (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار)
القاهرة ١٢٩٤ هـ .
ياقوت : شهاب الدين ابي عبدالله الحموي (ت ٦٢٦ هـ — ١٣٢٨م).
١٥ — (معجم البلدان)
المسعودي : أبي الحسن على بن الحسين ابن علي (ت ٣٤٦هـ — ٩٥٧م)
١٦ — (مروج الذهب ومعادن الجوهر)
طبعة باريس
اليعقوبي : احمد ابن ابي يعقوب ابن وهب المعروف بابي واضح الاخباري
(ت ٢٨٤ هـ — ٨٩٧م)
١٧ — (تاريخ اليعقوبي)

بينز : نورمان
١٨ ـ (الامبراطورية البيزنطية)
تعريب حسين مؤنس
الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة
جـــب : هاملتون
١٩ ـ (دراسات في حضارة الاسلام)
دار العلم للملايين ـ بيروت
ط٢ ـ ١٩٧٤.
الجومرد : عبد الجبار
٢٠ ـ (داهية العرب ابو جعفر المنصور)
دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٣ .
حمـادي: محمد جاسم
٢١ ـ (الجزيرة الفراتية والموصل).
دار الرسالة بغداد ١٩٧٧ م.
حتـي : فيليب
٢٢ ـ (تاريخ العرب)
بيروت ١٩٥٣ م .
دائرة المعارف الاسلامية :
٢٣ ـ (مادة العواصم)
ديموبيين : موريس غودفورا
٢٤ ـ (النظم الاسلاميه)
ترجمة صالح الشماع : مطبعة الزهراء بغداد ١٩٥٢
السامر : فيصل
٢٥ ـ (الدولة الحمدانية في الموصل وحلب) .
مطبعة الامام بغداد ١٩٧٠ .
٢٦ ـ (محاضرات في تاريخ الحضارة الاسلامية)
بغداد ١٩٧٠م.

سترانج : رلي .
٢٧ – (بلدان الخلافة الشرقية) .

شاخت : ديوزورث
٢٨– (تراث الاسلام)
ترجمة زهير السمهوري تحقيق شاكر مصطفى سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٧٨ .

شعيرة :عبد الهادي
٢٩ – (المرابطون في الثغور العربية الرومية)
(بحث في كتاب إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين)

عثمان : فتحي
٣٠ – (الحدود الاسلامية البيزنطية)
طبع دار الكتاب العربي للطباعة والنشر : القاهرة ١٩٧٧.

عاشور : سعيد
٣١ – (اوربا في العصور الوسطى)
نشر مكتبة الانجلو المصرية ط ٥ ١٩٧٢ .

عبد الدائم : عبدالله
٣٢ – (التربية عبر التاريخ)
دار العلم للملايين – بيروت ط٢ ١٩٧٢ .

العدوي : ابراهيم
٣٣ – الامويون والبيزنطيون
مطبعة الانجلو المصرية

فيصل : شكري
٣٤ – (المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجرى) ط٣ دار العلم للملايين – بيروت ١٩٧٣ م.

لويس :برنارد
٣٥ – (العرب في التاريخ)
دار العلم للملايين – بيروت ١٩٥٤ .

ماجد : عبد المنعم
٣٦ – (العصر العباسي الاول) مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٣

مصطفى : شاكر .
٣٧ – (من سيرة الثغور)
مقالة في مجلة كلية الاداب / جامعة الكويت العدد ٢ كانون الاول ١٩٧٥.

ولسن : ريتشارد
٣٨ – (ماركوبولو مغامراته واستكشافاته)
مطبعة السعد / بغداد .

فلهاوزن : يوليوس
٣٩ – (تاريخ الدولة العربية)
ترجمة عبد الهادى ابو ريدة
مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة .

اليوزبكي : توفيق سلطان
٤٠ – (الوزارة ونشأتها وتطورها في الدولة العباسية)
ط١ مطبعة جامعة الموصل – ١٩٧٦ .
٤١ – (دراسات في النظم العربية الاسلامية)
مطبعة جامعة الموصل – ١٩٧٧ م .

Gibban :
43– The Decline and Fall of the Rcman Empire p.95(London 1898).

لتعليم في دمشق في القرن السادس الهجري

الدكتورة
امينة البيطار

تعرضت بلاد الشام سياسياً في هذه الفترة إلى الكثير من الصعوبات . وتقاسمت الحكم فيها قوى متعددة . فقد أسس الفرنج أربع إمارات لهم في الرها ، وأنطاكيه ، وطرابلس ، والقدس . كما بدأ منذ مطلع القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، انحسار السيادة السلجوقية عن بلاد الشام ، وظهور وحدات سياسية صغيرة أطلق عليها اسم الأتابكيات ، وعلى أصحابها اسم الأتابكة . فكانت أتابكية الموصل وصاحبها عماد الدين زنكي ، الذي اتيح لابنه نور الدين ، تأسيس ملك عريض في الشام في النصف الأول من القرن السادس الهجري ، وأتابكية دمشق الذي أسسها طغتكين (١) . على حين ظل الفاطميون يسيطرون على فلسطين وسواحل الشام . وقد ورث الأيوبيون ما كان للزنكيين بعد ذلك . وتكفلت كل من الدولتين الزنكية والأيوبية بمهمة الوقوف في وجه الصليبيين وتوحيد بلاد الشام .

وإذا كان الوضع السياسي في بلاد الشام على هذا الشكل ، فإن الوضع التعليمي لم يكن كذلك . فقد تقدم التعليم في المنطقة على نطاق واسع . وتمثل ذلك بانتشار المدارس المتخصصة ، ودور الحديث ، والخوانق ، والزوايا ، والمساجد، وكلها تحمل مهمة نشر العلم . (٢)

وقد عجب ابن جبير حين زار بلاد الشام سنة ٥٨٠هـ من نهضتها العلمية ، وسرّ لكثرة دور العلم والمساجد فيها ، وفضلها في هذا المجال على بلاد المشرق عامة ، ونصح نشأة المغرب بالتغرب في طلب العلم ، ودخول بلاد الشام للمنهل من علومها ومعارفها ، حيث يجلون الأمور المعينات فيها . كما قرر أن الغرباء من طلبة العلوم فيها لايدخلون تحت حصر (٣) .

وحقيقةُ الأمر أن المدارس تزايد عددها في مدينة دمشق في هذا القرن كثرةً تلفت النظر ، ومما لاشك فيه ، أن وراء ذلك أسباباً قوية أهمها مايلي :

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء الأول ، ط٢ ، ص١١٦

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام ، مطبعة المفيد ١٩٢٨ ، الجزء السادس ، ص ٦٧

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، دار التحرير للطبع والنشر ١٩٦٨ ، ص ٢٠٠

١ - لقد شجع بنوزنكي فكرة تشييد المدارس في الشام لنشر المذهب السني عامة ، والحنفي خاصة (١) . ويتضح ذلك حين نعلم أن نور الدين قال لجماعة من العلماء اجتمع بهم « نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ، ودحض البدع من هذه البلدة ، واظهار الدين. وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق» (٢)

كما شجع الأيوبيون بناء المدارس لنفس الغرض (٣) . فقد كان بناء صلاح الدين للمدارس ، خطة موضوعة لهدم المذهب الشيعي ، وطريقة مرسومة للقضاء على الأفكار التي أتى بها الفاطميون الاسماعيلية (٤) .

٢ - الاهتمام الكبير الذي حظي به العلماء والمدرسون ، فقد وفر لهم نور الدين ، ومن بعده صلاح الدين سبل الرعاية والتشجيع ، كما وفرا لهم الرواتب العالية والمساكن ، حتى يتفرغوا للعلم ونشره (٥) . وفتحا المدارس الكثيرة من أجلهم . وكان يكفي وجود عالم من العلماء في مادة من المواد ، كدافع لبناء مدرسة له ، ليقوم بالتدريس فيها . فقد بنى نور الدين مدرسة لشرف الدين بن أبي عصرون في دمشق ، وفوض إليه التدريس فيها ، وأن يوليها من شاء . وبنى لقطب الدين النيسابوري المدرسة العادلية ولم يتمها (٦) .

٣ - همة كل من نور الدين وصلاح الدين العالية في نشر الأمن ، والوقوف بحزم امام الأعداء ، فوثق الناس بحكامهم في الدفاع عن حياتهم ، وانصرفوا للنهل من العلم . ولنا فيما كتبه ابن شداد أكبر دليل على ذلك . فقد تحدث عن نور الدين فقال : فأما فكره ففي اظهار شعار الاسلام ، وتأسيس قاعدة الدين

---

(١) يذكر ابن كثير : البداية والنهاية ، مكتبة المعارف بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ ، جزء ١٢ ص ٢٧٨ أن نورالدين كان حنفي المذهب وفقيهاً فيه - نعمت اسماعيل علام : فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية ، دار المعارف بمصر ، ص ١٢٦

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، جزء ١ ، ص ١٣

(٣) نعمت اسماعيل علام : المرجع السابق ، ص ١٣٦

(٤) عمر رضا كحالة : دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية ، ص ٩٣

(٥) عبدالغني محمود عبدالعاطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير ، ص ٦٦

(٦) كحالة : المرجع السابق ، ص ٩٩

من بناء المدارس والربط والمساجد ، حتى إن بلادَ الشام كانت خاليةً من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفيه، لصرف همته الى ابناء المدارس والربط ،وترتيبِ أمورهم،والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم (١).

وقد تبع هذه الحركة العلمية النشيطة ، عقد مجالس للعلم ، وتشجيع اقتناء الكتب . وكانت مجالس العام المعقودة في هذا العصر على رأي المؤرخ أبي شامة (٢) مجالسُ حكم وحياء ، لايذكرُ فيها إلا العلمُ والدين ، وأحوال الصالحين والمشاورة في أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو . وكان الحضورُ كأن على رؤوسهم الطير ، تعلوهم الهيبةُ والوقار . أما بيع الكتب فكان يتم بأرخص الأثمان ، وغالباً مايكون في يومين من أيام الاسبوع (٣) .

١ - أركان الحركة العلمية :

يشمل ذلك الحديث عن متسلمي الوظائف العلميه ، كالمدرسين ، والمعيدين ، والطلاب ، ومتسلمي الوظائف الإدارية كالناظر والشاهد والمشارف والصدد . ومتسلمي الوظائف العمليه كالموذن والقيم .

آ- متسلموا الوظائف العلمية :

- المدرسون : يقف المدرسون على رأس هيئة التدريس . وكان يشترط في المدرس العلمُ التام بمادته ، وحسنُ الديانة ، والورعُ والتقى .

كان المدرس في مدرسة من المدارس كأنه جزء منها . يتم تعيينه من قبل واقف المدرسة . ولا يمكن أن يحل فيها مدرس جديد عوضاً عنه ، إلا إذا تنازل المدرس السابق له (٤) . إما كليـــــاً أو جزئياً . كأن يتنازل عن ثلث التدريس أو نصفه مجاناً أو مقابل تعويض (٥) . إلا في أحوال استثنائية .

---

(١) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ، ص ١٤

(٢) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠

(٣) ابوشامه : المصدر السابق جزء ١ ص ٢٦٨

(٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جزء ١ ، ص ٥٣٧

(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٩٥-٢٩٦

نال المدرسون مكانة كبيرة في هذا العصر ، لم يرق إليها غيرهم ، حتى أصحابُ المراكز السياسية والعسكرية ، وأصحابُ النفوذِ المادي . فكان نورُ الدين يقف للعلماء ويمشي بين أيديهم ، ويجلسُهُم إلى جانبه . على حين أنه إذا دخل عليه كبار رجال الدولة يستمرون وقوفاً إلى أن يأمرهم بالجلوس . (١)

وكان رجال العلم يستطيعون توجيه النقد اللاذع للمجالس العلمية التي يعقدها السلطان فقد وجه ابن عساكر النقد لمجلس صلاح الدين وشبهه بمجلس السوقة ، ورفض حضوره ، حتى أمر صلاح الدين أصحابهِ أن لايكون منهم ماجرت به عادتهُم إذا حضرَ الحافظ . (٢)

كما كان العلماءُ سفراءَ الملوك والأمراء إلى الخلفاء وأولي الأمر . وكثيراً ماتوسطوا في فض الخلاف بين الأمراء (٣) .

كان المدرس موسعاً عليه في الرزق لكثرة مايوقف له وباسمه . فقد بلغت وقوف نور الدين سنة ٥٦٨هـ وحدها كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ، تعود للقراء والعلماء فقط (٤) . وكان كثير من المدرسين يأنفون من أخذ مايخصهم من الأوقاف . فقد رفض الحافظ القاسم بن عساكر مدرسُ دار الحديث النورية أن يتناول شيئاً من معلومه ، وجعله لمن يرد عليه من الطلبة (٥).

وتقديراً للمدرس ، وثقة به وبأمانته ؛ فقد كان يسمح له بعدم القاء الدرس إذا لم يكن عنده الاستعدادُ النفسي . فلا يدرّس في وقت جوعه أو عطشه أو همه أو غضبه أو نعاسه أو قلقه ، ولا في حالة برودة الجو الشديدة أو شدة الحر . والغايةُ من ذلك أن لايخطىء . فربما أجاب أو أفتى بغير صواب إذا لم يكن مرتاحاً جسدياً ونفسياً وعقلياً (٦) .

---

(١) ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ،ص ١٠ -ابن كثير : المصدر السابق،جزء ١٢ ،ص ٢٨١

(٢) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠

(٣) ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٢٧

(٤) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠

(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٣

(٦) ابن جماعة : تذكرة السامع ، ص ١٨٧

كان العلماء والفقهاء يرتدون زياً معيناً لتمييزهم من باقي الناس. وقد حافظوا في زيهم على الحشمة والاعتدال . وغالباً ما وضعوا العمائم على رؤوسهم حتى عرفوا بالمتعممة ، وجعلوا أكمام جبابهم عريضة .

ولما زادوا في توسيعها، طولبوا بالحفاظ على مظهرهم وحسن هيئتهم من غير تكبر ولا خيلاء (١) . كما اتخذ المدرسون إلا أقلهم ألقاباً دينية كتلك التي كان يتخذها الخلفاء والوزراء وغيرهم . وكان اللقب يدل على مكانة المدرس العلمية . ويري القلقشندي (٢) أنه كان لغالب الأسماء ألقاب لايتعدونها. ثم ترك أعيانهم ذلك لابتذاله بكثرة الاستعمال ، وعدلوا إلى ألقاب غيرها . ومن هذه الألقاب لقب الإمام ، والحافظ الكبير ، والحافظ ، وشيخ الإسلام، وحجة الإسلام ، وأوحد العلماء ، والمدقق والمحقق ، وإمام المتكلمين ، والعابد، والقطب ، والمربي ، والصالح ، وأمير المؤمنين وغيرها (٣) .

كان المدرس على الرغم من علو كعبه بالعلم يعمل على حضور المشيخات مستمعاً إلى دروس غيره . فقد كان فخر الدين بن عساكر يحضر مشيخة دار الحديث النورية ، ومشهد ابن عروة في أول افتتاحه. (٤) كما كان زكي الدين البرزالي يدرس بالعروية ولم يفتر عن السماع (٥) . وذلك أشبه باستمرار الاطلاع على العلوم الجديدة والكتب المؤلفة من قبل العلماء في عصرنا الحالي .

درج المدرسون على منح طلابهم الاجازات . والاجازات هذه على نوعين،

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الأنشاء ، طبعة دار المعارف ، جزء ٤ ، ص ٤١ – ٤٢

(٢) المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٤٨٩

(٣) انظر من أجل الألقاب : النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٠ – ١٠٢ – ١٠٤ – ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٠٧ – القلقشندي: المصدر السابق، جزء ٦ ، ص ١٢ – ١٧ – ١٨ – ٢٢ – ٢٤ – ٢٦ – ٢٧ – ٣٨ – ٣٩ – ٥٢ – ٥٧ – ٥٨ – ٦٣ وص ٦٧ – عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٢٦٩

(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٣

(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٦

إجازة أدبية فخرية تشبه الشهادة الفخرية التي تعطى في عصرنا الحالي، وتعطى هذه الإجازة لمن يتوسم فيهم الخير وهم صغار في السن ، وحتى للرضع منهم. وإجازة علمية بكل مافي هذه الكلمة من معنى ، وهي موضع البحث في هذا المقال ، وهي التي تعطي للطالب والمدرس المرتبة العلمية العالية . فطالب العلم لايعتبر قد وصل إلى المرتبة اللائقة إلا إذا حصل على الإجازة. وهذه الإجازة تعطى من قبل استاذه المشرف،سواء بالتدريس أو الفتيا أوعراضة الكتب(١). ينالها الطالب بعد أن يشعر أستاذه بمقدرته وكفاءته . وبعد أن يعرضه لأسئلة متعددة ومتنوعة في كتاب بعينه ، أو في الفقه عامة ، وفي الحديث وغير ذلك أمام جمهور الناس مناقشة علنية تشبه احتفالا خاصاً يجتمع فيه أهل الفضل والعلم(٢). فإذا استطاع الطالب الإجابة على كل الأسئلة التي تطرح عليه ينال الإجازة من المدرس لامن المدرسة . يكتبها له الأستاذ ويوقعها لكي لاتزور الإجازات . ولا يكتفي الطالب بإجازة واحدة ، وكلما زاد عدد إجازاته زادت مكانته العلميـــة (٣) .

هذا ويمكن اعطاء إجازة بدون سماع الطالب مباشرة من الأستاذ . فقد يكون السماع عن طريق نقلة . فقد أجاز الحسين بن حميد بن عبد الصمد التميمي المتوفى سنة ٥٣١ هـ ابن عساكر بجميع حديثه ، ولم يسمع الحافظ منه مباشرة، بل سمع عن طريق بعض أصحابه (٤) .

نالت المرأة حظاً في العمل التعليمي وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في مدارس ولعبت بعض النساء دوراً لايقل أهمية عما قام به الكثير من العلماء والفقهاء.

---

(١) عراضة الكتب : أن يحفظ الطالب كتاباً في علم من العلوم ، ثم يعرضه على مدرسه فيختبره فيه في عدة أماكن . فاذا أحسن الإجابة ولم يخطىء فيه كتب له الإجازة في ذلك . انظر عمر موسى باشا : الأدب في بلاد الشام ، ط ٢ ، ص ١١٩

(٢) عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٢٦٥

(٣) النعيمي : المصدر السابق جزء ١ ، ص ١٠٢ ، ص٢٨٢ – ٢٨٣

(٤) بدران (عبدالقادر) : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، جزء ٤ ، ص ٢٨٤

وتتلمذ على أيديهن الكثير من الطلبة . فقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر أن جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة (١) .
وقد تزاحم الطلبة عليهن لما اشتهر عن بعضهن من الفطنة والذوق ، وصبرهن على القيام بوظيفة التدريس (٢) .

وتمدنا المصادر بأسماء الكثيرات من النساء النابغات في العلم ، واللواتي قدمن العلوم للكثير من الطلبة . والسؤال الذي يطرح هو أين كانت النساء تتعلم وتعلم؟ وهل كان هناك مدارس مخصصة للنساء ؟ . وهنا نجد لسؤالنا جوابين مختلفين قدمتهما لنا المصادر . يرى البعض أن الفتاة كانت تتلقى علومها في منزلها . وأن أهل الفتاة هم الذين كانوا يلقنونها العلوم إلى أن تصل إلى درجة معينة ثم تتلقى العلم على من يحضره لها أهلها من المدرسين . لذلك فإننا نقرأ أن فلانة حفظها أو أسمعها أبوها أو جدها أو عمها . حتى إذا سمعت عن شخص آخر يكون ذلك بقراءة أحد أقاربها . ويفهم من ذلك أن الفتاة تتعلم بواسطة أهلها وتعلم كذلك (٣) . وإذا صدق هذا القول في بعض المجالات . فلا يمكن أن ينطبق على كل الحالات . وذلك لأن بعض النساء تلقين تعليمهن على يد كثير من المشايخ في الشام . بل ورحلن في طلبه ، وجاورن . كما أن بعض المدرسين تخصصوا في تعليم النساء (٤) . وبالتالي فإن بعض النساء وصلن إلى مرحلة علمية متقدمة . وقد حصلت النساء على الإجازة . فقد أجيزت تاج العرب بنت غيلان من شرف الدين ابن فلوس سنة ٦٣٠هـ ، وروت عنه (٥) .
لقدبرزت أسر علمية في دمشق في هذا القرن ، وتسلمت هذه الأسر تقريباً التدريس في مدارس المدينة . فقد كان ينبغ عدد من أفراد الأسرة في علم بعينه ، او في علوم مختلفة . فكان بنو عساكر شيوخ الشافعية في

(١) محمد كرد علي : المرجع السابق ، جزء ٦ ، ص ٧٥
(٢) السخاوي: الضوء اللامع ، جزء ١٢ ، ص ٥٢
(٣) انظر ابن حجر : الدرر الكامنه ، جزء ٢ ، ص ٢٣٧ – السخاوي : الضوء اللامع ، جزء ١٢ ، ص ٤٥ و ص ١٣١ وص ٥٦ و ص ١٥٧
(٤) السخاوي : المصدر السابق ، جزء ١٢ ،ص١٢٤
(٥) النعيمي : الدارس ، جزء ١ ، ص ٥٤١

علم الحديث . (١) ونبغ بنو جهبل في الفقه خاصة (٢) كما نبغ عدد من العلماء من آل عصرون في الفقه والحديث ، فكان منهم محيي الدين محمد بن عبدالله بن محمد ، وشهاب الدين بن عبد السلام بن المطهر ، وقطب الدين أحمد بن عبد السلام ، وشرف الدين عثمان بن محمد ، ومحيي الدين عمر بن محمد (٣) . وكذلك آل الدولعي ، فكان منهم ضياء الدين الدولعي وجمال الدين الدولعي (٤) ، وآل الحرستاني مثل الكمال بن الحرستاني وغيره . كما كان ملوك الدولة النورية والصلاحية في غالبيتهم من العلماء فنور الدين زنكي ، وكذلك صلاح الدين ، والملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه من العلماء ، والملك العزيز وغيرهم .

شهاأر علماء هذا العصر في دمشق بو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) (٥) والقاضي المرتضى عبدالله بن القاسم الشهرزوري والد القاضي جمال الدين (ت ٥١١ هـ) (٦) . وجمال الاسلام ابن المسلم (ت ٥٣٣هـ) (٧) . وشرف الاسلام عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازي ثم الدمشقي الحنبلي (ت ٥٣٦هـ) (٨) أبو الفتح المصيصي نصر الله محمد بن عبد القوي (ت ٥٤٢ هـ) (٩) وجمال الدين شيخ المالكية (ت ٥٤٣ هـ) (١٠) وبهاء الدين الشيرازي وعبد الملك بن عبد الوهاب (ت ٥٤٥هـ) (١١) والشيخ الحسن بن مسماح

---

(١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٥

(٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٠

(٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٠٥ — ٤٠٦

(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤١٩

(٥) ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ١٧٥

(٦) ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ١٨١

(٧) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٠ — ١٨١

(٨) المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٦٥ — ٦٦

(٩) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٧

(١٠) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٠

(١١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٦٧

الهلالي الحنبلي (ت ٥٤٦هـ) وبرهان الدين علي بن الحسن البلخي (ت ٥٤٨هـ) (١) والشيخ أبو البيان بنا بن محمد المعروف بابن الحور اني (ت ٥٥١هـ)(٢) وابراهيم بن حمزة الجرجراني (ت ٥٥٩هـ) (٣) وابراهيم بن محمد الموصلي (ت ٥٦٠هـ) (٤) . وعبد الكريم بن محمد الحرستاني (ت ٥٦١هـ) (٥) . وأبو البركات بن عبد الحارثي الدمشقي (ت ٥٦٢هـ) (٦) وجمال الأئمة علي بن الحسن بن المانح (ت ٥٦٢هـ) (٧) . والصائن بن عساكر (ت ٥٦٣ هـ) (٨) . وزكي الدين أبو الحسن علي القرشي (ت ٥٦٤هـ) (٩) وأبو بكر محمد بن علي بن المسلم (ت٥٦٤هـ)(١٠) وأبو محمد عبد الخالق بن أسد الدمشقي الحلبي (ت ٥٦٤هـ) (١١) . وأبو المظفر بن الحكيم محمد أسعد (ت ٥٦٧هـ) (١٢) وابو المجد بن أبي الحكم محمد بن عبيدالله (ت ٥٧٠هـ) (١٣) . وأبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر (ت ٥٧١هـ) (١٤) وابو المظفر ابن عساكر عبدالله بن محمد (ت ٥٧١هـ) (١٥) والقاضي كمال

---

(١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٨١ – ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ،
(٢) ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٢٣٥
(٣) عبدالقادر بدران : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٦
(٤) عبدالقادر بدران : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٦٠ – ١٦١
(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٣
(٦) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٣
(٧) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤
(٨) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤١٦ – ٤١٨
(٩) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٥٣
(١٠) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٢
(١١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٣٧ – ٥٣٨
(١٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٣٩
(١٣) النعيمي : المصدر السابق ، بجزء ٢ ، ص ١٣٧ –كرد علي : المرجع السابق ، جزء٦ ،
(١٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٣
(١٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢١

الدين بن محمد بن عبدالله الشهرزوري (ت ٥٧٢هـ) (١) وقطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري (ت ٥٧٨هـ) (٢) . وسديد الدين الشيرازي (ت بعد ٥٨٠هـ)(٣). وأبو محمد البجلي ابن الشاعر عبدالله بن محمد (ت ٥٨٤هـ)(٤) والقاضي عبد الله بن محمد شرف الدين بن عصرون (ت ٥٨٥هـ) (٥). ونجم الدين بن عبد الوهاب الشيرازي (ت ٥٨٦ هـ) (٦).

وعز الدين الشيرازي (ت ٥٨٦هـ) . وعبد الرحمن بن علي الملحي (ت ٥٨٧هـ)(٧). وتقي الدين عمر بن شاهنشاه الملك المظفر (ت ٥٨٧هـ) (٨) . وأبو النصر محمد بن علي الطوسي (ت ٥٩١هـ) (٩) . والمجير محمود بن المبارك الواسطي (ت ٥٩٢هـ) (١٠) . ومجد الدين أبو محمد طاهر بن نصر الله بن جهبل (ت ٥٩٦هـ)(١١) . وعماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب (ت ٥٩٧هـ) (١٢). وضياء الدين عبد الملك بن زيد الدولعي (ت ٥٩٨هـ) (١٣) . وضياء الدين الشهرزوري (١٤) . وبرهان الدين مسعود بن الموفق (ت ٥٩٩هـ) (١٥) . وزين

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٢٤٢
(٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٤
(٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٦٩
(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٧٣
(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٠٠ - ٤٠١
(٦) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٦٨
(٧) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٤
(٨) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢١٨ - ٢١٩
(٩) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤١٥ - ٤١٦
(١٠) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧
(١١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٠
(١٢) ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٢٥٣
(١٣) ابو شامة : ذيل تاريخ الروضتين ، ص ٣١
(١٤) ابو شامة : المصدر السابق ، ص ٣٥
(١٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ٥١٣ - ٥١٤

الدين بن نجا المعروف بابن نجيه (ت ٥٩٩هـ) (١) . والحافظ القاسم بن عساكر بن الحافظ الكبير (ت ٦٠٠هـ) (٢) .

وهناك من علماء ومدرسي مدينة دمشق ، من توفي في القرن السابع الهجري ولكنهم علموا وأثروا على الحركة العلمية في دمشق في القرن السادس الهجري. ومن هؤلاء : ضياء الدين علي بن عقيل (ت ٦٠١هـ) (٣) . وشرف الدين علي بن أبي بكر السلمي حفيد جمال الاسلام (ت ٦٠٢هـ) (٤) . وتقي الدين عيسى بن يوسف العراقي الضرير (ت ٦٠٢هـ) (٥) . وشمس الدين محمد بن معن بن سلطان(ت ٦٠٤هـ) (٦) .ووجيه الدين أسعد بن المنجا بن بركات(ت٦٠٦هـ)(٧) وأبو عمر محمد بن أحمد المقدسي الحنبلي (ت٦٠٧هـ) ومهذب (٨) الدين الموصلي (ت ٦١٠هـ) . والحافظ الرهاوي (ت ٦١٢هـ) (٩) . وصائن الدين عبد الواحد بن اسماعيل الدمياطي (ت ٦١٣هـ) (١٠) . وتاج الدين الكندي زيد بن الحسن البغدادي (ت ٦١٣هـ) (١١) . وقاضي القضاة أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن الحرستاني (ت ٦١٤هـ) (١٢) . والقاضي شرف الدين أبو بكر عبد الله بن عبد الرحمن بن زكي القرشي الدمشقي (ت ٦١٥هـ) (١٣) . وعمر بن العزيز العز القرشي (ت ٦١٥هـ) (١٤) . وشهاب الدين الشيرازي عبد الكريم بن

(١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٧٧
(٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠١ – ١٠٣
(٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٤
(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٢
(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٥
(٦) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٤٣
(٧) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١١٤ – ١١٥
(٨) النعيمي : المصدر السابق ، جزءم ، ص ١٠٠ – ١٠١
(٩) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨
(١٠) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٤ – ١٨٥
(١١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٨٥
(١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٩١ – ٣٩٢
(١٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٦٧
(١٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٤

الفقيه نجم الدين (ت ٦١٩هـ) (١) . والفخر عبد الرحمن بن محمد بن عساكر (ت ٦٢٠هـ) (٢) . وجمال الدين يونس بن بدران المصري (ت ٦٢٣هـ) (٣) . والكمال عبد الجبار بن عبد الغني الحرستاني (ت ٦٢٤هـ) (٤) . وزين الأمناء أبو البركات الحسن بن محمد بن عساكر (ت ٦٢٧هـ) (٥) . ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي البياني الدخوار (ت ٦٢٨هـ) (٦) . والحافظ جمال الدين عبد الله بن عبد الغني المقدسي (ت ٦٢٩هـ) (٧) . وفخر الدين أبو بكر محمد بن عبد الوهاب الشيرجي (ت ٦٢٩هـ) (٨) . وسيف الدين علي بن علي الأمدي الحنبلي ثم الشافعي (ت ٦٣١هـ) (٩) . وناصح الدين الشيرازي (ت ٦٣٤هـ) (١٠). وشمس الدين بن سني الدولة (ت٦٣٥هـ) . وجمال الدين محمد بن أبي الفضل الدولعي (ت٦٣٥) (١١) وشمس الدين محمدابن هبه الله من محمد الشيرازى (ت٦٣٥) (١٢) وجمال الدين محمود بن احمد الحصيرى (ت ٦٣٦هـ) (١٣) .والرشيد محمد بن ابي بكر الحنفي النيسابورى (ت٦٣٧هـ)(١٤) وشمس الدين عمر بن أسعد بن المنجا الحنبلي (٥٥٧ — ٦٤١هـ) (١٥) . وضياء

---

(١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٧١ — ٧٢
(٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٤
(٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٦ — ١٨٨
(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٧
(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٤ — ١٠٥
(٦) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٢٧
(٧) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٧ — ٤٨
(٨) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٩٩
(٩) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٩٣
(١٠) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٧٠
(١١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٤٣
(١٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣
(١٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦١٩
(١٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٨٨ — ٥٩٠
(١٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١١٧

الدين محمد بن عبدالواحد المقدسي الحنبلي الحافظ (٥٦٧ ـ ٦٤٣هـ) (١) . وعلم الدين السخاوى ابو الفتح علي بن محمد (٥٥٩ ـ ٦٤٣هـ)(٢) . وتقي الدين بن الصلاح عثمان بن الشيخ الامام البارع صلاح الدين (٥٧٧ ـ ٦٤٣هـ(٣) والتقي اليلداني ، تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم (٥٦٨ ـ ٦٥٥هـ) (٤) وعماد الدين بن الحرستاني أبو الفضائل عبد الكريم بن جمال الدين (٥٧٧ ـ ٦٦٢هـ) (٥) .

ـ **المعيدون :** يعتبر المعيد من اعضاء الهيئة التدريسية ، ويختلف هذا المنصب التعليمي اختلافاً كلياً عن نقيب الطلبة الذي يعتبر من جملة الطلبة (٦) . كما يعتبر المعيد المدرس الثاني للطالب . يعيد الدرس على الطلاب ، ويتوقف لشرح النقاط او المشاكل التي لم يتم فهمها من الاستاذ . ربما لضيق الوقت او للاحترام الشديد من الطلبة لاستاذهم ، والذي يمنعهم في كثير من الاحيان من طلب إعادة الشرح اكثر من مرة ليفهموه ويحسنوه (٧). كما يقرأ النص الذى يعينه الاستاذ للطلاب ويشرحه ، فيهيىء الاذهان لفهم الدرس ، ويراجع الطلاب فيما طلب منهم حفظه او بحثه (٨) . ويكون اشتراك المعيد في التدريس مع استاذه بداية لترقية إلى رتبة مدرس (٩) .

كان المجال مفسوحاً أمام المعيد لينتقل إلى مرتبة مدرس . ولابد له من أجل ذلك من أن يرحل في طلب العلم، على الرغم مما يعانيه من مشاق السفر.

(١) النعيمي : المصدر ، جزء ٢ ، ص ٩١ـ ٩٤
(٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢
(٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠ ـ ٢١
(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٣
(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢ ـ ٢٣
(٦) عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٢٢٥
(٧) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٤٦٤
(٧) عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٢٢٥
(٩) كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠١

ولكنه لايبخل على علمه بكل ما يملك من طاقة وجهد ومال . وهو لايبغي من هذا السفر الا الاتصال بالعلماء أمثاله ، عسى ان يجد جديدا عندهم فيتعلمه . وكان في كل بلد يدخله يسمع من علمائـه ، ثم يعود فيروي عنهم. فقد تنقل عبد الكريم الحرستاني لتلقي العلم من دمشق إلى بغداد إلى خراسان وغيرها (١)، والامثلة على ذلك كثيرة ومتعددة .

وبعد الرحلة العلمية ، غالباً مايصبح المعيد مدرساً . فقد يتولى التدريس بعد أستاذه في نفس المدرسة التي درس بها ، وذلك بعد ان يترك أستاذه التدريس ، إما لكبر سنه ، او بسبب وفاته ، او لاسباب أخرى . وقد ينتقل المعيد من مدرسة كان معيدا فيها ليتسلم التدريس في مدرسة أخرى ، قد تكون في نفس المدينة التي كان فيها. أو ينتقل إلى مدينة أخرى للتدريس في مدارسها . فقد كان المجير الوسطي البغدادي (٥١٧ ـ ٥٩٢هـ) معيداً في شبيبته للامام أبي النجيب السهروردى في بغداد ، ثم سار إلى دمشق فدرس بالمدرسة التي بنيت لـه وهي المدرسة الجاروخية . ثم عاد إلى بغداد للتدريس في النظامية (٢) .

وقد يكون المعيد في مدرسة ، مدرساً في مدرسة أخرى بنفس الوقت . فقد كان جمال الائمة علي بن الحسن بن المانح (٤٨٨ ـ ٥٦٢هـ) معيدا لجمال الاسلام بالأمينية ومدرساً بالمجاهدية ، إضافة إلى حلقة كبيرة كانت له بالجامع الاموى ، يقرىء بها القرآن والامثلة على ذلك كثيرة(٣).

كان للمدرس معيدا أو أكثر . وممن أعاد في المدرسة النورية الكبرى شرف الدين أرسلان المتوفى سنة ٦٣٩هـ.كان يعيد للامام برهان الدين مسعود(٤) وقد أعاد بالمدرسة الرواحية كمال الدين أبو أبراهيم ، واسحق بن أحمد بن عثمان المغربي ، وابن الصلاح الذى اعاد فيها اكثر من عشرين سنة .

---

(١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٣

(٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦

(٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٣

(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٢٠

وتاج الدين بن الحباب (١). كما أعاد عبدالكريم الحرستاني (٥١٧ — ٥٦١هـ) بالمدرسة الامينية عن أبن أبي عصرون . وقد ذكر الكتبي ان بن أبي عصرون استنا به بالزاوية الغربية بجامع دمشق ، وضم اليه المدرسة الامينية (٢) كما أعاد عبدالرحمن الملحي الفقية(٤٩٩—٥٨٧هـ)بالأمينية عن جمال الاسلام(٣).

وكان هؤلاء المعيدون على درجة علمية عالية . فقد أفاد بعضهم الطلبة كثيرا ، وأخذ عنهم جماعة . فممن قرأ على ابن الصلاح محي الدين النواوى . وقال عنه في اوائل تهذيب الاسماء واللغات ، أول شيوخي الامام المتفق على علمه وزهده وورعه وكثرة عبادته ، وعظيم فضله ، وتمييزه في ذلك على اشكاله (٤). كما سمع بعضهم عن كثيرين . فقد سمع المعيد عبدالكريم الحرستاني من جمال الاسلام السلمي ، وأبي الحسين بن قبيس، ورحل فسمع ببغداد ، ودرس على أبي منصور بن الرزاز شيخ الشافعية ، ومدرس النظامية في ذلك الوقت . وسمع بخراسان دروس محمد بن يحيى النيسابورى ، وكان جمال الائمة بن المانح معيدا بالامينية ، ومدرساً بالمجاهدية وقرأ على أبي الوحش وغيره ، وتفقه على استاذه جمال الاسلام السلمي، ونصرالله المصيصي . وروى عنه كثيرون ، منهم أبو المواهب ، وأبو القاسم بن صصرى وجماعة . وكانت له فوق ذلك حلقة كبيرة في الجامع الاموي يقرأ فيها القرآن والفقه والنحو (٥). وسمع المعيد عبدالرحمن الملحي من عدد كبير من العلماء ، على رأسهم أبو الحسن الموازيني ، وعلي بن احمد بن بشر ، وأبو الحسن بن السلمي الفقية ، وطاهر بن سهل الاسفراييني ، ونصر الله المصيصي الفقية وجماعة ، كما روى عنه كثيرون (٦).

---

(١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٦٨
(٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٣
(٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٤
(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٦٨
(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٣
(٦) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٤

— **الطلاب** : يطلق البعض على الطلبة اسم فقهاء المدارس . ولم يكن يشترط سن معينة لقبول الطالب بالمدرسة ، ولكن بعض الواقفين وضعوا شروطاً فحواها أن تتوفر في طلبة مدارسهم قابلية التعليم واتصافهم بالفطنة والذكاء (١) . كما كان من الواجب قسم الطلبة إلى فرقتين ، فرقة المبتدئين ، وفرقة المنتهين (٢) .

وكان هذا التقسيم بحسب مستويات الطلبة ضرورياً لحسن سير العملية التعليميه ، وذلك لأن مدة الدراسة في المدرسة لم تكن محدودة بزمن معين . وكان عدم تقسيم الطلبة إلى فرق علمية يؤدي إلى كسل الطلبة الذين قاربوا على الانتهاء ، والذين اتخذ بعضهم من طلب العلم وسيلة للعيش والارتزاق (٣).

وينصح الطالب بأمور كثيرة منها :

— تجنب كثرة الأكل والشرب لأنه يؤدي إلى الخمول والبلادة وقصور الذهن ، وان يقلل استعمال المأكولات التي تؤدي إلى الخمول (٤) .

— إذا بدأ الطالب في كتابة شيء من العلوم الشرعية ، فعليه أن يكون على طهارة كاملة ، وأن يراعي الآداب المتعارف عليها عند كتابة اسم الله واسم الرسول . وأن يتجنب الكتابة الدقيقة ، وأن يكون القلم الذي يكتب فيه متوسطاً ، فلا يكون صلباً ولا رخواً . وبعد الانتهاء من الكتابة عليه أن يراجع ماكتبه على الأصل الذي نقل منه ، وتصحيحه وضبطه عليه .

— إذا استعار أحد الطلبة كتاباً من زميل له ، فعليه أن يفحصه جيداً عند استلامه منه ، وكذلك عند رده إليه ، وألا يطيل مقام الكتاب عنده ، ويرد إلى صاحبه إذا طلبه منه أو بمجرد انتهائه من مطالعته . وأن يحافظ على الكتاب ولا ينسخ منه ولا يكتب شيئاً منه أو يعيره إلى غيره . ولا يصلح الكتاب إذا كان في حاجة إلى ذلك إلا بعد موافقة صاحبه (٥) .

---

(١) السبكي : المصدر السابق ، ص ١٠٥ – ١٠٧

(٢) عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٢٣٧

(٣) عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٢٣٧

(٤) عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٢٤٢

(٥) عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٢٤٢

كانت مراقبة الدوام والمواظبة على الحضور هامة جداً ليتأكد الأستاذ من أن طلابه حضروا وسمعوا كل مادرس لهم . ولضبط ذلك بشكل دقيق ، كان هناك موظف مختص يعتبر من موظفي الإدارة يعرف بأسم كاتب الغيبة ، يسجل اسم من يتخلف عن الحضور ، ويرفعه إلى الناظر أو نائبه ، فيخصم عليه من راتبه بمقدار ماتخلف إن رأى مصلحة بذلك . كما يكتب أسم الباب الذي فاته ، ليطالب بأسئلة منه عند قراءة الكتاب (١).

كان الطالب يقرأ في السنة أشهراً مخصوصة ، يداوم فيها في المدرسة ، ولا ينال الإجازة في التدريس والخطابة والإمامة ، إلا من ثبتت لمشايخه كفاءته ، وكان على استعداد لأن يزداد علماً . وغالباً ماتكون إجازات الطلاب بسموعات مشايخهم ومروياتهم (٢) .

وهناك نظم للعلاقة بين الأستاذ والطالب تدل على مدى احترام الفريق الثاني للأول وتبجيلهم (٣) . وكان طلاب العلم في كل مدرسة من المدارس يأخذون مرتبات مخصصة تكون على الغالب من الوقف المخصص للمدرسة . وقد يتأثر هذا المرتب إذا كان الوقف زراعياً ، بأحوال المواسم العامة ، وقد يقل المرتب لدرجة أن الطلاب الذين يعتمدون في إعاشتهم عليه ، يضطرون إلى ترك المدرسة في أثناء الجائحات . وقد ذكر لنا النعيمي شيئاً من هذا حين تحدث عن المدرسة الشرقية البرانية، فذكر أن الحضور في بعض السنوات كان قليلاً بسبب قلة الجوامك في المدرسة بسبب الإجاحات (٤) .

هذا ولكي يصل الطالب إلى مرحلة متقدمة في العلم ، كان عليه أن لايأخذ من مشاهير بلده فقط . بل كان إذا فرغ منهم أو سمع عن شيخ يفوقهم شهرة في

---

(١) كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠٠-١٠١

(٢) كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠٠

(٣) انظر عن ذلك ابن جماعة تذكرة السامع ، ص ٢١٤ وص ٢٣١ - الزرنوجي : تعليم المتعلم ص ١١-١٥

(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٩٠

بلد آخر سافر اليه ، وهو ماتعارف عليه العلماء بالرحلة في طلب العلم (١)

كان الطالب يتدرج في مراحل تعلمه حتى يصبح فقيهاً منتهياً ، ويختص بعلم من العلوم التي يؤثرها ، فينال بها إجازته العلمية . قد تكون هذه الإجازة بالتدريس والفتيا . والطالب الذي يسمح له بالفتوى يجب أن يكون على درجة علمية عالية . ولذلك فانه يؤذن بالافتاء إلى نبغاء الطلاب (٢).

ب — متسلمو الوظائف الإدارية والعملية

الوظائف الادارية .

الناظر : كان للمدرسة ناظر ينظر في اوقافها وفي أمور المدرسة عامة. ويعتبر الناظر بمنزلة مدير عام للمدرسة. فهو الذي يباشر شؤون المدرسة ويؤجر عقاراتها ، يشتري لها لوازمها ، ويعمر ويرمم ويصرف للموظفين رواتبهم ويخصم من المتخلفين مقدار ماتخلفوا ، ويزيد لهم في رواتبهم إن زادت الغلة ، وينزل لهم فيها إن قلت (٣) . وكان يشترط فيمن يتولى وظيفة النظر على الأوقاف أن يتمتع بالكثير من الصفات الخلقية كالأمانة والكفاية والعدالة وغير ذلك من الشروط (٤) . وكان يجمع في الغالب للمدرس وظيفة النظر في اوقاف المدرسة (٥) . فقد درس جمال الدين بن سيما المعروف بجمال الاسلام بالمدرسة الأمينية ، كما نظر في أوقافها ، لأن النظر من جهة الواقف مسند إليه (٦) . وقد يكون للناظر نائب أو وكيل ،يعينه الناظر ممن يثق بهم ويراهم أهلاً لذلك (٧) .

— **الشاهد** : ويلحق بالناظر وظيفة شاهد . وكان في المدرسة شاهد أو أكثر ، وذلك بحسب مانص عليه الواقف . ويعتبر الشاهد كالمراقب للناظر أو نائبه ،

---

(١) عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٢٦٢
(٢) كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠١—١٠٢
(٣) كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠١
(٤) عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ١٥٩
(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٩ -كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠١
(٦) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٩
(٧) كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠١

فإذا باع أو اشترى أو أجر أو أعطى شيئاً لأحد يكون ذلك بحضوره ، ويضع شهادته على الصكوك والعقود (١) .

– **المشارف** : هو المشرف على أمور المدرسة كالنظافة والخدمة وغيرها(٢).

– **الصدر** : هو الذي يجلب للمدرسة الكثير من أهل الطلب والعلم . وهو أشبه بمدير المدرسة . وليس من الضروري أن يكون لكل مدرسة صدرها ، لأنه إذا أمكن أن تستغني المدرسة عن مدرس وتكتفي بالمعيدين بها ، فالأولى أن تكتفي بالمدرس ، وتنتظر الفرصة التي تتيح لها فرصة تعيين صدر (٣).

– **الوظائف العمليـة** :

كان للمدرسة مؤذن وقيم : يقوم المؤذن بالآذان في المدرسة وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بالأمور الدينية ، كالإمامة والخطابة وقراءة القرآن ونظر خزائن الكتب (٤) . وكان لهؤلاء مخصصات من الوقف أيضاً .
وقد ترك لنا النعيمي في حديثه عن وقف المدرسة الشامية الجوانية ، مايعتبر أفضل وأقرب مثال لمرتب المدرس في دمشق في هذه الحقبة التاريخية ، وعن كيفية صرف الوقف على الوجوه المختلفة . وشرط صاحب الوقف أن يكون هؤلاء من أهل الخير والدين والصلاح والعفاف وحسن الطريقة ، وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعـة (٥) .

٢ – أنواع العلوم التي تدرس : ثقافة العصر العامة .

أبرز سمات الثقافة في هذا العصر ، الاهتمام بالثقافة الدينية من علوم القرآن الكريم والحديث الشريف ، والفقه الاسلامي . وهناك إلى جانب العلوم الدينية

---

(١) كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠١

(٢) كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠١

(٣) كحالة : المرجع السابق ، ص ٩٥

(٤) كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠٠

(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٠٢–٣٠٣

العلوم اللغوية أو علوم اللغة العربية ؛ والعلوم التاريخية والاجتماعية ، وعلم الطب ، وعلوم أخرى متفرقة :

كان علماء الحديث في دمشق على الغالب ، يدرسون كتب الحديث المصنفة المشهورة كصحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، والسنن لأبي داود والترمذي والنسائي ، ومسند أحمد وغيرها (١) . ومن أجلّ من اشتغل بعلم الحديث هذه الفترة ، الحافظ ابن عساكر ؛ وتقي الدين عثمان بن الصلاح ، وشرف الدين عبد الله بن أبي عصرون (٢) .

أما الفقه ،فكان يغلب على التدريس في دمشق فقه الإمام الشافعي ، وبدرجة أقل فقه الإمام أبي حنيفة.ويندر التدريس بالفقه المالكي والحنبلي. وإذا استعرضنا كتاب النعيمي (٣) لوجدنا أكثره من المدارس الشافعية ، وأقل منها مداس الحنفية . حتى إن معظم مدارس الحنفية مشتركة بينها وبين الشافعية . وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة ابن موسى محمد بن عبد الله اللامشي الحنفي المتوفى سنة ٥٠٦هـ ، أنه كان قد عزم على نصب إمام حنفي بالجامع ، فامتنع أهل دمشق من الصلاة خلفه ، وصلوا جميعاً في دار الخيل (٤) .

ويبدو أن اللامشي هذا الذي ولي قضاء دمشق كان يتعصب لمذهب الإمام أبي حنيفة تعصباً أعمى ، يعمل على فرضه قسراً على سكان دمشق،على حين أن غالبية أهالي دمشق من الشافعية . وهذا ماأدى إلى صلابة موقف أهالي دمشق. ومن أقوال اللامشي التي تدل على تعصبه لمذهبه ، لو كانت لي الولاية ، لأخذت من أصحاب الشافعي الجزية .

---

(١) القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٧١

(٢) عمر موسى باشا : المرجع السابق ، ص ١٢٨

(٣) الدارس في تاريخ المدارس .

(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٨

كما كان مبغضا لأصحاب مالك أيضا (١) . ولم يحدث مثل هذا أيام حكم نور الدين على الرغم من انه كان حنفياً فقهياً في المذهب (٢) .

ومن مشاهير العلماء الأئمة المجتهدين قطب الدين مسعود النيسابوري المتوفى سنة ٥٧٨ ﻫ وعز الدين بن عبد السلام . ومنهم تلميذ الغزالي علي بن مسلم المتوفى سنة ٥٣٣ ﻫ ، والشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢ ﻫ ، وموفق الدين بن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠ ﻫ (٣).

أما الأدب فهو من المواد التي تساعد على فهم الدين ، وتكوين ذوق سليم. ولذلك فأن أكثر العلماء في هذا العصر كان لهم المام به (٤) ومن نحاة هذا القرن ومدرسي المادة في دمشق أبو نزار حسن بن نزار المتوفى سنة ٥٦٨ﻫ، وتاج الدين زيد بن الحسن الكندي المتوفى سنة ٦١٣ ﻫ (٥) .

وحظي التاريخ بعناية الكثيرين ، ودرس في المسجد الأموي ، وفي أماكن أخرى متعددة . فقد كان أبو شامة يقرىء التاريخ درساً عاماً في الجامع الأموي في دمشق(٦).ومن أشهر مؤرخي هذا العصر إلى جانب ابي شامة ابن أبي طي والعماد الكاتب ، وابن شداد وا بن الاثير والحافظ الكبير ابن عساكر . (٧)

كانت الحاجة ماسة إلى الطب وكان في دمشق في القرن السادس الهجري بيمارستانان قديم وحديث . والغالب ان الحديث هو البيمارستان النوري . وكان موقوفاً على الفقراء وا لمساكين ، بما في ذلك العلاج والدواء . ومع ذلك فان الأدوية التي يعز وجودها لاتمنع عن غيرهم . ومن جاء اليه فلا يمنع من شرابه . (٨)

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ١٧٥

(٢) ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٢٧٨

(٣) عمر موسى باشا : المرجع السابق ، ص ١٣١ – ١٣٢

(٤) كحالة : المرجع السابق ، ص ٩٦

(٥) عمر موسى باشا : المرجع السابق ، ص ١٣٧

(٦) محمد كرد علي : المرجع السابق ، ص ٧٠

(٧) عمر موسى باشا : المرجع السابق ، ص ١٤٤ – ١٤٧

(٨) ابن جبير : رحلة ، ص ١٩٨ – ابن كثير: المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٢٧٨ وص ٢٨١

كما كان هناك مدارس الطب وعلى رأسها المدرسة الدخوارية . وكانت بالصاغة العتيقة . ومن أطباء هذا العصر المشهورين واقف المدرسة مهذب الدين دخوار (١) وابن ابي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠ هـ الذي جعل له امر الطب في البيمارستان النوري . وقد وصلتنا صورة مشرفة لاشراف هذا الطبيب واهتمامه بمرضاه وتعليم طلابه ، تعتبر من أرق الصورة المعروفة. فقد كان يدور على المرضى في البيمارستان ويعتبر أحوالهم ، وبين يديه المشارفون والخدام للمرضى .

وكل مايكتبه لهم لايؤخر عنهم . فإذا فرغ من ذلك طلع القلعة ، وافتقد مرضى السلطان وغيرهم وعاد إلى البيمارستان وجلس في الايوان الكبير حيث توجد خزانتان كبيرتان تحويان كتباً طبية فيأتي اليه الأطباء والمشتغلون ، ويجلسون بين يديه ، ثم تجري مباحث طبية ، ويقرىء التلاميذ . ولايزال معهم في مباحث واشتغال ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات . ثم يركب بعد ذلك كله إلى داره بدمشق (٢).

ومنهم علي بن هبة الله المعروف بابن النقاش المتوفى سنة ٥٤٥هـ ، وتلميذه أبو زكريا يحيى البياس من أطباء صلاح الدين ، وعمر بن علي البذوخ الدمشقي المتوفى ٥٧٦ هـ ، وموفق الدين بن المطران المتوفى سنة ٥٨٧هـ (٣) .

وكذلك فقد نبغ كثيرون في علم العقاقير والهندسة. ومنهم ابن عريف النخاسين(٤) واللبودي الذي أنشأ دار الهندسة ، وأبو الفضل عبد الكريم الحارثي المهندس الدمشقي المتوفى سنة ٥٩٩هـ وهو الذي أصلح الساعة التي بجامع دمشق وهندس أبواب البيمارستان النوري (٥).

---

(١) النعيمي: المصدر السابق ، جزء ٢، ص١٢٧–١٢٨

(٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٣٧ – ١٣٨

(٣) عمر موسى باشا: المرجع السابق، ص١٥٢

(٤) عمر موسى باشا: المرجع السابق ، ص١٥٣ تصدير ابن واصل

(٥) عمر موسى باشا: المرجع السابق ص١٥٣

ما العلوم العقلية والفلسفية ، فلم يتح لها الانتشار لموقف الأيوبيين منها . ولايعني أهذا ان العصر خلا من كل ؟نم في هذا المجال ، بل ان الحلقات العلمية لم تتناول هذه المواضيع على حين عزل الفلاسفه وصنفوا آثارهم في الكتمان،واخفوها عن العوام واطلعو عليها الخاصة من اصدقائهم خوفاً على حياتهم (١) .

٣–اماكن التعليم وحلقاتة : أ– الحلقات العليا: يتم التدريس فيها في المدارس والمساجد والأربطة والخوانق والزوايا.

التعليم في المدارس (٦) :

انشئت اولى المدارس في مدينة دمشق في أواخر النصف الأول من القرن الخامس،حيث انشأ رشأبن نظيف بن ماشاء الله الدمشقي سنة ٤٤٤هـ مدرسته المعروفة بالرشائية وجعلها داراً لدراسة القرآن الكريم (٣).

ولقد كثرت المدارس في دمشق في عصر الدولتين النورية والصلاحية بشكل كبير ، وقام بانشائها بعض العتقاء والخصيان وعدد من الاناث وبنات الملوك والملكات والقواد وأهل اليسار من التجار وغيرهم(٤). وكان بعضهم يرجو من وراء ذلك الثواب ليس غير ، وآخرون كانوا يرجون الشهرة ، وفريق ثالث كان يرى ضرورة بنائها لتثبيت بعض الأفكار ومحو أخرى ، وبعضهم من أصحاب الثراء كانوا يرون انفاق ثروتهم فيما ينفع الناس ، ويترك

---

(١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣٢ وص ٤١٠ – ٤١١ –كحالة : المرجع السابق ، ص ٩٦

(٢) انظر تعريف المدارس في كحالة : المرجع السابق ، ص ٩٩ – محمد علي كرد : المرجع السابق ، جزء ٦ ، ص ٦٨

(٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١١ – محمد كرد علي : المرجع السابق ، جزء ٦ ، ص ٧١ –كحالة : المرجع السابق ، ص ٩٩

(٤) كحالة : المرجع السابق ، ص ٩٩ – محمد كرد علي : المرجع السابق ، جزء ٦ ، ص ٦٩

(٥) محمد كرد علي : المرجع السابق ، جزء ٦ ، ص ٦٩

كانت المدارس التي تدرس الفقه أكبر المدارس ، والى جانبها مدارس أصغر منها أو زوايا في المسجد تعرف باسم دور القرآن ، تعلم القراءات على الأصول وما يتعلق بذلك . ومنها دور للحديث وأخرى لتدريس الطب والصيدلة والكخحالة والهندسة ، والفلك والجغرافيا والتاريخ (١) .

لقد ذكر ابن جبير انه كان في دمشق نحو عشرين مدرسة . ويبدو لي من خلال استقصاء أسماء المدارس في هذه الفترة أنها كانت تزيد على العشرين كثيراً تقوم بالانفاق على من يدخل فيها للتعلم والاستفادة .

كانت المدارس على نوعين أحدهما كان في اصله منزل ، ولذلك فانه لا طابع خاص له. والآخر بني خصيصاً للتدريس ، وكانت هذه في العصر النوري وأوائل العصر الأيوبي ذات أيوان أو أيوانين ، ثم ظهر بعد ذلك الطراز ذو الايوانات الأربعة وكانت المدرسة ذات الايوانات الأربعة ، مستطيلة البناء ، يتوسطها فناء كبير مربع ، يتوسط كل جانب من جوانبه الأربعة ايوان كبير ، يدرس بكل منها فقه إمام من الأئمة (٢) . ويصف لنا ابن جبير مدرسة نور الدين وزنكي فيقول عنها : ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمة الله وبها قبره. وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر (٣) .

لم تكن المدرسة للتدريس فقط ، بل كانت مكاناً لدفن واقفيها في الغالب كما كانت مسجداً ، أو كان يلحق بها مسجد تؤدى فيه الصلاة . فمدرسة الكلاسة مثلاً كان يلحق بها مسجد وغيرها كثير (٤) . كما كان يلحق بالمدرسة

---

(١) كحالة المرجع : السابق ، ص ٩٩

(٢) نعمت اسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٣٧

(٣) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٩٨

(٤) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٤٨

سكن للمدرس . فقد ألحق بدار الحديث الاشرفية دار للشيخ المدرس بها(١) . كما قطن الفخر بن عساكر عبدالرحمن بن محمد بمدرسة الجاروخية كان يلحق بالمدرسة فوق هذا وذاك مكتبة عامرة بالكتب النفيسة ، يستخدمها الطلاب والاساتذة وكانت الكتب مرتبة البيوت ، مقسمة الرفوف مفهرسة لسهولة الوصول اليها على أدق وأفضل طرق تنظيم المكاتب في عصورنا (٢) . وكانت توقف على أشخاص بعينهم أو تودع في المدارس والزوايا للصالح العام فقد وقف تاج الدين الكندي كتباً نفيسة تقدر بسبعمائة واحدى وستين مجلداً ، جعلت في خزانة كبيرة بمقصورة ابن سنان الحلبية ، المجاورة لمشهد علي زين العابدين في الجامع الاموي (٣) . كما وقف أبو الفضل أحمد بن علي بن الفرات ت ٤٩٤هـ خزانة كتب في الجامع الأموي (٤) . كما كان لدار الحديث الفاضلية خزانة أوقف لها التقي اليلداني أكثر كتبه ومجاميعه . (٥) كما وقف نور الدين كتباً كثيرة على أخذ العلم ، وغيرها كثير (٦) .

وإلى جانب المكتبات العامة ، فقد كان هناك مكتبات خاصة لها قيمتها العلمية. فقد كانت كتب القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البياني العسقلاني تتألف من مائة الف مجلدة . (٧)

---

(١) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٩

(٢) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٦٨

(٣) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٨٥

(٤) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٤٠٨

(٥) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٣

(٦) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٠٨

(٧) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٢

كان لكل مدرسة وقف خاص بها يصرف ريعه على الناظر والمدرسين والفقهاء والطلاب وغيرهم من أعضاء المدرسة . وليس من الضروري أن يكون الوقف المخصص للمدرسة موقوفاً من قبل واقف المدرسة بعينه . فقد يوقف الأوقاف لمدرسة من المدارس أشخاص غير الذين بنوها . فاذا كان لها وقف سابق توسع وقفها . واذا لم يكن لها يصح لها أوقاف تساعد على بقاء واستمرار نشاطها التعليمي (١). وخير الامثلة على أوقاف هذه الفترة وطريقه صرفها ، وقف المدرسة الشامية الجوانية (٢). ووقف المدرسة العمادية . (٣)

لم تكن أيام الدراسة المقررة واحدة في كل المدارس . فقد كانت تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسة من كل اسبوع حسب شروط الواقف . كما لم تكن مواعيد الدراسة محددة تحديداً دقيقاً ، اذ لم تكن مواعيد بداية ونهاية اليوم الدراسي واضحة . وكانت الدراسة عموماً فيما بين طلوع الشمس وأذآن العصر (٤) . كما اختلفت العطل الدراسية السنوية من مدرسة لاخرى . ويضاف اليها العطل العارضة والمرضية . فقد كان يسمح للطلبة والمدرسين في كثير من المدارس بالتغيب عن المدرسة لمدة ثلاثة أيام في كل شهر مع صرف مرتباتهم عن هذه المدة.

واشترطت بعض المدارس ان تكون الأيام التي ينقطعون فيها عن الحضور متفرقة، ومن تغيب أكثر من ذلك قطع معلومه النقدي والعيني (٥) . أما من أصيب بمرض يعجزه عن القيام بوظيفته، كان يصرف له معلومه إلى حين شفائه . وبدون تحديد زمن معين لفترة الاجازة (٦).

---

(١) النعيمي: المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٧٨ - ٧٩
(٢) النعيمي: المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٠١ - ٣٠٣
(٣) النعيمي: المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤١٢ - ٤١٣
(٤) عبدالغني محمود عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧
(٥) عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٤٨ - ٢٤٩
(٦) عبدالعاطي : المرجع السابق ، ص ٥٠

وأشهر مدارس هذا القرن في دمشق : المدرسة الأمينيه ، ودار الحديث الاشرفيه ، والمدرسة الاقبالية الشافعية ، والمدرسة الأكزية ، والمدرسة الأسدية ، والمدرسة البلخية، والمدرسة التقوية، والمدرسة الجاروخية ، والمدرسة الجركسية والمدرسة الحنبلية الشريفه والمدرسة الخاتونية البرانيه، والخاتونية الجوانية، والمدرسة الدولعية، والمدرسة الدماغية، والمدرسة الريحانية، والمدرسة الزنجارية ، والمدرسة الشبلية البرانية، والمدرسة الشامية البرانية، والمدرسة الشامية الجوانية ، والمدرسة الشريفية، والمدرسة الصادرية: : والمدرسة الصالحية، والمدرسة الصاحبية ،والمدرسة الصلاحية والمدرسة الضيائية المحمدية، والمدرسة الطرخانية، والمدرسة الطومانية، والمدرسة الظاهرية البرانية، والمدرسة العمرية الشيخيه، والمدرسة العذراوية،العزيزية، والمدرسة العصرونيه ، والمدرسة العمادية ، والمدرسة الفرخشاهية، والمدرسه القيمازية والمدرسة الكلاسية ، والمدرسة المجاهدية الجوانية والمجاهدية البرانية ؛ والمدرسة المسمارية، والمدرسة المعينيه، والمدرسة المقنعية الجوانية، والمدرسة المقدمية البرانية، والمدرسة الناشئية ، والمدرسة النورية الكبرى، والمدرسة النورية الصغرى . والمدرسة الدخوارية للطب . (١)

التعليم في المساجد

كانت المساجد معاهد للعلوم الدينية والعربية غالباً، والاجتماعية والتاريخية أحياناً والعقليه نادراً، وخاصة في القرن السادس الهجري، حيث حوربت هذه العلوم من المساجد والمدارس . وتميز التعليم في المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة في اختيار المناهج (٢). وخير مثال على التعليم في مساجد دمشق الحديث عن المسجد الأموي.

حظيت زوايا المسجد الأموي ومدارسه في هذا القرن، بعنايه الكثيرين ، ووقفت لكل منها الأوقاف الكثيرة. ونال المدرسون به اجراء واسعاً، وألحق بمدارسه مساكن للطلبة والأساتذة وقد ترك لنا ابن بطوطه، وصفاً للتدريس في المسجد في كافة حلقاته فقال : وللمسجد الأموي حلقات للتدريس في

(١) اسماء المدارس مأخوذ عن النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس بجزئيه .
(٢) عبدالعاطي: المرجع السابق ، ص ١٧٠

فنون العلم ، والمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة ، وقراء القرآن يقرؤون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله (١) .

ومن أشهر الزوايا التدريسية فيه زاوية المالكية ، وقفها نور الدين للمغاربة الغرباء ، ووقف لها أوقافاً كثيرة. ودار الحديث الفاضليه ، ودار الحديث الحروية، والمدرسة التاجية ، والمدرسة الغزالية، والمدرسة القوصية . (٢)

التعليم في الأربطة والخوانق :

الخانقاه بيت الصوفيه ومدرستهم ، وكذلك الرباط الا أنه بني أصلاً بغاية المرابطة للجهاد والصوفية في رباطهم متفقون على قصد واحد وعزم واحد . كان تعليم الصوفيه على قسمين ، قسم اجباري غالباً مايتعلق بالأمور الدينيه واللغة العربية وهي العلوم التي يرتب للصوفي الاشتغال بها، ويلزم بحضور دروسها، وآخر اختياري يختاره الصوفي بحسب قابلياته واستعداده (٣) .

أجري على الصوفيه النفقة والكسوة (٤) . وأشهر خوانقهم في دمشق الخانقاه السميساطية والطواويسية والناصرية . أما الأربطة فعلى رأسها الرباط البياني(٥).

ب ـ الحلقه الدنيا :

يتم التعليم في هذه الحلقة ، في المساجد أو الكتاتيب. وقد ترك لنا ابن جبير وصفاً حياً لتدريس الصغار فيالمسجد الأموي ، ويرى أن حلقات تدريسهم فيه تكاد لاتنقطع طيلة اليوم . وتبدأ على اثر صلاة الصبح : يلقن

---

(١) ابن بطوطة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٨

(٢) النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٩ – ٩٠ – ص٨٦ وص٤٨٣ – ٤٨٤ ص ٤١٣ – ٤١٤ – وص ٤٣٨ وص ٤١٨ – ٤١٩ وص ٤١٥ – ابن جبير : رحلته، ص ١٩١ – ١٨٧ – محمد كرد علي : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٩٣

(٣) عبدالعاطي :المرجع السابق ، ص ١٩٧

(٤) ابن بطوطة :المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٨

(٥) ابن جبير :المصدر السابق ، ص ٢٠٢ – ٢٠٣ – النعيمي : المصدر السابق، ص ١٦٤ – وص ١٧٨

الصبيان القرآن تلقيناً وبعد إتقانه يبدأون بالكتابة وتعلم الخط. وهم يتعلمون الخط بنسخ الأشعار ، ولايكتبون آيات قرآنية تنزيهاً لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو. وكان الملقن غير المكتب (١). وفي ذلك مافيه من فائدة تعلم الخط الجيد . ويبدو ان تعليم الصغار كان يقتصر على تعلم القرآن والخط والأشعار ، يجرى للطالب بعد ختم القرآن احتفال عام يشترك فيه الطلبة وذويهم ومعلمهم .

كانت الرغبة في تعليم الصبيان كبيرة . وهذه الرغبه من قبل الأهل والصبي والمقرىء مبعثها أنه كان لمقرئي الصغار اجراء واسع . وكان الصبيان يأخذون على قراءتهم جراية معلومة، ترغبهم في القراءة ، وترغب الأهالي الذين كانت أوضاعهم الاقتصادية سيئة بارسال أبنائهم للتعلم والكسب . وكان بعض أصحاب الجدة منهم، يرفضون السماح لأبنائهم بأخذ الجراية .

كما كان لصبيان الأيتام محضرة كبيرة في مدينة دمشق ، جعلوا لها وقفاً يأخذ منه معلم صبيان الأيتام، وينفق على الصبيان مايقوم بهم وبكسوتهم (٢). هذا ويبدو من هذا العرض السريع للتعليم في دمشق في القرن السادس الهجري ، أن هذا القرن كان قرن افتتاح المدارس في المدينة ، وأن مافتح قبل هذا القرن وبعده لايقاس بالنسبة للمدارس التي فتحت فيه. فهو قرن التعليم بحق . وقد نبغ فيه فئة كبيرة من العلماء المتخصصين في مختلف العلوم والفنون عدا العلوم العقلية ، التي لم يشجع القائمون بالامر عليها ويمكن القول أن العلوم التي أخذت حظها وسيطرت في هذا القرن ، في هذه المدينة هي العلوم الدينية من حديث وفقه وغيرها، ويليها علوم اللغة العربية، ثم العلوم الأجتماعية والتاريخية .

---

(١) ابن جبير المصدر السابق ، ص ١٩١ – ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٠٨

(٢) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٩١

الطريقة البديهية عند الغزالي

محمد جلوب فرحان
مدرس مساعد

المقدمة :

١ - ان بحث « الطريقة البديهية عند الغزالي » وتحليل محاولته المنطقية يمثل فتحاً جديداً في الدراسات الفلسفية العلمية بشكل عام ، وفي الدراسات المنطقية بشكل خاص ، وبحث مثل هذا نرى فيه ، اثراء للثقافة العربية ، اذ ما « للطريقة البديهية » من اثر على الدراسات المنطقية والرياضية على حد سواء .

وتبرز اهمية هذه الدراسة في ان الموضوع الذي انصبت عليه ، لم تتناوله يد البحث بالعرض والتحليل ، اذ لم نعثر على بحث واحد تعرض بالدراسة الى هذا الجانب العلمي لفكر « الغزالي » اضافة الى افتقار مختلف الدوائر الفكرية العربية لمثل هذه الدراسات ، كل هذه الامور جعلت من الموضوع مادة بكر يمكن ان تستهدفه وتنهل منه عدة دراسات تنشد كشف جوانبه العلمية المختلفة .

٢ - يدور هذا البحث حول ابراز البناء البديهي لفكر « الغزالي » (١) ذلك البناء الذي شيده بشكل خاص في محاولته المنطقية التي اودعها في كتابيه الموسومين « معيار العلم » و « محك النظر في المنطق » والمبعثرة بشكل عام في مؤلفاته الاخرى ودراسة مثل هذه تقوم على تثبيت الاجابة عن السؤالين الاتيين مادا نعني بالطريقة البديهية ؟ وما هي ابعاد هذه الطريقة في فكر «الغزالي » المنطقي ؟ وقبل الاجابة عن هذين السؤالين ، نرى من الضروري ان نطرح تخطيطاً نحدد فيه ابعاد الموضوع الذي تتناوله الدراسة والمنهج الذي توسلت به .

تتحدد ابعاد الموضوع في اتجاهين ، يشير الاتجاه الأول الى ان « الغزالي » اختار في بناء فكره المنطقي اولا مجموعة من الحدود الاولية على هيئة «متغيرات » و « ثوابت» وجملة من العلاقات المنطقية ، وعن طريق هذه الحدود والاستعانة بالعلاقات المنطقية استطاع بناء البديهيات التي تنتمي الى ذلك

البناء في حين يؤكد الاتجاه الثاني على ان البناء المنطقي « للغزالي » يتألف من مجموعتين من الابنية تضم المجموعة الاولى عدداً من البديهيات باعتبارها قضايا أولية . بينما تشمل المجموعة الثانية على جملة من المبرهنات بكونها قضايا ثانوية مشتقة من البديهيات ، واستطاع « الغزالي » بالفعل البرهنة على تلك القضايا عن طريق الاستعانة بمجموعة من القوانين الاستنتاجية في الاشتقاق او الاستدلال .

اما المنهج الذي توسل به الباحث فهو المنهج التحليلي القائم على تحليل البناء المنطقي « الغزالي » الى اسسه الأولية قصد التمييز بين الاسس البسيطة التي تمثل الحدود الاولية وبين الاسس المركبة التي تمثل القضايا. من اجل بيان طبيعة الحد الاولي والكيفية التي تم بها بناء القضية والكشف عن الشروط التي تحدد ان قضية ما اولية في البناء ام ثانوية واخيراً فاننا ننشد من استخدام هذا المنهج ابراز السمات الجوهرية لذلك البناء الذي تنتظم فيه تلك القضايا .

الطريقة البديهية :

٣ـ طرحنا في المقدمة التساؤل الاتي : ماذا نعني بالطريقة البديهية ؟ ونحاول الان ان نحدد الفهم الذي نعنيه بتلك الطريقة ونقصد بها ذلك البناء الذي يقوم على الخطوات الا تية :

الاولـى : ينبغي ان نعين في البداية مجموعة من الحدود غير المعرفة (٣) التي تتميز بكونها بينة بذاتها ولاتثير اللبس ولا تحتاج الى حدود اخرى (٤) وعن طريق هذه الحدود والاستعانة ببعض العلاقات المنطقية نستطيع تشييد بناء البديهيات (٥) .

الثانيـة : ان نثبت مجموعة من البديهيات باعتبارها قضايا اولية (٦) وتعود اولية هذه القضايا من حيث هي مقدمات لا تفتقر الى مقدمات اخرى وتتميز بأنها صادقة ، وواضحة ويتحدد صدق هذه المقدمات بأنها

لاتحتاج الى برهان كما وان البرهان لايستطيع الاستغناء عنها من حيث هي اوائل لامناص للبرهان من استخدامها في الحصول على النتائج (٧) .

الثالثة : ان نفهم الطريقة البديهية بأنها عملية استدلالية نحصل بواسطتها على قضايا جديدة من قضايا موضوعة في بداية النظام (٨) وهذا يعني اننا نستطيع عن طريق البديهيات والقواعد الاستنتاجية اشتقاق جميع المبرهنات التي تنتمي للمعرفة العلمية التي تنتمي اليها البديهيات (٩) وان البناء البديهي في هذه الخطوة يستلزم في مبرهنات البناء ان تكون متسقة مع نفسها وكذلك مع البديهيات ... وكذلك لايكفي في المبرهنات لكي تكون صحيحة ان تكون واضحة الصدق ... فمهما كانت المبرهنة واضحة فان ذلك لايدل على صدقها في البناء الذي تنتمي اليه بل لابد وان تكون مما يمكن البرهنة عليها بواسطة بديهيات ذلك البناء .. وهذا يعني ان المبرهنات لاتكون صادقة بذاتها مهما بلغت من درجة الوضوح بل يكون صدقها مشروطاً بشرطين:

أولا : صدق .. المقدمات التي تلزم عنها تلك المبرهنات كنتائج سواء كانت تلك المقدمات هي البديهيات او مبرهنات تم اثباتها بواسطة تلك البديهيات .

ثانياً :الالتزام بتطبيق قواعد الاستدلال تطبيقاً صحيحاً (١٠) .

شروط البناء البديهي :

٤ــ تطرح الطريقة البديهية جملة من الشروط أمام بناء فكري اذا اريد به أن يكون بناء بديهياً وهذه الشروط تتحدد بالشكل الاتي :

آــ يشترط في البناء البديهي أن يكون خالياً من التناقض Conitradictory ونعني بهذا ان بديهيات البناء ينبغي أن تكون صادقة مادامت متسقة consistant مع المباديء الاخرى في البناء الذي توجد فيه (١١) ونعني بالاتساق معنيين :

الأول : بمعنى الا نجد بين بديهيات نظام ماصيغه تفيد أن كل شيء اما ان يكون هو صادقاً او كاذباً ثم نجد صيغة اخرى في النظام ذاته تعبر عن امكانية الشيء الواحد بصفتي الكذب والصدق معا وفي وقت واحد .

الثاني : بمعنى الا يكون في امكاننا ان نستنتج من مجموعة البديهيات قضايا متناقضة وبحبارة اخرى اذا كانت اية صيغة مثل (ق) يمكن اشتقاقها من مجموعة بديهيات النظام وجب أن لايكون نفيها (ـــق) هو كذلك يمكن اشتقاقه من مجموعة البديهيات ذاتها .. (١٢)

ب- ويشترط في البناء البديهي أن يتميز بكونه صارماً او متيناً rigorous ونعني بالصرامة الصرامة المنطقية التي تؤكد على أن: صدق المقدمات لابد وان يؤدي إلى صدق النتائج (١٣).

ج- ينبغي في البناء البديهي أن يكون تاماً completeness (١٤) ونعني بهذا ان تكون بديهيات البناء كافية من حيث النوع والعدد لاشتقاق كافة النتائج المطلوبة في البناء ... وبمعنى اخر ينبغي أن لانجد اية صيغة من صيغ البناء الا ويمكن ردها إلى مجموعة البديهيات او البرهنة عليها بواسطتها ومن الواضح ان البناء البديهي يكون نظاماً غير مكتمل اذا كانت مجموعة بديهياته لاتسمح لنا الا بالاستدلال على عدد محدود من المباديء (١٥) .

د- ويشترط في هذا البناء ان لايحتوي على بديهيات يمكن أن تشتق منها بقية بديهيات البناء وهذا يدل على أن بديهيات البناء مستقلة Indepndent الواحدة عن الاخرى (١٦) .

وبمعنى أخر ان اية بديهية من بديهيات نظام ما ينبغي أن تكون مما لايبرهن عليها من بديهيات النظام ذاته والا فانها تصبح صيغة قابلة للاشتقاق شأنها شأن بقية المبرهنات الخاصة بالنظام او تصبح زائدة عن الحاجة (١٧)

الجذور التاريخية للطريقة البديهية : —

٥ — تمثل الطريقة البديهية احدى الطرق او المذاهب في البحث المنطقي المعاصر ، بجانب طريقة (جبر المنطق) من جهة وطريقة (اللوجستيقا) من جهة اخرى (١٨) ، والطريقة البديهية تختلف عن الطرق السابقة وتفترق عنها ، من حيث انها ترفض ان تكون الصلة بين المنطق والرياضيات هي صلة الجزء بالكل، كما ذهبت إلى ذلك طريقة (جبر المنطق) كما ترفض أن تكون هذه الصلة هي صلة كل بجزء ، كما يقرر اصحاب طريقة « اللوجستيقا» .

ونرى أن اختلاف الطريقة البديهية عن الطرق السابقة ، يعود إلى الموقف الفكري الذي تتكيء عليه هذه الطريقة ، ذلك الموقف الذي يقرر ، بان المنطق والرياضيات قد نبعا سوية من اصول بديهية ، وان هذه الاصول ليست هي منطقية كما ذهبت طريقة « اللوجستيقا» ولاهي رياضية كما قررت طريقة « جبر المنطق».. وانما هي اصول عارية عن المنطق والرياضيات معاً .

واستناداً إلى هذا الفهم يظهر توازي المنطق مع الرياضيات في منظور الطريقة البديهية او أن شئت فقل توازي الرياضيات مع المنطق ، واستبعاد كل تمايز واختلاف بينهما ، وابراز الصلة الوثيقة الداخلية والبنائية بينهما . تلك الصلة التي تبين بشكل واضح ان مصدرها هو الاصول البديهية (١٩) :

ارتبطت الطريقة البديهية في عالمنا المعاصر ، بعالم الرياضيات «ديفيد هلبرت» الذي وضح اساس النظرية البديهية Axiomatic theory وكان ينشد بها ، معارضة طريقة « جبر المنطق» وطريقة «اللوجستيقا» (٢٠) .

ومن اللازم ان نشير هنا إلى أن الشروط التي وضعها « هلبرت» للبناء البديهي وهي شروط ليست منطقية ، ولارياضية، نقول ان هذه الشروط جعلت من «هلبرت» يميل إلى تسمية البحوث التي تدور حول الطريقة البديهية بـ «المنطق الفوقي Metalogic » احياناً وبـ «الرياضيات الفوقية Metama thematics» احياناً اخرى (٢١) .

تابع خطى «هلبرت» العالم «برنيس» في هذا المجال، فطبق الطريقة البديهية على منطق « رسل» فاقام البرهان صلى جميع قضايا منطق « رسل» عن طريق ردها إلى ثلاث بديهيات (٢٢)، وكذلك اهتم بالطريقة البديهية كل من «تارسكي» (٢٣) و«ستول» (٢٤). و «روجرز» (٢٥) و«فرانكل وهيل» (٢٦) و«مولر وسيوبس» (٢٧) واخرون .

٦ ـ اتجه الباحثون . بهدى ماقرره «هلبرت» ومدرسته ، إلى ابراز ملامح الفكر البديهي في التراث المنطقي ... ومن نظرة نقدية لتاريخ المنطق ،نرى أن هذه الملامح ظهرت لاول مرة في تراث « ارسطو» المنطقي، ذلك التراث الذي كشف بشكل واضح ، ان شغل « ارسطو» الشاغل، انصب حول تحديد « الموضوع » الذي يهتم بدراسته علم المنطق وهو اللغة وكذلك تحديد الطريقة التي يستخدمها في دراسته ، وهي الطريقة الاستدلالية ،التي تعتمد على اشكال القضايا ، تلك الاشكال التي يعبر عنها بالرمز .

ونلحظ في هذا التراث ،ان اختيار «ارسطو» لمجموعة من الحدود الاولية ومجموعة من العلاقات التي تشد الحدود بعضها بالبعض، وتمييزه بين القضية الاولية ، والقضية المشتقة ، تاشير لملامح الفكر البديهي (٢٨) .

غير اننا نجد بان « ارسطو» لم يحقق في فكره المنطقي بناء بديهياً تاماً ،وهذا يعود في راينا إلى أنه ، بعد أن ثبت في بداية بنائه بديهياته الاربعة، أقام البرهان على مبرهناته الاثنين والعشرين ، عن طريق ردها إلى تلك البديهيات ، فانه خطا خطوة جديدة نرى فيها ، قد ادت إلى ابراز خلل في البناء لعدم التزامه بشروط الطريقة البديهية وانحصرت هذه الخطوة في اقامة البرهان على البديهيتين الثالثة والرابعة ، عن طريق ردها إلى مبرهنات الشكل الثاني (٢٩) .

في ضوء هذا الفهم نرى أن « ارسطو» في اقامة البرهان على البديهيتين السابقيتين قد وقع في اربعة اخطاء ، اذا نظرنا إلى بنائه من وجهة نظر الطريقة البديهية:

الاول : — ان البديهيات لايمكن البرهنة عليها في البناء البديهي ، وان «ارسطو» كما ظهر لنا أقام البرهان على اثنتين من بديهياته .

الثاني : — ان البديهيات في البناء البديهي يشترط فيها أن تكون مستقلة، بينما تكشف لنا من خلال الاشارة إلى عمل«ارسطو»ان بديهيات بنائه لم تكن مستقلة، اذ برهن عليها، وهذه خصيصة مهمة في البناء البديهي.

الثالث : — ان بديهيات النظام البديهي يشترط فيها ان لاتكون « زائدة » في البناء الذي توجد فيه في حين ظهر لنا ان البديهيتين الثالثة والرابعة في زائدتان بناء « ارسطو» لذلك أقام البرهان عليها .

الرابع : — ان ارسطو سبق وان اقام البرهان على صدق مبرهنات عديدة ، عن طريق ردها إلى البديهيتين السابقتين ، وان ارسطو عند هذا الحد ملتزم بمبدأ الاتساق ، غير ان بنائه افتقر لهذا المبدأ ، عندما برهن على بديهياته ، ومبدأ الاتساق يمثل شرطاً اساسياً من شروط البناء البديهي.

وفي نهاية حديثنا عن محاولة ارسطو المنطقية، نرى لزاماً علينا ان نشير إلى ان غايته انصبت في بناء لغة منطقية تتميز بالدقة وتكون خالية من التناقض، وكذلك الكشف عن الاسس المنطقية للعلوم، وغاية ارسطو في الفكرة الاخيرة تلوح في رد أسس العلوم إلى اسس منطقية وهذا هدف طريقة اللوجستيقا (٣٠) .

بعد محاولة ارسطو ظهرت محاولة جديدة متأثرة بها ، احتواها كتاب الاصول لاقليدس ، وتقوم على :

آ — تثبيت مجموعة من الحدود الاولية ، وبناء اثني عشر تعريفاً .

ب — تثبيت مجموعة من الفروض توزعت بين خمس بديهيات وخمس مصادرات.

ج — اقامة البرهان على صدق ثمان واربعين مبرهنة عن طريق اشتقاقها من القضايا السابقة (الفروض) (٣١).

ونرى ان النظام المنطقي لاي بناء فكري:

أ — اما ان يكون بناء يتألف من مجموعة من البديهيات ويلتزم بالشروط المثبتة فيصبح بناء بديهياً.

ب — واما ان يتألف من مجموعة من التعريفات وبذلك يتميز عن الاول ويفترق. على هذا الاساس نجد ان محاولة اقليدس جاءت مبرزة بناء خليط جامع ، يتألف من مجموعة من البديهيات ، ويشتمل على مجموعة من القضايا الخاصة بعلم الهندسة هي المصادرات ويحتوي على مجموعة من التعريفات.. اضافة إلى كل هذا فان محاولة اقليدس ضمت المصادرة الخامسة. وهي مااصطلح على تسميتها ببديهية التوازي، هذه المصادرة مثلت وضعاً مقلقاً في بناء اقليدس واظهرت اضطراباً فيه، تمثل في اثارة مشكلات دفعت بالعلماء في القرن الثامن عشر، إلى المثابرة في محاولة اقامة البرهان عليها... الا أنهم انتهوا في بحثهم إلى ان بديهية التوازي ليست ببديهية.. وعن طريق هذا البحث اهتدوا إلى انواع جديدة من الهندسة عرفت بالهندسات اللااقليدية (٣٢).

٧ — وان انتقال الفكر المنطقي والرياضي إلى دائرة الثقافة والمعرفة العربية . قد أثر بشكل فعال على مختلف الحقول العلمية والفكرية حتى اصبح ركناً من اركان دائرة الفكر العربي... وفي حديثنا عن ملامح الفكر البديهي قبل «الغزالي» نجد ان «الكندي» الرائد في الفلسفة العربية قد استوعب ملامح الفكر البديهي الارسطي والاقليدي، ويشهد على ذلك استخدماته لهذا الفكر في بنائه الفلسفي(٣٣) بينما انفرد «الفارابي» بالتحليل المنطقي للغة، ويشهد على ذلك كتابه «الحروف» (٣٤) وكتابه «الالفاظ المستعملة في المنطق» (٣٥). وكذلك الفصل الذي اودعه كتابه احصاء العلوم (٣٦) لقد اجاد «الفارابي» في هذا الجانب اجادة تامة تمثلت في تشريح اللغة والتمييز بين ابنتيها المختلفة، في حين اجاد «ابن سينا» في تحليلاته لنظرية البرهان والتعريف ، وان اظهاره لشروط التعريف والبرهان يكشف عن ادراك واع لبعض سمات الفكر البديهي (٣٧) .

اما صاحبنا الامام«الغزالي»فبالاضافة إلى انه يلتقي مع مايقرره«ارسطو»و«الكندي» «والفارابي» «وابن سينا»بخصوص النظرية المنطقية (٣٨)إلا انه انفرد في البناء البديهي، ذلك البناء الذي افترق فيه عن «ارسطو» (٣٩)،وتخطى فيه الحدود الضيقة لتطبيقات «اقليدس» المنطقية على علم الهندسة (٤٠).

فقد طرح «الغزالي» اربع بديهيات وعشر مبرهنات واقام البرهان على مبرهناته عن طريق ردها إلى البديهيات الاربع ونرى ان عدم اقامة «الغزالي» البرهان على البديهيتين الثالثة والرابعة كما فعل«ارسطو»يمثل ادراكا واعياً من قبل«الغزالي»لاستقلالية البديهيات وشروط الطريقة البديهية من كمال واتساق وعدم التناقض (٤١).

اضافة الى كل هذا فأن غاية«الغزالي»مختلفة هي الأخرى لانها دارت حول طرح«نسق»بديهي مشترك يتمثله المنطق وكذلك العلوم الاخرى ولم ينشد البحث عن اسس منطقية ترد اليها اسس العلوم، كما هو الحال عند «ارسطو».

تحديد «الغزالي» للطريقة البديهية :

٨ ــ آ. سلم «الغزالي» في البداية بمجموعة من الحدود الاولية البينة بذاتها وهي المتغيرات والثوابت باعتبارها اللبنات الاساسية التي تدخل في بناء القضايا (٤٢) وتتأتى اولية هذه الحدود من حيث انها «.. اوائل عرفت بنفسها» (٤٣) وهي حدود بينة بذاتها بمعنى ان الحد الاولي واضح بنفسه (٤٤).

وكذلك سلم في ان كل قضية في البناء المنطقي تتألف من حدين يسمى الاول منهما «بالموضوع» في حين يطلق على الثاني «بالمحمول» (٤٥) ويعني هذا ان «الموضوع» و «المحمول» هي الحدود الاولية في بناء «الغزالي» من حيث انها تدخل كاوائل في بناء القضية ولبيان ذلك فقد طرح مثالا وضح فيه دور الحدود والموقع الذي تشغله في ذلك البناء اذ ان القضية القائلة :ــ

كل جسم مؤلف (٤٦)

تتألف في رأي « الغزالي » من اللفظة « كل » وهي ايضاً حدٌ أولي وهو ماصطلحنا على تسميته « بالثابت » في حين اصطلحنا على الحدود « الموضوع » و « المحمول » « بالمتغير » ومن اللفظة « جسم » باعتباره موضوعاً للقضية ومن اللفظة « مؤلف » باعتباره محمولا وهذا يعني ان « جسم » و « المؤلف » — اضافة الى حد الثابت « كل » — هي الحدود الاولية التي شيدت بناء هذه القضية (٤٧) .

غير ان « الغزالي » انتبه جيداً الى الخطأ الذي قد نهوي فيه نتيجة استخدام « الالفاظ » اللغوية ولاجل ذلك سلم مع المنطقيين في انعطافهم نحو استخدام « الرموز » كوسيلة للتعبير عن الحدود الاولية « المتغيرات » فعبر عن (موضوع) القضية بالرمز «آ» وعن « محمولها » بالرمز « ب » انتهى بعد ذلك الى صياغة القضية السابقة بالشكل الآتي :

كل (آ) (ب) (٤٨)

ب— ومن الحدود الاولية الاخرى التي تحدد بناء قضية ما الثوابت المنطقية وهما الثابت الكلي الموجب وعبر عنه « الغزالي » بلفظة « كل » والثابت الكلي السالب وعبر عنه بلفظة « لاواحد من » والثابت الموجب بلفظة « بعض » والثابت الجزئي السالب بلفظة « بعض .. ليست » وقد ادرك « الغزالي » دور هذه الحدود فاشار « والقضية بهذا الاعتبار (تنقسم الى) محصورة كلية ومحصورة جزئية» (٤٩) ولم يكتفي عند هذا الحد بل عين الثابت بكونه« .. (اللفظ الحاصر) (الذي) يسمى سوراً» (٥٠) . وذهب إلى اننا نستطيع التعبير عن الثابت الكلي بلفظة «كل» وعن الثابت الجزئي بلفظة «بعض» (٥١) ثم استدرك في تحديده للثوابت المنطقية فحددهما وفقاً لحالتي «الايجاب» و «السلب» في بناء القضية وبهذا المعنى فقد اشار إلى ان «القضية تنقسم إلى هذه الاقسام — أي الكلية والجزئية — سالبة كانت او موجبة» (٥٢) ولبيان ذلك

نعود إلى الامثلة التي طرحها في هذا المجال : «كقولنا في الموجبة الكلية : كل انسان حيوان وقولنا في الموجبة الجزئية : بعض الحيوان انسان وكقولنا في السالبة الكلية : لاواحد من الناس بحجر وكقولنا في السالبة الجزئية : ليس بعض الناس كاتباً» (٥٣).

ج — وان الحدود لاترتبط بعضها بالبعض كيفما اتفق لتشكل القضايا بل ترتبط بعلاقات منطقية وان هذه العلاقات على هذا الاساس هي التي تحدد بناء اية قضية مابكونه متيناً ام مصاباً بالخلل وقد ادرك «الغزالي» ذلك فذهب إلى ان كل قضية «تقتضي ثلاثة الفاظ... واحد للموضوع وواحد للمحمول ، وواحد لرابطة المحمول بالموضوع» (٥٤) ولبيان ذلك افضل العودة إلى المثال الرمزي السابق وهو المثال القائل:

كل (أ) (ب)

لقد قلنا سابقاً ان هذه القضية تتألف من ثابت منطقي هو «كل» ومن موضوع هو (أ) ومن محمول هو (ب) غير ان بناء القضية لايقتصر على هذه الحدود فقط بل يشير كذلك إلى وجود رابطة منطقية قامت بشد «الموضوع» «بالمحمول» وفي الاماكن التعبير عن هذه الرابطة بلفظة «هي» وقد ادرك «الغزالي» ذلك بشكل واضح فاشار «لكن في اللغة العربية اقتصر كثيراً على لفظين فقيل مثلا (زيد بصير) والاصل أن يقال (زيد هو بصير) بزيادة حرف الرابطة» (٥٥) ولذلك كان من الافضل في رأي «الغزالي» ان نقول:

كل (أ) هي (ب)

٩ — ابرزنا في الفقرة السابقة طبيعة الابنية الاولى التي سلم بها «الغزالي» في بنائه البديهي وهي الحدود الاولية التي تتميز بكونها ابنية بسيطة ودور العلاقات المنطقية في ربط هذه الابنية وتشييد ابنية اعقد منها هي القضايا او المقدمات والكلام عن القضايا يجرنا إلى الحديث عن البناء الذي توجد فيه والشروط التي يضعها في قبول قضية مافي بنائه وقد ادرك «الغزالي» ذلك فاشار «فجدير بنا ان نخوض في بيان القياس: فانه التركيب الثاني لانه نظر في تركيب القضايا..» (٥٦) والقياس في نظره ينقسم إلى:

أ ـ مادة: وهي المقدمات اليقينية الصادقة اذ ان بناء أي قياس (مقدمتين تتبعهما نتيجة بالضرورة) يستدعي طلب هذه المقدمات معرفة طبيعتها.

ب ـ صورة: وهي تأليف المقدمات على نوع من الترتيب (٥٧).

نعود بعد هذه الاشارة إلى الغرض ذاته ذلك الغرض الذي تحدد في الحديث عن طبيعة المقدمات (البديهيات) وشروطها وفي هذا المجال، قسم «الغزالي» المقدمات إلى: ١ ـ «يقينات صادقة واجبة التسليم.

٢ ـ وإلى غيرها» (٥٨)

ثم ذهب إلى تحديد المقدمات اليقينية الصادقة بأنها «قضايا تحدث في الانسان من جهة قوته العقلية المجردة من غيرمعنىزائد عليها يوجب التصديق بها»(٥٩) بعد ذلك أشار بشكل دقيق الى طبيعة تلك المقدمات الاولية او البديهيات ودور الحدود الاولية في تحديد تلك الطبيعة التي تنحصر بأنها يقينية واولية وصادقه وواضحة كل هذه الامور تعود في رأي، «الغزالي» إلى ان «.. ذوات البسائط اذا حصلت في الذهن.. وجعلتها القوة المفكرة قضية بأن نسبت احداها إلى الاخر بسلب او ايجاب صدق بها الذهن اضطراراً» (٦٠) ولم يكتف بهذا الحد بل طرح أمثلة متعددة على البديهات في علوم مختلفة منها :

أ ـ الكل اعظم من الجزء

ب ـ الاشياء المساوية لشيء واحد متساوية (٦١).

جـ ـ الاثنان اكثر من الواحد.

د ـ السلب والايجاب معاً لايصدقان في شيء واحد فقط (٦٢).

ويعني هذا ان التسليم بصدق هذه البديهيات يعود إلى انها تتألف من بسائط من الحدود وان الوقوف عند هذه الحدود باعتبارها اولية وواضحة من حيث لاتوجد حدود أسبق منها ولانها بينة بذاتها هذهالامورجميعها تفرض التسليم بصدق واولية وضرورية البديهيات (٦٣) وان هذه البديهيات بالاضافة إلى

ماسبق تتميز بكونها قضايا غير قابلة للبرهان في البناء الذي تنتمي اليه (٦٤) وقد ادرك «الغزالي» هذه الحقيقة بشكل جلي فرفض «القياس الدوري» وهو البرهان الذي نبرهن فيه على المقدمات او البديهيات بالاستعانة بالمبرهنات التي تعتمد في التثبت من صحتها على تلك البديهيات (٦٥).

كما ويستلزم «الغزالي» في البديهيات أن تكون متميزة عن المقدمات الاخرى التي يستخدمها البناء البديهي اذ أن عدم التمييز على حد رأية يوقعنا في مهاوى منها ان نحصل على نتائج متناقضة لاننا سلمنا بقضايا اعتقدنا انها بديهيات بينما كان حالها غير ذلك (٦٦) وفي هذا المجال طرح «الغزالي» تساؤلاً مهما كشف فيه عن سعة علمه ودقة منهجه لهذا الموضوع وهذا التساؤل يقوم على : اذا كانت النتائج حصلت عن طريق المقدمات فمن أين نحصل على المقدمات؟ وان حصلت هذه المقدمات من مقدمات اخرى وجب علينا التسلسل إلى ما لانهاية؟ وهذا محال في رأية لذلك وجب علينا ان نسلم بمقدمات لاتفتقر إلى مقدمات اخرى (٦٧) وعلى هذا الاساس فان المقدمات هي «اوائل حصل التصديق بها من دون برهان» (٦٨) ومن الشروط الاخرى التي حدد فيها «الغزالي» البديهيات أن تكون غير المبرهنة من أجل تجنب المصادرة على المطلوب ويقصد بهذا اذا كانت البديهيات تؤكد بشكل محدد على ماتؤكده المبرهنة فان هذا الحال يكون مصادرة على المطلوب (٦٩) وكذلك ان تكون البديهيات اعرف من المبرهنة (٧٠).

يعني هذا ان «الغزالي» اشار إلى حقيقة مهمة تخص البناء البديهي وهذه الحقيقة تتحدد في اننانتكأ على البديهيات باعتبارها اوائل واضحة بذاتها من أجل الحصول على قضايا جديدة كنا نجهلها وبعكس هذا فاننا لانستطيع ان نحدد هذه القضايا بانها بديهيات لان المبرهنة تكون اعرف منها وبذلك انتهى إلى تقرير التمييز بين «.. ما يعرف بوسط (المبرهنات) وإلى مايعرف معرفة اولية من دون وسط (البديهيات) (٧١).

ولما كانت بديهيات البناء تتميز بكونها اولية وصادقة ويقينية، وضرورية فبالالزام ستكون مبرهنات البناء من تلك البديهيات يقينية وصادقة ايضاً وقد

ادرك « الغزالي» هذه الحقيقة فاشار إلى أن « البرهان الحقيقي مايفيد شيئاً لايتصور تغيره ويكون ذلك بحسب مقدمات البرهان بانها تكون يقينية . فالنتيجة الحاصلة منها ايضاً تكون يقينية» (٧٢) .

١٠ ـ بعد هذا الاستعراض الذي كشفنا فيه ضرورة وصدق واولية البديهيات ويقينية وصدق المبرهنات التي تلزم عنها اشير إلى أن « الغزالي» سلم في بنائه باربع بديهيات وقبل تحديد هذه البديهيات ارى من الضروري الاشارة إلى حقيقة مهمة اخرى تخص البناء البديهي التفت اليها «الغزالي» وهذه الحقيقة تكمن في قوله « ولما كانت الأمثلة المفصلة ربما غالطت الناظر عدل المنطقيون إلى وضع المعاني المبهمة وعبروا عنها بالحرف المعجمة ووضعوا بدل (الجسم) و(المؤلف) و (المحدث) ..(الالف و (الباء) و (الجيم) وهي اوائل .. فقالوا:

كل (ج) (ب)

وكل (ب) (آ)

فكل (ج) (آ)

وكذلك سائر الضروب وانت اذا أحطت بالمعاني التي حصلناها لم تعجز عن ضرب المثال»(٧٣)ولذلك ساحاول صياغة البديهيات عند«الغزالي»رمزيا لتنسجم مع رأيه السابق وكذلك مع الطريقة البديهية ملتزماً بتحديد « الغزالي » لهيكل هذه البديهيات وفي الامكان تحديد هذه البديهيات بالشكل الاتي :

البديهية رقم (١) : كل (ب) (آ) وكل (ج) (ب)

فيلزم منه ان : كل (ج) (آ) (٧٤) .

البديهية رقم (٢) :لاواحد من (ب) (آ) وكل (ج) (ب)

فيلزم منه ان : لاواحد من (ج) (آ) (٧٥) .

البديهية رقم (٣) :كل (ب) (آ) وبعض (ج) (ب)

فيلزم منه ان : بعض (ج) (آ) (٧٦).

البديهية رقم (٤) :لاواحد من (ب) (آ) وبعض (ج) (ب)
فيلزم منه ان : بعض (ج) ليست (آ) (٧٧) :

وقد أشار (الغزالي) في هذا المجال الا أن هذه البديهيات بينة « الانتاج وانما يظهر الانتاج فيما عداه « المبرهنات» بالرد اليه اما بالعكس او الافتراض» (٧٨) ويعني هذا ان هناك قضايا اخرى في بناء « الغزالي » البديهي تتميز بكونها تحتاج إلى تلك البديهيات في التثبت من صدقها عن طريق الاستعانة بالقوانين الاستنتاجية وهذه القضايا هي مبرهنات البناء البديهي ونستطيع تحديدها بالشكل الاتي :

المبرهنة (١) :لاواحد من (آ) (ب) وكل (ج) (ب)
فيلزم منه ان : لاواحد من (ج) (آ) (٧٩) .

المبرهنة رقم(٢) : كل (آ) (ب) ولا واحد من (ج) (ب)
فيلزم منه ان : لاواحد من (ج) (آ) (٨٠)

المبرهنة رقم(٣) :لاواحد من (آ) (ب) وبعض (ج) (ب)
فيلزم منه ان : بعض (ج) ليست (آ) (٨١) .

المبرهنة رقم(٤) : كل (آ) (ب) وبعض (ج) ليست (ب)
فيلزم منه ان : بعض (ج) ليست (آ) (٨٢) .

المبرهنة رقم(٥) : كل (ب) (آ) وكل (ب) (ج)
فيلزم منه ان : بعض (ج) (آ) (٨٣) .

المبرهنة رقم(٦) :لاواحد من (ب) (آ) وكل (ب) (ج)
فيلزم منه ان : بعض (ج) ليست (آ) (٨٤) .

المبرهنة رقم(٧) :بعض (ب) (آ) وكل (ب) (ج)
فيلزم منه ان : بعض (ج) (آ) (٨٥) .

المبرهنة رقم(٨) : كل (ب) (آ) وبعض (ب) (ج)
فيلزم منه ان : بعض (آ) (ج) (٨٦) .

المبرهنة رقم (٩) : بعض (ب) ليست (آ) وكل (ب) (ج)
فيلزم منه ان بعض (ج) ليست (آ) (٨٧) .
المبرهنة رقم (١٠) : لاواحد من (ب) (آ) وبعض (ب) (ج) .
فيلزم منه ان : بعض (ج) ليست (آ) (٨٨) .
بعد تحديد هذه المبرهنات انتهى الى تأكيد الحقيقة الاتية :

« وانما سميت هذه مقاييس الشكل الثاني (والثالث) (المبرهنات) لانه يحتاج في بيانها الى الرد للشكل الاول (البديهيات » (٨٩) .

١١ – لقد استعان (الغزالي) في اقامة البرهان على المبرهنات قصد التثبت من صدقها في ردها الى البديهيات بمجموعة من القوانين الاستنتاجية هما :

آ– حدد (الغزالي) النوع الاول من هذه القوانين بقوله « اذا كانت المقدمتان صادقتين سمي قياساً مستقيماً ((٩٠) ويعني هذا ان القوانين التي استعان بها في هذا المجال هي قوانين العكس ويعني بالعكس « ان نجعل (المحمول) من القضية (موضوعاً (و) الموضوع (محمولا) مع حفظ الكيفية وبقاء الصدق بحاله » (٩١) . وان (الغزالي) في كشفه لطبيعة هذه القوانين فقد نظر اليها من خلال عملها في القضاء وبذلك حددها في ضوء هذا المنظور :

الاولى السالبة الكلية : وتنعكس مثل نفسها بالضرورة :
لاواحد من (ب) (آ)
يلزم انه :
لاواحد من (آ) (ب) (٩٢) .

الثانية : الموجبة الكلية : وتنعكس موجبة جزئية :
كل (ب) (آ)
ينعكس الى :
بعض (آ) (ب) (٩٣)

الثالثة / الموجبة الجزئية : وتنعكس مثل نفسها :

بعض (ب) (آ)

يلزم منه ان :

بعض (آ) (ب) (٩٤)

استخدم « الغزالي » بعد هذا التحديد قوانين العكس في رد المبرهنات (ضروب الشكل الثاني والثالث) الى البديهيات (ضروب الشكل الاول) وسنحاول الكشف عن الكيفية التي تقوم بها هذه القوانين في رد المبرهنات الى البديهيات :

المبرهنة رقم (١) :

لاواحد من (آ) (ب)

وكل (ج) (ب)

فيلزم منه ان :

لاواحد من (ج) (آ) .

وباستخدام قانون عكس الكلية السالبة تتحول هذه المبرهنة الى البديهية رقم (٢)

لاواحد من (ب) (آ)

وكل (ج) (ب)

فيلزم منه ان :

لاواحد من (ج) (آ) (٩٥) .

المبرهنة رقم (٢) :

كل (آ) (ب)

ولا واحد من (ج) (ب)

فيلزم منه ان :

لاواحد من (ج) (آ)

وباستخدام قانون عكس الكلية السالبة تتحول هذه المبرهنة الى البديهية رقم (٢) :

كل (آ) (ب)
ولا واحد من (ب) (ج)
فيلزم منه ان :
لاواحد من (ج) (آ) (٩٦) .
المبرهنة رقم (٣) :
لاواحد من (آ) (ب)
وبعض (ج) (ب)
فيلزم منه ان :
بعض (ج) ليست (آ)

وباستخدام القانون ذاته اي قانون عكس الكلية السالبة ، تتحول هذه المبرهنة الى البديهية رقم (٤)

لاواحد من (ب) (آ)
وبعض (ج) (ب)
فيلزم منه ان :
بعض (ج) ليست (آ) (٩٧) .
المبرهنة رقم (٥) :
كل (ب) (آ)
وكل (ب) (ج)
فيلزم منه ان :
بعض (ج) (آ)

وباستخدام قانون عكس الكلية الموجبة تتحول هذه المبرهنة الى البديهية رقم (٣) :

كل (ب) (آ)

وبعض (ج) (ب)

فيلزم منه ان :

بعض (ج) (آ) (٩٨) .

المبرهنة رقم (٦):

لاواحد من (ب) (أ)

وكل (ب) (ج)

فيلزم منه ان:

بعض (ج) ليست (أ)

وباستخدام قانون عكس الكلية الموجبة تتحول هذه المبرهنة إلى البديهية رقم(٤).

لاواحد من (ب) (أ)

وبعض (ج) (ب)

فيلزم منه ان:

بعض (ج) ليست (أ) (٩٩)

المبرهنة رقم (٧):

بعض (ب) (أ)

وكل (ب) (ج)

فيلوم منه ان:

بعض (ج) (أ)

وباستخدام قانون عكس الموجبة الجزئية تتحول هذه المبرهنة إلى القضية الاتية:

بعض (أ) (ب)

وكل (ب) (ج)

فيلزم منه ان:

بعض (ج) (أ) (١٠٠).

وعن طريق الاستعانة بقانون تحويل الحدود تصبح هذه القضية البديهية رقم (٣):

كل (ب) (أ)

وبعض (ج) (ب)

فيلزم منه ان:

بعض (ج) (أ).

المبرهنة رقم (٨):

كل (ب) (أ)

وبعض (ب) (ج)

فيلزم منه ان:

بعض (أ) (ج).

وتستخدم في رد هذه المبرهنة نوعين من قوانين العكس:

أ ــ قانون عكس الجزئية الموجبة:

بعض (ج) (ب)

ب ــ قانون عكس النتيجة:

بعض (ج) (أ)

فتتحول هذه المبرهنة إلى البديهيه رقم (٣):

كل (ب) (أ)

وبعض (ج) (ب)

فيلزم منها ان:

بعض (ج) (أ) (١٠١).

المبرهنة رقم (١٠):

لاواحد من (ب) (أ)

وبعض (ب) (ج)

فيلزم منه ان:

بعض (ج) ليست (أ)

وباستخدام قانون عكس الجزئية الموجبة تتحول هذه المبرهنة إلى البديهية رقم (٤) :

لاواحد من (ب) (أ)

وبعض (ج) (ب)

فيلزم منه ان:

بعض (ج) ليست (أ) (١٠٢)

ب- وعندما عجزت قوانين العكس في تحويل بعض المبرهنات إلى البديهيات استعان بقوانين اخرى اطلق عليها قوانين الخلف مرة (١٠٣) والافتراض مرة اخرى (١٠٤) وتتحدد هذه القوانين بلغة « الغزالي» بالشكل الاتي : اذا «.. كانت احدى المقدمتين ظاهرة الصدق والاخرى كاذبة او مشكوكا فيها وانتج نتيجة بينة الكذب ليستدل بها على ان المقدمة كاذبة » (١٠٥) ولم يقف عند هذا الحد بل طرح تفسيراً لتسمية هذه القوانين بقياس الخلف :

١ - « يجوز ان يسمى هذا « قياس الخلف» لانك ترجع من النتيجة إلى الخلف فتاخذ مطلوبك من المقدمة التي خلفها كانها مسلمة » (١٠٦) .

٢ - «يجوز ان يسمى (قياس الخلف) لان الخلف هو الكذب المناقض للصدق وقد ادرجت في المقدمات كاذبة في معرض الصدق » (٢٠٧) .

وقد طرح « الغزالي» امثلة بين فيها عمل وطبيعة هذه القوانين لرد المبرهنات إلى البديهيات ومن هذه الامثلة :

« كل ماهو ازالي فلا يكون مؤلفاً

والعالم أزلي

فاذن لايكون مؤلفاً » (٢٠٨)

و(الغز الي) في تحليله لهذا المثال اشار « لكن النتيجة ظاهرة الكذب» (٢٠٩) ويعني هذا ان (الكذب قد يكون في المقدمات ولما كان قولنا :

الازلي ليس بمؤلف صادق

فان الكذب ينحصر في قولنا

العالم ازلي
وبالتالي فان نقيضة وهو
ان العالم بازلي صدق و هو المطلوب » (١١٠) .

وقد استخدم « الغزالي» هذا النوع من القوانين الاستنتاجية في عدة اماكن في بنائه البديهي لاثبات صدق المبرهنات فقد استعان به في التثبت من صحة (الضرب الرابع من الشكل الثاني) . المبرهنة رقم (٤) :

كل (آ) (ب)
وبعض (ج) ليست (ب)
فيلزم منه ان :
بعض (ج) ليست (آ) .

وقد حدد «الغزالي» هذا الرد بطريقة الافتراض وهو « ان نحول هذا الجزئي كلياً» (١١١) اى ان نفترض: السلب في المقدمة الاولى والايجاب في المقدمة الثانية:

لاواحد من (آ) (ب)
وبعض (ج) (ب)
فيلزم ان :
بعض (ج) ليست (آ) (١١٢).

وعلى هذا الاساس تمت البرهنة على صحة هذه المبرهنة عن طريق ردها إلى المبرهنة رقم (٣) وقد سبق ان رد (الغزالي) هذه المبرهنة بطريق العكس إلى البديهية رقم (٤) وبذلك فان التثبت من صدق هذه المبرهنة يتم بطريقتين.

الاول : ان نردها بواسطة قوانين الخلف (الافتراض) إلى المبرهنة رقم (٣)

الثاني : ان نرد المبرهنة رقم (٣) إلى البديهية رقم (٤).

واستعان بهذه القوانين كذلك في البرهان على صدق (الضرب الخامس من

الشكل الثالث) المبرهنة رقم (٩).

بعض (ب) ليست (آ)

وكل (ب) (ج)

فيلزم منه ان :

بعض (ج) ليست (آ)

وان (الغزالي) حدد هذا النوع من البراهين عن طريق « ... تحويل الجزئية إلى الكلية بالافتراض» (١١٣) اى ان نفترض المقدمة كلية سالبة :

لاواحد من (ب) (آ)

وكل (ب) (ج)

فيلزم منه ان :

بعض (ج) ليست (آ) (١١٤) .

وبذلك تمت البرهنة على صحة هذه المبرهنة عن طريق ردها إلى المبرهنة رقم (٦) وبواسطة قوانين العكس تمكن (الغزالي) رد هذه المبرهنة إلى البديهية رقم (٤) :

١٢ ــ بعد هذا التحليل لبناء « الغزالي» البديهي برز لنا ان هذا البناء اختص بجملة من الخصائص جعلته يقترب بشكل واضح من الابنية البديهية السائدة في المنطق والرياضيات واستطيع ان اجمل هذه الخصائص بالشكل الآتي : ــ

آ ــ ان من اولى مميزات هذا البناء هو خلوه من التناقص اى ان هذا البناء لايشمل في تركيبه او يجمع في آن واحد على قضيتين متناقضتين معاً وقد لاحظنا من خلال تحليل البناء ان « الغزالي» لم يتمكن من اشتقاق قضية ما ونقيضها في آن واحد وقد ادرك « الغزالي» هذه الحتميقة فاشار « اعلم ان فهم النقيض في القضية تمس الحاجة في النظر فربما لايدل البرهان على شيء ولكن يدل على ابطال نقيضة فيكون قد دل عليه ، وربما يوضح في مقدماته القياس شيء فلا يعرف وجه دلالته مالم يرد إلى نقيضه .. وربما يظن انه معرفة ذلك ظاهرة وليس كذلك فان التساهل فيه مثار الغلط في اكثر النظريات..»(١١٥)

ب- وما يتصف به هذا البناء ايضاً الصرامة المنطقية اذ ان صدق البديهيات اوصل « الغزالي» بالضرورة إلى مبرهنات صادقة كما واننا لم نعثر في هذا البناء على ان « الغزالي» استطاع اشتقاق مبرهنات كاذبة من البديهيات وقد ادرك « الغزالي » فاشار « اعلم ان المقدمات القياسية اذا كانت .. صادقة وكانت .. غير النتيجة .. واعرف منها كان اللازم منها بالضرورة حقاً لاريب فيه» (٩٢) ولم يقف عند هذا بل بين ذلك في مكان اخر فاشار ان (البرهان الحقيقي مايفيد شيئاً لايتصور تغيره ويكون ذلك بحسب مقدمات البرهان بانها تكون يقينية فالنتيجة الحاصلة منها ايضاً تكون يقينية » (١١٦).

ج- سلم « الغزالي» في بنائه بأربع بديهيات وبعشر مبرهنات وانه تمكن اشتقاق جميع المبرهنات العشر هذه من البديهيات ويعني هذا بديهيات البناء تتميز بكونها تامة او بمعنى آخر ان البناء البديهي الذى وضعه « الغزالي» يتميز بكونه كاملا من حيث انه اشتق منه جميع قضايا البناء الذى تنتمي اليه وقد ادرك ذلك فاشار إلى أن هذه البديهيات بينه « الانتاج وانما يظهر الانتاج فيما عداه (المبرهنات) بالرد اليه اما بالعكس او بالافتراض» (١١٧) .

د- وضع « الغزالي» في بداية بنائه البديهي اربع قضايا تتميز بكونها « اوائل حصل التصديق بها من دون برهان » (١١٨) وبذلك سلم بهذه القضايا او المقدمات كاساس لانها « لاتفتقر إلى مقدمات اخرى ..» (١١٩) وبالاضافة إلى ذلك فان العودة إلى نظام البديهيات ، يكشف لنا ان الغزالي لم يبرهن او يرد احدى بديهيات البناء إلى البديهيات الاخرى ويعني هذا ان بديهيات بناء « الغزالي» تتميز بكونها مستقلة الواحدة عن الاخرى (١٢٠) .

هوامش البحث :

١ – ولد « ابو حامد الغزالي» منتصف القرن الخامس الهجرى اعني سنة ٤٥٠هـ في «طوس» ثم توفي في ١٤ جمادى الثانية سنة ٥٠٥. وللاطلاع على المزيد من الامور التي تخص حياة الغزالي اقترح مراجعة د. سليمان دنيا : الحقيقة في نظر الغزالي، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٥ ص ص١٨ – ٥٦ .

٢ – (المتغير) : رمز ليس له معنى ثابت معين انه مجرد رمز يشير إلى فراغ ان توضع فيه عبارة ذات معنى او حد له معنى . (الثابت) : رمز له معنى ثابت معين ، انه رمز يدل على معنى لايتغير.
انظر د. ياسين خليل : المنطق والرياضيات ، منشورات المجمع العلمي العراقي ١٩٦٣. ص١١ : ٢٣

3– Rogers·R., Mathematical Logic and Formalized theories·, New york, 2nd edition, 1973, p·53

4– Stoll·R·, Sets, Logic, and Axiomatic· theories·, 1974,p·138

5– See: A., Rogers·R., OP.Cit., p·53
B– TarasKi·A·, Introduction to Logic·, Trans·O·Helmer, New york, 1955, p·23

6– A·Robinson·A·, Some thoughts on the history of Mathematics·, 1968·, PP·191-192

ب– الفردتارسكي: مقدمة للمنطق، ترجمة د. عزمي اسلام مراجعة د. فؤاد زكريا القاهرة ١٩٧٠، ص ص٣٨ – ٣٩

٧ – د. ياسين خليل . منطق البحث العلمي بيروت ١٩٤٧ ط١ ، ص٤٨

8– Robinson·A·, OP· Cit·,P·192

٩ – د. ياسين خليل : المصدر السابق ص٤٨

١٠ – انظر د. عزمي اسلام ؛ الاستدلال الصوري ، منشورات جامعة الكويت ج٢ ص١٥١ – ١٥٢ وكذلك آ.هـ – بيسون ، د.ج. اوكونر ، مقدمة في المنطق الرمزي ، ترجمة عبد الفتـــاح الديدي ، دار المعارف بمصر ص ص ١٢٤ – ١٢٨.

11- See: A-Jech·T·G·, The Axiom of choice, New york, 1973, p·31

B·Fraenkel·Hillel· Levy·, Foundations of set theory·, 1973, p·293

جـ انظر د. ياسين خليل ، المصدر السابق ص٥١

12- See: A-Basson,·A, OConner·D., Introduction to symbolic logic·, London, 1962, p·7

وانظر الترجمة العربية ص‌ص ١٤٥ ــ ١٤٧

B-Mourant·J·A·, Formal Logic, New york, 1963, p·273

13- Moler·N, Suppes·p., QuantiFer-Free axioms For consteructicve plane geometry·, 1968, p·144

14- See: A·Meschkowski .H, Noneuclidean Geometry·, Amsterdam, 1971, P.4

B-AFraenkel·Hillel· Levy·, Op·Cit·, p·293

هـ ــ انظر د. ياسين خليل ، المصدر السابق ، ص٥١، ومنطق المعرفة العلمية ص٢١٤

15- See: A-Mourant·J·A·, Op· Cit·, p·274

ب ــ انظر الفردتارسكي : المصدر السابق ، ص‌ص٢٣٠ ــ ٢٣١ :

وكذلك د. عزمي اسلام ، المصدر السابق ص١٤٨ ــ ١٤٩

16- See: A-Meschkowski·H·, Op· Cit·, p·4

B-AFrnkel·H·L·, O.,Op· Cit·, P·283

جـ ياسين خليل ، منطق المعرفة العلمية ، ص‌ص٢٤٧ ــ ٢٥١ .

17- A-Basson·A·, OP· Cit·, P·71

وانظر الترجمة العربية ص‌ص١٥٤ ــ ١٥٥

B-Mourant·J·A·, OP· Cit·, P·274

جـ انظر عزمي اسلام ، المصدر السابق ج٢ ص١٤٩ ، وكذلك الفرد تارسكي ، المصدر السابق ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦

١٨ ـ هناك طريقة ، او مذهب رابع ، هي الطريقة الحدسية ، التي تخالف الطرق الثلاث . اذ ترى ان الاصول حدسية والعرض منطقي ، اي اننا نحدس اصول الرياضيات ومنابعها مباشرة وبواسطة الحدس ، ثم يجيء بعد ذلك دور المنطق في بسط ماحدسناه ، انظر :

A-Prior·A·,N·, Formal Logic·, OxFord·, 1962,pp·315-317

ب ـ د. علي عبد المعظمي محمد ، اسس المنطق الرياضي وتطوره ، الناشر دار الجامعات المصرية ، ص١٥٣

C –Lyhdon·R·,Notes on Logic·, London, 1967,P·34

١٩ ـ أنظر : د. علي عبد المعطي محمد ، المصدر السابق ، ص١٤٩، وكذلك د. محمد ثابت الفندي ، اصول المنطق الرياضي بيروت ١٩٧٦ص ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

٢٠ ـ انظر .

A-Langer·s·K·, symboiic Logic, New york, 1967, pp·312-313

ب ـ انظر ياسين خليل ، منطق البحث العلمي ، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥ ، وكذلك علي عبد المعطي محمد ، المصدر السابق ص١٥٠

٢١ ـ انظر محمد ثابت الفندي ، المصدر السابق ، ص١٠٦

٢٢ ـ المصدر السابق .

23-See Taraski·A·, Introduction to Logic·, pp·23-180

24-See Stoll·R·, Sets, Logic, and Axiomatic theories·, pp·128-160

25-See Rogers·R·, Mathematical Logic and For malized theories-,pp·53-76

26-Fraenkel·H·L·, Foundations of Set· theory·, pp·293-298

27-·A-Moler·N·Suppes·, Quantifer-Free axioms For constructive Plane geomelry·, pp–144 – 159

ب ـ وانظر ياسين خليل ، الطريقة البديهية في المنطق والرياضيات والفيزياء النظرية، مجلة الرياضيات والفيزياء العدد ٣، ١٩٧٥ ، ص١٥ ـ ٢٥ .

٢٨ ــ انظر :

A-Bochenski·M·, Ancient Formal Logic·, Amsterdam, 1968, p·46

ب ــ ياسين خليل ، نظرية ارسطو المنطقية ، ص١١٧ ، وكذلك المعرفة العلمية : ص٥٣ ــ ٥٤ .

جـ ــ محمد جلوب فرحان : تحليل ارسطو للعلم البرهاني رسالة ماجستير (غير منشورة) ص٩٩.

٢٩ ــ انظر ، يان لوكاشيفتش ، نظرية القياس الارسطية ، ترجمة عبد الحميد صبره الاسكندرية ١٩٦١ ، ص٦٥ وكذلك ياسين خليل ، المصدر السابق ص‌ص١١٦ ــ ١١٧

٣٠ ــ انظر :

آ ــ ارسطو ؛ التحليلات الثانية ، ترجمة عربية قديمة : حققها د. عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٤٨! وتناولت تطبيقات لعلم المنطق على العلم الرياضي (حساب وهندسة).

ب ــ محمد جلوب فرحان ، المصدر السابق ، القسم الثاني : الفصول الاول ، الثالث ، الرابع .

٣١ ــ انظر محمد جلوب فرحان ، الاثر المنطقي لارسطو على هندسة اقليدس مجلة آداب الرافدين العدد (٩) سنة ١٩٧٨ ، ص‌ص١٢٦ ــ ١٤٠

٣٢ ــ انظر :

آ ــ ياسين خليل ، منطق البحث العلمي ، ص‌ص٢٣٩ ــ ٢٤١ .

B-Mark·K·, Mathematics and Logic·, 1971, pp· 154-157

٣٣ ــ انظر آ ــ أحمد فؤاد الاهواني ،الكندي فيلسوف العرب ، اعلام العرب ٢٦ ، ص٨١ ، ٨٥ ، ١٠٠ ــ ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٤٠.

ب ــ محمد بحر العلوم ؛ الكندى رائد الفلسفة الاسلامية النجف ١٩٦٢ ــ ج ١ ، ص‌ص٨٣ ــ ٨٥ ، ص‌ص٩٥ ــ ١١٠.

٣٤ـ انظر الفارابي ؛ كتاب الحروف ، حققه وقدم له وعلق عليه محسن بيروت ١٩٧٠،ص ص٥٧ ـ ٢٢٠ .

٣٥ـ انظر الفارابي ؛ كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدي ، بيروت . ص ص٤١ ـ ١١١ .

٣٦ـ انظر : الفارابي ؛إحصاء العلوم؛ حققه وقدم له وعلق عليه د. عثمان امين ـ ط٣ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ص٦٧ ـ ٩١.

٣٧ـ انظر ؛ ابن سينا ؛ البرهان من كتاب الشفاء ؛ حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٥٤،ص ص٣٠ ـ ٤٣، ٢٠١ ـ ٢٢٤.

٣٨ـ انظر ؛ الغزالي ؛ معيار العلم ، تحقيق د. سليمان دنيا ، دار المعارف بمصر ط٢، ص ص٢٧ ـ ٢٧١ وكذلك قارن الغزالي ، مقاصد الفلاسفة ، تحقيق د. سليمان دنيا ، دار المعارف بمصر ١٩٦١، ص ص٣١ ـ ١٣٦

٣٩ـ انظر الغزالي ، معيار العلم ، ص ص١٣١ ـ ١٣٦ .

٤٠ـ قارن ذلك في مقاصد الفلاسفة ، ص ص٩٦ ـ ٩٩

٤١ـ انظر الفقرة (١٢) من هذا البحث

٤٢ـ انظر معيار العلم ،ص١٣٠، وكذلك محك النظر في المنطق ؛ صححه الاستاذ محمد بدر الدين النعساني ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ص ٨ ـ ٩ وفي الحقيقة ان طريقتي التحليلية لبناء الغزالي متأثرة بطريقة استاذي د. ياسين خليل ، التي اودعها كتابة : « نظرية ارسطو المنطقية ، ص ص٢٢ ـ ٢٣، ٤٦ ـ ٤٩ ص ١١٦ .

٤٣ـ آـ معيار العلم ، ص٢٧، وكذلك ص٢٣٠

بـ قارن ذلك في المقاصد ، ص٣٥؛ ويعود السبب في احالتي القارىء للمقارنة إلى ان هذا الكتاب لايمثل اراء «الغزالي» بقدر ماهو عرض لافكار غيره من الفلاسفة،ويؤكد مانذهب اليه قوله في ص ص ٣١ ـ ٣٢ .

« .. ولا مطمح في اسعافك الا بعد تعريفك مذهبهم .. واما المنطقيات فاكثرها على منهج الصواب والخطأ نادر فيها ...»

٤٤ ـــ انظر معيار العلم ، ص٢٧١ ، وقارن ذلك في المقاصد ص٣٣.

٤٥ ـــ انظر ، معيار العلم ، ص ١٣١ . وكذلك محك النظر ، ص ص ٣٢ ـــ ٣٣ ، وقارن ذلك في المقاصد ص ٣٧

٤٦ ـــ معيار العلم ص ١٣٢ . وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٥٣

٤٧ ـــ انظر ؛ معيار العلم ، ص ١١٧ ، ١٣٣ ، وقارن ذلك في المقاصد ص٥٤

٤٨ ـــ انظر ؛ معيار العلم ، ص ص ١٢٨ ـــ ١٢٩ ، وكذلك المنقذ من الضلال ، تحقيق د . عبد الحليم لحمود ، ط٥ ، ص ٩٩ ، وقارن ذلك في المقاصد ص ٥٧ .

٤٩ ـــ معيار العلم ، ص ١١٦ ، وكذلك محك النظر ، ص ٣٤ ، وانظر أيضاً المنقذ من الضلال ، ص ٩٩ .

٥٠ ـــ معيار العلم ، ص ١١٧ ، وكذلك محك النظر ص ٣٤ ، وقارن ذلك في ؛ ياسين خليل ، المصدر السابق ، ص ص ٢٢ ـــ ٢٣

٥١ ـــ انظر معيار العلم ، ص ١١٧ ، وكذلك محك النظر ، ص ٣٤ ، وانظر المنقذ من الضلال ، ص ٩٩

٥٢ ـــ معيار العلم ، ص ١١٧

٥٣ ـــ المصدر السابق ، وقارن ذلك في المقاصد ؛ ص ٥٩

٥٤ ـــ معيار العلم ، ص ١١٥ ، وقارن ذلك في ؛ ياسين خليل ؛ المصدر السابق ص ٥٢

٥٥ ـــ المصدر السابق

٥٦ ـــ المصدر السابق ؛ ص ١٣٠

٥٧ ـــ المصدر السابق ؛ وقارن ذلك في المقاصد ص ٦٦

٥٨ ـ معيار العلم ص ١٨٢ ، وانظر محك النظر ؛ ص ص ٥٤ ـ ٥٥

٥٩ ـ معيار العلم ، ص ١٨٦ . وقد اشترط «الغزالي» في «مادة القياس ـ المقدمات أن تكون على هيئة :

١ـ العلم التصديقي .. العلم بنسبة ذوات الحقائق بعضها إلى بعض بالايجاب والسلب ٢ـ ولا كل صادق بل الصادق اليقيني . ٣ـ ولا كل تصديق بل التصديق الصادق نفسه ٤ ـ ولا كل يقيني بل اليقين الكلي المصدر السابق ص ١٨٢ وانظر محك النظر ، ص ص ٥٥ ـ ٥٦ ، وقارن ذلك في المقاصد ص ١٠٢ .

٦٠ ـ معيار العلم ، ص ١٨٧ ، وكذلك محك النظر ، ص ٧٤ .

٦١ ـ معيار العلم ، ص ص ٣٤٥ ـ ٢٤٦ ، وانظر المعارف العقلية : تحقيق عبد الكريم العثمان ، دمشق ١٩٦٣ ، ط١ ، ص ٤٤،وكذلك ، معارج القدس (دون تحقيق) نشر مطبعة الاستقامة ، القاهرة،ص ص ٤٢ ـ ٤٣؛ وكذلك؛ فضائح الباطنية، حققه عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٢، ص ٧٩،والقسطاس المستقيم ، نشر باشراف محمد عبد الله السمان،القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٣ وقارن ذلك في المقاصد ، ص ١٠٢ .

٦٢ ـ معيار العلم ، ص ١٨٧ ، وانظر محك النظر ، ص ٥٥ ، ٥٨ ، وكذلك؛ ميزان العمل؛حققه د. سليمان دنيا ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ، ط١، ص ١٩٠ ، ٢٦٥ ،وكذلك المنقذ من الضلال، ص ص ٧٤ ـ ٧٥ ، وانظر مشكاة الانوار؛نشر ضمن مجموعة رسائل باشراف الاستاذ محمد مصطفى أبو العلا في كتابه (القصور العوالي)،ص ص ١٨٩ـ ١٩٠ ،وقارن ذلك في المقاصد ص ١٠٦ .

٦٣ ـ انظر معيار العلم ؛ الصفحات : ١٨٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ : «اعلم ان البرهان الحقيقي مايفيد اليقين الضروري » المصدر السابق ص٢٥٥ وانظر القسطاس المستقيم ص٢٩ ، وقارن ذلك في المقاصد ص ١٢٦ .

٦٤ ــ انظر معيار العلم ، ص ٢٢٨ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ١٢٥.

٦٥ ــ انظر معيار العلم ؛ ص ٢١٦ ــ ٢١٧ ، ومحك النظر ، ص ٩٣ ، وقارن ذلك في ياسين خليل ؛ المصدر السابق ص٢٣ ، ٢٤ ، ٥٥ ، ١١٦ ، ١١٧

٦٦ ــ انظر معيار العلم ، ص ٢٢٧ ، ومحك النظر ص ٩٢ .

٦٧ ــ معيار العلم ، ص ٢٣٠.

٦٨ ــ المصدر السابق ، وكذلك محك النظر ، ص ٧٩ ، وانظر ، فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ، تحقيق سليمان دنيا ، ط٢ ١٩٦١ ، ص١٨٩.

٦٩ ــ انظر معيار العلم ، ص ٢١٥ ، وانظر كذلك محك النظر ، ص ٧٥ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ١١٦

٧٠ ــ معيار العلم ص ٢١٦ ، وانظر محك النظر ، ص ٩٢ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ص ١١٦ ــ ١١٧ .

٧١ ــ معيار العلم ، ص ص ٢٣١ ــ ٢٣٢

٧٢ ــ المصدر السابق ، ص ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦ . وانظر محك النظر ؛ ٤٣ ، ٥٧ ، ٦٥ ، وكذلك تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، دار المعارف بمصر ط ٤ ، ص ٢٥٨ ، وكذلك القسطاس المستقيم ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، وفضائح الباطنية ؛ ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ١٢٦

٧٣ ــ معيار العلم ، ص ١٣٧ ، وانظر المنقذ من الضلال ، ص ٩٩ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٥٧ .

٧٤ ــ معيار العلم ص ١٣١ ــ ١٣٢ ؛ «..موجبتان كليتان .. كل جسم مؤلف ، وكل مؤلف محدث ؛ فيلزم منه ان كل جسم محدث» وفي محاولتنا هذه في بناء البديهيات والمبرهنات عند «الغزالي» ، أقتفينا أثر ؛ ياسين خليل ، المصدر السابق ، وكذلك أثر «الفرد نارسكي» في مؤلفه الموسوم «مقدمة في المنطق الصوري» ص ص ١٢٤ ــ ١٦٥ .

وان بديهيات بناء «الغزالي» هي البديهيات المنطقية ، التي اوردها «ارسطو» غير أن «الغزالي» في هذا المجال ، كان اوسع افقاً ، لانه لم يبرهن على واحدة من البديهيات في بنائه ، على عكس مافعل «ارسطو» وانظر ؛ القسطاس المستقيم ، ص ص ٢٢ — ٢٣ ، وكذلك محك النظر ، ص ٤١ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٧١

٧٥ — معيار العلم ، ص ١٣٦ ؛ «موجبة كلية صغرى ، وسالبة كبرى ، وهو أن تبدل قولك؛ محدث بقولك ليس بأزلي» وانظر محك النظر ،ص ٤٤، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٧١ .

٧٦ — معيار العلم ، ص ١٣٥ ؛ «..موجبتان والصغرى جزئية ؛ كما اذا ابدلت قولك ؛ كل جسم مؤلف ، بقولك: بعض الموجودات مؤلف » وانظر محك النظر ص ٤٤ .

٧٧ — معيار العلم ، ص ١٣٦ ؛ «موجبة جزئية صغرى وسالبة كلية كبرى، وهو أن تبدل الصغرى بالجزئية أو الكبرى بالسالبة فتقول مثلاً ؛موجود ما مؤلف ولا مؤلف واحد ازلي» وانظر محك النظر ص ٤٤، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٧٢ ، ياسين خليل ؛ المصدر السابق ، ص ١٠٣

٧٨— معيار العلم ،ص١٤٨ ، وانظر القسطاس المستقيم ،ص٤٣ وقارن ذلك في المقاصدص٧٠ان مبرهنات«الغزالي» هي جزء من المبرهات المنطقية التي اوردها «ارسطو » غير ان مبرهنات«ارسطو» (٢٢). في حين أن «الغزالي» انتقى منها ١٠ مبرهنات فقط ؛ لتنسجم وبرنامجه المنطقي الجديد .

٧٩ — معيار العلم ص ص ١٣٨ — ١٣٩ ؛ «..ان تقول كل جسم مؤلف .. ولا ازلي واحد مؤلف؛فيلزم مالزم منه ؛ لاجسم واحد ازلي» - انظر محك النظر ص ٤٦ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٧٧ .

٨٠ — معيار العلم ص ١٣٩ ؛ «..قولك : لاجسم واحد منفك عن الاعراض وكل ازلي منفك عن الاعراض: فاذن لاجسم واحد ازلي» وانظر محك النظر ص ٤٦ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ص ٧٧ — ٧٨

٨١ — معيار العلم ، ص ١٤٠ ؛ «..وهو قولك : موجود ما مؤلف ولا أزلي واحد مؤلف فاذن موجود ماليس بأزلي » وانظر محك النظر ،ص ٤٦ ، وقارن ذلك في المقاصد ص ٧٨ .

٨٢ — معيار العلم ، ص ١٤٠ ؛ «.. كقولك ؛ موجود ماليس بجسم وكل متحرك جسم فبعض الموجودات ليس بمتحرك » وانظر محك النظر ؛ ص ٤٦ — ٤٧ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٧٩ .

٨٣ — معيار العلم ، ص ص ١٤٢ — ١٤٣ ؛«.. كقولك : كل متحرك جسم ، وكل متحرك محدث فبعض الجسم بالضرورة محدث»وانظر محك النظر ص ٤٧ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٨١.

٨٤ — معيار العلم ؛ ص ١٤٣ «.. كقولك : كل ازلي فاعل . ولا أزلي واحد جسم فيلزم منه : ليس كل فاعل جسماً » وانظر محك النظر ، ص ٤٨ وقارن ذلك في المقاصد ص ٨١ .

٨٥ — معيار العلم ؛ ص ١٤٣ ؛ «.. كقولك : جسم مافاعل وكل جسم مؤلف: فاعل مامؤلف » وانظر محك النظر ص ٤٨ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٨١.

٨٦ — معيار العلم ، ص ١٤٤ «..مثاله: كل جسم محدث ، وجسم مامتحرك فيلزم محدث مامتحرك » وانظر محك النظر ؛ ص ٤٨ ؛ وقارن ذلك في المقاصد ض ٨٢ .

٨٧ — معيار العلم ، ص ١٤٥ «.. مثاله : كل جسم محدث وجسم ماليس بمتحرك فيلزم:محدث ماليس بتحرك » وانظر محك النظر ص٤٨ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٨٢ .

٨٨ — معيار العلم ، ص ١٣٩ ، ومحك النظر ، ص ص ٤٤ — ٤٥ ، وقارن ذلك في ياسين خليل ؛ المصدر السابق ؛ ص ص ١٠٤ — ١٠٩

٨٩ — معيار العلم ، ص ١٥٨ .

٩٠ — المصدر السابق ، ص ١٣٦ ؛ ومن الجدير بالذكر ، ان نشير إلى أن « الغزالي » استخدم الاسلوب الرمزي في البرهنة على المبرهنات ، وقد أكد ذلك بشكل خاص في استخدام قوانين العكس ، فذهب إلى .. « كل (آ) (ب) ، أي هما شيئان مبهمان سميناها بهذين الاسمين فيلزم منه : بعض (ب) (آ) فقولنا : لاشيء من (آ) (ب) فيلزم منه : بعض (ب) (آ) .. وكذا في سائر الاقسام » . وانظر محك النظر ص ٣٩ ، وقارن في المقاصد ، ص ٦٤

٩١ — معيار العلم ، ص ١٢٦ ؛ « ..فانك تقول : لاانسان واحد طائر ويلزم انه : لاطائر واحد انسان » وانظر محك النظر ، ص ص ٣٩ — ٤٠ . وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٦٤ .

٩٢ — معيار العلم ، ص ١٢٧ ؛ « ..فقولنا : كل انسان حيوان ينعكس إلى ان : بعض الحيوان انسان » ولا بد من الاشارة إلى ان « الغزالي » أبعد ؛ السالبة الجزئيةعن العكس ،وسبب ذلك يعود إلى «انها لاتنعكس لا إلى كلية ولا إلى الجزئية » . وانظر محك النظر ، ص ٤٠ ، ومعارج القدس ، ص ٥٩ والمنقذ من الضلال ص ٩٩ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٦٥ .

٩٣ — معيار العلم ، ص ١٢٨ ؛ « .. فقولنا : بعض الناس كاتب فيلزم منه أن : بعض الكاتب انسان » وانظر محك النظر ، ص ٤٠ ، وقارن ذلك في المقاصد ص ٦٥ .

٩٤ — معيار العلم ؛ ص ص ١٣٨ — ١٣٩ ؛ « ..فيلزم مالزم منه لاناقد قدمنا ان : السالبة الكلية تنعكس كنفسها فلا فرق بين قولك : لامؤلف واحد ازلي وهو المذكور في الشكل الاول وبين قولك ولا ازلي واحد، مؤلف » وانظر محك النظر ، ص ٤٦ ، وقارن ذلك في المقاصد ؛ ص ٧٧ ، وكذلك في ياسين خليل ؛ المصدر السابق ، ص ٨٧ — ٩٠، ٩٢ — ٩٥ ، ١٢٤ — ١٣٧ .

٩٥ – معيار العلم ، ص ١٣٩ ؛ «وبيانه : يعكس المقدمة الكبرى كما سبق» وانظر محك النظر ، ص ٤٦ وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٧٨ .

٩٦ – معيار العلم ، ص ١٤٠ ؛ «وبيانه : يعكس الصغرى فانها سالبة كلية تنعكس مثل نفسها » وانظر محك النظر ، ص ٤٦ ، وقارن ذلك في المقاصد، ص ٧٨ .

٩٧ – معيار العلم ، ص ص ١٤٢ – ١٤٣ ؛ «وبيانه : بعكس الصغرى فانها تنعكس جزئية ويصير قولنا : كل متحرك جسم إلى قولنا : وبعض الجسم متحرك » . وانظر محك النظر ، ص ص ٤٧ – ٤٨ ؛ وقارن ذلك في المقاصد ص ٨١ ؛

٩٨ – معيار العلم ؛ ص ١٤٣ ؛ «لانه يرجع إلى الاول بعكس الصغرى ، وتلزم النتيجة بعينها فتقول : فاعل ما ازلي ولا ازلي واحد جسم » وانظر محك النظر ، ص ٤٨ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٨١

٩٩ – معيار العلم ؛ ص ١٤٣ ؛ «وبيانه : يعكس الصغرى .. فيرتد إلى الشكل الاول وتلزم النتيجة أو تقول : فاعل ما جسم وكل جسم مؤلف فيلزم : فاعل ما مؤلف» وانظر محك النظر، ص ٤٨، وقارن ذلك في المقاصد، ص ٨١

١٠٠ – معيار العلم ، ص ١٤٢ ؛ « وذلك بعكس الكبرى وجعلها صغرى، فيرجع إلى الاول ثم عكس النتيجة ليخرج لنا عين نتيجتها» ، وانظر محك النظر ، ص ٤٨ ، وقارن في المقاصد ص ٨٢ .

١٠١ – معيار العلم ، ص ١٤٥ ؛ «لان الصغرى تنعكس إلى قولك فاعل ماجسم فيلزم هذه النتيجة بعينها من الشكل الاول البين بنفسه » وانظر محك النظر، ص ص ٤٨ – ٤٩ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٨٣

١٠٢ – معيار العلم ص ١٦٠، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٧٩ .

١٠٣ – معيار العلم ، ص ١٤٠ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٧٩

١٠٤ ــ معيار العلم ، ص ١٥٨ ، وانظر القسطاس المستقيم ، ص ٤٣ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص ٨٨

١٠٥ ــ معيار العلم ، ص ١٦٠

١٠٦ ــ المصدر السابق .

١٠٧ ــ المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، وقارن ذلك في المقاصد ؛ ص ٨٨

١٠٨ ــ معيار العلم ؛ ص ١٥٩ .

١٠٩ ــ المصدر السابق ، وقارن ذلك في المقاصد ص ٨٨ .

١١٠ ــ معيار العلم ، ص‌ص١٤٠ ــ ١٤١ ، وقارن ذلك في المقاصد . ص٧٩

١١١ ــ معيار العلم ، ص‌ص١٤٠ ــ ١٤١ ، « ولما كانت السالبة جزئية وهي لاتنعكس لم يمكن ان يرد هذا الضرب إلى الاول بطريق العكس لكن يرد بطريق الافتراض وهو ان نحول هذا الجزئي كلياً » وقارن ذلك في المقاصد ،ص٧٩.

١١٢ ــ معيار العلم ،ص‌ص١٤٥ ــ ١٤٦، وقارن في المقاصد ص٨٢ .

١١٣ ــ معيار العلم ، ص‌ص١٤٥ ــ ١٤٦ ؛ (ويمكن بيانه بالعكس لان الجزئية السالبة لاتنعكس .. ليرجع إلى الشكل الاول ــ بتحويل الجزئية إلى الكلية بالافتراض ». وقارن في المقاصد ، ص‌ص٨٢ ــ ٨٣

١١٤ ــ معيار العلم ، ص١٢١، وانظر محك النظر ، ص‌ص٣٦ ــ ٣٧، وكذلك القسطاس المستقيم ، ص‌ص٤٢ ــ ٤٤.
وقارن ذلك في المقاصد ، ص٦٢ .

١١٥ ــ معيار العلم ، ص٢٠٧، ومحك النظر ، ص٨٤،٩١.

١١٦ ــ معيار العلم ، ص‌ص٢٤٥، ــ ٢٤٦، وانظر محك النظر ، ص٤٣، ٥٧،٦٥ وقارن في المقاصد ص١٠٥ .

١١٧ ــ معيار العلم ، ص١٤٨ ، وقارن ذلك في المقاصد ، ص٧٠ .

١١٨ – محك النظر ، ص٧٩، ومعيار العلم ، ص٢٣٠

١١٩ – المصدر السابق

١٢٠ –

آ – ١ – معيار العلم ، ص ص١٣١ – ١٣٢

٢ – محك النظر ، ص٤١

ب – ١ – معيار العلم ، ص١٣٦

٢ – محك النظر ، ص٤٤

جـ – ١ – معيار العلم ، ص١٥٣

٢ – محك النظر ، ص٤٤

د – ١ – معيار العلم ، ص١٣٦

٢ – محك النظر ، ص٤٤

موقف اتابكية دمشق من الغز و الصليبي
لبلاد الشام ٤٩٧ ـ ٥٤٩ / ١١٠٣ ـ ١١٥٤م

دريد عبد القادر نوري
مدرس مساعد

كانت منطقة الشام قبيل الغزو الصليبي تعيش حالة من التعقيد الذي اكتنف وضعها السياسي والاقتصادى والديني ، فقد كانت تحكمها قوى مختلفة وكثيراً ماكانت المنازعات الداخلية سمة ذلك الاختلاف ، في الوقت الذي كانت فيه قوى الصليبيين تنتهز الفرص الملائمة لتوقع بالخصم ، ومن ثم لتؤسس لها ملكاً على أنقاض ذلك البنيان .

كانت الخلافة العباسية في بغداد تريد الحفاظ على الشام كجزء من ممتلكاتها وكان الفاطميون في مصر يرون في الشام امتداداً طبيعياً لمصر وقاعدة عسكرية يستطيعون بها ان يؤمنوا حدود مصر الشرقية ضد الروم والعباسيين (١) وليجعلوا منها قاعدة لنشر مذهبهم (٢) .

اما الصليبيون فقد توجهت انظارهم نحو الشام لكسب مغانم مختلفة ، منها انهم وجدوا في فلسطين مركزاً رفيعاً لتحقيق مكاسب دينية وسياسية . (٣) كما كانت منطقة الشام – بما فيها انطاكيا – تمثل الطريق التجاوى المهم الذي يربط الدول الاوربية بالعالم الشرقي (٤) . إضافة إلى ان الشام كان بالنسبة للغزاة بلد الغنى والجمال الذي يحقق للكثيرين من الفقراء والاقطاعيين مغانم كثيرة (٥).

ومن ناحية ثانية فقد كان يسكن منطقة الشام عدة قوى مميزة وكثيراً ماكان يحارب بعضها بعضاً منها : اتباع الفاطديون والقبائل العربية المحلية والامراء

---

(١) محمد حمدي المناوي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (القاهرة : ١٩٧٠) ، ص ١٨٧ .

(٢) السيد الباز العريني ، مصر في عصر الايوبيين (القاهر : د/ت) ، ص ٧ .

(٣) انظر رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد (بغداد: ١٩٤٥) ، ص ٢٠ .

(٤) عقد هربرت فيشر فصلا كاملا عن أسباب نمو المدن في العصور الوسطى ، أوضح فيه أثر طرق المواصلات في نشاط التجارة وبالتالي نمو المدن ، وكان من بين الخطوط (طريق غرب أوروبا فالبحر المتوسط إلى انطاكيا في الشام فجنوب شرقي آسيا) تاريخ اوروبا في العصور الوسطى : ١/٢٢٢ .

(٥) انظر : Champdor,Saladin Le plus Pur burheros de Islam,P.28·

والقادة العسكريون من السلاجقة والاتراك ، بالاضافة إلى الهيئة العامةمن السكان (٦) .

وقد استغل الصليبيون ظروف بلاد الشام العامة وتقدموا لاحتلال بعض مدنه ، بعد أن استخدموا ضد المسلمين كل الوان الكذب لاشعال شعور المسيحية ضدهم ، لكي يبذلوا في حربهم النفس والمال ، (٧) ووصلوا اليها في ١٥ آب سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦م وكانت آنئذ أوصالا مفككة بين قوى الفاطميين والسلاجقة وغيرها من القوى المحلية .

وفي سنة٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م استولوا على طرسوس والرها وحاصروا إنطاكيا ، ثم ملكوها سنة ٤٩٢ هـ . وفي نفس هذا العام إستولوا على القدس واعملوا في أهله الذبح والقتل بالجملة ، حتى ليقال أنهم ذبحوا من المسلمين سبعين الفاً طبقاً لما ورد في المصادر العربية والاجنبية على السواء (٨).

وإضافة إلى السياسة العسكرية — سياسة الارهاب والقوة — التي استخدمها الصليبيون للاستيلاء على بلاد الشام فقد إستخدموا سياسة اخرى يمكن ان تكون اول تطبيق لسياسة الاستعمار الاستيطاني باسلوب ديني . فقد كانوا يختارون لهم مواقع ذات سيطرة مهمة وينشئون لهم عليها كنيسة ، ثم يبدأون بتحصينها ومن ثم توسيعها حتى تكون قلعة حصينة ويقومون بعدها باستدعاء العساكر من أوربا إلى تلك الحصون لحمايتها ، ومن ثم لشن الغارات منها على المواقع الاسلامية المجاورة ، او لقطع الطرق على التجار والحجاج والاستيلاء على اموالهم .وكان حصن الكرك من الحصون التي اسست بتلك

---

(٦) انظر : هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبي (بيروت : ١٩٧٣) ، ص ٤٥ — ٦٠

(٧) لمعرفة الصورة الواضحة التي كانت تصور فيها أوربا الشرق الاسلامي في العصور الوسطى والعلاقات بين الشرق والغرب في فترة الحروب الصليبية انظر :

Norman Daniel ,Islam and the West (The Making of an Image) p.79,195

(٨) انظر : ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (بيروت : ١٩٠٨) ، ص ١٣٦ — ١٣٧.

الطريقة، إضافة إلى حصن عجلون في الاردن والشوبك على اطراف الشام (٩).

كذلك استخدم الصليبيون وسيلة اخرى للاستيلاء على المواقع المهمة وهي انهم كانوا يدخلون الحصون الاسلامية بوعود الامان ، ثم ينكلون بأهلها ويعذبونهم حتى يضطروا إلى مغادرة أراضيهم كما فعلوا بحصن جبيل ٤٩٧ هـ / ١١٠٣م . (١٠) .

وقد نتج عن تلك الأعمال العدوانية قيام بعض الامارات المحلية في بلاد الشام منها اتابكية دمشق – موضوع البحث – التي قامت في مدينة دمشق ومؤسسها الاتابك (*) ظهير الدين أبو منصور بن عبدالله التركي الاصل (١١) الذي استهل حياته العسكرية مملوكاً في خدمة السلطان تتش السلجوقي .

ونظراً لما إمتاز به طغتكين من مقدرة ، فقد أعتقه السلطان تتش وعهد إليه بتربية إبنه (دقاق) . ثم نزل له عن صفوة الملك ام دقاق لتكون زوجه له ، ليخلص بعد ذلك بتربية إبنه (١٢) ونظراً « لشهامته وصرامته وسداد طريقته » (١٣) فقد أعتمد عليه السلطان السلجوقي تتش كثيراً وعينه في

---

(٩) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة ، ق٢ ، ج٢ ، ص ٦٩–٧٠، ص ٨٦ – ٨٧ .

(١٠) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ،ص ١٤٣ ؛ ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٩٦.

(*) الاتابك ، تعني هذه الكلمة في اللغة التركية المنصب الذي يطلق على مربي الامراء والملوك الصغار ، والكلمة تتالف من لفظين : (أتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير أوسيد . واول من لقب بهذا اللقب هو الوزير نظام الملك من قبل السلطان السلجوقي ملكشاه ، حين فوض اليه أمر تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ . أنظر : ابن خلكان ، الوفيات : ٣١٦/٦ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى : ١٨/٤ .

(١١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ١٧٧/٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٢٣٤/٥ .

(١٢) ابن الاثير . الكامل في التاريخ : ٢٤٨/١٠ ؛ دائرة المعارف الاسلامية (بيروت : ١٩٦٦) مادة طغتكين : ١٩٦/١٥ .

(١٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ص ١٣١ .

مناصب عدة منها منصب قيادة جيشه ، كما اعتمد عليه في ولاية شؤون دمشق في حالة غيابه عنها . وولاه امارة ميا فارقين مع إبنه دقاق حيث أحسن السياسة فيها . (١٤)

وقد أخلص طغتكين من جانبه للسلطان تتش وشاركه في محاربة اعدائه فاشترك معه في القتال ضد إبن أخيه بركياروق سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م. إلا أن تتش هلك في ذلك القتال مما حدا به إلى الاعتراف بدقاق أميراً على دمشق . (١٥) فأظهر هذا ولاء عظيماً لمربية وزوج أمه طغتكين « وسرعان ماحذا طغتكين حذو كثير من الاتابكة فدفع نفسه دفعاً إلى القيام بدور الحاكم الفعلي ، ثم توفي دقاق في رمضان سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م فدان طغتكين بالولاء اولا لابن دقاق واسمه تتش ولم يكن عمره يتجاوز السنة ثم لاخ من اخوة دقاق هو (ارتاش) وكان في الثانية عشرة من عمره . وسرعان ماعزل إرتاش عن الحكم واصبح طغتكين هو الحاكم الفعلي لمدينة دمشق . (١٦) ومنذ أن تولى طغتكين ولاية دمشق أظهر مقدرة سياسية وعسكرية. وقد أشار بعض المؤرخين إلى حسن تلك السياسة ، مما جعل أهالي دمشق يرضون بحكمة لإمارته يقول سبط ابن الجوزي: «وكان شجاعاً عادلاً حسن السيرة ظاهر العدالة، كثير الاحسان مدبر الممالك، فحسنت آثاره وعمرت البلاد في ايامه» (١٧) ووصفه ابن القلانسي بقوله : « وحسنت احوال دمشق واعمالها بإيالته ، وعمرت بجميل سياسته» (١٨) كما وقف من الصليبيين موقفاً حازماً فتصدى لهم وابطل كثيراً من مخططاتهم العدوانية على بلاد الشام . وقد شهد له ابن شاكر الكتبي بقوله : « وكان شهماً شديداً على الفرنج والمندسين » . (١٩)

---

(١٤) نفس المصدر والمكان السابق .

(١٥) انظر : ابن الاثير ، الكامل : ٢٤٤/١٠ - ٢٤٥ .

(١٦) انظر : الكامل : ٣٧٥/١٠ - ٣٧٦ .

(١٧) مرآة الزمان : ١٢٨/٨.

(١٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٥ .

(١٩) عيون التواريخ: ١٩٩/١٢

فقد اخذ على عاتقه، منذ ان تسلم مهام الامور بدمشق، الوقوف بحزم ضد الصليبين وكان ذلك الامر خطيراً جداً نظراً للاضطراب السياسي الذي كان يعم بلاد الشام آنذاك ، وعدم وجود سلطة مركزية قوية قادرة على التصدى للصليبيين ففي سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م سيطر الصليبيون على مدينة عكا وجاء حاكمها دخيلا عند طغتكين (٢٠) يطلب منه العون والمساعدة . وكان هذا بمثابة تنبيه خطير لطغتكين بتحركات الصليبيين ، كما يدل ايضا التجاء حاكم عكا لطغتكين ان الاخير كان الزعيم الوحيد في بلاد الشام ، القادر ان يتزعم قيادة المسلمين في مجابهة الصليبيين ، لما كان يمتاز به من مقدرة ذاتية وقوة في عساكره ومعداته .

وقبل ان توجه طغتكين للصليبيين عمد إلى تثبيت حكمه في دمشق وإلى إخضاع الحصون والقلاع التابعة لمدينته، وذلك لتجميع القوى ومنع أي التفاف عليه من الخلف ، ربما يهدده لو إتجه بعيداً عن دمشق لمقاتله الصليبيين ، لذلك توجه إلى بعلبك بقصد إخضاعها له لان حاكمها كمشتكين الخادم ابدى نوعاً من التذمر تجاهه ، وقد تمكن من حصار المدينة واجبر حاكمها على ان يذعن له ويرضى بولايته . (٢١)

وبعد أن أمن طغتكين خطوط رجعته تفرغ للجانب الصليبي وهاجم حصن (علعال) الواقع إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية في ١٥ ربيع الاخر سنة ٤٧٩ هـ (٢٢) ، وذلك لانه علم ان الصليبيين كانوا قد شرعوا بعمارة الحصن لإتخاذه قلعة عسكرية . وقد تمكن من الزحف عليه ليلا والسيطرة على مافيه من آلات حربية وتدميره ، ثم رجع إلى دمشق ظافراً بالغنائم والاسرى ،(٢٣) حيث أقيمت احتفالات النصر و«زين البلد أربعة أيام»(٢٤)

---

(٢٠) سبط ، مرآة الزمان : ١٢٩/٨ .

(٢١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٨ .

(٢٢) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٣١٥/١-٣١٦ .

(٢٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٩ ؛ مرآة الزمان : ١٢٦/٨ .

(٢٤) الكامل : ٣٩٩/١٠-٤٠٠ ؛ الحنبلي ، شذرات الذهب : ٤٠٩/٣ .

بأنواع الزينة التي أعجبت الناظرين ، وقد وصفها ابن كثير بقوله : « وزينت البلد زينة عجيبة مليحة » (٢٥) .

وبعد إنتصار طغتكين السابق ازدادت ثقته بمقدرته وصلابة عساكره فتقدم إلى تحرير بعض الحصون الاخرى المجاورة حيث هاجم في السنة ذاتها حصن (رفينة) وهو من حصون الشام، وكان تحت سيطرة الصليبيين، واستطاع ان يملكه ويقتل خمسمائة رجل من الصليبيين (٢٦) . كما اجاب طلب الفاطميين في مصر ، عندما دعوه لمساندتهم للتصدي للصليبيين والنزول على عسقلان (٢٧) فأرسل الفين من جنوده اشتركت مع القوات الفاطمية في معركة حامية بالقرب من عسقلان تكبد فيها الصليبيون خسائر فادحة في منتصف سنة ٤٩٨ هـ / ١٠٩٥ م (٢٨) .

وبعد انتصارات طغتكين السابقة اشتد ساعد الصليبيين وازدادت حميتهم في الهجوم على المواقع الاسلامية ومحاصرتها . من ذلك محاولة — ملك بيت المقدس — محاصرة مدينة صور وصيدا في سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧م ، لغرض السيطرة عليهما ، غير ان محاولته باءت بالفشل وذلك للامدادات السريعة التي ارسلها طغتكين من دمشق ناحية البر ، ووصول الاسطول المصرى من ناحية البحر ، مما حمل الصليبيين إلى التخلي عن فكرتهم والعودة إلى القدس (٢٩) . غير ان محاولتهم لم تنته في الهجو على المدن الاسلامية اذ سرعان ماهاجموا مدينة طرابلس وتمكنوا من اسقاطها .

---

(٢٥) البداية والنهاية : ١٦٥/١٢ .

(٢٦) مرآة الزمان : ١١٣/٨ ؛ الكامل : ٤٠٠/١٠

(٢٧) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٤٨ — ١٤٩

(٢٨) الذهبي ، العبر في خبر من غبر : ٣٥٠/٣ .

(٢٩) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٦٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٢٥/٨ .

سيطرة الصليبيين على طرابلس :

ولما تعاظم امر الصليبيين في الشام وهددوا مدينة طرابلس اتفق حاكمها فخر الملك بن عمار مع طغتكين على ضرورة مكاتبة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه . وقد ارسل كتابين في سنة ٥٠٠ ﻫ / ١١٠٦ م تضمنا الخبر بشرح « ماارتكبه الافرنج من الفساد في البلاد وتملك المعاقل والحصون بالشام والساحل والفتك بالمسلمين ومضايقة ثغر طرابلس ... (ثم طلبوا منه النجدة) والحض على تدارك الناس بالمعونة » (٣٠) .

ولما لم تصل أية إمدادات خرج فخر الملك من طربلس في آذار سنة ١١٠٨م بعد ان عهد بالحكومة إلى ابن عمار وقصد الذهاب بنفسه إلى بغداد . وقد رحبت به بغداد غاية الترحيب ووعده السلطان بان جيشاً سلجوقياً ضخماً سوف يذهب لانقاذ طرابلس بعد قيامه ببعض المهام الداخلية . وقد شعر فخر الملك أن بغداد غير جادة في إنقاذ الموقف لذلك شرع في المسير عائداً إلى طرابلس.(٣١)

وفي طرابلس شعر حاكمها بأن مساعدة بغداد قد تأخرت ، لذلك أرسلوا على الفور إلى الفاطميين يطلبون العون والمساعدة ، فأرسل اليهم الوزير الفاطمي الافضل والياً على طرابلس واسمه (شرف الدولة) الذي تسلم مهام الامور في المدينة في صيف سنة ١١٠٨مبعد أن القى القبض على انصار فخر الملك وبعث بهم اسرى إلى مصر . (٣٢)

وفي تلك الاثناء كانت قوات الصليبيين قد وحدت قواها وأجمعت على إحتلال المدينة . وفي شهر تموز سنة ١١٠٩م /١١ ذي الحجة سنة ٥٠٢ﻫ أحاطت بالمدينة من كل جانب وتمكنت من إسقاطها ، ثم عمد الجنويون إلى نهب المدينة بعد أن أسروا الرجال وسبوا النساء (٣٣) رغم عهد الامان الذي

---

(٣٠) ذيل تاريخ دمشق : ١٥٦ .

(٣١) انظر : الكامل : ٤٥٢/١٠ – ٤٥٤ بارنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٥/٢ .

(٣٢) رنسيمان ، المرجع السابق : ١٠٦/٢

(٣٣) سبط الجوزي،مرآة الزمان : ٢٧/٨ – ٢٨ .

منح لاهالي المدينة . وقد اعترف بتلك الاعمال الوحشية رنسيمان حيث قال : «أخذ الجنويون ينهبون ويحرقون الدور ويقتلون كل ماصادفهم من المسلمين ...(بعد أن احرقوا مكتبة بني عمار) التي تعتبر أروع مكتبات العالم ...» (٣٤)

والذي يبدو من دراسة النصوص التاريخية ان الذي عجل في سقوط طرابلس بيد الصليبيين أن جيش السلطان السلجوقي لم يصل إلى المدينة منجداً ، لان طرابلس حوّلت ولاءها للفاطميين في مصر وطلبت المعونة منهم ، كما تبين ذلك من قبل، ومن ناحية ثانية فإن الامدادات الفاطمية لم تصل عن طريق البحر بسبب بعض الظروف الطبيعية الصعبة والمنازعات الداخلية بين قادته . (٣٥)

وقد القى المؤرخ ابن تغري بردي تبعية سقوط مدينة طربلس بيد الصليبيين بشكل مباشر على الفاطميين وأوضح بأنهم لم يكترثوا بقوة الصليبيين من كل وجه، حيث لم يوجهوا قواتهم بسرعة لانقاذ الموقف ، في حين أن القوات التي ارسلوها كانت ضعيفة ، إضافة إلى عدم خروج الوزير الفاطمي بنفسه بالعساكر المصرية، كما كان يفعل والده من قبل ، وهذا يدل على عدم صدقه في حسم الموقف مع الصليبيين . (٣٦)

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات المسلمين مفككة ، كانت قوات الصليبيين في حالة توحيد طاقاتها حيث اجتمع خارج اسوار طرابلس كل امراء الصليبيين في الشهر الرابع من سنة ١١٠٩م وهم برتراند والملك بلدوين وتنكرد وجوسلين واتفقوا جميعاً على احتلال المدينة وتسوية خلافاتهم . (٣٧)

---

(٣٤) تاريخ الحروب الصليبية : ١١٣/٢ — ١١٤ .

(٣٥) انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ — ١٦٤ .
عاشور ، الحركة الصليبية : ٣٧١/١ ،رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ١١٢/٢ — ١١٣ .

(٣٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة :١٧٩/٥ — ١٨٠ ؛ وانظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٣٧١/١ .

(٣٧) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ١١٢/٢ .

وبعد أن سيطر الصليبيون على طرابلس توجهوا إلى حصن جبله (٣٨) وحاصروه حصاراً شديداً حتى تمكنوا من الاستيلاء عليه بالامان من فخر الملك بن عمار ـ حاكم طرابلس السابق ـ الذي خرج منه متوجهاً إلى قلعة شيزر ثم إلى دمشق حيث اكرمه طغتكين اكراماً حسناً ومنحه ولاية بعض القلاع المجاورة لدمشق في المحرم من سنة ٥٥٠٣ / ١١٠٩م . (٣٩)

ومن حصن جبله توجه الصليبيون إلى حصن عِرقه (٤٠) وضربوا عليه الحصار وقطعوا عنه الميرة ، فاستنجد حاكمه بطغتكين وطلب منه المجيء اليه ليسلمه الحصن خوفاً من سقوطه بيد الصليبيين وقد جاء في كتابه «لان يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخره من أن يأخذه الفرنج» (٤١) . غير أن سوء الاحوال الجوية وهطول الامطار والثلوج ، عرقل تقدم جيوش دمشق للانقاذ . ولما وصل طغتكين متأخراً وجد أن الصليبيين قد أحاطوا بالحصن من كل جانب فأراد أن يشغلهم لبعض الوقت ويفرق شملهم فذهب لحصار حصن الاكمه (٤٢)، غير أن محاولته فشلت لان الصليبيين تمكنوا من هزيمته ، وعادوا إلى حصن عرقه مرة ثانية وملكوه بالامان . (٤٣)

---

(٣٨) جبله : قلعة بساحل الشام من اعمال حلب تقع قرب مدينة اللاذقية. (ياقوت ، معجم البلدان : ١٠٥/٢) .

(٣٩) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ .

(٤٠) عرقه : بلده تقع الى الشرق من طرابلس (ياقوت ، معجم البلدان : ١٠٩/٤) .

(٤١) ابن الاثير الكامل : ٤٦٧/١٠ – ٤٦٩ .

(٤٢) الأكمه : حصن يقع في الجليل بفلسطين (معجم البلدان : ٢٤١/١) .

(٤٣) ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ١٦٢

الهدنة بين بلدوين الاول وطغتكين سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م:

أصبح الصليبيون بفضل إنتصاراتهم السابقة يقطعون طرق المواصلات ويهددون قوافل التجارة الذاهبة من وإلى دمشق . ففي احدى المرات سيطروا على قافلة تجارية كانت تضم أربعة الاف جمل كانت في طريقها إلى دمشق.(٤٤)

ولما كان طغتكين غير قادر على التصدي للصليبيين لوحده من ناحية، ورغبة الصليبيين أنفسهم بالاتفاق معه من ناحية ثانية ؛ لذلك عمد طغتكين إلى التنازل للصليبيين عن بعض مواقفه ووافق على عقد هدنة قصيرة الامدإستغلهالتجميع قواته. وعلى اثرها هاجم منطقة الجليل واصطدم بالصليبيين خارج طبرية ، انتصر فيها عليهم وأسر منهم الامير جيرفاس بوسوك ومعظم قادة جيشه . ثم أخطر بلدوين بعد ذلك وطلب منه التنازل له عن طبرية وعكا وحيفا ثمناً لاطلاق سراحهم. ولما رفض بلدوين طلبه أمر باعدام خيرفاس . (٤٥)

وفي نهاية سنة ١١٠٨م راسل بلدوين طغتكين وقال له في جملة ماذكر: «فالملوك ينالهم اكثر مما نالك ثم تعود امورهم إلى الانتظام والاستقام ...» (٤٦) وطلب منه الموافقة على عقد هدنة جديدة لمدة عشر سنوات نصت على أن «يكون السواد (٤٧) وجبل عوف اثلاثاً ، للاتراك الثلث والإفرنج والفلاحين الثلثان (٤٨) ». وقد وافق طغتكين على المعاهدة لمصلحة بدت له منها .

والراجح ان الطرفين قبلا بالهدنه لدواعٍ تجاريه ، لان المعارك السابقة قطعت الطرق التجارية ، وفي ذلك مايعود بالخسارة على الطرفين.

---

(٤٤) رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ١٥٨/٢ ؛ العريني ، الشرق الا وسط والحروب الصليبية : ٣١٦/١ — ٣١٧ .

(٤٥) تاريخ الحروب الصليبية : ١٥٦/٢ .

(٤٦) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ : ٤٦٧/١٠ — ٤٦٩ ؛ وانظر ابن خلدون ، العبر: ١٥٢/٥ .

(٤٧) السواد : موضع قرب البلقاء في شرق نهر الاردن ، سمي بالسواد لسود حجارته (ياقوت الحموي معجم البلدان : ٢٧٠/١) .

(٤٨) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٦٤ ؛ وانظر : سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان: ٢٨/٨ . وقد ذكر الاخير نص المعاهدة بالشكل التالي :« على أن يكون السواد وجبل عوف أثلاثاً للافرنج والباقي للمسلمين »

اضافة إلى أن بلدوين كان متخوفاً من طغتكين وكان يعلم يقيناً ان المسلمين سوف لن يسكتوا عمّا أصابهم من خسائر ، وانهم سوف يجمعون شملهم ويأخذون بثأرهم . كما ان مصرع (جيرفاس) ابن اخت بلدوين بطبريه على يد طغتكين ، ترك اثر سيء في نفوس الصليبيين مما جعلهم يتنازلون قليلاً عن انتصارهم خوفاً من عواقب الامور .

وبذلك فإن التقاء مصلحة الطرفين عجلت في توقيع بنود الهدنة ، والذي يبدو أن الصليبيين كانوا هم الغالبين . فقد أخذوا حصة الاسد من الاراضي ، وتركوا للمسلمين الثلث بحجة ان الثلث الثالث للفلاحين . علماً ان الاراضي التي بقيت للفلاحين كانت بشكل أو آخر تحت النفوذ الصليبي وتستمد قوتها منهم . وبمعنى آخر لقد كان بلدوين ذكياً بحيث تمكن من املاء شروطه على طغتكين وجعله يتنازل عن بعض حقوقه للصليبيين بحجة ان الثلث الثالث للفلاحـــيـــن .

ورغم أن المعاهدة السابقة كانت مجحفة حقوق المسلمين ، فإنها كانت بنظر بعضهم ايجابية ، لانها أوقفت – على الأقل – الغزو الصليبي على مدينة دمشق ، وأعطت لحكامها قسطاً من الراحة مكنتهم من اعداد عدتهم للمعارك المقبلة يقول ابن الأثير : «وكان ذلك من لطف الله تعالى بالمسلمين ، ولولا هذه الهدنة لكان الفرنج بلغوا من المسلمين ... أمراً عظيماً » . (٤٩)

ولما كان هدف الصليبيين التوسع المستمر على حساب الارض العربية ، لذلك فان المعاهدة السابقة لم توقف نشاطهم ، بل وجدوا ستارا يحجب تحركاتهم في القسم الشمالي من بلاد السام غير المشمول بالمعاهدة السابقة ، لذلك لم تمض سنة واحدة على عقد تلك المعاهدة حتى تقدم بلدوين إلى مدينة بعلبك بقصد احتلالها (٥٠) . كما هاجم الصليبيون في الطرف الثاني حصن رفنية ، مما دفع طغتكين إلى التصدي لهم والتقدم لحربهم ، غير انهم سرعان ما انسحبوا من

---

(٤٩) الكامل في التاريخ : ٤٦٧/١١.

(٥٠) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٧١

من مواقعهم الجديدة ، وتقدموا بعرض جـــديد للسلام يمنحهم سيطرة اكثر على بعض المناطق الاخرى ، وافق عليها طغتكين في لبس من الامر لم يذكر عنه المؤرخون شيء والذى يبدو انه قبل بها للاسباب السابقة الخاصة بعدم تمكنه من محاربتهم . وكان الاتفاق الجديد ينص على : « ان يكون للافرنج الثلث من استقلال البقاع ويسلم اليهم حصن المنيطرة وحصن بن عكار ويكفوا عن العبث والفساد في الاعمال والاطراف ، وان يكون حصن مصايف وحصن الطوفان وحصن الاكراد داخلا في شرط الموادعة ويحمل اهلها عنها مالا معيناً في كل سنة إلى الافرنج » » (٥١) .

غير ان المعاهده السابقة لم تستمر ففي سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م نقض بلدوين شروطها وامر حاكم طرابلس الصليبي (صنجيل) بتجهيز جيوشه والنزول على طبرية للسيطرة عليها .

ولما علم طغتكين بمخططات الصليبين صمم على محاربتهم بكل ماأوتي من قوة فاستدعى كافة عساكره ثم امرهم بمحاصرة الصليبيين . فانتشروا في مناطق عدة ونجحوا في قطع الميرة عنهم ، فاضطروا إلى طلب الصلح فوافق طغتكين وانتهى الامر بأن تتقلص الاراضي التي كانت تحت سيطرة الصليبيين ، وتمنح الاعمال والضياع التي تلي جبل عوف والسواد إلى العرب من آل الجراح .(٥٢) . وبذلك استعاد العرب بعض حقوقهم وبدأت مرحلة جديدة من التكتل ضد الصليبيين .

وحدة عساكر ديار بكر وبلاد الجزيرة ضد الصليبيين وموقف طغتكين منها :ـ

كانت لدى السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه رغبة في تجميع الجيوش الاسلامية من مناطق الجزيرة وديار بكر وارسالها إلى بلاد الشام لمحاربة الصليبيين الذين زاد خطرهم على المدن والقلاع الاسلامية وباتوا يهددون بلاد الشام باسرها.

---

(٥١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٨/٣٠ـ ٣١ ، ذيل تاريخ دمشق : ١٦٥.

(٥٢) ذيل تاريخ دمشق : ١٧٤ ، مرآة الزمان : ٨/٣٥

وكانت بداية تلك الرغبة سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م عندما طلب من طغتكين أن ينظم إلى العساكر التي سوف تأتيه من بلاد الجزيرة . (٥٣) .

الا أن تلك الرغبة لم تتحقق الا في العام التالي سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م حيث طلب السلطان ملكشاه من بعض الامراء المسلمين ، التابعين له ، ان يوحدوا عساكرهم ويتجهوا إلى بلاد الشام ، حيث يستقبلهم هناك طغتكين حاكم مدينة دمشق ، والملك رضوان ، حاكم مدينة حلب ، وكان من بين الامراء الذين وصل اليهم نداء السلطان السلجوقي : شرف الدين مودود امير الموصل ، وقطب الدين سكمان امير ديار بكر (٥٤) والامير أحمد يل (امير مرافة) (٥٥) والامير ايلغازي حاكم مدينة ماردين (٥٦) الذي ارسل نيابة عنه إلى بلاد الشام ابنه اياز (٥٧) .

والحقيقة ان وحدة العساكر السابقة لم تنجح ، لاختلاف مصالح الامراء السابقين ورغبة بعضهم بالحفاظ على امارته ، وعدم التنازل عن قيادة الجيوش. اذ سيطرت على البعض منهم المصالح الشخصية (٥٨) وهذا هو السبب الذي ادى إلى فشلهم وتفرق كلمتهم وبالتالي إلى استغلال الصليبيين للموقف ومهاجمتهم مدينة دمشق ، كما سيتبين ذلك فيما بعد .

أما الجيوش المتجمعة فقد توجهت إلى بلاد الشام بقيادة الامير مودود حاكم الموصل ووصلت إلى (تل باشر) . لكن سرعان ماحصلت الاختلافات وظهرت الاطماع ، وكشف كل واحد من الامراء عن موقفه ، فاختلفت كلمتهم وانسحبوا إلى مدينة حلب . وقد عزا المؤرخ ابن الاثير بعض اسباب ذلك

---

(٥٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٦٥ - ١٦٦ ، مرآة الزمان : ٣١/٨ .

(٥٤) مرآة الزمان : ٣٥/٨ - ٣٧ .

(٥٥) مراغة : مدينة في منطقة اذربيجان انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان : ٩٣/٥ .

(٥٦) ماردين : قلعة مشهورة تقع على جبل الجزيرة وتشرف على دنير ودارا ونصيبين ياقوت، المعجم : ٣٩/٥ .

(٥٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ : ٤٨٥/١٠ .

(٥٨) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٤٥٨/١ - ٤٥٩ .

الاختلاف إلى الامير أحمديل ــ امير مراغة ــ الذي انسحب إلى بلاده بعد أن علم بوفاة الامير سكمان القطبي ، وذلك ليقنع السلطان السلجوقي بضرورة اعطائه املاكه (٥٩) .

ولقد كان موقف طغتكين من وحدة تلك العساكر ،موقفاً صادقا ، لانه حالما وصله النداء من بغداد توجه نحو توحيد الطاقات من المدن والقلاع التابعة له . وجمع جيوش مدينة دمشق وحمص وحماة ورفنية (٦٠) وتقدم نحو حلب حيث توجد العساكر التي قدمت من الجزيرة وديار بكر .

وقد ظهرت المشكلة حين امتنع امير حلب (رضوان) من فتح ابواب مدينته والسماح للعساكر الاسلامية من الدخول إلى المدينة خوفاً على امارته من السقوط بأيديهم ، علماً بأنه تنازل للاسماعيلية قليلاً (٦١) واعتمد عليهم في حفظ أسوار المدينة (٦٢) ومن ناحية ثانية فان الامير رضوان لم يكن متحمساً للجهاد ضد الصليبيين ، وكان يخشى انضمام اهالي حلب إلى العساكر الاسلامية ، لان ذلك يؤدي إلى سقوط ملكه. ولذلك اعتمد على رجال الاسماعيلية في حفظ البلد (٦٣) .

(٥٩) الكامل في التاريخ : ٤٨٥/١٠ – ٤٨٨ .

(٦٠) مرآة الزمان : ٣٥/٨ – ٣٦ .

(٦١) الاسماعيلية : ويقصد بها الحركة الجديدة التي سميت بالحشيشية . وقد ظهرت بشخص الحسن بن الصباح ، والتي ادعت انها تنتسب إلى اسماعيل بن الامام الصادق (ع) . وقد بدأت هذه الحركة بالعمل بعد احتلالها لقلعة الموت سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠ م. الواقعة شمال بحر قزوين وقد قام دعاة هذه الحركة بأعمال ارهابية كثيرة في منطقة الشام وايران وتعاونوا مع الصليبيين ضد بعض الحكام من المسلمين ولمعرفة المزيد عنهم انظر :

Ency·Britannic(Art· Assassins)11, P· 621, Ancy· of Islam(Art·Al· Batinyy)1, P·P·1098 – 1099,

دريد عبد القادر نوري ، سياسة صلاح الدين الايوبي ، ص ٣٦٣ – ٣٧٩ .

(٦٢) زبدة الحلب في تاريخ حلب : ١٥٨/٢ – ١٦١ ، ذيل تاريخ دمشق : ١٧٥ .

(٦٣) انظر : العريني ، الشرق الاوسط : ٤٥٩/١ .

هكذا اذن فان المصالح الشخصية وخوف بعض الامراء على ملكهم من السقوط ادى إلى تفرق الكلمة وانسحاب العساكر كل إلى مواطنها . علماً بأن البعض لم تكن «لديه عزيمة في الجهاد ، ولا في حماية البلاد» (٦٤) ولم يبق من اولئك الامراء من هو مصمم على الجهاد ضد الصليبيين سوى طغتكين والامير مودود حاكم الموصل (٦٥) . حيث اتفقا على تشكيل جبهة واحدة ضد الصليبيين ، وتقدما بقواتهم نحو شيزر . وهناك خرج اليهم اميرها (أبو العساكر ابن منقذ) واخبرهما بأن الصليبيين قد انشأوا لهم حصناً عسكرياً مقابل شيزر بعد علمهم بتفرق عساكر المسلمين ، مما دفع بطغتكين ومودود إلى المسير اليه ومهاجمته ، واجبار الصليبيين إلى العدول عن اكمال انشائه والعودة إلى حصن رفينـــة (٦٦) .

هجوم الصليبيين على دمشق واندحارهـــم

ان فشل الحملة التي اراد الامراء المسلمون القيام بها ضد الصليبيين في منطقة الشام سنة ٥٠٥هـ/١١١١م أظهرت تفككهم وعجزهم عن جمع شملهم ، كما انها فسحت المجال للصليبيين ليكونوا ــ كما يقول ابن القلانسي ــ «يدا واحدة على الاسلام» (٦٧) . لذا شرع الصليبيون في سنة ٥٠٦هـ/ ١١١٢م إلى مهاجمة مدينة دمشق واعمالها ، وإلى نهب وتخريب مايمكنهم الوصول اليه فانقطع نتيجة لهذه الاعمال العدوانية ، ايصال المواد الغذائية إلى دمشق ، فارتفعت الاسعار ، وضاقت أحوال دمشق. لذلك طلب طغتكين المعونة من صديقه (مودود) أمير الموصل ، (وتميرك) امير سنجار ، واياز بن الغازي امير ماردين والتقت عساكر الجميع عند منطقة سلمية (٦٨) .

---

(٦٤) ذيل تاريخ دمشق : ١٧٥ .
(٦٥) انظر : مرآة الزمان : ٣٥/٨ ، ٣٧ ، زبدة الحلب ، ١٥٨/٢٠ ـ ١٦١ .
(٦٦) الكامل في التاريخ : ٤٨٥/١٠ ـ ٤٨٨ ، تاريخ ابن خلدون : ٤١/٥ .
(٦٧) مرآة الزمان : ٣٧/٨ .
(٦٨) سلمية : بلدة صغيرة من اعمال حماة (ياقوت ، معجم البلدان : ٢٤/٣) .

ومن هناك توجهوا لمحاربة الصليبيين، فاتجهوا نحو طبرية وعند الاقحوانية(٦٩) ، اصطدموا بالصليبيين في ١٣ محرم سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م وانزلوا بالصليبيين خسائر فادحة (٧٠) واسروا منهم حوالي الفي فارس ، كما غرق قسم كبير منهم في بحيرة طبرية حتى قيل ان ماءها مال لونه إلى الاحمرار من كثرة دماء الصليبيين حتى أن بعض الناس امتنع عن شربه لعدة أيام (٧١).

وبالرغم من المبالغة الكبيرة في الو صف السابق ، الا أنها تدل — من غير شك — على عظم المعركة التي اعد لها المسلمون ، وعظم الخسارة التي مني بها الصليبيون.

ونتيجة للانتصار السابق ، فقد دب الشعور بالحماس والقوة في نفس طغتكين ومودود والامراء الاخرين المرافقين له ، فاغاروا على الضياع الصليبية الواقعة بين مدينة عكا وبيت المقدس ، وخربوها وقتلوا بعض من كان فيها من العساكر المقاتلة ، ثم عادوا إلى دمشق (٧٢) للاستراحة وقد امر مودود العساكر الاسلامية بالعودة إلى ديار بكر طلباً للراحة ، على ان يعودوا مرة ثانية لمواصلة مقاتلة الاعـداء (٧٣).

ومن دمشق عمد الامير طغتكين إلى مكاتبة الخلافة العباسية لاخبارها بانتصاراته التي حصل عليها . وليبرهن لها من ناحية ثانية صلته بها ، واستمداد سلطته منها . فأرسل لها مع بعض كتبة عدداً من الاسرى — كدليل عملي على الانتصار — مع كثير من الهدايا وكمية من اسلحة الصليبيين (٧٤) .

---

(٦٩) الاقحوانه : موضع بالاردن على شاطيء طبرية (معجم البلدان : ٢٣٤/١) .

(٧٠) انظر : الكامل : ٤٩٥/١٠ — ٤٩٦ : تاريخ العبر : ٤١/٥ — ٤٢ ، البداية والنهاية ١٧٥/١٢ — ١٧٦ .

(٧١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٤٢/٨ — ٤٣ .

(٧٢) نفس المصدر والمكان السابق ، اليافعي مرآة الجنان : ١٩٣/٣ .

(٧٣) انظر : أبو الفدا ، المختصر في اخبار البشر : ٢٢٦/٢ ، ذيل تاريخ دمشق : ١٨٣ ١٨٧ .

(٧٤) نفس المصدر والمكان السابق .

موقف طغتكين من الغزو الصليبي لمدينة صور :

كانت صور احدى اهم المدن الساحلية لبلاد الشام ، والتابعة للنفوذ الفاطمي في مصر وكان واليها عزالدين الملك الاغر . وفي سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م هاجمها الصليبيون ورغبوا في احتلالها لما تتمتع به من موقع ستراتيجي مهم . وقد ابدى أهالي المنطقة صلابة كبيرة في الدفاع عن مدينتهم ، في حين ارسلوا بطلب النجدة من مصر ، ولما يئسوا من وصول الاسطول المصري الذي كان من المتوقع أن يأتي لنجدتهم (٧٥) استماتوا في القتال ، واشغلوا الصليبيين عدة أيام حتى تمكنوا من الاتصال بالشخصية القديرة الوحيدة التي كانت معروفة في بلاد الشام الا وهو طغتكين (٧٦) ويقال ان امير مدينة صور بعث إلى طغتكين عشرين الف دينار مقابل امداده بخمسمائة من الرماة ، كما انه بعث اليه بعض التحف الموجودة في صور خوفاً من ضياعها أو سقوطها بيد الصليبيين عند تقدير اسوأ الاحتمالات (٧٧) .

وقد استجاب طغتكين لنداء اهالي صور فجمع عدته وتوجه نحو مدينة بانياس ، حيث جعلها مركزا لانطلاقاته ضد الصليبيين ، وبعث منها بعض سراياه من الرجالة والخيالة غير ان تلك العدة لم تتمكن من الدخول إلى المدينة لشدة حصار الصليبيين لها . فعمد طغتكين إلى فرض حصار اقتصادي على القوات الصليبية المحاصرة لمدينة صور ومنع ايصال الميرة اليهم عن طريق

---

(٧٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٨٣ — ١٨٧ .

(٧٦) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ : ٤٨٨/١٠ — ٤٩٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/ ١٧٣ .

(٧٧) انظر : العريني ، الشرق الاوسط : ٣١٣/١ ، والذي اعتقده ان امير صور بعث بتلك المبالغ الضخمة لطغتكين مقابل مساعدته لانه كان يظن أن طغتكين سوف لن ينجده لان صور كانت تابعة للفاطميين . لذلك كانت تلك المبالغ بمثابة اغراءات لطغتكين تحفزه في المسير إلى صور ، وتمنع من ناحية ثانية تدخله في شؤون المدينة الداخلية بعد طرد الصليبيين على أعتبار أنه أخذ أجره مقدماً .

البر الا أن خطة طغتكين لم تنجح لان الامدادات اخذت تصل إلى الصليبيين عن طريق البحر . فاضطر إلى مهاجمة مدينة صيدا ، التي كانت تحت النفوذ الصليبي وكانت تمد الصليبيين المحاصرين لصور بالاعتدة والتموينات . وذلك لقطع تلك الامدادات من ناحية ، وليجبر الصليبيين المحاصرين لصور على ترك الحصار والعودة إلى صيدا لانقاذها وقد تمكن من كسب الموقف واغراق عدد من المراكب الصليبية التي كانت ماكثة على ساحل صيدا (٧٨) .

ادت هذه الخطة ، التي قام بها طغتكين ، إلى انسحاب الصليبيين من حصار مدينة صور ، خاصة وان اهالي المدينة تمكنوا من احراق الابراج التي نصبها الصليبيون على سور المدينة (٧٩).

والذي يبدو من دراسة المصادر المعاصرة ان حكام صور كانوا غير مطمئنين من نوايا طغتكين ، وكانوا يظنون به ظن السوء ، رغم المساعدات الجليلة التي قدمها لهم وقد ابدى طغتكين — على مايبدو — تحفظه من سوء مقاصدهم نحوه وخاطبهم صراحة بقوله : « انا مافعلت (ويقصد مساعدته لهم) الا ألله تعالى ، لارغبة إلى حصن ولا مال ، ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ورجالي ... » (٨٠) وبهذا القول عبر طغتكين لاهالي صور عن صدق نواياه تجاههم ، واوضح لهم مقاصده الشريفة البعيدة عن الاطماع الدنيوية ، وا ظهر لهم رغبته الصادقة في مساندتهم والدفاع عن بلدهم ضد الصليبيين في المستقبل. وقد اعجب المؤرخ العربي ابن تغرى بردى بصدق طغتكين في تصريحه السابق فعلق عليه بقوله : « فلله دره من ملك » (٨١) .

وقد اقتنع اهالي صور بعد ذلك بنوايا طغتكين ، لذلك طلبوا منه النجدة في المرة الثانية سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢م ، عندما علموا بأستعدادات الصليبيين

---

(٧٨) مرآة الزمان : ٣٨/٨ — ٣٩ .

(٧٩) نفس المصدر والمكان السابق .

(٨٠) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق : ٣٨/٨ — ٣٩ ، ذيل تاريخ دمشق : ١٨١.

(٨١) النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة : ١٨٣/٥ .

لغزو مدينتهم ، وطلبوا الانضمام اليه . وقد جاء في رسالة حاكمها عز الملك تنازلا صريحاً لطغتكين عن مدينة صور والا فإنه سوف يسلمها للصليبيين (٨٢) ولذلك كله ارسل طغتكين لهم عدداً من الجند بقيادة الامير مسود الذي تسلم المدينة منهم ، فهدأت احوالهم وطابت نفوسهم . (٨٣)

ولما كانت مدينة صور تابعة للخلافة الفاطمية في مصر ، لذلك لم يشأ طغتكين إساءة العلاقة معها ، لان مهمته كانت في صد الهجوم الصليبي الذي كان يستهدف بلاد الشام ، لافي توريط نفسه في حروب داخلية ضد القيادات الاسلامية المتواجدة في المنطقة آنذاك . لذلك كله عمد إلى مراسلة الفاطميين في مصر وأوضح لهم حسن مقاصده ونواياه بدفاعه عن البلد ضد الصليبيين ، وإنه تسلم البلد برغبة اهالي المدينة وأميرها وانه « متى وصل اليهم من يذب عنهم سلمتها (اي مدينة صور) اليه » (٨٤) كما اكد طغتكين للفاطميين ضرورة الاهتمام بمدينة صور وتقويتها وارسال المواد الغذائية اليها . (٨٥)

وقد اقتنع الفاطميون بنوايا طغتكين الحسنة في صور ، فارسلوا له عدداً من السفن محملة ببعض المواد والسلع المهمة التي يحتاجها اهالي صور ، كما بعثوا له ولولده ولامير مدينة صور كثيرا من الخلع والهدايا تكريماً لجهودهم، وإعترافاً منهم بما حصل في المدينة من تطورات . (٨٦)

اما مستقبل مدينة صور ، فأن الامير مسعود والي طغتكين عليها ، قد أحسن التصرف فيها . فقد عمد إلى تقويتها والاكثار من عساكرها والاهتمام بشؤونها الاقتصادية حتى رخصت الاسعار فيها ، مما دفع بلدوين — ملك

---

(٨٢) انظر : ابن الاثير ، الكامل : ١٠/٦٢٠–٦٢٢ .

(٨٣) ابن القلانسي ،ذيل تاريخ دمشق : ١٨١ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٨/٤١–٤٢.

(٨٤) مرآة الزمان : ٨/٤٢ .

(٨٥) ذيل تاريخ دمشق : ١٨٢ .

(٨٦) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٨/٤٥ .

بيت المقدس الصليبي – إلى ان يطلب مهادنته والمسالمة على حسم النزاع بين الطرفين (٨٧).

غير ان الظروف العامة لمدينة صور تبدلت ، لان الخليفة الفاطمي الافضل قرر استعادة سلطانه على صور فارسل اليها في سنة ١١٢٢م أميراً من جانبه ، بعد ان عزل الامير مسعود وارسله مكرماً إلى طغكتين ، الذي قرر من جانبه عدم منازعة الفاطميين لان الخطر الصليبي ازداد في تلك الفترة ، خاصة وان اعداد كبيرة من القوات الصليبية وصلت إلى بيت المقدس من البنادقة. وقد وقّع الجميع في اوائل سنة ١١٢٤ م ، في مدينة عكا،معاهدة كانت نتيجتها ان تحرك الجيش الصليبي إزاء الساحل قاصداً صور لاحتلالها (٨٩) .

ولما كانت مدينة صور تقع في شبه جزيرة لم يربطها بالبر الا برزخ ضيق، لذلك فإن مياه الشرب كانت تأتي اليها عن طريق سقاية ممتدة من البر ، وكان هذا نقطة ضعف في المدينة إستغله الصليبيون فعمدوا إلى سد تلك السقاية، فانقطع الماء عن المدينة ، ومن جهة البحر فإن سفن البنادقة كانت قد احكمت محاصرتها لصور مما ضيق على اهالي المدينة كثيراً ومنع وصول الامدادات اليهم فاضطر الفاطميون إلى القيام بعدة غارات خارج المدينة بأن هاجموا القدس وبعض قرى صليبية مجاورة بقصد إجبار الصليبيين عن التخلي عن صور ،غير ان تلك المحاولات باءت بالفشل. فعمد طغتكين إلى مراسلة الصليبيين وعرض عليهم تسليم المدينة اليهم بعد ان يؤمن على كل أفرادها وامتعتهم، وبعد ان يسمح لمن أراد منهم مغادرتها بأمان . فوافق الصليبيون على تلك الشروط ، وبذلك فتحت مدينة صور ابوابها للغزاة . وكان ذلك في ٢٣ جمادي الاولى سنة ٥١٨ هـ / ٧ تموز سنة ١١٢٤ م بعد ان بقيت صامدة بوجه اعدائها قرابةخمسة شهور من دون اية مساعدات (٩٠).

---

(٨٧) انظر : مرآة الزمان : ٤٥/٨ .

(٨٩) انظر : رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢٦٧/٢ – ٢٦٨ .

(٩٠) لمعرفة المزيد عن سقوط مدينة صور بيد الصليبيين ، واحوال البلد بعد عودته للنفوذ الفاطمي انظر : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١١ ؛ الكامل : ٦٢٠/١٠ – ٦٢٢ ؛ دول الاسلام ٣١/٢ ؛ شذرات الذهب : ٥٧/٤ ؛ تاريخ الحروب الصليبية : ٢٦٨/٢ – ٢٧٦.

ولقد كان لسقوط مدينة صور بيد الصليبيين بالغ الاثر في نفوس المسلمين عامة ، كما كانت خسارة مني بها اهالي الشام خاصة ، لان صور من الموانى المهمة الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، ويمتاز بموقعه التجاري الممتاز . (٩١)

محاولات الصليبيين الاستيلاء على دمشق وفشلهم :-

بعد ان ملك الصليبيون مدينة صور ، ازدادت ثقتهم بانفسهم ، فاستجمعوا قواهم وتوجهوا صوب المناطق الداخلية لبلاد الشام ، وكان هدفهم الاول السيطرة على مدينة دمشق لما تمتاز به هذه المدينة من موقع ممتاز . فهي تصل بين العراق والشام من ناحية كما انها تقع على الطريق التجاري الممتد من الفرات إلى النيل (٩٢) هذا بالاضافة إلى ان حكام دمشق كانوا اقوياء وكانوا بقواتهم العسكرية احدى اهم القوى الاسلامية التي يهابها الصليبيون في بلاد الشام ، نظرا لما قامت به من انتصارات مسبقة على الصليبيين من ناحية وامدادها بالتموين المستمر للمدن والقلاع الاسلامية الاخرى ، التي كان الصليبيون يحاولون الاستيلاء عليها ، من ناحية ثانية .

وكان اول عمل بدأ به الصليبيون ، هو محاولاتهم السيطرة على القلاع المجاورة للمدينة او الواقعة على طريقها ليتسنى لهم تأمين خطوطهم الخلفية . فتقدموا نحو حصن رفنية ،من اعمال مدينة حمص ، سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م في محاولة للاستيلاء عليه . غير ان طغتكين فاجأهم ليلا بقواته ، وتمكن من كبسهم وقتل العديد منهم ، ثم عاد إلى مدينة دمشق مسرورا مع عدد من الاسرى الصليبيين (٩٣).

---

(٩١) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٣٤١/١ .

(٩٢) انظر : ارنست باركر ، الحروب الصليبية : ٥٠ .

(٩٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٩٢ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر : ٢٣/٢، الكامل في التاريخ : ٥١٢/١٠ ، المختصر في اخبار البشر : ٢٢٩/٢ .

ولما كانت رفنية ذات موقع ممتاز ، بحكم وقوعها على نهر العاصي فيما بين حمص وحماة ، لذلك عمد (بونز) امير طرابلس الصليبي إلى انشاء قلعة بعرين بالقرب من رفنية ، لتكون محطة لشن الغارات منها على الثانية (٩٤). وقد نجح الصليبيون فعلا في محاولاتهم وتمكنوا من السيطرة على حصن رفنية سنة ٥٢٠هـ ١١٢٦م بعد ان شنوا الكثير من الهجمات عليه وضايقوا اهله (٩٥).

وبعد أن امن الصليبيون طريقهم المار بحمص وحماة تقدموا لمهاجمة مدينة دمشق ، ووصلوا إلى منطقة حوران القريبة منها وتمكنوا من قطع الطرق المارة بدمشق شمالا . وفي تلك الاثناء كان طغتكين يعد عدته للحرب ويطلب الامداد من الامراء المسلمين في دياربكر .وما ان وصلته الامدادات حتى خرج لملاقات الصليبيين فالتقى معهم في ذي الحجة من سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٢٦م (٩٦) وكانوا بقيادة بلدوين — عند مرج الصفر القريب من تل الشقب والواقع إلى الجنوب الغربي من مدينة دمشق بحوالي عشرين ميلاً (٩٧) .

وفي تلك المنطقة — مرج الصفر — دارت معركة بين الطرفين دلت بداياتها إلى نصر الصليبيين وهزيمة المسلمين . فقد انسحب طغتكين وجماعة من عسكره إلى خارج ساحة المعركة ، وظن انها الهزيمة فلحق به الصليبيون تاركين معسكرهم وخيامهم واموالهم بدون حامية قوية فالتافت العساكر التركمانية التي لم تنسحب بعد من ساحة المعركة إلى المعسكر الصليبيين وتمكنت من السيطرة عليه وغنيمة مافيه . لذلك رجع الصليبيون من ملاحقتهم الفاشلة ولما وصلوا إلى معسكرهم ، فزعوا لما حل بهم فهربوا منهزمين «لايلوى الاخ على اخيه» (٩٨) وبذلك عادت هزيمة المسلمين إلى نصر حيث ظن

---

(٩٤) انظر :سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية : ٥٢٨/١ .

(٩٥) انظر : ابن الأثير ، الكامل : ٦٤٠/١٠ ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ٢١٦.

(٩٦) انظر : الكامل في التاريخ : ٦٣٩/١٠ ، مرآة الزمان : ١١٦/٨ .

(٩٧) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢٧٨/٢ .

(٩٨) ذيل تاريخ دمشق ٢١٢ — ٢١٤ ؛ الكامل في التاريخ : ٦٣٩/١٠ ؛ تاريخ العبر: ١٥٥/٥.

الصليبيون ان هزيمة المسلمين مكيدة وان عساكرهم قد احاطت بهم من كل جانب .

ولم تنقطع محاولات الصليبيين للسيطرة على دمشق ، اذ سرعان ماتجدد نشاطهم بعد وفاة اميرها طغتكين سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٩ م . حيث استجمع الصليبيون قواهم وداهموا المدينة وكان قد تولى الامر انئذ الامير تاج الملوك بورى بن طغتكين ، الذي بدأت الاضطرابات الداخلية تظهر في عهده . وذلك لاستفحال نشاط الدعاة الاسماعيلية الجدد (الحشيشية) في مدينة دمشق ، نظرا لمساندة الوزير الدمشقي المزدقاني لهم ، بالاضافة إلى سيطرتهم على حصن بانياس (٩٩).

وقد وجد الصليبيون في الدعاة الاسماعيلية خير معين لهم من داخل مدينة دمشق يستطيعون بواسطتهم اسقاط المدينة بايديهم ، لذلك اتفق بلدوين — ملك بيت المقدس الصليبي — مع الاسماعيلية ، اتفاقاً سريا ، تعهد بموجبه الاسماعيلية بتسليم مدينة دمشق للصليبيين ، على ان يتنازل الصليبيون لهم عن مدينة صور . وكادت المؤامرة ان تتم لولا ان كشفها الامير بورى ، فأمر بالتنكيل بالاسماعيلية وتشريدهم ، كما قتل الوزير المزدقاني وكان ذلك في عام ٥٢٣ هـ (١٠٠) فالتجأ الاسماعيلية — نتيجة لتشريدهم من مدينة دمشق — إلى الحصون الصليبية وتنازلوا لهم عن مدينة بانياس (١٠١) مما زاد في قوة الصليبيين في منطقة الشام ، ودفعهم إلى التصميم على مهاجمة مدينة دمشق .

ولم تمض سنة واحدة على التحالف السابق بين الاسماعيلية والصليبيين وسقوط مدينة بانياس بايديهم حتى اخذ الصليبيون يجمعون قواهم من جديد في محاولة لحصار دمشق واسقاطها بأيديهم ، ففي ذي الحجة من سنة ٥٢٣هـ

---

(٩٩) انظر : العريني ، الشرق الاوسط : ٣٤٩/١ .

(١٠٠) الكامل في التاريخ : ٦٥٧/١٠ — ١٥٨ .

(١٠١) ابن تغري بردي ، مرآة الزمان : ٥٢٣/٨ — ٥٢٤ .

/ ١١٢٨ م توجه مايقارب الستين الف مقاتل صليبي مابين فارس وراجل نحو دمشق من مدينة القدس وانطاكيا وطرابلس وحصن الرهاوالمناطق الساحلية الاخرى الخاضعة للصليبيين (١٠٢) .

ورغم مافي العدد السابق من مبالغة واضحة في تضخيم عدد القوات الصليبية لعدم وجود احصائيات دقيقة للمقاتلين من ناحية ، واعتماد بعض المؤرخين العرب المبالغة في ذكر اعداد جيوش الاعداء لتعظيم انتصاراتهم عليهم من ناحية اخرى — فان المدن الكثيرة التي اشتركت في الهجوم على دمشق والاعداد الضخمة من المقاتلين يدل من غير شك ، على رغبة الصليبيين الصادقة في اسقاط دمشق بأيديهم نظرا لاهميتها الستراتيجية لذلك نراهم قد اعدوا لها كل قواهم ، واستجمعوا لها كل طاقاتهم .

اما موقف امير دمشق (بورى) من هذا التجمع الصليبي فقد كان موقفاً ايجابياً ، اعلن على اثره مايسمى (بالنفير العام) فجمع قواته من العرب والتركمان ، كما ارسل إلى الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي في بغداد ، جماعة من وجهاء دمشق لطلب النجدة واحضار المساعدة ،منهم الفقية عبد الوهاب الحنبلي (١٠٣) .

والذي يبدو ان اولئك الرسل قد أثاروا حماس الناس الديني في بغداد ودفعوهم إلى كسر منبر الجامع الذي كان مركز تجمع المسلمين في ايام الجمع ، حيث يتواجد الخليفة فيه وتلقى منه بيانات الدولة الرسمية . يقول ابن كثير « وهموا بكسر منبر الجامع ، حتى وعدهم (اى الخليفة العباسي) بانه سيكتب إلى السلطان يبعث لهم جيشاً يقاتلون الفرنج فسكنت الامور ...) (١٠٤) .

وفي هذا مايدل على تباطؤ السلطة في بغداد في امداد العون السريع لدمشق فاضطر الفقية عبد الوهاب الحنبلي إلى استخدام نفوذه الديني ، فاثار حماس

(١٠٢) ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية في السيرة النورية : ٩٦ .

(١٠٣) ابن تغري بردي ، مرآة الزمان : ٨/٥٢٣-٥٢٤ .

(١٠٤) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/٢٠٠ .

الناس ودفعهم إلى الهجوم على المسجد الجامع ، تعبيرا عن سخطهم اتجاه الخلافة العباسية ، وتأييدا من جماهير بغداد لاهالي دمشق لترابط مصير الامة الواحد ، رغم اختلاف السلطات .

اما الموقف في دمشق، فقد كان بطولياً رغم عدم وصول الامداد اليهم ، لان اهالي دمشق استعدوا للمعركة، وعملوا على تجميع العدد والاسلحة وآلات الحرب، كما عمدوا الي تحصين نقاط الضعف في اسوار المدينة (١٠٥) وكانت الفرصة المناسبة للدمشقيين عندما خرجت فصائل من جيوش الصليبيين بقيادة وليم بور إلى حوران لجمع ماتحتاجه من المؤن (١٠٦) فما كان من بورى الا أن انقضى عليهم بقواته، حيث دارت معركة رهيبة قتل فيها اكثر من خمس الاف صليبي من بينهم بيمند اميرانطاكية (١٠٧) . ثم عادت جيوش دمشق «ولم يمسهم قرح »(١٠٨) بعد ان «غنموا غنيمة لاتحد ولاتوصف» (١٠٩) .

ومن ناحية ثانية فقد كانت الظروف الطبيعية عاملا مساعداً من العوامل التي اكملت النصر على الصليبيين اذ ان بلدوين لما علم بهزيمة اتباعه قرر المسير إلى حوران لانقاذ الموقف غير ان برودة الجو وهطول الامطار الغزيرة ، ووعورة الارض ادت به إلى الانسحاب عن دمشق والعودة إلى القدس لان عساكره لم تتمكن من الاستمرار في حصار البلد في تلك الظروف الطبيعية الصعبة مع قلة الارزاق (١١٠).

هكذا لعب اهالي دمشق بقيادة تاج الدين بورى، دورهم الكبير في صد الهجوم الصليبي، كالدور الذي لعبوه من قبل في عهد طغتكين حيث احبطت محاولات الصليبيين الهادفة إلى السيطرة على مدينة دمشق.

---

(١٠٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق :

(١٠٦) العريني الشرق الاوسط : ١/٣٤٩-٣٥٠ .

(١٠٧) ابن كثير ، البدايه والنهايه: ١٢ / ٢٠٠

(١٠٨) ابن الاثير الكامل : ١٠/٦٥٧-٦٥٨، الذهبي ، دول الاسلام : ٢/٣٣ .

(١٠٩) ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية : ٩٦ انظر العريني الشرق الاوسط : ١/٣٤٩-٣٥٠ .

(١١٠) ابن منقذ ، الاعتبار : ٩٤-٩٥ .

غير ان تلك المحاولات لم تنته اذ سرعان ماتجددت في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، حيث تحالف الامراء الصليبيون من جديد وعمدوا إلى محاصرة المدينة . فقد راسل امير بيت المقدس الصليبي من في اوربا لمساندة حتى لايتكرر الفشل من جديد. وكان الامر مناسباً عندما وصلت الحملة الصليبية الثانية إلى بلاد الشام ، حيث عقد الامير بلدوين الثالث اجتماعاً كبيراً في مدينة عكا في ٢٤ تموز ١١٤٨م شارك فيه كل من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا، بالاضافة إلى عدد من الامراء الصغار والدوقات «للتشاور في النتائج التي تسفر عن هذا الحجيج الضخم بانجاز هذه الاعمال الضخمة ومد اطراف المملكة» (١١١).

والحقيقة ان ذلك الاجتماع كان اجتماعاً ضخماً ، فقد إشترك فيه ، بالاضافة إلى الملوك السابقين كل من مقدمي الداوية والاسبتارية وكبار موظفي الكنيسة ، عدا أمراء الرها وانطاكيا وطرابلس (١١٢). وبلغ عدد عساكرهم المحتشدة مالايقل عن خمسين الف مقاتل (١١٣) مما دفع ببعض المؤرخين إلى القول بأن ذلك الاجتماع «كان اجتماعاً بالغ الروعة» (١١٤).

وقد قرر في ذلك الاجتماع الضخم الاتفاق على معاجمة مدينة دمشق في اول تموز من سنة ١١٤٨م. نظراً لما تحتله دمشق من موقع ممتاز في التحكم في الطريق الواصل بين شمال افريقيا وبلاد شمال الشام والشرق (١١٥). ذلك الموقع الذي نشط فيها الحركة التجارية وجعلها من المدن الرئيسة المهمة في بلاد الشام، علماً بأن الدمشقيين كانوا قد كبدوا الصليبيين خسائر فادحة عندما أرادوا إحتلال مدينتهم قبل سنة ١١٤٨م — كما تبين ذلك من قبل — هذا

---

(١١١) العريني ، الشرق الاوسط : ٥٦٤/١ .

(١١٢) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٦٣١/٢ .

(١١٣) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٥٦٤/٢ — ٥٦٥ نقلا عن
Brry : the secord Crujader, P. 160.

(١١٤) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٤٥٢/٢ .

(١١٥) المرجع السابق : ٤٥٢/٢ .

بالاضافة إلى ان دمشق كانت من اهم المدن التي تقدم العون والمساعدات للمدن والقلاع الاسلامية المجاورة التي كانت تتعرض للغزو الصليبي، ولذلك فإن السيطرة عليها، يعني بنظر الصليبيين، تسهيل مهمة السيطرة على المدن والقلاع الاخرى المجاورة.

وهكذا فإن روح التحدي واخذ الثأر والوقع الممتاز لمدينة دمشق حفز الصليبيين إلى التقدم نحوها في ١٥ تموز سنة ١١٤٨م بقصد إحتلالها، وقد احاطوا بالبساتين التي كانت تقع إلى شرق المدينة، ثم تمكنوا منها بعد ان سيطروا على بعض القرى الامامية كقرية المزة والربوة في الرابع والعشرين من نفس الشهر. (١١٦)

وقد ظن اهالي دمشق، بعد ذلك التقدم الصليبي، انهم خاسرون ان لم يتداركوا الموقف، فارسل على الفور حاكم المدينة رسله إلى نوابه في المدن والقلاع القريبة يطلب النجدة منهم، فضلا عن ارساله بالرسل إلى نور الدين محمود زنكي واخيه سيف الدين غازي حاكمي حلب والموصل. قد اتته اعداد كبيرة من الجند من الابواب الشمالية (١١٧) انضوت تحت لوائه، تمكن بهم من اعادة الثقة إلى نفوس الدمشقيين والقيام بهجوم معاكس، بشكل غارات خاطفة، ضد الصليبيين (١١٨)، كبدتهم خسائر فادحة اضطرتهم إلى مغادرة البساتين، والتحول عنها إلى جهة الشرق. وكان ذلك من اهم اسباب اندحارهم.لان سور المدينة كان شديد الحصانة من جهة الشرق بالاضافة إلى قلة المياه، التي افتقدها الصليبيون في الموقع الجديد (١١٩).

وفي الوقت الذي بدأت فيه قوات الدمشقيين من مرحلة الدفاع إلى الهجوم وصول البشائر بتقدم عساكر الموصل وحلب صوب دمشق لانقاذ الموقف،

---

(١١٦) ابوشامة : الروضتين : ٥٢/١ ؛ العريني ، المرجع السابق : ٥٦٥/١ .

(١١٧) انظر عاشور ، الحركة الصليبية : ٦٣٢/٢ ، العريني ، الشرق الاوسط : ٥٦٦/١.

(١١٨) انظر : الروضتين : ٥٢/١ .

(١١٩) العريني ، الشرق الاوسط : ٥٦٦/١ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٤٥٤/٢.

كانت الجبهة الصليبية قد دبَّ فيها بعض الخلافات بين قادتها، حول مستقبل مدينة دمشق التي كانوا يأملون السيطرة عليها (١٢٠) هل ستكون مملكة صليبية جديدة ومستقلة، ام تابعة لمملكة بيت المقدس؟ وفي هذه الاثناء لعب (معين الدين أنر) دورة السياسي والدبلوماسي في السيطرة على الموقف بمراسلته الاطراف المختلفة ذات العلاقة والاطماع بدمشق.

كانت البداية بعدم رده الجواب على الكتاب الذي ارسله اليه سيف الدين غازي ـ اتابك الموصل ـ الذي طلب منه تسليم المدينة بيد نوابه في اثناء مكوثه بالشام، لتكون له ملجأ في حالة خسارته الحرب مع الصبين . وفي حالة الظفر: فأن سيف الدين غازي سيترك البلد لاهله. وقد جاء في نص الكتاب الذي ذكره ابن الاثير مايلي: «قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح في بلادي، فأريد ان يكون نوابي بمدينة دمشق لاحضر والقي الفرنج فان انهزمت دخلت انا وعسكرى البلد واحتمينا به، وان ظفرت فالبلد لكم لاانازعكم فيه»(١٢١).

وفي هذا مايدل على عدم اطمئنان اتابك الموصل من زوايا ومخططات معين الدين انر ـ اتابك دمشق ـ كذلك فان انر كان غير راغب بدخول قوات الجزيرة التابعة لنور الدين محمو د ولاخيه سيف الدين غازي مدينة دمشق لانه كان «« يدرك انه اذا احتلت جنودهما قلعة دمشق مرة فلن يتركوها للابد » (١٢٢) .

لذلك قرر انر عدم مراسلة سيف الدين غاري ، وصمم على منازلة الصليبيين لوحده ،وابتدأ ذلك بمراسلتهم لترهيبهم تخويفهم ،عله يفيلمن ذلك. وقد جاء في بعض مراسلاته لهم : « ان ملك الشرق قد حضر فان رحلتهم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تندمون . وارسل إلى فرنج الشام يقول لهم :

---

(١٢٠) انظر حول نزاعات الصليبيين بسبب مستقبل مدينة دمشق سنة ١١٤م : رنسيمان : ٢/٤٥٥ ـ ٤٥٨ .

(١٢١) الكامل في التاريخ : ١٣٠/١١ .

(١٢٢) عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٦٣٤ .

باي عقل تساعدون هولاء علينا وانتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق اخذوا ما بايديكم من البلاد الساحلية : واما انا فان رايت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لايبقى لكم معه مقام في الشام » (١٢٣) .

وبفضل المراسلات السابقة تمكن انر من اقناع نصارى الساحل الشامي والصليبيين من الاوربيين الذين استقروا في الشام بالتخلي عن مساعدتهم للصليبيين القادمين من الغرب وبالذات الالمان فمنحهم انر ،حصن بانياس مكافأة لهم خاصة بعد أن ارعبوا ملك الالمان من قوة ومقدرة سيف الدين غازي ، واجبره للعودة إلى بلاده (١٢٤) وقد تبع الالمان بالانسحاب عساكر كنراد الثالث إلى القسطنطينية ، ثم عودة لويس السابع إلى فرنسا سنة ٥٤٤هـ ١١٤٩م (١٢٥) .

وقد وصف الاصفهاني ذلك الانسحاب بقوله : « ورحلو عنها خائبين خاسئين خاسرين » (١٢٦) .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثالثة في السيطرة على مدينة دمشق ، ويتبين من النصوص السابقة ان اسباب ذلك الفشل يعود إلى مايلي : —

(١) الخطأ في سياسة الامراء الصليبيين (لويس وبلدوين كنراد) الذين اصدروا اوامرهم بتحول عساكرهم من جهة الجنوب إلى جهة الشرق ، ليطلعوا على تحركات الدمشقيين عند حصارهم دمشق في تموز في سنة ١١٤٨م. وقد جاء ذلك التقدير خاطئاً ، لان الموقع الجديد لم يكن يحوي المياه الوفيرة، بالاضافة إلى شدة حصانه سور المدينة من تلك الجهة .

---

(١٢٣) الكامل في التاريخ : ١٣٠/١١ ، وانظر : ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية : ١٢٦ – ١٢٩ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ١١٧/٤ – ١١٨ .

(١٢٤) انظر : الكامل في التاريخ : ١٣١/١١ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر : ٤٧/٢ – ٤٨. سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ١٩٧/٨ – ١٩٨ .

(١٢٥) انظر : ارنست باركر ، الحروب الصليبية : ٧٦ .

(١٢٦) البغدادي ، تاريخ دولة ال سلجوق : ٢٠٥ .

(٢) الانشاق الذي حصل بين القادة والامراء الصليبيين ، حول مدينة دمشق بعد احتلالها .فامراء بيت المقدس رغبوا ان تكون تابعة لمملكتهم .في حين اتفق الكونت فلاندر مع لويس وبلدوين على أن يكون الاول اميرا عليها بعد تشكيل مملكة جديدة في دمشق .

(٣) ما ابداه اهالي دمشق من بسالة وشجاعة في الدفاع عن مدينتهم ، شباباً ومشيباً ، فقد قاموا بعدة غارات على مواقع الصليبيين كبدوهم فيها خسائر كبيرة ، وكان يشترك في القتال الفقهاء وعلماء الدين والمسنون من الرجال. فهذا الشيخ الفندلاوي الطاعن في السن يخرج ليقاتل الاعداء فيمنعه انر من القتال ويحاول اقناعه بانه رجل كبير طاعن في السن فيأبى الا مقاتلة الاعداء والموت في سبيل الله دفاعاً عن الوطن ، ثم يخرج إلى ساحة المعركة فيقتل فيدفع من بعده بالكثير من الشباب إلى التقدم لمقاتلة الاعداء بعزيمة قوية (١٢٧) .

(٤) السياسة الجيدة التي اتبعها معين الدين انر ، في مشاغله اعدائه ومراسلتهم بعد ان رغبهم وخوفهم . وكان ذلك من الاسباب الرئيسة التي فرقت جموع الصليبيين في الشام . وقد كانت مدينة بانياس ضحية تلك السياسة لان انر تنازل عنها للصليبيين .

ورغم أن انُر أنقذ مدينة دمشق بتنازله عن بانياس للصليبيين لان الاولى أهم من الثانية غير أنه كان بامكانه استخدام سياسة اشد حكمة بمراسلته سيف الدين غازي ، والاتفاق معه علة يقنع ببانياس او بغيرها من المدن ، وعند ذلك ستكون عساكر بلاد الجزيرة والشام واحدة وعندها سيخسر الصليبيون المعركة لامحالة ، وستكون بانياس وغيرها من المناطق الاخرى تحت سيطرة المسلمين ، لاتحت سيطرة الصليبيين . لانهم كانوا اعرف ببلادهم من اعدائهم ، كما أن خطوط تموينهم ستكون متصلة وقريبة، بينما ستكون خطوط تموين اعدائهم غير متصلة وبعيدة ومعرضة للدمار بسبب بعد المسافة بين اوربا وبلاد الشام ، وبسبب المصالح المتضاربة بين بعض ملوك امراء الصليبيين في اوربا وبلاد الشام .

(١٢٧) انظر : عن قصة الشيخ الفندلاوي ومقتله : ابن الاثير ، الكامل : ١٣١/١١ .

كما كان بامكان انر ان يرفع شعار الامة الواحدة والهدف الواحد ، بدلا من رفعه لشعار الاقليمية الضيقة في الدفاع عن مدينته . لان شعار الامة الواحد سوف يدفع بالمسلمين من أهالي مدن الشام والجزيرة عامة إلى مساندته ، رغم اختلاف مصالح الامراء . لان الحرب الصليبية الاولى ولدت رد فعل عنيف لدى المسلمين ، وكونت لديهم شعورا موحدا في الدفاع عن ارضهم ، كانت نتيجته تجمهر الناس في المحلات العامة في كل من دمشق وحلب والموصل وديار بكر ، الذين اخذوا يدعون للحرب ومساندة اخوانهم المسلمين في القدس والساحل الشامي ضد الصليبيين .

لذلك فان هذا الشعور الاصيل لدى الامة الواحدة سوف يدفع بالامراء والحكام من المسلمين الاقليميين إلى التنازل عن مصالحهم قليلا خوفاً من شعوبهم (١٢٨). ولهذا فان سياسة انر الا قليمية كانت خاطئة . وكان عليه أن يتنازل عن مصالحه فيوقض الحمية في نفوس المسلمين عامة ، وعندها سيكون القائد المنتظر الذي سيحقق للامة اهدافها ، كما فعل مودود حاكم الموصل ، ومن بعده صلاح الدين الايوبي .

اما نتيجة هجوم الصليبيين على دمشق ، فقد كانت سلبية ، لانهم لم يحققوا أي هدف ولم يخرجوا بنتيجة سوى الخذلان وخسران الهيبة في منطقة الشام فقد « تبددت الاسطورة التي نشأت من الحرب الصليبية الاولى ، والتي تجعل من فرسان الغرب اسطورة لاتقهر » (١٢٩) ولذلك فقد انتقد الكثير من المؤرخين الاوربيين ذلك القرار الذي صدر في عكا سنة ١١٤٨ م والذي دفع بالجيوش الصليبية إلى التوجه نحو دمشق لاحتلالها ، فقد اعتبره ارنست باركر « مخالفا لقواعد الادب واللياقة» (١٣٠)، بينما وصمة اخرون بانه قرار « اتسم بالحماقة المطلقة » (١٣١) .

---

(١٢٨) انظر : دريد عبد القادر نوري ، سياسة صلاح الدين الايوبي : ٦١ ، ٢٥٣-٢٥٥

(١٢٩) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١/٥٧٠-٥٧١ .

(١٣٠) الحروب الصليبية : ٧٦ .

(١٣١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢/٤٥٢ .

قائمة المصادر والمراجع

آ- المصادر القديمـة :-

ابن الأثير ،عز الدين ابي الحسن بن محمد (ت : ٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ (بيروت : ١٩٦٥) .

البنداري ،الفتح بن علي بن محمد (ت: ٦٤٣هـ) .
،تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة : ١٩٠٠) .

ابن تغرى بردي،جمال الدين يوسف (ت : ٨٧٤هـ)
النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهر : د/ت)

ابن خلكان ،شمس الدين أحمد بن محمد (ت : ٦٨١هـ)
وفيات الأعيان وابناء الزمان (بيروت : د./ت).

ابن خلدون ،عبدالرحمن (ت : ٨٠٨هـ)
العبر وديوان المبتدأ والخبر... (القاهرة : ١٢٨٤هـ) .

أبو شامة ، شهاب الدين (ت : ٦٦٥هـ)
الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية(بيروت: د./ت).

ابن العماد ،عبدالحي الحنبلي (ت : ١٠٨٩هـ)
شذرات الذهب في اخبار من ذهب (القاهرة : ١٣٥٠هـ).

ابن قاضي شهبة ،بدر الدين (ت : ٨٧٤ هـ)
الكواكب الدرية في السيرة النورية (بيروت : ١٩٧١) .

ابن القلانسي ابي يعلى حمزة (ت : ٥٥٥هـ)
ذيل تاريخ دمشق (بيروت : ١٩٠٨ م) .

أبو الفدا ،عماد الدين اسماعيل (ت: ٧٣٢ هـ)
المختصر في اخبار البشر (القاهرة : ١٣٢٥هـ).

ابن كثير ،عماد الدين ابي الفدا اسماعيل (ت : ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية في التاريخ (القاهرة : د / ت).

ابن منقذ ،اسامة بن مرشد الكناني (ت: ٥٨٤هـ)
كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي (الولايات المتحدة : ١٩٣٠)
ابن الوردي ،زين الدين عمر (ت : ٧٥٠هـ)
تتمة المختصر في اخبار البشر المسمى بتاريخ ابن الوردي (القاهرة : ١٢٨٥ هـ) .
الكتبي ،محمد بن شاكر (ت : ٧٦٤ هـ)
عيون التواريخ (بغداد : ١٩٧٧) .
سبط ابن الجوزي ،شمس الدين يوسف (ت : ٦٥٤هـ)
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان (حيدر آباد الدكن : ١٩٥١).
القلقشندي ،أحمد بن علي (ت : ٨٢١هـ)
صبح الاعشا في صناعة الانشا (القاهرة : د / ت) .
الذهبي ،شمس الدين بن عثمان (ت : ٧٤٨هـ)
دول الاسلام (حيدر آباد الدكن (١٤٦٤هـ).
ياقوت الحموي ،شهاب الدين بن عبدالله (ت: ٦٢٦هـ)
معجم البلدان (بيروت : د / ت).

ب- المراجع الحديثة :-

باكر ، ارنست
الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني (بيروت : د/ت).
العريني ، السيد الباز
الشرق الاوسط والحروب الصليبية (القاهرة : ١٨٦٣).
عاشور ، سعيد عبد الفتاح
الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة: ١٩٦٣).
نوري ، دريد عبدالقادر

سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة
(بغداد : ١٩٧٦).

رنسيمان ، ستيفن
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني
(بيروت : ١٩٦٨) .

الشنتناوي ، أحمد
دائرة المعارف الاسلامية (مادة طغتكين).

Ency , of Islam , Vol , I (Art Atabak) .

Champodor (Albert): Saladinle Plus Purherosde Islam (France, 1956).

Daniel (Norman):Islam and the West (The Making of an Image) Edinburgh, 1966) .

مفهوم الغزالي للسببية

قاسم يحيى اسماعيل
مدرس مساعد

(١)

تحتل فكرة السببية مكانة جوهرية في البناء الفلسفي العام ، فهي الاساس المشترك في المباحث الفلسفية، انها اساس في الميتافيزياء، وهي اساس في مناهج البحث وطرائق العلم، والفلاسفة المسلمون تناولوا مباحث السببية بأسلوب استقصائي علمي فلسفي.

ان السببية كمقولة فلسفية وكمبدأ علمي ، مفهوم لايختص بزمن دون آخر ولابجيل دون آخر فهو مفهوم متصاعد بلا انقطاع في صلب التاريخ المتصل انه يرتبط بالفكر، فلسفياً كان الفكر او علمياً.

وعصرنا هو عصر العلم وعصر تنامي الاحساس بضرورة تطوير مناهج البحث تطويراً يساوق تطور العلم. والفلسفة هي في امس ماتكون الحاجة إلى مراجعة نقدية لمباحث السببية في الفلسفة الاسلامية.

ان هذا البحث يشكل في نظرنا خطوة ضرورية لمراجعة نقدية لدراسة المسألة واعني — مفهوم الغزالي للسببية — على الرغم من المحاولات المتعددة التي قد لايعدو احياناً ان يكون مجرد اشارات إلى موقف الغزالي منها. وكذلك افتقار الموضوع لدراسة جادة مفصلة في الكتابات العربية، وجدت لزاماً علينا ان نلج بالبحث في هذا الموضوع نظراً لاهميته.

اما اهمية البحث فتنصب في ابراز الجانب العلمي والفلسفي والكلامي لمفهوم السببية، وموقف الامام الغزالي منها وسوف نحاول جهدنا ان نبين الحجج التي اقامها في دحض فكرة السببية.

لقد برزت هذه النظرية في نظريات كونية وهي نظرية الخلق، الفيض، ولدى الماديين الذين يقولون بقدم العالم. ولقد علق عليها فلاسفة الاسلام اهمية كبيرة لانها من مستلزمات نظرية الخلق ونظرية الفيض وهما النظريتان السائدتان في تراث الفلسفة اسلامية.

وهذا البحث مساهمة متواضعة في اثراء الثقافة القومية ومن ثم احياء وتعزيز التراث الفلسفي الاسلامي من خلال مناقشة الفكر الذي امد التراث الانساني بمدد وغذاء لاينضب.

(٢)

يجدر بنا، ونحن نتناول مسألة السببية، التي تعتبر من المشكلات الفلسفية التي كانت مركز اهتمام كبير من قبل المتكلمين والفلاسفة والعلماء، وموقف الغزالي من هذا المفهوم، ان نعرف أولا وقبل كل شيء ماالسببية؟ هي علاقة اقتران السبب بالنتيجة او العلة بالمعلول وبتعبير اوضح، هي تلك العلاقة الرابطة بين ظاهرتين الاولى تدعى سبباً والاخرى تدعى مسبباً او نتيجة او معلولا.

ومن خلال التعريف نستنتج بأن العلاقة السببية لاتكون قائمة الا بوجود طرفين فلا بد من وجود السبب كطرف اول، والمسبب كطرف ثانٍ والسبيل إلى معرفة الاسباب والمسببات يكون عن طريق كشف العلاقات التي تربط الاشياء بعضها ببعض، واثر بعضها في بعض بحيث يصبح كل شيء خاضعاً لقانون السببية فلا يكون شيئاً عبثا، ومن هنا تنشأ فكرة الضرورة والحتمية في انتظام العلل والمعلولات وتسلسلها وارتباطها بعلاقات معينة (١).

والسببية تقوم على مباديء عديدة اهمها مبدأ السببية المشهور «لكل معلول علة» او «لكل نتيجة سبب» (٢). كان هذا المبدأ محاولة جريئة للكشف عن انتظام الظواهر الطبيعية في الكون، وبه استطاع الانسان معرفة القوى الكامنة في الطبيعة، فأصبح اساساً لنشأة العلوم والفلسفات التي مهدت لحضارة الانسان (٣). ويجدر بنا الا نتوهم ان مبدأ السببية مبدءاً جبرياً، اذ لو كان مبدءاً جبرياً لما قامت بين الاشياء علاقات سببية لان الجبرية هي غير المسببية (٤) ولانتفت الحاجة إلى القول بها، لابل وتفسير الظاهرة وفق مابينها من علاقات بالاستناد إلى المفهوم السببي.

والمبدأ الاخر الذي نشأ عن المبدأ السابق هو استحالة التسلسل في الاسباب والمسببات إلى مالانهاية، الذي يستلزم بالضرورة مبدءاً ثالثاً الا وهو ضرورة وجود سبب اول اوعله اولى.

ان مفهوم السببية كما ذكرنا اعلاه، يرتبط بمبدأ الانتظام في الطبيعة، وبالاخص اذا ما علمنا ان ظواهر الطبيعة من تعاقب الليل والنهار وتعاقب الفصول الاربعة وغير ذلك من الظواهر العديدة التي لايمكن حصرها تشير بوضوح

إلى مدى الانتظام والانسجام وان كان لذلك من اهمية فأن مبدأ السببية يعبر عنها افضل تعبير نظراً لما له من دور اساس في البحث العلمي وفي الفلسفة الطبيعية، فهو يعبر عن جوهر الانتظام هذا.. ويبدو ذلك من تعاقب، وتكرار هذا التعاقب بين الاسباب والمسببات والرابطة التي تربط بينها هي مانطلق عليها بـ «السببية».

فعندما نطرح السؤال، الذي يبدأ عادة، بلماذا؟ عن أي حادثة سواء كانت مرضاً او حرباً او حادثة ما... الخ فاننا نريد التفسير اللازم ونعبر عن ذلك التفسير بلغة الاسباب، والسببية في العلم الطبيعي، مما لامرية فيه، هي التي تمنحنا الفهم.(٥)

ان الانسان يحاول دائماً معرفة العلل والاسباب، ويتشوق إلى ادراك المجهول، ويتطلع إلى الكشف عن عالم الغيب، وارتباط السببية بمناهج البحث العلمي تتجلى في استخدام بعض الفلاسفة لمقولة السببية فمنهم من جعلها مقولة عقلية لاتعتمد الخبرة وينفي اعتبارها علاقة تجريبية تنشأ من داخل التجربة، ومنهم من انكرها وعدها مجرد عادة، وبالتالي فقد الثقة بها كمبدأ.

اننا مع اعترافنا بخصب محاولة الغزالي في المجال المعرفي «نظرية المعرفة» التي لايستطيع باحث ان يرقى إلى جذورها وابعادها الا اذا كان يمتلك فكراً له جذور عقلية سامية، فأن الغزالي ناهض وعارض المتكلمين والفلاسفة ممن اثبت القول بالنظرية السببية وجعلها مبدءاً لدراساته ومنطلقاً له في مجالي الطبيعة وما وراء الطبيعة.

اننا نؤكد القول بأن السببية لايمكن انكارها اذا نظرنا اليها من زاوية عقلية كما لايمكن نفيها بأي حال من الاحوال اذا اخضعنا طرفيها إلى التجربة.

فأين موقع الغزالي من المفكرين والفلاسفة في موقفهم من السببية؟ هذا ماقصدنا إلى تقديمه للناظر بعين العقل وبنظرة تجديد مهتدياً بالملاحظات الموضوعية ومستفيداً من مناقشة مضمون هذا البحث المتواضع.

— (٣) —

يستعرض الغزالي موضوع السببية ويبذل قصارى جهده ليتفادى مايحيط بالمسألة من اشواك وما يعترضها من عقبات لينفذ إلى غرضه ويحصل غايته. ولكن هل نفذ الغزالي إلى غايته؟..

هل استطاع ان يقدم حلا للمشكلة؟... هل كان انكاره السببية مجرد احداث ضجة او ثورة في عالم الفكر الفلسفي الاسلامي؟.. وإلى اين اوصله ذلك الانكار؟..

لقد اختلفت مواقف واراء الباحثين من موقف الغزالي في هذه المسألة، التي افرد لها فصلا خاصاً بها تصدر القسم الخاص بالطبيعيات من كتابه «تهافت الفلاسفة» فمنهم من حكم على الغزالي انه يعبر عن الاتجاه الفلسفي، ومنهم من اتفق على وصف اتجاهه بأنه عبر فيه عن موقف كلامي ديني وحسب غايته اثبات المعجزات. ومنهم من جعل مذهبه مزيجا من نظريتي القانون وصفاً (٦) ومفروضاً (٧) .والسببية في الواقع كانت من اهم المسائل الفلسفية التي تعرض لها (٨) والتي تعتبر من امهات القضايا الفلسفية التي شغلت كبار المفكرين والفلاسفة من قبله ومن بعده، ووقف منها موقفاً أصيلا واتجه اتجاهاً مجدداً، وفكرة السببية التي هي عند التحليل، اكثر الافكار غموضاً واشدها اتصالا بالعلم أي معنى اصبح متداولا في فلسفة العلم الحديث في العصر الحاضر (٩) ولاتقل خطراً من المسائل الاخرى، مثل روحانية النفس او القدم والحدوث .ونظرية الغزالي نظرية وجيزة وجازمة معاً (١٠).

وترجع القيمة الفلسفية لكتاب «تهافت الفلاسفة» إلى انكار الغزالي للسببية، ويعتبر« الوثيقة التي تدلنا على شعور علم الكلام بنفسه ودعوته إلى النظر في اصوله اثناء كفاحه مع الفلسفة اليونانية» (١١).

يصرح الغزالي في مخالفته للفلاسفة، حكمهم «بأن هذا الاقتران المشاهد في الوجود بين الاسباب والمسببات، اقتران تلازم بالضرورة، فليس في المقدور ولا في الامكان ايجاد السبب دون المسبب، ولا وجود المسبب دون السبب» (١٢) حيث يقرر فلاسفة الاسلام (١٣) في دراستهم لمشكلة السببية، ضرورية العلاقة بين الاسباب ومسبباتها. على حين عمل الغزالي جاهداً على دحض ضرورية العلاقة هذه متابعاً بدوره موقف الاشاعرة، من اجل اثبات المعجزات (١٤).

نلجأ اولا وقبل كل شيء إلى تحليل رأي الغزالي في السببية، وهل يعدها مقولة (تركيبية) أم (تحليلية)؟ فان كانت تركيبية، تصبح السببية كعلاقة،

لامبرر لها وان كانت تحليلية، فانها تعبر حينئذ عن قانون علمي يعتمد عليه في البناء الفلسفي العام، باعتبارها اساساً مشتركاً في المباحث الفلسفية.

يقول الغزالي «ليس الاقتران بين مايعتقد في العادة سبباً وبين مايعتقد مسبباً ضرورياً عندنا» ثم يردف مفسراً ذاك «بل كل شيئين، ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا» ومن جهة الاثبات والنفي يعلل ذلك «ولا اثبات احدهما، متضمناً لاثبات الاخر، ولانفيه متضمناً لنفي الاخر» ثم يستنتج مماسبق «ليس من ضرورة وجود احدهما وجود الاخر، ولا من ضرورة عدم احدهما عدم الاخر» (١٥) سبق ان ذكرنا بان السببية كانت محل نظر الفلاسفة والمفكرين، والقائلون بالتلازم بين الاسباب والمسببات يقيمون رأيهم على امرين:

١ – ماتشهد به التجربة ويصدقه العيان من اطراد الحوادث ذات الأسباب الموجودة. فكل سبب اذا برز للوجود اعطى النتيجة التي يعطيها في كل حال اذا تهيأت له الظروف نفسها في كل حالة. فالنار صفتها الاحراق اذا مااتصلت بالقطن، مثلا احرقته ولايمكن ان تحدث النار غير هذه النتيجة. فلا النار تتحول إلى شيء غير محرق، ولا قطعة القطن تتحول إلى مادة غير قابلة للاحتراق الا اذا دخل عليها مؤثر من الخارج يغير من طبيعتهما او يباعد بينهما .

٢ – النظام السائد في مخلوقات الله الذي يبدو من خلال انتظام الحركة في الموجودات، السماوية والارضية، ذلك الانتظام الذي لايمكن ان يتغير ابدا لان التغير في مساراتها يعني حدوث خلل بها، ومحال ان يلحق النظام الذي تبدعه يد الخالق خلل واضطراب، لانه مدبر العالم وهو اثر من اثار حكمته الالهية (١٦) جل وعلا .

ففي كلا الموقفين – المفهوم الطبيعي والميتافيزيقي – تعبير واقرار بالتلازم بين الاسباب والمسببات .

أما الذين ينكرون ذلك التلازم فيقيمون رأيهم على حجة ان نظام الكون قائم على الخلق المتجدد والابداع الدائم .. فلو كان التلازم ضرورياً بين

الاسباب والمسببات لما اصبح هناك مجال للابتكار والتجديد، من جهة ، ومن الجهة الاخرى يقيد الخالق بنظام رتيب ، ويلزمه بعدم الخروج على النظام القائم بين الاسباب والمسببات . وهذا تقييد لارادة الخالق (١٧). والدليل الذي ركن اليه الغزالي هو أن اقتران ظاهرة ما بظاهرة اخرى لايدل على أكثر من وجود علاقة زمنية بينهما . وهذه العلاقة الزمنية لاتكفي لاثبات وجود علية بينهما (١٨) . ويتضح انه يرفض السببية ولكنه من جهة ثانية يقر العلاقات او الاضافات ولكنه ايضاً يرد ربط العلاقات بعضها ببعض وتنسيقها إلى صنع الله (١٩). كما سنرى فيما بعد . ان ملخص مذهب الغزالي يرجع إلى :—

اولا : — انه اذا اجتمع امران معا فليس فيه دليل قاطع على أن الاول علة الثاني .

ثانياً : — اذا فرضنا صحة فعل بعض الظروف « تعلق أمر بامر » بناء على قانون طبيعي ، فلا ينتج من ذلك أن الاثر يكون بذاته في ظروف متماثلة حتى ولو كانت الاشياء متماثلة .. فان مايسميه الفلاسفة بقوانين الطبيعة أمر يقع تبعاً لارادة الله ، لان الله سبحانه وتعالى — يعلم مسبقاً مصير الامور فعلمنا اياه ، فليس هناك قانون طبيعي ثابت يقيد تلك الارادة الالهية (٢٠) .

ثالثاً : — والغزالي يسلب العلل والاسباب صفة الضرورة بيد انه يعطيها صفة الاطراد وحتى هذه الصفة انما اودعها الله فيها . (٢١) .

ان دحض الغزالي للسببية جرى على سنة الاشاعرة (٢٢) وقد سبق الاشاعرة في تاريخ الفكر القديم الشكاك اليونان (٢٣) . ونزعته الاشعرية وعدائه للمعتزلة (٢٤) تبدو ان بشكل واضح فيما ينكره على المتكلمين من نفي الصفات الالهية ، وما ينكره على الفلاسفة وبعض المتكلمين من تلازم الاسباب الطبيعية الذي ينطوي عليه قول المعتزلة بالتولد .. (٢٥) .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الغزالي لم يكن فيلسوفاً عقلياً رغم اتخاذه العلم والعقل والشرع ذاته وسيلة للوصول إلى الحال التي هيأته لها الطبيعة، على

أن هذا لايمنع من القول بانه قد افاد واستفاد من الفلسفة اليونانية (٢٦) فهو يصدر عن عقل فلسفي إلى جانب انه يصدر عن عقل ديني ،

بينما نجد باحثين اخرين ، يرون أن رأي الغزالي في هذه المشكلة يتفق تماماً مع اتجاهه الفلسفي (٢٧) .

يعد ابطال الغزالي لمبدأ السببية تهديم للفلسفة المشائية (٢٨) حيث ان فكرة السببية قد انتقلت إلى العالم الاسلامي من خلال ابحاث ارسطو ، ووجدت هذه الفكرة قبولا لدى المشائية الاسلامية . بينما نجد الغزالي رغم نفيه السببية في الطبيعة يستعين بالفكرة الارسطية القائلة بان الحركات الطبيعية تنتهي حتما إلى محرك اول لايتحرك ومع ان ارسطو لم تكن غايته نفي السببية الطبيعية الا أن الغزالي فهم من ذلك ان العلل الطبيعية لا فعل لها في نفسها وانما هي مسخرة لله تعالى والله هو الفاعل الأوحد . (٢٩)

فانكر جدوى العلل بوصفها اسبابا موثرة بالنسبة إلى النتائج والمسببات واعتبر الاسباب ظواهر تقارن المسببات وليست هي علتها ، والاقتران اعتبره ليس ضرورياً ولكنه من قبيل العادة التي تكونت عندنا من تكرار الملاحظة (٣٠) نفهم من ذلك ان الانكار قام اساسا لغرض اثبات وحدانية الذات الالهية. وان تجريد الطبيعة من فاعليتها وسيلة لاثبات هذه الوحدانية .

ويستنتج ايضا من ذلك ان التوحيد ليس معناه عدم الشرك وانما معناه ان لافاعل الا الواحد ، والعالم ليس سلسلة من العلل والمعلولات وانما العلة الوحيدة فيه هو الله تعالى (٣١) .

لذلك فان تصور ارسطو للسببية لاقى معارضة من قبل الاشاعرة باعتبارها قانوناً عقلياً منطقياً ووضعوها بما يتلائم وينسجم مع مذهبهم التوفيقي (٣٢).

ان نقد السببية الارسطية اتخذ صورة كاملة على يد الغزالي الذي نقلها إلى مكانها المنطقي، وهو العلم الطبيعي (٣٣) . ويرى الغزالي خطورة هذه الفكرة الطبيعية للسببية اذا طبقت في نطاق ديني ، فيتجه نحو تراث الاشاعرة ليستمد منه مادة يصوغها في انكار العلاقة الضرووية اللازمة بين السبب والمسبب .

ان انكار هذه العلاقة يستند عنده إلى اننا نشاهد تعاقب حادثتين الواحدة بعد الاخرى ، فاصطلحنا على تسمية احداهما علة والاخرى معلولا بدون وجود ية رابطه عقليه لازمه بين الحادثتين (٣٤) على أن أعتيادنا لمشاهدة هذا التعاقب ، لايسمح لنا بان نجعل الحادثة الاولى علة لوجود الثانية ، كما يوكد ذلك قانون السببية ؛ ولايمكن ان نستدل من تعاقب شيئين بانتظام في مشاهدتنا ، على ان ذلك يجب ان يكون دائماً لايتصور تغيره دائماً . ومعنى هذا أنكار السببية في حوادث الطبيعة (٣٥) فالرابطة السببية استنادا إلى ماسبق تصبح رابطة أعتبارية ذاتية لارابطة ضرورية موضوعية بين الموجودات الطبيعية (٣٦) .

ولكي يوضح مقصوده يعين مثالا واحدا وهو الاحتراق في القطن مثلا عند ملاقاة النار ، فانه يرى من الجائز ان تتم الملاقاة بين القطن والنار دون حصول الاحتراق ، ويجوز حدوث انقلاب القطن رمادا محترقاً دون ملاقاة النار .. ويبرر ذلك في اعتباره لاقترانها « لما سبق من تقدير الله سبحانه ، بخلقها على التساوق لالكونه ضرورياً في نفسه ، غير قابل للفوت ، بل في المقدور خلق الشبع دون الاكل ، وخلق الموت دون جز الرقبة » . (٣٧) فالنار اذن ، حسب هذا المفهوم ليست فاعلة الاحتراق على الاطلاق انها لاتفعل شيئا « ان فاعل الاحتراق ... هو الله تعالى اما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة . فاما النار وهي جماد : فلا فعل لها . » (٣٨) .

فالغزالي هنا يسلب العلل والاسباب صفة الضروره التي تلزم عنها النتائج والمسببات بيد أنه يعطيها صفة الاطراد وحتى هذه الصفة انما اودعها الله فيها (٣٩).

يتبين من ذلك انه اراد ان يخضع العقل والعلم للايمان دفاعاً عن الدين ويرجع المحالات العقلية إلى المعرفة التي لاتكون الا عن طريق التسليم الروحي والكشف الباطني (٤٠) .

ثم ان استمرار العادة في جريان الاشياء على وتيرة واحدة يرسخ في اذهاننا انها ماضية على حالها حتى النهاية وتتابع الامور على هذا النحو في رايه ليس ضرورياً بالحتم ، انه ممكن ، يجوز ان يقع ويجوز ان لايقع (٤١) « ومن استقرأ عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله تعالى مايحكى من معجزات الانبياء » (٤٢)

ولكن النتائج التي تنتج من انكار العلية تكون كافية لهدم حقائق العلوم كلها (٤٣) ولايبطل انكار السببية المعرفة العقلية وحسب بل والحكمة الالهية ايضا . (٤٤) .

(٤)

بعد ان بينا موقف الغزالي الرافض للسببية نتساءل الان : هل في اثبات السببية انكار للمعجزات ؟ وهل ان انكار السببية يؤدى إلى اثبات للمعجزات ؟ .

لقد سبق أن اشرنا إلى ان الغزالي أعتمد هذا المذهب من اجل اثبات معجزات الانبياء وخوارق العادات، والدفاع عن قدرة الله المطلقة (٤٥) . ومن الجدير بالذكر اننا في ابطالنا لاثر العلل والاسباب الطبيعية لن يدعو ذلك، في احسن الاحوال إلى اثبات ان لافاعل الا ألله ، كما ان اثبات السببية لايخل بقدرة الله المطلقة كما يزعم الاشاعرة — والغزالي ايضا باعتباره اشعريا — الذين جردوا الفاعل الطبيعي والانسان من القدرة حرصاً على تعظيم شان الخالق فوقعوا في تناقض خطير، اذ جردوا الخالق من خواص الحكمة والتدبير فغضوا بذلك من شانه من حيث لم يدروا .

والفلاسفة ينسبون القدرة إلى الانسان والفاعل الطبيعي من خلال التلازم السببي بين الاسباب والمسببات على سبيل التفويض والتقييد . وتفسير ذلك هو ان الله سبحانه وتعالى يحيط علماً وقدرة بكل شيء قدر الانسان على الافعال وسن للموجودات سنة تجرى عليها ، فاصبح كل مايحدث بمقتضى الحكمة دون ان يكون ذلك خروجا على ارادة الله الخالق او تقديره ،ولكن رغم ذلك فهو من فعل المخلوق (٤٦) .

وقد اعترض ابن رشد على راى الاشاعرة والغزالي فيما يخص المعجزات، حيث انه اعتبرها من مبادىء الشرائع التي لايجب ان تفحص وتعد من المسائل الفلسفية . والفلاسفة القدماء اذا ما تطرقوا إلى مثل هذه الامور يعرضون انفسهم إلى العقاب ويعتبرون مشككين (٤٧) .

والغزالي قد حدد النزاع في هذه المسألة على اثبات المعجزات الخارقة للعادة . ومن جعل مجارى العادات لازمة لزوماً ضرورياً ، ولم يثبت الفلاسفة — برأيه — من

المعجزات الخارقة للعادات الا ثلاثة امور ، حصرها في : القوة المتخيلة ، والقوة النظرية العقلية ، والقوة النفسية العملية (٤٨) فراى انه من مستلزمات الخوض في مسألة السببية انما الغرض منه اثبات المعجزات (٤٩) وهذا الراى يثبت الجواب على السؤال الثاني وهو هل في انكار السببية اثبات للمعجزات ؟ .

ومن اجل الدفاع عن رايه اشار إلى التعارض بين مبادىء المنطق اليوناني وبين النقل ، فلم ير بدا من القضاء على الاول لكي يتقذ الثاني (٥٠) ولكن الغزالي رغم رفضه للسببية الا أنه يقر العلاقات او الاضافات ولكنه يرد ربط العلاقات بعضها ببعض وتنسيقها إلى صنع الله (٥١) . فالله هو الخالق الواحد الحق لجميع هذه الامور المتعاقبة التي يتالف منها حياة العالم ، ولاينقطع عمله مطلقاً ويتجدد عمله في كل ثانية ، وهو يقرن متى شاء ، بين جميع هذه الحادثات التي نكون واهمين في عدها اسباباً ومسببات ، وذلك مع امكان هذا العمل ان يقطع تكرار ذاك الاقتران وان يحدث ماندعوه بالمعجزة .

كما ان نفي السببية ينفي قضية وضعية ، وهي اثبات الوجود الاول بامتناع الرجعي إلى غير نهاية في سلسلة من الاسباب والمسببات ولامعنى لمبدأ السببيه مادامت االسببية غير موجودة ولذا فانه لايبقى لارتيابية الغزالي غير حدين واضحين وضوحا كبيرا ، وهما : استحالة لانهائية العدد ووجوب مبدأ يتمضي في امر الممكنات ويقف« كارادفو» من القضية الاولى موقفاً ارتيابياً (٥٢).

ومن خلال المقارنة بين وجهتي نظر الغزالي وبين اتباع المدرسة الطبيعية « تظهر بوضوح ان البراهين التي اعتمد عليها الغزالي في موقفه هذا استقاه من اراء المتكلمين المسلمين قبله » (٥٣) وغاية الغزالي انه كان يهدف إلى امرين .
الاول : صرف الناس عن علوم الطبيعية التي تودى إلى تحديد القدرة الالهية وتحديد القدرة الالهية يؤدى إلى استحالة وقوع المعجزات ، وهذا يودى إلى انكار بديهيات الدين ، وهذا الغرض لم يتحقق ، فقد زاد الاهتمام بالعلوم الطبيعية .
الثاني : هو حمل الناس على الاخذ بالمعتقدات الدينية بوساطة التذوق الباطني بعد عجز العلم عن اثباتها بالطريق العقلي (٥٤) . وهذا الهدف كان استمرارا لما بذله الاشعرى والباقلاني من جهد .

والغزالي في رده على نظرية العلة والمعلول ، لم يرتض عقله الانصياع للتقليد ولم يقبل اخذ القضايا مأخذ التسليم (٥٥) . وبهذا بلغ الغزالي اقصى درجات الشك .والسببية الوحيدة التي اعترف بها ، هي في اثبات حقيقة الاله ، ترجع إلى ارادة حرة واختيار تام ومعرفة شاملة (٥٦).

قد استبدل الغزالي مفهوم « السببية» و (الضرورة) بمفهوم « المعجزة» الالهية والنبوية (٥٧) . لاوجود لسببية طبيعية ، وهذا يعني رفض العقل الذي يشير إلى وجود السببية هذه (٥٨) وقد فطن الغزالي إلى ان انكار قانون السببية يودى اخيرا إلى ارتكاب محالات شنيعة ،حتى يجوز عندنا انقلاب الكتاب حيوانا، وجرة الماء شجرة تفاح ، فاجاب عن ذلك بقوله : « ان الله خلق لنا علماً بان هذه الممكنات لم يفعلها ... الخ » (٥٩)

وهنا نصل إلى السبب الذي دفعه إلى رفض الضرورة العقلية في قانون السببية وهو افساح المجال للمعجزات النبوية ، فجميع الامور انما تتم بارادة الله لها لا بالعلل الظاهرة لنا (٦٠) فاعتبر تلك العلل الظاهرة ليست اسباباً موثرة بالنسبة للنتائج كما ذكرنا سابقاً بانه اعتبر منشأها العادة التي تكونت من تكرار الملاحظة فلم ير باسا لهذا من اخضاع العلم والعقل لعقيدته الدينية (٦١) .

ففي مقدورات الله ، يقول الغزالي ، غرائب وعجائب لم نشاهدها جميعها فلا يجوز ان ننكر امكانها ونحكم باستحالتها (٦٢) . كما حاول تعليل المعجزات تعليلا طبيعياً وهو ليس بدعا من المفكرين وجمهور العقلاء (٦٢)

ربما يتساءل البعض : هل يخدم انكار السببية الطبيعية القضية الدينية ؟ .. ان انكارها في الحقيقة لايخدم القضية الدينية كما انه بعيد جداً عن الحكمة ، بل ومبطل لها ... حيث ان من يجحد وجود ترتيب ونظام للمسببات على الاسباب في هذا العالم فانه يجحد الصانع الحكيم (٦٤) . فلسنا اذن بحاجة إلى نفي السببيه الطبيعية لكي نثبت الخوارق ، وبالعكس ، اي اننا لانحتاج إلى نفي الخوارق لاثبات السببية الطبيعية فالايمان بالله لايتعارض مع الايمان بالعقل والعلم . اما من ينكر المعجزات فهو ينفي ضمنا وجود اله خالق قادر على كل شيء .

مما سبق يبدو ان انكار السببية الطبيعية لايخدم العلم ولايخدم الدين . كما ان خرق العادات محال بالطرق الطبيعية ، ولكن العقل لايمنع اختراق العادات خالقها وباريها والا كيف يكون الها ؟ (٦٥) . ان انكار الافعال الطبيعية قد يؤدى إلى جواز وقوع اشياء مخالفة للعادة ، والغزالي فطن إلى ذلك مما يؤدى إلى احداث الاختلال في القيم والمقاييس التي توزن بها . واجابة الغزالي لتبرير ذلك لم تكن وافية تماماً ، وانما نرى انه لايختلف عن الفلاسفة في مسألة تفسير الممكنات في حدود مفاهيم الفلاسفة عن ممكنات الوجود وواجب الوجود : اذ انه لاينفي وقوع جميع الاشياء مادامت ممكنة في حد ذاتها ؛ حيث ان وجوبها يكون عن واجب الوجود الذي به اصبحت وجوده ممكنة في حد ذاتها واجبة الوجود بغيرها . وهذا الالتزام لن يؤدى إلى استحالة الاحكام عليها ولا إلى الاختلال في القيم والموازين ضمن ماتقدم من تفسيرات للعلاقة السببية ولمفهوم المعجزات. وفي اقرار الغزالي بعدم نفي وقوع الاشياء مرحلة في طريق الاقرار بالسببية وضرورتها اذا صح التعبير .

(٥)

يجدر بنا في دراستنا لمفهوم الغزالي للسببية ان لانكتفي فقط بموقفه الرافض للسببية كعلاقة ضرورية او قانون علمي ، حيث اننا نجد الغزالي ، فيما نجده في المجالات المعرفية الاخرى — اعني في نظرية المعرفة — وكذلك في المنطق لايبتعد عن المفهوم الفلسفي لمقولة السببية الذي اعتمد عليه الفلاسفة ان لم يكن يقف عند نفس المفهوم ، معهم . والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : هل للسببية ارتباط بمصادره المعرفة ؟ ..

ان السببية باعتبارها مقدمة من مقدمات المعرفة ارتبطت بشكل او باخر بمصادر المعرفة عند مفكرى وفلاسفة العرب . والمعرفة منها يقينية ، ومنها غير يقينيه ، ولكل منهما مقدماتها . والغزالي ، حينئذ ، قد ميز بين المعرفتين وادخل الاشياء التجريبية في اطار المعرفة اليقينية الا أنه عندما بحث في مجال السببية ، لم يلتزم بما نادى به وبما قال به بل « انه حين احس بان اراءه في السببية تتعارض مع منطق التجربة قام بمحاولة هروبية ... بان احالنا إلى

كتاب تهافت الفلاسفة » (٦٦) . ثم ان السببية تتصل اتصالا مباشرا بالمقدمات اليقينية — الاوليات العقلية المحضة، المحسوسات ، المجربات ، الحدسيات، القضايا التي عرفت لابنفسها بل بواسطة ، المتواترات (٦٧) .

وما يتعلق بالمحسوسات فان من الباحثين من ينقد موقف الاشاعرة والغزالي مشيرا إلى ان « المحسوسات اذا كانت تعد من قبيل المعرفة اليقينية فانه يترتب على ذلك ان اراء كل من الاشاعرة والغزالي في السببية ... غير يقينية اى اراء غير فلسفية » (٦٨) .

ويفهم الباحث من خلال النقد الموجه إلى الغزالي ، خصوصا في اصول البرهان (٦٩) —كما ورد اعلاه — انما هو دفاع صريح عن السببية واعتبارها من المواقف الفلسفية التي تمثل موقفا برهانيا يقينيا وليست موقفا ظنيا غير يقيني .

كما ان موقف الغزالي من العلل الطبيعية وتفسيره لها من المستلزمات التي يتطلبها البحث ، خاصة اذا ماعلمنا انه منسجم مع تفسير الفلاسفة للاسباب الطبيعية مما يشير اشارة لالبس فيها اعتماد الغزالي على السببية من جهة ، ثم مواكبته لهم ضمن حدود المنهج على اقل تقدير من جهة اخرى .

لقد عرف الغزالي السبب والعلة بانه«كل شيء له وجود في نفسه ،لاعن وجود شيء اخر معلوم ،وذلك المعلوم لاوجود له الا بالشي فأنمايسمى ذلك الشيءعله ذلك المعلوم وذلك الشيء المعلوم معلول ذلك الشي» (٧٠) ومن الملاحظ ان مفهوم « السبب والعلة » مترادفان ، كما ان مفهوم المبدأ يرد بمعنى العلة عند الغزالي (٧١) والعلة ابدا اشرف من « المعلول» الذي هو القابل ، لان الفاعل «العلة » مفيد والقابل مستفيد (٧٢) والمتقدم عليتها . وكان الشرف الذي حصلت عليه العلة هو تقدمها على المعلول وبمعنى اخر اسبقية العلة على المعلول.

اما من جهة الكل والجزء والعلاقة بينهما فهو يشير إلى ان كل ماهو حاصل من اجزاء فلا يكون وجود الجزء بسبب وجود الجملة ، بل وجود الجملة بسبب وجود الاجزاء واجتماعها (٧٣) .

ومن ناحية تصنيف العلوم وتقسيمها ، يتابع الغزالي تقسيم الفلاسفة للعلوم إلى علوم عملية وعلوم نظرية . كما انه يضع العلة والمعلول في قائمة العلم النظرى (٧٤) ومتابعته للفلاسفة تبدو ايضا واضحة في تقسيمه الموجود إلى سبب ومسبب (٧٥) ويقسم السبب او العلة إلى قسمين :

١ ـ مايكون جزءا من ذات المعلول.

٢ ـ مايكون خارجا عن المعلول

يعني بالاولى ، العلة المادية ، ونسبة العلة إلى المعلول تكون كنسبة الخشب إلى الكرسي ، والعلة الصورية مانسبته نسبة الصورة . ويعني بالثانية ، ، العلة الفاعلة ، كالنجار للكرسي ، والنار للحرارة . والغلة الغائبه، كصلاحية الكرسي للجلوس (٧٦) . لقد حدد الغزالي الاسباب الطبيعية باربع علل رتبها طبقاً لترتيب وتقسيم ارسطو لها (٧٧) .

١ ـ العلة الفاعلة : ـ مامنه بذاته الحركة ، وهو السبب في وجود الشيء كالنجار للكرسي والاب للصبي (٧٨) والعلة الفاعلة إما ان تفعل بالطبع كالنار تحرق والشمس تنور . واما ان يكون بالارادة كالانسان يمشي (٧٩).

٢ ـ العلة المادية : ـ مالابد من وجوده لوجود الشيء مثل،الخشب للكرسي.

٣ ـ العلة الصورية : ـ وهي تمام الشيء ، كصورة السرير من السرير، وصورة البيت للبيت ، وفيها قوام الشيء (٨٠) .

٤ ـ العلة الغائية : ـ الغاية الباعثة اولا المطلوب وجودها ، اخرا ، كالسكن للبيت والصلوح للجلوس من السرير (٨١) . ومن خاصية العلة الغائية ان سائر العلل بها تصير ، علة ، فانه مالم تتمثل صورة الكرسي المستعد للجلوس ، والحاجة إلى الجلوس في نفس النجار ،لايصير هو فاعلا ولايصير الخشب عنصر الكرسي ، ولاتحل فيه الصورة . والغائية حيث وجدت في جملة العلل ، هي علة العلل (٨٢) . وسابقة سائر العلل اذ بها صارت العلل عللا ووجودها متأخر عن وجود الكل وهذه العلل الاربع تجتمع في كل مالة علة (٨٣).

بعد هذا التحديد للعلل الطبيعية نرى ان الغزالي قد ادخلها لاجل تعريف الشيء (٨٤) في تعيين علله المادية والصورية والفاعلية والغائية. ثم يحاول تفسير مبحث العلل من الناحية الفقهية كما انه اعتبر كل واحدة من هذه العلل اما قريبة او بعيدة او بالقوة او بالفعل واما خاصة او عامة، واما بالذات او بالعرض، واقتصر في ذلك على امثلة فقهية (٨٥) لا اجد ضرورة في اثباتها هنا.

اذن كيف فسر التقادم بين الاسباب والمسببات؟ لقد فسر الغزالي القبلية والبعدية في صيغة التعاقب والتوالي في الاسباب والمسببات بان يقال للعلة «قبل» بالاضافة إلى المعلول، مع انهما معا في الزمان وفي كونها بالقوة او بالفعل، يتساويان. ولكن من حيث ان لاحدهما الوجود غير مستفاد من الاخر، ووجود الاخر مستفاد منه، فهو متقدم عليه (٨٦) نستنتج من ذلك إلى أنه يذهب إلى الاقرار باسبقية السبب على المسبب.

ومما له علاقة وثيقة بهذا المبحث، مسألة الحركة وحدوثها، نظرا لما لها من الدور الرئيسي في المفهوم السببي. اذ لا يمكن ان تكون حركة الاشياء بذاتها وانما تكون الحركة بمحرك خارج عنها، الذي هو علة الحركة. والغزالي في تفسيره للحركة وحدوثها يضع برهانه بصيغة السبب والمسبب، اي انه يلجأ إلى السببية لتفسير الحركة، وضرورة التناهي في الاسباب والمسببات بضرورة تناهي الحركة.

وفي تفسير حدوث الحركة يبرهن على استحالة تسلسل الاسباب المسببات ويحصر لانهائية الحركة في الحركة السماوية الدورية فقط، ثم يستنتج بان «كل حركة حادثة تدل على حركة دائمة، لانهاية لها. فان لم يفرض ذلك، لم يتصور حدوث حادث» (٨٧) ويقوم برهانه على ضرورة وجود سبب كضرورة من مستلزمات حدوث الحادث (٨٨).

ان تعليل الغزالي لحركة السماء قام على اساس سببي، باعتبار حركة السماء سببا لحدوث الاشياء كما يلي :-

١ - ان يكون السبب معه، كالضوء مع الشمس.

٢ – ان تكون الحركة الدورية سببا لوصول الاستعداد إلى الاسباب ،ولكن تتاخر المسببات من حيث انعدام الشروط .

وفي ذلك اثبات للحركة السماوية وكون حركتها دائمة مستمرة (٨٩) اما تاثير الاجسام بعضها في بعض انما يكون بالمماسة او المجاورة او الموازاة. وهذا يعبر عن مذهب التناسبية او المناسبة ، كتاثير الشمس في اضاءه الجسم اذا ماكان محاذيا لها ولم يكن بينهما حائل . وكما توثر النار في احراق ماتلاقيه عن طريق المماسة (٩٠).

وماينطبق على تقسيم الاسباب إلى : اسباب بالذات واسباب بالعرض ينطبق ايضا على الحركة فهي تنقسم إلى مابالعرض والقسرى : والطبيعي ، وحركة الاجسام تستلزم سببا . وسبب حركة الجسم ،

ان كان خارجاً من ذاته اى ان يكون بسبب خارج من ذاته ، يسمى قسرا ، وان لم يكن خارجاً من ذاته ، اى طبيعي ، يسمى طبعاً ، ويكون فعله لاارادياً ، كحركة الحجر إلى اسفل في الحالة الثانية ، وحركة الحجر برمية إلى اعلى في الحالة الاولى (٩١).

يتعين علينا الان ان نبين مدى علاقة السببية عنده بمباحث العلم الالهي لكي يتضح لنا بشكل افضل مدى استفادته من السببية في الدفاع والنظر في سبب الوجود واعتماده التفسير السببي حجة للتدليل على وحدة السبب وبالتالي وحدة الخالق عز وجل .

يربط الغزالي مبحث السببية بالعلم الالهي وذلك يبدو واضحاً في تحديد ما يقع في هذا العلم وهو « النظر في سبب الوجود كله ، لان الموجود ينقسم إلى سبب ومسبب » (٩٢) ويعتمد على فكرة ضرور وجودية السبب واستحالة كون الماهية علة وجود ذاتها ، فيلجأ إلى تفسير الاعراض بقوله « ان كل عرضي للشيء فهو معلل ، وعلته اما ذات الموضوع ، كالحركة إلى اسفل للحجر ، والتبريد للماء ، واما خارج من ذاته ، كالسخونة

للماء ، والحركة إلى فوق للحجر ...» (٩٣) وفي كلا الحالين يستلزم بالضرورة « ان يكون وجود السبب حاصلا اولا ، حتى يكون سبباً لغيره ولذلك يستحيل ان تكون الماهية سبباً لوجود نفسها .. والماهية لاتكون موجودة فكيف تكون علة للوجود ؟ » (٩٤) ان غايته في ذلك اثبات ان الانية « الوجود» هي الماهية ، والا كان الوجود معلولا للماهية .

بعد تقسيمه للوجود إلى سبب ومسبب يقسم السبب إلى : علة بالذات وإلى علة بالعرض ، اى مالم يحصل المعلول به بل بغيره (٩٥) ويعتمد على مبدأ استحالة تسلسل الاسباب إلى مالانهاية وهو مبدأ سببي موكدا في ذلك حتمية العلاقة السببية من خلال حتمية التناهي في التسلسل « لان الترتيب بين العلة والمعلول ضروری وطبيعي » (٩٦).

فهو اذن باعتماده على هذا المبدأ يسلم تسليماً لاغبار علية بحتمية السببية باعتبار حتمية التناهي في التسلسل ، والتعاقب والتكرار في الحالات التي تفسرها في ضوء المفهوم السببي ، كل ذلك يشير إلى استفادته من مفهوم السببية من اجل تعليل الحوادث ولكن ليس باعتبارها قانوناً طبيعياً مطلقاً.

وعود إلى بدأ نقول بان الغزالي يبرهن على مسألة ضرورية الترتيب بين الاسباب والمسببات بانها اذا فرضت مترتبة بحيث يكون بعضها علة للبعض فلا بد وان تنتهي إلى علة ليست معلولة ، وهي طرف فتتناهي (٩٧).

والحتمية السببية نجدها بصورة اوضح في تقسيمه للموجود إلى ما هو بالقوة ، والى ماهو بالفعل فيقول « فكل علة فانما يلزم معلولها ، على سبيل الوجوب وما لم يجب وجود المعلول عن علته لايوجد» (٩٨) ويوجب الغزالي توفر جميع شروط العلة لحصول المعلول وفي حالة توفرها فيستلزم حصول المعلول ، وفي حالة تخلف او عدم حصول المعلول، فحينئذ يكون ذلك لاسباب عديدة منها : اما لقصور في طبعه ، او في ارادته ، او لعدم ذاته .

ونحن نلمس مفهوم الحتمية عند الغزالي في دفاعه عن وجود المسبب بارتباطه بالعلة وعدم استغنائه عنها باى حال من الاحوال ، لان عدم السبب والفاعل يلزم انعدام المسبب والفعل (٩٩)

وبذلك فان مفهوم الغزالي للحتمية السببية بناءا على ما تقدم يتفق من بعض جوانبه مع مفهوم فلاسفة الاسلام الا ان سيطرة النظرة الدينية على تصوره اكبر بكثير من سيطرة النظرة الفلسفية (١٠٠) ويبدو ذلك من خلال تاكيده على ان « مامن جزئي ، ولو في مثقال ذرة ،الا وله سبب فيعرف بسببه بنوع كلي ، ليس فيه اشارة إلى وقت زمان ، ويبقى عارفاً به ازلا وابدا فلا يغرب عن عمله مثقال ذرة » (١٠١) وكذلك في ايمانه الذى يعلوه النزعة الصوفية حين يثبت القول « ان الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لاتعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره لافعل لشيء منها بذاته عن ذاته » (١٠٢) وهذا في رأينا يتفق تماماً مع ما اقره في انكاره للسببية ويعزو حصول كل شيء إلى مشيئة الله « ان كل شيء حاصل بمشيئة الله » (١٠٣) .

استنادا إلى ماسبق نستنتج بان القول بالسببية الضرورية ليس مبيناً على استقراء صحيح فضلا عن كونه ينسب الفعل إلى الاشياء التي لاارادة لها، وما لاارادة له لافعل له بالحقيقة . والارادة الالهية لايجوز تسخيرها للنظام الطبيعي بل الطبيعة مسخرة للارادة الالهية (١٠٤).

(٦)

ان مبدأ السببية بين اوساط المتكلمين لم يكن من جملة القضايا المسلمة بها ، وسبب ذلك هو ماأثير حرله من الشبهات (١٠٥) أما من جهة معالجة الغزالي لمشكلة السببية والحدوث يلجأ مرة اخرى إلى استخدام مبدأ سببياً في برهانه على وجود الله ، حينما يورد الحجة القائمة على مبدأ الترجيح :—

« كل حادث فله سبب ، وفي العالم حوادث ، فلا بد لها من سبب » (١٠٦) قد يستغرب القارىء اقحام الغزالي هنا لمفهوم السببية بعد ان حمل عليه حملته المشهورة لما ينطوى عليه ذلك من تناقض الا انه ماان يورد حجته تلك حتى يسارع إلى القول انه يعني بلفظه السبب المرجح(١٠٧)بينما يرى باحثين اخرين بان هذا المبدأ له شرعية مطلقة وضرورة اولية في العقل . ولكن الغزالي

يرى انه يجب التفريق بين هذه الشرعية المنطقية المطلقة لمبدأ السببية وبين السببية المشاهده في المحسوسات . وذلك لان هذه الاخيرة لايمكن ان تكون لها ضرورة مطلقة (١٠٨) .

وهكذا يزول التناقص الا ان هذه الكلمة لم تلاق رواجاً كبيراً عند المتكلمين عامة لصلتها بالفلسفة الارسطية (١٠٩) .

ومن النظريات الكلامية التي تتصل بالنظرية السببية اتصالا وثيقاً ، نظرية التولد ، ومما تجدر الاشارة اليه بيان موقف الغزالي من التولد وجرياً على السنة التي اعتمدها في موقفه نرى انه يبطل التولد،وهو امر طبيعي وملازم لمسألة انكار السببية . والتولد « ان يخرج جسم من جوف جسم » بحسب تحديد الغزالي « كما يخرج الجنين من بطن الام ، والنبات من الارض» (١١٠) ويرى استحالة ذلك في الاعراض ، اذ ليس لحركة اليد جوف حتى تخرج منه حركة الخاتم ، وينفي ان يكون احدهما متولدا من الاخر ، وهو بذلك يبطل القول بالتولد (١١١) .

وهنا ينبغي ان يتوقف الباحث ليقول : بماذا اذن يعلل الغزالي التلازم ؟ ينصب تعليله في اعتبار اللازمات ليست شرطاً ، هي مايجوز ان تنفك عن الاقتران بما هو لازم له ، بل لزومه بحكم اطراد العادة ، كاحتراق القطن عند مجاورة النار ، وحصول البرودة في اليد عند مماسة الثلج ، فان كل ذلك مستمر بجريان سنة الله تعالى . وبذلك ابطل القول بالتولد بارجاعه إلى قسمين (١١٢) .

١ — شرط فلا يتصور فيه الا الاقتران .

٢ — ليس بشرط فيتصور فيه عدم الاحتراق اذا خرقت العادات ولكن الغزالي لاينفي وجود الارتباط بين الاشياء حيث يقول :

« كل شيئين لاارتباط لاحدهما بالاخر ، ثم اقترنا في الوجود ، فليس يلزم من تقدير نفي احدهما انتفاء الاخر (١١٣)

وهنا يعبر عن لاضرورية التلازم مساوقاً لموقفه في « التهافت» ويعتبرها من المسائل العقلية . اما الاشياء التي يحددها لنا في ان بينها علاقة وارتباط يقسمها إلى ثلاثة اقسام (١١٤): —

١ — ان تكون العلاقة متكافئة كالعلاقة بين اليمين والشمال . فاذا مافقد احدهما فقد الاخر ، لانهما من المتضايفات التي لاتقوم حقيقة احدهما الا مع الاخر .

٢ — ان لاتكون العلاقة على التكافيء لكن لاحدهما رتبة التقدم كالشرط مع المشروط ، والشرط هو الذى لابد منه لوجود الشيء ، ولكن وجود الشيء ليس به ، بل عنده ، ومعه ، كعلم الشخص مع حياته .

٣ — العلاقة السببية بين العلة والمعلول ، فيلزم من تقدير عدم العلة عدم المعلول ان لم يكن للمعلول الا علة واحدة . ولكن الغزالي يسارع إلى القول بانهما شيئان مخلوقان معاً على الاقتران بحكم اجراء العادة ، كحز الرقبة والموت فان لم يكن الموت سوى علة الحز لزم من انتفاء الحز انتفاء الموت ولكن الخلاف في ان للموت عللا اخرى من امراض وغيرها .. فلا يلزم من نفي الحز نفي الموت مطلقاً مالم يقدر مع ذلك انتفاء سائر العلل (١١٥)

وليس غريباً والحال كذلك ان الغزالي كان بعيدا كل البعد عن انكار السببية باطلاق، انه كان على العكس من ذلك يسعى إلى الحصول على تاسيس متين للعلاقة السببية لكي يعطي للعلم القائم عليها اليقين الفلسفي ، وهكذا تستطيع ان تقوم العلوم وتظل قائمة ويستطيع المرء ان يجد فيها اليقين وذلك لانها كائنة في علم الله مسبب الاسباب (١١٦). ويؤيد ماسبق باحث اخر في قوله ان الغزالي « في جدله ... قد سلم للقائلين بالسببية باشياء هامة جعلته قريباً جدا من الوقوف على ارضهم دون ان يسلم صراحة بهذا الاقتراب... ولكن مع بقائه على الموقف الاشعرى القائل بان الله وحده هو الفاعل والخالق لهذه التغيرات التي تحول دون الارتباط الضرورى بين الاسباب والمسببات(١١٧)»

وختاماً نقول ان الغزالي ليس هو المفكر الوحيد الذى يذهب ــ في تعليق الضرورة العلية ــ هذا المذهب بل « «هيوم» (١١٨) وهو من فلاسفة القرن الثامن عشر كانت نظريته مشابهة لنظرية الغزالي والتي تعد اليوم العمدة في المنطق وفلسفة العلوم . كما ان الحكم على اقرار السببية او نفيها يقوم على عدم انكار السببية بين الكائنات ــ طبيعية كانت ام ميتافيزيقية ــ او نفيها حيث ان السببية تجمع بين مدلول مفهومين في صيغة موجزة ومؤثرة ، وهما السببية الطبيعية التي تدرك من الاقتران بين الموجودات الكائنة . والسببية الميتافيزيقية المفروضة بين حركات الاجرام السماوية واستقرار اثرها في العالم السفلي . فنحن ان اثبتنا السببية بين الاشياء وقلنا بوجود علاقة سببية قد لاندركها احياناً ، كما هو الحال في السببية الميتافيزيقية ، رغم عدم احساسنا بها بالملاحظة والتجربة فلا نقدر باي حال من الاحوال انكار قيامها . ان السيطرة على الاسباب اولى خطوات السيطرة على الطبيعة وان « السببية وسيلة للسيطرة ... وان تفهم الاسباب يعطيها القدرة للسيطرة على نتائجها . ونحن اذا كنا على جهل باسباب الملاريا او الحمى الصفراء مثلا فسوف نواجه كلا المرضين ونحن عزل . ولكن اذا القي الضوء على اسباب هذين المرضين فسوف يصبح في مقدورنا القضاء عليهما او اتقاء شرهما » (١١٩).

هوامش البحث :ـ

(١) قاسم يحيى : السببية في الفلسفة الاسلامية من الكندي إلى ابن سينا، ص٢٢ .

(٢) وعلى أساس مبدأ العلية يتوقف :

١. اثبات الواقع الموضوعي للاحساس .

٢. كل النظريات أو القوانين العلمية ،المستندة إلى التجربة .

٣. جواز الاستدلال وانتاجه ،في أي ميدان من الميادين الفلسفيةأو العلمية .« أنظر :ـ محمد باقر الصدر : فلسفتنا ،ص ٢٨٧ ـ ٢٩٥» وقد ناقش خلالها مبدأ العلية من حيث علاقته بالعلوم والنظريات العلمية ومناهج البحث العلمي .

(٣) محمد الهاشمي : العلية والاتفاق في رأي الامام الغزالي، مهرجان الغزالي : ص ٢٩٤.

(٤) قاسم يحيى : السببية في الفلسفة الاسلامية ص ٢٦، ٨٦.

(٥) محمد فرحات : طبيعة القانون العلمي ، ص٣٠.

(٦) تتحدد طبيعة القانون العلمي من زوايا مختلفة لاختلاف المذاهب الفلسفية:

١. مذهب يعد القانون كامناً في الطبيعة .

٢. مذهب يعد القانون مفروضاً على الطبيعة من الخارج .

٣. مذهب يعد القانون وصفاً لما لوحظ في الطبيعة من اطراد دونأن يقتضي ذلك ضرورة الاطراد .

٤.مذهب يعد القانون تفسيراً اصطلاحياً واسلوباً اجرائياً في البحث.

والذي يهمنا هنا المذهب الثالث ، تقول النظرية الوصفية عن القانون ، بان أي قانون من قوانين الطبيعة انما هو في الواقع ملاحظة للظواهر الطبيعية في تتابعها أو اقترانها .فيعتبر القانون مجرد و صف ،والنظرية تصبح متميزة بالبساطة.كما أن هذه النظرية تقوم على نظرية العلاقات الخارجية وتنكر وجود السببية في الطبيعة لان القانون يصف كيف تتحرك الأشياء على نحو معين ولكنه لايفسر لماذاتتحرك على هذا النحو دون غيره من الانحاء . أي أن هذه النظرية تعد تكرار التتابع

والاقتران مجرد اطراد دون أن يقتضي ذلك ضرورة الاطراد .فهي اذن بحث عن الكيف لا عن اللماذا .« انظر ، محمد فرحات ــ: طبيعة القانون العلمي ص ١٦ ــ ١٧» .

(٧) ينبثق القانون المفروض من النظرية الميتافيزيقية التي تفرض وجود صلة بين « الكائن » أو الكائنات العليا ونظام الطبيعة . « المصدر نفسه : ص ١٥» .

(٨) الغزالي : المنقذ ص ١٣ « مقدمة» أحمد فريد رفاعي : الغزالي ،١ / ٢٢٨

(٩) عبدالكريم اليافي : مهرجان الغزالي ، ص.ن ١٣.

(١٠) كارادوفو : الغزالي ،ص٧٧ .

(١١) س ، بينس : مذهب الذرة عند المسلمين ،ص٣٣ ــ ٣٤.

(١٢) : تهافت الفلاسفة ،ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦.

(١٣) قاسم يحيى : السببية في الفلسفة الاسلامية .

(١٤) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٢٣٨.

(١٥) المصدر السابق : ، ص ٢٣٩.

(١٦) عبدالكريم الخطيب: القضاء والقدر بين الفلسفة والدين ، ص١٥٥.

(١٧) المصدر نفسه :، ص ١٥٩.

(١٨) محمد الهاشمي : مهرجان الغزالي ،ص ٢٩١.

(١٩) محمد فرحات : طبيعة القانون القانون العلمي ،ص ٩٠.

(٢٠) محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام ، ص٧٠ــ٧١

(٢١) محمد فرحات : المصدر السابق ص٨٩.

(٢٢) ماجد فخري : ابن رشد فيلسوف قرطبة ،ص ٤٠ ماجد فخري : دراسات في الفكر العربي ،ص ١٠٩ .

والاشاعرة مدرسة موفقة من مدارس علم الكلام الاسلامي حاولت أن تتخذ موقفاً وسطاً بين النقل والعقل، بين السلف والمعتزلة.ومن الاشاعرة من عز النزعة العقلية وغلبها أحياناً كالغزالي والرازي.بدأت الحركة الاشعرية في القرن الرابع

الهجري ،ويعد أبو الحسن الاشعري ٣٢٤هـ / ٩٣٥م واضع المذهب ومؤسسي المدرسة .ومنهم أيضاً أبو البكر الباقلاني ٤٠٣هـ / ١٠١٣م ،وامام الحرمين ٤٧٨هـ /١٠٨٥م والغزالي ٥٠٥هـ ١١١١ م أنظر : الدكتور ابراهيم مدكور: في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه ٤٦/٢ ـ ٥٤.عمرت المدرسة نحو عشرة قرون .

(٢٣) كان بيرون (٣٦٥ ـ ٢٧٥ق.م) اول الشكاك الذين حملوا على الفلسفات السابقة التي أمنت بقدرة العقل على أكتشاف الحقيقة . ويمكن حصر نظرة بيرون في .

١. امتناع معرفة طبيعة الاشياء .
٢. التوقف عن اصدار أي حكم على الأشياء .
٣. عدم الاكتراث أو اللامبالات التي هي السعادة بالذات .

ولقد طلب الشكاك المعرفة اليقينية من خلال الشك كما اتخذ الشكاك في انكار المعرفة والعلم شرطاً للخير الاسمي . انظر : ـ الدكتور كريم متي : الفلسفة اليونانية ص ٢٧٤ ـ ٢٨١.

(٢٤) هم الواضعون الحقيقيون لعلم الكلام ،عرضوا لبعض مشاكله في أوائل القرن الثاني الهجري.ومن أخص خصائص المعتزلة أنهم يؤمنون بالعقل الايمان كله، والموا بالآراء الدينية والفلسفية على اختلافها .ومؤسسي حركة الاعتزال واصل بن عطاء ١٣٢هـ / ٧٤٨م أنظر : ابراهيم مدكور : في الفلسفيه الاسلامية منهج وتطبيق ، ص ٣٦ ـ ٣٨ والمبادىء العامة لحركة الاعتزال تقوم على الاصول الخمسة : التوحيد ، العدل ، المنزلة بين المنزلتين ، الوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.راجع الدكتور محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام،ص١٥١ـ١٧١.ومن شيوخهم أبو الهذيل العلاف ٢٢٨هـ/٨٤٩م النظام ٢٣١هـ ٨٤٥م،معمر بن عباد السلمي ٢٢٠هـ/٨٣٥م،وابو هاشم الجبائي٣٢١هـ/٩٣٢م

(٢٥) التولد هو نشوء عن فعل آخر « ان الفاعل منا ما يحدث الفعل في غيره وان مايتولد عن فعله كالالم المتولد عن الضربة والصوت المتولد عن اصطكاك الحجرين:

وذهاب السهم المتولد عن الرمية فعل لمن تولد ذلك عن فعله» الاشعري مقالات الاسلاميين ،ص ٤٥ ـ ٤٦.

كما أن فكرة التولد ترتبط بمبدأ السببية كما تتصل بفكرة الجزاء والمسؤولية والفكرة معتزلية خالصة .سلم بها المعتزلة ودافعوا عنها محاولين اقرارها نظراً لما لها من مساس بمسألة حرية الارادة والاختيار والجبرية .

انظر للتفصيل (القاضي عبدالجبار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ، الجزء التاسع «التولد»، البغدادي ،اصول الدين ص ١٣٧-١٣٩ ،الفرق بين الفرق،ص٩٥

(٢٦) محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام، ص ٧٨ .

(٢٧) محمود حمدي زقزوق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ص١٥١.

(٢٨) كمال اليازجي : أعلام الفلسفة العربية ص ٧١٩ .

(٢٩) محمد ثابت الفندي :« في فلسفة الدين عند الغزالي» مهرجان الغزالي ، ص ١٠٣ ــ ١٠٥ .

(٣٠) محمد فرحات : طبيعة القانون العلمي ،ص ٣٣ ، ص ٨٩ .

(٣١) محمد ثابت الفندي : المصدر السابق ، ص ١٠٣ ــ ١٠٥.

(٣٢) ان الدكتور علي سامي النشار في تتبعه لموقف المسلمين منذ نشأة الفكر الاسلامي ،من العلية الارسطية ،يرى بان أكمل صورة لفكرة العلية الاسلامية تتمثل في مفكر الاشاعرة أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣ هـ) .

انظر الدكتور علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الاسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الاسلامي ،ص ١٥٦ ــ ١٦١ .

(٣٣) المصدر نفسه : ، ص ١٦١ .

(٣٤) المصدر نفسه : ، ص ١٦١.

(٣٥) الغزالي : المنقذ ، ص ١٣، أحمد فريد رفاعي : الغزالي ،ص ٢٢٩.

(٣٦) ماجد فخري : ابن رشد فيلسوف قرطبة ،ص ٤٠.

(٣٧) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٢٣٩.

(٣٨) المصدر نفسه : ص٢٤٠ .

(٣٩) محمد فرحات : طبعة القانون العلمي ،ص ٨٩.

(٤٠) كمال اليازجي : اعلام الفلسفة العربية ،ص ٧٢١ .

(٤١) المصدر نفسه : ، ص٧٢٠ .

(٤٢) الغزالي :تهافت الفلاسفة ،ص ٢٤٨.

(٤٣) علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الاسلام ،ص ١٦٣ .

(٤٤) ماجد فخري : ابن رشد فيلسوف قرطبة ،ص ٤١.

(٤٥) محمد عاطف العراقي: مذاهب فلاسفة المشرق،ص٢٠ — ٢١ .

(٤٦) ماجد فخري : ابن رشد ،ص ٤٣.

(٤٧) ابن رشد : تهافت التهافت ٢ / ٧٧٣.

(٤٨) الغزالي :تهافت ،ص ٢٣٦ — ٢٣٧.

(٤٩) المصدر نفسه : ،ص ٢٣٨ ، ابن رشد تهافت التهافت ، ٢ / ٧٧٣انظر أيضاً : الرفاعي،ص ٢٣٢ ، ويتفق معه الدكتور صليبا وعواد انظر : المنقذ من الضلال،ص ١٤ ،وكذلك يوسف الشاروني : موازنة بين آراء الامام الغزالي والقديس اوغسطين ،مهرجان الغزالي ،ص ٦٩٣.

(٥٠) النشار : مناهج البحث عند مفكري الاسلام ،ص ١٦٥ .

(٥١) محمد فرحات عمر : طبيعة القانون العلمي ،ص ٩٠.

(٥٢) برنارد كارادوفو : الغزالي ،ص ٧٧ — ٧٩ .

(٥٣) الهاشمي : العلية والاتفاق في رأي الغزالي ، مهرجان الغزالي ،ص ٢٩٣ .

(٥٤) انظر :ت.ج — دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ،ص ٢١٧ .
الهاشمي : المصدر أعلاه، ص ٢٩٣ .

(٥٥) أحمد فريد الرفاعي : الغزالي ،١ / ١٢٧ — ١٢٨.

(٥٦) المصدر نفسه : ١ / ٢٣٦، انظر أيضاً الغزالي ، المنقذ من الضلال،ص ١٦

(٥٧) (٥٨) طيب تيزيني : مشروع روية جديدة إلى الفكر العربي في العصر الوسيط ،ص ٣٣٣ ـ ٣٣٦.

(٥٩) الغزالي : تهافت ص ٢٤٥ ، رفاعي : الغزالي ،١ / ٢٣١ .

(٦٠) محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية ص ٦٧٧.

(٦١) رفاعي : الغزالي : ١ / ٢٣٢، ويتفق معه الدكتور صلبيا ،وعواد انظر مقدمة المنقذ من الضلال ، ص ١٤ .

(٦٢ الغزالي : تهافت ،ص ٢٤٦.

(٦٣) مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية ،ص ٦٧٩ .

(٦٤) نجيب مخول : الغزالي وابن رشد ، ص ١٤١ .

(٦٥) المصدر نفسه : ص ١٤٥.

(٦٦) محمد عاطف العراقي : ثورة العقل في الفلسفة العربية ،ص٤١.

(٦٧) المصدر نفسه : ص ٥٠ ـ ٥٤.

(٦٨) المصدر نفسه : ص ٥٤.

(٦٩) المصدر السابق : ص ٧٨ .

(٧٠) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ،ص ١٨٩ .

(٧١) الغزالي : معيار العلم ، ص ٣٣٠ .

(٧٢) المصدر نفسه : ص ٣٣١.

(٧٣) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ، ص ١٨٩. انظر أيضاً :معيار العلم ، ص ٣٣٧ ـ ٣٤١

(٧٤) المصدر نفسه : ص ١٣٦ .

(٧٥) المصدر : نفسه ص١٨٩ انظر أيضاً: معيار العلم ،ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

(٧٦) المصدر نفسه : ص ١٨٩ ـ ١٩٠ : كذلك معيار العلم ،ص ٢٥٨ ،ص ٣٣١

(٧٧) Aristotle : Meta Vol 8. 1013 a - 1013 b,1073 a – 1074

(٧٨) الغزالي : معيار العلم ،ص ٢٥٨.

(٧٩) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ،ص ١٩٠ .

(٨٠) الغزالي : معيار العلم ، ص ٢٥٩.

(٨١) المصدر السابق : ص ٢٥٨ — ٢٦٠.

(٨٢) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ،ص ١٩٠ .

(٨٣) الغزالي : معيار العلم ، ص ٢٦٠ أنظر أيضاً أقسام العلل ، ص ٣٣١ من المصدر نفسه .

(٨٤) المصدر نفسه : ص ٢٧٣ — ٢٧٤.

(٨٥) المصدر نفسه : ص ٢٦٠ —٢٦١ أما فيما يتعلق بأقسام الوجود فانه يذهب إلى أبعد من هذا التقسيم ، ص ٣٣٠.

(٨٦) المصدر نفسه : ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .قارن موقف الغزالي من القبلية والبعدية « التهافت ص ١١٢ ص ١١٣.

(٨٧) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٢٥٦ — ٢٦٧.

(٨٨) انظر تفصيل برهان الغزالي على ذلك ،المصدر أعلاه ، ص ٢٦٧— ٢٦٨ .

(٨٩) المصدر نفسه : ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٩٠) المصدر نفسه : ص ٢٨٤. ولكن الغزالي يشير من جهة أخرى إلى أن الحركة الدورية لاتصلح أن تكون مبدأ الحوادث فان جميع الحوادث مخترعة لله ابتداء. انظر : التهافت ص ١٠٩ .

(٩١) المصدر السابق ص ٣٠٩ — ٣١٠ انظر ايضاً ما يذكره الغزالي من انواع العرض : معيار العلم : ص٣٠١ — ٣٠٢

(٩٢) المصدر نفسه : ص١٤٠

(٩٣) المصدر نفسه : ص١٨١ .

(٩٤) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص١٨١ ، انظر ايضاً : معيار العلم ص١٠١ ص١٠٣ ـ ١٠٥ .

(٩٥) المصدر السابق : ص١٩٢ . ويشير في« التهافت » إلى استحالة التسلسل في الاسباب إلى مالانهاية . انظر ص١٠٧ ، ص١٠٨

(٩٦) المصدر نفسه : ص١٩٣ .

(٩٧) انظر للتفصيل : الغزالي ، مقاصد الفلاسفة ، ص١٩٣ ـ ٢٠٠.

(٩٨) المصدر السابق : ص٢٠٣ .

(٩٩) المصدر السابق : ص٢٠٩ انظر ايضاً : التهافت ص١٤١ .

(١٠٠) انظر : محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية ، ص٦٨٠ .

(١٠١) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص٢٣٤ .

(١٠٢) الغزالي : المنقذ من الضلال ، ص٨٠ .

(١٠٣) المصدر نفسه : ص٢٧ .

(١٠٤) عبده الحلو : الغزالي حجة الاسلام ، ص٤٨ .

(١٠٥) ماجد فخرى : دراسات في الفكر العربي ، ص٩٤ .

(١٠٦) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ، ص٢٠.

(١٠٧) المصدر نفسه : ص٢٥ ـ ٢٦ .

(١٠٨) محمود حمدى زقزوق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ص١٥٤ .

(١٠٩) ماجد فخرى : ردراسات في الفكر العربي ، ص٩٥ .

(١١٠) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ، ص٩٦ .

(١١١) المصدر نفسه : ص٩٦ ـ ٩٧.

(١١٢) للمزيد راجع الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ص٩٧ ـ ٩٩ ، ص٢٢٤

(١١٣) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ، ص٢٢٢ .

(١١٤) المصدر نفسه : ص٢٢٢ ـ ٢٢٤، الدكتور محمود حمدى زقزوق: المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ، ص١٥٣ .

(١١٥) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ، ص٢٢٤ ، د. سليمان دنيا : الحقيقة في نظر الغزالي ، ص٢٥٥ .

(١١٦) محمود حمدي زقزوق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ص١٥٨ ـ ١٥٩ .

(١١٧) محمد عمارة : المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية ، ص١٥٣ ـ ١٥٤

(١١٨) دفيد هيوم : فيلسوف انكليزي ولد في ادنبرة باسكتلندة في ٢٦ نيسان ١٧١١ من اسرة متوسطة الحال وتوفي عام ١٧٧٦م.

انظر : زكي نجيب محمود : دفيد هيوم : محمد فتحي الشنيطي : فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد .

(١١٩) محمد فرحات عمر : طبيعة القانون العلمي ، ص٢١٩ .

مصادر البحث

١ — ابراهيم مدكور : في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه ، دار المعارف بمصر الجزء الثاني ، ١٩٧٦ م .

٢ — ابو الحسن علي بن اسماعيل الاشعرى : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، فرانز شتاينر ط٢ ،أسطنبول ، ١٩٦٣م.

٣ — ابو منصور عبد القاهر البغدادي : اصول الدين . اسطنبول ١٩٢٨م.

٤ — ——— : الفرق بين الفرق : القاهرة ١٩٢٨م .

٥ — ابن رشد: تهافت التهافت تحقيق سليمان دنيا ،دار المعارف بمصر، ١٩٦٥ .

٦ — احمد فريد الرفاعي : الغزالي . مطبعة عيسى البابي وشركاه بمصر جا ١٩٣٦م .

٧ — برنارد كارادوفو : الغزالي ،ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٩م.

٨ — بينس ، س: مذهب الذرة عند المسلمين ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهاذي ابو ريدة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦ م .

٩ — ت.ج. دى بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة ، القاهرة ١٩٣٨ م .

١٠ — زكي نجيب محمود : دفيد هيوم ، مصر ١٩٥٨ م.

١١ — سليمان دنيا : الحقيقة في نظر الغزالي ، ط٢، مصر ١٩٦٥ م.

١٢ — طيب تيزيني : مشروع رؤية جديدة إلى الفكر العربي في العصر الوسيط دمشق ١٩٧١م .

١٣ — عبد الكريم الخطيب : القضاء والقدر بين الفلسفة والدين ، القاهرة ١٩٦١ م .

١٤ — عبد الكريم اليافي : ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده مهرجان الغزالي في دمشق ٢٧ — ٣١ مايس ١٩٦١م القاهرة ١٩٦٢م.

١٥ ــ عبده الحلو : الغزالي حجة الاسلام ، بيروت ١٩٦٨م.

١٦ ــ علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الاسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الاسلامي ، ط٢ ، مصر ١٩٦٧ م.

١٧ ــ الغزالي : المنقذ من الضلال ، تحقيق وتقديم الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عواد ، ط٦ . دمشق ١٩٦٠ م.

١٨ ــ ـــــ : تهافت الفلاسفة ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، ط٤ القاهرة ١٩٦٦م.

١٩ ــ ـــــ : مقاصد الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، مصر ١٩٦١ م.

٢٠ ــ ـــــ : معيار العلم ، تحقيق سليمان دنيا : القاهرة ١٩٦١م .

٢١ ــ ـــــ : الاقتصاد في الاعتقاد ، عارضه باصوله وعلق حواشيه وقدم له الدكتور ابراهيم اكاه جوبوقجي والدكتور حسين اتاني ، انقرة ١٩٦٢م.

٢٢ ــ قاسم يحيى العبيدي : السببية في الفلسفة الاسلامية من الكندي إلى ابن سينا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ١٩٧٦م.

٢٣ ــ القاضي ابو الحسن عبد الجبار : المغني في ابواب التوحيد والعدل ، تحقيق توفيق الطويل ، سعيد زايد ، الجزء التاسع « التولد » ، مقدمة الدكتور ابراهيم مدكور القاهرة ١٩٦٤ م.

٢٤ ــ كريم متي : الفلسفة اليونانية : بغداد ١٩٧١ م.

٢٥ ــ كمال اليازجي وكرم غطاس : اعلام الفلسفة العربية ، ط١ بيروت ١٩٥٧م.

٢٦ ــ ماجد فخري : ابن رشد فيلسوف قرطبة ، بيروت ١٩٦٠م.

٢٧ ــ ـــــ : دراسات في الفكر العربي ، بيروت ١٩٧٠ م.

٢٨ ــ محمد باقر الصدر : فلسفتنا ، ط١ ، بيروت ١٩٦٢ م .

٢٩ ــ محمد ثابت الفندي « من فلسفة الدين عند الغزالي » ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ، مهرجان الغزالي في دمشق ٢٧ ــ ٣١ مارس ١٩٦١ م. القاهره ١٩٦٢م.

٣٠ ــ محمد فتحي الشنيطي : فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ط٢ ، القاهرة ١٩٥٧م.

٣١ ــ محمد عاطف العراقي : مذاهب فلاسفة المشرق ، ط٤ القاهرة ١٩٧٥م.

٣٢ ــ ـــــــ : ثورة العقل في الفلسفة العربية ط٣ القاهرة ١٩٧٦م.

٣٣ ــ محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية ط١ ، بيروت ١٩٧٠ م.

٣٤ ــ محمد عماره : المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية ، ط١ بيروت ١٩٧٢م.

٣٥ ــ محمد علي ابو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام ، بيروت . ١٩٧٦ م.

٣٦ ــ محمد فرحات عمر : طبيعة القانون العلمي ، تقديم الدكتور زكي نجيب محمود ، القاهرة ١٩٦٦م.

٣٧ ــ محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام ، القاهرة ١٩٢٧م.

٣٨ ــ محمد الهاشمي : « العلية والاتفاق في رأى الامام الغزالي » ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ، مهرجان الغزالي في دمشق ٢٧ ــ ٣١ مارس ١٩٦١ . القاهرة ١٩٦٢ م.

٣٩ ــ محمود حمدي زقزوق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ط١ القاهرة ١٩٧٣

٤٠ ــ نجيب مخول : الغزالي وابن رشد ، مباحث الفلسفة العربية، بيروت ١٩٦٢ م.

٤١ ــ يوسف الشاروني « موازنة بين اراء الامام الغزالي والقديس اوغلسطين» ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده مهرجان الغزالي في دمشق ٢٧ ــ ٣١ مارس ١٩٦١ م القاهرة ١٩٦٢ م.

42 — Aristotle: Metaphysica, Trans. of W. D. Ross, Vol 8. Oxford, 2nd, ed, 1960.

العقوبة في القانون العراقي القديم

(التطور التاريخي)

الدكتور عامر سليمان
مركز البحوث الاثارية والحضارية

التطور التاريخي

القوانين العراقية القديمة من اقدم القوانين المدونة في العالم حتى الان حيث يرقى تاريخ اقدم هذه القوانين ، وهو قانون اور — نمو مؤسس سلالة اور الثالثة ، إلى اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ، في حين يرجع تاريخ القوانين الاخرى إلى اوائل الالف الثاني قبل الميلاد ، أي إلى القسم الاول من العهد البابلي القديم (١) . وإلى جانب القوانين المدونة عثر على المئات بل الالاف من النصوص المسمارية ذات العلاقة بالنظم القانونية التي كانت سائدة في العراق القديم منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد فصاعدا منها اصلاحات اوروكاجينا الشهيرة التي سنأتي على تفصيل ماورد فيها فيما بعد .

وحيث ان العراقيين القدماء كانوا اول من اخترع الكتابة او استخدمها وسيلة للتدوين ، وكان ذلك في النصف الثاني من الالف الرابع قبل الميلاد ، لذا كانت النصوص المسمارية القانونية المكتشفة في المواقع العراقية ذات اهمية بالغة في دراسة نشوء وتطور النظم القانونية بصورة عامة .

ان اية دراسة للنصوص العراقية القديمة تدل على الاسهام الكبير والانجاز الرائع الذي حققه العراقيون القدماء ، السومريون منهم والاقوام العربية القديمة(٢) في المضمار الحضاري الانساني وفضلهم في وضع اللبنات الاولى في التنظيم القانوني للمجتمعات الاولى .

---

(١) يقصد بالعهد البابلي القديم الفترة الواقعة بين سقوط سلالة اور الثالثة (حدود ٢٠٠٦ ق.م) وسقوط سلالة بابل الاولى على ايدي الجيوش الحثية الغازية (حدود ١٥٩٥ق.م)

(٢) استخدمنا مصطلح " الاقوام العربية القديمة " بديلا عن مصطلح " الاقوام السامية " وذلك للدلالة على جميع الاقوام العراقية القديمة التي هاجرت إلى العراق قادمة من شبه الجزيرة العربية عن طريق سوريا ومنها الاقوام الاكدية والامورية (البابلية) والاشورية والكلدانية والارامية . كما يعتقد بان احدى الهجرات العربية القديمة قد وصلت القسم الجنوبي من العراق في الفترة السابقة لمجي السومرين واختلطت بالسكان المحليين مكونة مايعرف عادة بالفراتيين الاوائل (حول استخدام هذا المصطلح انظر ، د. عامر سليمان واحمد مالك ، محاضرات في التاريخ القديم ، موصل ١٩٧٨ ، صفحة ٩٨ — ١٠٠ ، طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ج ١ — صفحة ٦٥ .

والعقوبة كفكرة وكجانب من الجوانب القانونية هي دون شك سمة من سمات المجتمعات المتطورة التي قطعت مرحلة البدائية والوحشية . فهي حسبما تعرفها القوانين الوضعية ، « الجزاء الذي يوقع على مرتكب الجريمة لمصلحة الهيئة الاجتماعية»(١) أي أن العقوبة لاتوجد أصلاً الا اذا كان هناك هيئة اجتماعية لها قوانينها واحكامها التي تحمي مصلحتها العامة وهذا لايتوفر الا في المجتمعات المتطورة التي قطعت شوطاً في مضمار الحضارة والتقدم واجتازت مرحلة البدائية.

ووجود القوانين العراقية القديمة المدونة منذ الالف الثالث قبل الميلاد بما تضمنته من مبادىء مختلفة في اساليب تحديد العقوبة على الجرائم العامة والخاصة يدل دلالة قاطعة على أن المجتمع العراقي القديم كان قد قطع مرحلته البدائية منذ فترة مبكرة جداً وانه بلور القواعد والاحكام التي كان المجتمع يسير عليها وصاغها صياغة قانونية غاية في الدقة والاتقان كما هو واضح من القوانين المدونة.

ومن خلال دراسة ماورد في النصوص المسمارية ذات العلاقة بالنظم القانونية ، وفي مقدمتها القوانين ، ودراسة تاريخ بعض المجتمعات البدائية وكذلك من دراسة النظم والتقاليد والاعراف التي تسير عليها بعض المجتمعات البدائية الموجودة حتى الوقت الحاضر في بعض اجزاء العالم ، توصل الباحثون في تاريخ النظم القانونية إلى رسم صورة تقريبية عن نشوء النظم القانونية وتطورها حتى وصلت مرحلة النضوج ، وهم وان اتفقوا في وضع الخطوط العامة والرئيسة لتلك الصورة الا انهم يختلفون كثيراً في املاء تفاصيلها الدقيقة . ومن الامور التي اختلف في بيانها الباحثون هو كيفية تطور المبادىء المتبعة في تحديد العقوبة على الجرائم المختلفة .

فمن المعروف ان الانسان عاش عصوراً طويلة دون ان يترك مخلفات أو آثاراً يمكن أن تبين لنا اسلوب حياته الاجتماعية والاسس والقواعد التي سار عليها في ضبط تصرفاته وسلوكه مع اخيه الانسان ، فجل ماتركه لنا من آثار يشير إلى

---

(١) انظر ، جندي عبد الملك ، الموسوعة القضائية ، ج٥ صفحة ٧.

عيشه في جماعات صغيرة في الكهوف والمغاور الجبلية وفي مناطق معزولة عن بعضها البعض . ولنا ان نفترض ان حياة الانسان آنئذ لم تكن خاضعة لقواعد وضوابط معينة بل كانت حياة بدائية ساذجة كما لنا أن نفترض أن القوة كانت أساس وجود الحق والدفاع عنه وأن الانتقام الشخصي ، الذي اصبح فيما بعد يعرف بمبدأ الأخذ بالثار ، كان أساس العقاب .

ثم تطورت حياة الانسان الاجتماعية وتبلورت معتقداته الدينية ووضحت معالم حياته وخلف لنا الانسان من الاثار مايمكن الافادة منها في معرفة التكوين الاجتماعي في تلك الفترة . وكانت الاسرة ، كما يرى جمهور الباحثين ، أساس المجتمع والخلية التي تتكون منها العشائر والقبائل والمجتمعات المدنية على حد سواء . وطبيعي ان تبلورت بعض القواعد والضوابط التي تحكم سلوك الافراد كل تجاه الاخر داخل وخارج نطاق اصغر خلية في المجتمع ، وهي الاسرة ،وكانت تلك القواعد والضوابط تأخذ شكل العادات والتقاليد التي استحسنتها الجماعة وسارت عليها واستهجنت الخروج عنها حتى إكتسبت بمرور الوقت قدسية خاصة .

وتشير الدراسات التي اجريت حول التنظيمات الاجتماعية والقانونية في المجتمعات الاولى هذه إلى أن القوة ظلت الاساس الذي يقوم عليه الحق وظل مبدأ الانتقام الشخصي أو الاخذ بالثأر هو الاساس في تحديد العقوبة والجزاء. وكان ينظر إلى مبدأ الاخذ بالثار بأنه المبدأ الذي يجسد وحدة الاسرة ووقوفها وقفة واحدة تجاه أي خطر يهدد كيانها .

فاذا ماوقع اعتداء على أي فرد من افراد الاسرة من خارج نطاق الاسرة ، هب جميع أفراد الاسرة لنصرة المجني عليه والدفاع عنه وأخذ الثار من الجاني

أو أحد أقربائه أو أفراد اسرته بغض النظر عن هويته (١) . وكان الاخذ بالثأر على هذه الصورة غالباً مايجر إلى الانتقام المقابل وهكذا تكون هناك حلقة مستمرة من عمليات الاخذ بالثأر قد تؤدي بحياة العشرات من افراد الاسر المتخاصمة. وما قد يحدث بين الاسر المختلفة يمكن أن يحدث بين العشائر أو القبائل المختلفة ويهدد بنشوب حروب اهلية قد يذهب ضحيتها المئات من الرجال من كلا الطرفين ولدينا من تاريخ بعض القبائل العربية القريب امثلة كثيرة على ذلك.

وازاء هذا الوضع كان لابد من وضع قيود وحدود لمبدأ الاخذ بالثأر او الاستعاضة عنه بمبدأ عقابي اخر. وقد اختلفت اراء الباحثين في بيان الطريق

---

(١) الاخذ بالثأر : هو الانتقام للقتيل بقتل القاتل او احد اقربائه ، وهو احدى سمات المجتمعات القبلية التي لا يحتويها اطار سياسي محكم . ويمكن القول ان جذور الاخذ بالثأر ترقى بتاريخها إلى عصر القوة والانتقام الفردي الذي اتصفت به المجتمعات البدائية عندما كان على الافراد ان يعتمدوا على أنفسهم في الحصول على حقوقهم والدفاع عنها . ويمثل الاخذ بالثأر في المجتمعات القبلية وحدة الاسرة والقبيلة ، وتضامنها وتماسكها ضد اي اعتداء خارجي .

ويقع واجب الاخذ بالثأر على عاتق اولياء الدم ،وهم اقارب القتيل وافراد عشيرته ، لذا لم يتصف الثأر بالشخصية بل كان باستطاعة اي من اولياء الدم ان ياخذ بالثأر وان كانت القاعدة العامة ان يباشر الثأر اكثر الافراد قرابة من المجني عليه .

ولا يشترط ان يؤخذ الثأر من ذات الجاني بل قد يقتل فرد اخر من افراد اسرته او عشيرته او قبيلته اما لتعذر قتل الجاني لهربه او موته او لرغبة من ذوي القتيل ان يقتلوا من هو اعز فقدا عند قومه من الجاني نفسه وان كان لا ذنب له . وقد يبالغ الاخذ بالثأر بين قبيلتين احداهما أرفع نسباً من الاخرى وخير ما نستشهد به على ذلك قول العرب : "لنقتلن بالعبد منا الحر منهم وبالمراة منا الرجل منهم وبالرجل منا الرجلين منهم" كما كانوا يجعلون جراحاتهم احيانا ضعف جراحات خصومهم .

ومن خصائص الثأر القانونية انه جماعي لا شخصي وانه انتقام خاص يتولاه الفرد لا الدولة وأنه قانونياً اي حقاً مطلقاً للجاني قبل المجني عليه لذلك لا يترتب عليه انتقام مقابل من الناحية النظرية على اقل تقدير . (انظر أحمد فتحي بهنسي ، العقوبة في الفقه الاسلامي الطبعة الثانية، القاهرة ، ١٩٦١، صفحة ٥٢ – ٥٦) .

الذي سلكه هذا التطور غير ان الرأى السائد يرى بان مبدأ الاخذ بالثار قد تطور إلى مبدأ القصاص. (١)

ثم ظهر مبدأ التعويض ويفسر اصحاب هذا الرأي الاسلوب الذي رافق هذا التطور بان زيادة قوة السلطة في المجتمع ، القبلي او المدني ، فسح المجال للسلطة بان تضع قيوداً لمبدأ الاخذ بالثأر وذلك بانهاء العلاقة العدائية بين المتخاصمين بعد مقتل القاتل (الاول) وكان ذلك بداية ظهور فكرة القصاص التي تنطوي على ان تكون العقوبة بقدر الجريمة جسامة . ولم يقتصر اتباع مبدأ القصاص في العقوبات المفروضة على جرائم القتل بل تعداه إلى الاعتداءات البدنية .

ثم جاءت الخطوة التالية وهي الاعتراف بالتسوية بين الاطراف المتخاصمة وترضية المجني عليه او ذويه مقابل تنازلهم عن حقهم في الاخذ بالثار عن طريق القصاص . وكانت التسوية ، او التعويض ، في بدايتها اختيارية ثم مالبثت ان اصبحت اجبارية تفرضها السلطة الحاكمة وتلزم جميع الاطراف قبولها . ومع ذلك ، ظل يعمل بمبدأ الاخذ بالثار وبمبدأ القصاص في حالات وظروف معينة وعندما لايتفق الخصمان على التسوية ويخرجا عن ارادة السلطة .

اما الرأي الآخر ، وهو راينا في هذا البحث ، فيرى ان مبدأ التعويض او التسوية قد اخذ طريقة اثر مبدأ الاخذ بالثار مباشرة في كثير من الحالات ولكنه لم يقض عليه ، ولن يقض عليه طالما ظلت بعض المجتمعات القبلية لاتؤمن الا به .

---

(١) القصاص هو ايقاع الاصابة نفسها التي اصيب بها المجني عليه على ذات الجاني شكلا ونوعا وجسامة ، وهنا نشير إلى المعنى الاصلي لكلمة القصاص وهو„المساواة والتعادل" لذلك سمي المقص مقصاً لتعادل جانبيه . ويقول القرطبي في كتاب الجامع لاحكام القرآن "والقصاص مأخوذ من قص الاثر وهو اتباعه ، ومنه القاص ، لانه يتبع الاثار والاخبار وقص الشعر اتباع اثره ، فكان القاتل سلك طريقا من القتل. فقص اثره ومشى على سبيله في ذلك ،ومنه " فارتدا على اثارهما قصصاً ، وقالت لاخته قصيه " اي اتبعي اثره " (احمد فتحي بهنسي ، المصدر السابق ، صفحة ١٢٧ – ١٣٥).

فعندما زادت قوة السلطة المركزية حاولت ان تفرض قبول التسوية بين الاطراف المتخاصمة وتحل المنازعات التي تقع بين الاسر والعشائر على هذا الاساس ووضعت حدود (دية) لكل جريمة،واعتبرت الجرائم الواقعة على الافراد بانها جرائم خاصة تهم الاطراف المعنية فقط فاذا تمكنت من اجراء التسوية بين الاطرف المتخاصمةوتم تنازل المجني عليه او ذويه عن حقهم في الاخذ بالثار ، سويت القضية وزال اثرها . غيران تطور المفاهيم الاجتماعية لدى المجتمعات وشعور السلطة وكذلك الجماعة بضرورة المحافظة على مصلحة الجماعة العامة والدفاع عنها ، دفع السلطة إلى اعتبار بعض الجرائم الواقعة على الافراد جرائم عامة تهم المجتمع كله ، ومن هذه الجرائم جريمة القتل العمد والزنا والسرقة . لذلك لم تعد السلطة ترض بالتسوية ودفع الدية بل اصرت على معاقبة الجاني التي يستحقها وتخليص المجتمع من شره وفي الوقت نفسه يشفي غليل المجني عليه فكان ان اتبعت مبدأ القصاص بالنسبة لهذه الجرائم . وبمرور الوقت زاد عدد الجرائم العامة وحددت عقوبتها وفق مبدأ القصاص هذا ، وهذا ماتوضحه لنا القوانين العراقية القديمة كما سنبين ذلك في الصفحات التالية .

العقوبة في القانون العراقي القديم

تعد القوانين العراقية القديمة ، كما سبق والمحنا ، اقدم وأكمل مجموعة قانونية مكتشفة حتى الآن حيث ترقى المجموعات المهمة منها إلى أواخر الالف الثالث واوائل الألف الثاني قبل الميلاد .فهي بذلك تفيد كثيراً في دراسة تاريخ تطور المبادىء المتبعة في تحديد العقوبة . والى جانب القوانين المدونة هناك اعداد وفيرة من النصوص المسمارية الاخرى ذات العلاقة بالنظم والقواعد القانونية التي تلقي الضوء على كثير من الامور القانونية الغامضة ويأتي في مقدمتها مايعرف عادة باصلاحات اوروكا جينا ، حاكم مدينة لجش السومرية ، والتي سنأتي على تفصيلها فيما بعد . أما النصوص المسمارية الاخرى فمنها الوثائق اليومية التي تشمل مختلف العقود الاقتصادية والادارية والعقود الخاصة بالاحوال الشخصية ومنها النصوص التي تعرف بالاحكام الصادرة او القضايا السابقة التي تفيد كثيراً في معرفة كيفية تطبيق وتنفيذ القوانين وتحديد العقوبات في العصور العراقية القديمة .

ومع وفرة النصوص المسمارية ذات العلاقة الا أن هذا البحث سيعتمد القوانين المدونة بالدرجة الاولى في حين سيشار إلى النصوص الاخرى عند الحديث عن اسلوب تنفيذ العقوبة لمعرفة مدى ماكان يطبق فعلا من العقوبات المنصوص عليها في القوانين . فالقوانين المدونة تمثل وجهة نظر السلطة في النظام القانوني بما فيه النظام العقابي في حين تمثل الوثائق اليومية الاخرى ماكان سائداً بين الناس من قواعد واحكام وما كان يطبق من قوانين واحكام وردت في القوانين الرسمية الصادرة سواء وردت فيها أم لم ترد . وحيث أن أقدم النصوص المسمارية ذات الطابع القانوني،وهي اصلاحات اوروكا جينا،ترقى بتاريخها إلى أواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، لذا فان معلوماتنا عن النظم القانونية التي كانت سائدة في الفترة السابقة لذلك تبقى غير موثقة وتعتمد على التخمين والاستنتاج من النصوص المسمارية المتأخرة نسبياً مفترضين ان النظم القانونية لم تكن تتغير جذرياً في فترة قصيرة بل يظل العمل فيها قائماً فترة طويلة حتى يحل محلها وبالتدريج نظماً قانونية أخرى متطورة عن سابقتها . ومع ذلك ، فان النتائج التي يمكن التوصل اليها من خلال دراسة النصوص المسمارية المتوفرة في الوقت الحاضر سواء بالنسبة للفترة السابقة لتاريخ القوانين المدونة أم اللاحقة لذلك قد تتغير في المستقبل اذا اذا ماعثر على نصوص قانونية جديدة تعود بتاريخها إلى الفترات المبكرة أو ظهر لنا وجود قوانين مدونة اخرى سابقة أو معاصرة للقوانين المعروفة لدينا حتى الان وتختلف عنها في بعض الاوجه (١) .

(١) لقد كان الراي السائد لدى جميع الباحثين في تاريخ النظم القانونية في مطلع هذا القرن بان قانون حمورابي الذي اكتشفت نصوصه في عام ١٩٠١ - ١٩٠٢ يمثل اقدم قانون مدون معروف وسبق جميع القوانين القديمة الاخرى واستنادا إلى هذا الراي اجريت كثير من البحوث القانونية المقارنة . ثم تتابعت الاكتشافات الاثرية في الخمسين سنة التالية وتم العثور على ثلاث مجموعات قانونية اخرى كانت جميعها اقدم من قانون حمورابي وهي مجموعة قانون أور - نمو (٢١١٣ - ٢٠٩٦ق.م) ومجموعة قانون لبت - عشتار (١٩٣٤ - ١٩٢٤ق.م) ومجموعة قوانين اشنونا (القرن التاسع عشر قبل الميلاد). في حين يعود قانون حمورابي إلى اواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد (حكم حمورابي في الفترة ١٧٩٢ ولغاية ١٧٥٠ ق.م) وقد غيرت هذه المكتشفات كثيرا من الاراء التي جاءت في بحوث العلماء في مطلع هذا القرن .

تعد النصوص المسمارية التي تحمل اصلاحات اوروكا جينا ، آخر حكام مدينة لجش من سلالتها الاولى ، أقدم النصوص المسمارية ذات العلاقة الوثقى بالنظم القانونية التي سادت العراق القديم والمعروفة حتى الآن ، ويرقى تاريخ هذه النصوص إلى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، أي انها سبقت قانون اور — نموّ مؤسس سلالة اور الثالثة وصاحب أقدم قانون معروف بما يزيد عن ثلاثة قرون . وعلى الرغم من أن هذه الاصلاحات لاتؤلف تشريعاً أو قانوناً كالقوانين المعروفة لدينا من فترات أخرى ، كقانون اور — نموّ وقانون لبِت — عشتار ، الا انها ما من شك اقدم الاعمال التشريعية المعروفة حتى الآن ، وقد حاول اوروكا جينا من خلالها اصلاح الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية الفاسدة ونشر الحق والعدل في المملكة والقضاء على الظلم والتعسف .

ان دراسة ماورد في اصلاحات اوروكا جينا وتحليله تشير إلى أن الاصلاحات تضم نوعين من الاجراءات . الاول يشمل اجراءات فورية استثنائية ذات طابع اقتصادي كان الهدف منها وضع حل آني ومستعجل للازمة الاقتصادية والوضع المتردي الذي كانت تمر به مدينة لجش في تلك الفترة ،ومن هذه الاجراءات الغاء الضرائب أو تخفيضها واطفاء الديون والغرامات المتراكمة على بعض الناس واطلاق سراح المقيدين منهم بسبب الديون أو غيرها . أما النوع الثاني من الاجراءات فقد كانت ذات طابع قانوني شبيه بأحكام المواد القانونية الواردة في القوانين المدونة من الفترة التالية للاصلاحات ،وربما كانت تلك الاجراءات تثبيتاً للاعراف والتقاليد السائدة واساساً للاحكام القانونية التي وردت في القوانين المدونة من الفترات التي اعقبت ذلك .

وكان من جملة الاصلاحات التي اعلنها اوروكا جينا وحاول من خلالها أن يساعد الضعفاء اقتصادياً ويمنع استغلالهم وارهاقهم بسبب الديون المتراكمة عليهم انه منح الحرية لمن كان مقيداً منهم بسبب دين أو ضريبة أو غرامة ناشئة عن سرقة أو قتل ، حيث جاء في النص الذي يحمل هذه الاصلاحات .

" انه (أي اوروكا جينا) عفى عن « مواطنيه » (حرفياً أبناء لجش) الذين (كانوا في السجون بسبب) الديون (التي وقعت عليهم) ، (أو بسبب) كميات (القمح التي يدعيها القصر) كحق (له) ، (أو بسبب) الشعير (الذي يدعي القصر بأنه يعود)لمخازنه،(اوبسبب) سرقة أو قتل، واطلق سراحهم". (١)

ان تفسير ماورد في هذا النص يستوجب منا التوقف قليلا للتعرف على ماكان يقصد بتقييد الحرية المشار اليه في النص وإلى مايقصد ، بالسجون الوارد ذكرها في الترجمة وهل كان بعض مواطني لجش فعلا في السجون ، كما جاء ذلك في الترجمة ، أم ان اوروكا جينا قصد غير ذلك .

ان المعلومات المتوفرة لدينا حتى الان لاتشير إلى أن العراقيين القدماء مارسوا اسلوب تقييد الحرية عن طريق حبس او سجن المذنب او المدين في مكان معين من قبل السلطة كعقوبة مفروضة كما لايوجد أي دليل على وجود مايعرف بالسجون في الوقت الحاضر

لذا فان التفسير المفترض في الترجمة يبدو غير مطابق للادلة التاريخية المتوفرة لدينا .

غير أن بعض النصوص المسمارية ، ومنها قانون حمورابي ، تشير إلى أن العراقيين القدماء كانوا يمارسون حجز المدين،أو أحد افراد اسرته ، الذي لايتمكن من تسديد دينه لدى الدائن ، وكان على الشخص المحتجز أن يخدم الدائن ثلاث سنوات يطلق بعدها سراحه (٢) .

---

(١) حول ترجمة النص إلى الانكليزية واكمال النقص انظر

S·N· Kramer, The Sumerians, Chicago, 1963, 317-322·

انظر كذلك حول الاصلاحات بصورة عامة د. عامر سليمان ، القانون في العراق القديم، موصل ، ١٩٧٧ ، صفحة ١٤٢ – ١٤٧ .

(٢) نصت المادة ١١٧ من قانون حمورابي على ما يلي:

"اذا حان الاستحقاق على رجل وباع زوجته او ابنه او ابنته او ارتبط بالخدمة فيجب عليهم ان يعملوا في بيت من اشتراهم او الدائن ثلاث سنوات وتعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة".

وكان هذا التقليد معروفا لدى اليهود ايضا حيث جاء في العهد القديم ان على المدين ان يخدم سبع سنوات لدى دائنه لقاء تسديد دينه أي ان العهد القديم كان اكثر قسوة على المدين من قانون حمورابي الذي سبقه بعدة قرون. (١)

واذا عدنا إلى اصلاحات اوروكاجينا وما يماثلها من محاولات اصلاحية ظهرت في العراق القديم منذ عصور مبكرة وجدنا ان حكام العراق القدماء منذ العهود السومرية الاولى كانوا يحاولون دائما التخفيف عن كاهل المدينين ومد يد العون لهم ولاسيما في اعقاب الازمات الاقتصادية الحادة التي كانت تجتاح البلاد بين فترة واخرى كنتيجة من نتائج قلة الغلال. فكان الملوك والحكام يصدرون في بعض المناسبات مراسيم ملكية تعالج الاوضاع الاقتصادية والعامة الراهنة . وقد شملت هذه المراسيم التي امكن التعرف على بعضها من العهد البابلي القديم ، الغاء بعض انواع الضرائب او تخفيضها واطفاء انواع معينة من الديون وابطال مفعول اصناف خاصة من البيوعات وقعت نتيجة الازمات الاقتصادية (٢) وربما كانت اصلاحات اوروكا- جينا من اولى المحاولات التي قام بها حكام العراق القدماء في هذا المجال حيث انها حوت على اجراءات شبيهة بتلك التي حوتها المراسيم الملكية التي صدرت في فترات تالية .

غير ان الغريب فيما جاء في اصلاحات اوروكا-جينا انها اشارت ليس فقط إلى اطلاق سراح من كان في السجون بسبب الديون او بسبب كميات التي يدعي القصر بانها تعود له بل ايضا اطلاق سراح من كان في السجون بسبب سرقة او قتل . وحيث اننا اشرنا فيما سبق إلى ان العراقيين القدماء لم يمارسوا اسلوب تقييد الحريات الشخصية وسلبها كأسلوب من اساليب

(١) العهد القديم

(٢) انظر حول المراسيم الملكية

F.R.Kraus, Ein Edikt des Konigs samsu-iluna von Babylon, OIC, AS,16 (1965), PP· 225-231 .

د. عامر سليمان ، المصدر السابق ، صفحة ١٤٩ - ١٥٦ .

العقوبة المفروضة على المجرمين المتهمين بجرائم السرقة او القتل او الزنا او غيرها وانهم لم يعرفو السجون بمفهومها الحديث، لذا فان التفسير المقدم في الترجمة لاينطبق والادلة التاريخية المتوفرة لدينا . اما التفسير الاخر الذي نعتقد بانه المقصود في هذا النص فهو ان اوروكا ـ جينا أشار إلى المدينين بسبب قرض والمدينين بسبب تراكم الضرائب الخاصة بالقصر سواء كانت تلك الضرائب من القمح او الشعير وبسبب المدينين بسبب سرقة او قتل. اي بعبارة اخرى ، ان من كان في السجون بسبب سرقة او قتل كان يعد مدينا تجاه المجني عليه او ذويه وان المقصود بالسجين هنا هو من يقوم بالخدمة لدى القصر او المجني عليه او ذويه تسديدا للدين المتراكم على الشخص، اي ان السارق والقاتل كان يعاقب بدفع تعويض مادي إلى المجني عليه اوذويه تعويضا للضرر الذي اوقعه بالمجني عليه . فان لم يتمكن من دفع التعويض ، كان عليه أن يخدم المجني عليه أو ذويه مدة معينة من الزمن ربما كانت ثلاث سنوات كما أشار إلى ذلك قانون حمورابي صراحة، أي ان المبدأ المتبع في فرض العقوبة كان يعتمد التعويض أو الدية وليس القصاص .

وفي موضع أخر من النص، ذكر أن السارق كان يرجم بالحجارة التي كتبت عليها نيته الشريرة، ومثل السارق مثل المرأة التي تتهجم على زوجها أو انها تتزوج من رجلين . (١) :

"وكان السارق يرجم بالاحجار التي (كتبت) عليها نيته (الشريرة) .
وكانت الممتلكات الضائعة (حيثما وجدت ، او اذا استرجعت من لص) تعلق في البوابة العظيمة حيث كان بامكان مالكها الشرعي ان يستعيدها .

اذا قالت امرأة لرجل ...... فكانت تسحق اسنانها بالأجر المفخور (و) كان الأجر (الذي كتب عليه اثمها) يعلق في البوابة العظيمة (حتى يراه الجميع) . واعتادت نساء الايام السالفة على الزواج بزوجين (ولكن) نساء اليوم (اذا حاولن هذا)

---

(١) انظر Kramer, Op. cit.

يرجمن بالاحجار (التي يكتب عليها) قصدهن (الشرير)". (١)
ولا نعتقد بأن المقصود من «الرجم» في هذه الفقرات هو الرجم بالحجارة حتى الموت كعقوبة مناسبة للسرقة وزواج المرأة برجلين والا كيف نفسّر وجود السارق في الفقرة السابقة في السجون كذلك كيف نفسر غياب هذه العقوبة في جميع القوانين المدونة التي ظهرت في الفترات التالية والتي تحمل بين طياتها القواعد والاحكام التي كانت سائدة في البلاد ؟

واذا انتقلنا إلى القوانين المدونة وجدنا بأن هذه القوانين قد اتبعت في تحديد عقوبة المجرمين أحد مبدأين هما مبدأ التعويض ومبدأ القصاص أو كليهما وبنسب متفاوتة كما سيتبين ذلك من استعراض العقوبات الواردة في القوانين على الجرائم المختلفة . وفي القوانين الاشورية يلاحظ ذكر عقوبات أخرى جديدة كالجلد بالسوط ، التي ذكرت في قانون حمورابي مرة واحدة فقط ، وتقيد الحرية خلال فترة المحاكمة والتحقيق والعمل لدى القصر .
فقد اعتمد قانون اور — نمو (١) . وهو اقدم القوانين المكتشفة حتى الان ، مبدأ التعويض في تحديد العقوبة في جميع الجرائم الواردة في النص المتبقي من القانون باستثناء حالة واحدة هي حالة خيانة الزوجية .

(١) من الجدير بالاشارة هنا ان بعض فقهاء المسلمين يعتبرون تعليق يد السارق المقطوعة في رقبته بعد القطع من العقوبات التكميلية حتى يعرف الناس جميعاً ان الرجل قد سرق فيكون عبرة لغيره (انظر احمد فتحي بهنسي، المصدر السابق ، صفحة ١٦٥ — ١٦٦) .
(٢) يعتبر قانون اور — نمو اقدم قانون مدون معروف في العالم حتى الان اصدره اور — نمو مؤسس سلالة اور الثالثة (٢١١٣ — ٢٠٩٥ق.م) امكن التعرف على بعض اجزائه مدونة بالخط المسماري وباللغة السومرية على لوح من الطين وجد في حالة رديئة جدا في مدينة نفر في مطلع هذا القرن وتم مؤخرا التعرف على نسخة ثانية من القانون مدونة على كسرتين من الطين عثر عليها في مدينة اور وأمكن بذلك قراءة مايقرب من اثنتين وعشرين مادة قانونية اضافة إلى اجزاء من المقدمة ويظن ان القانون كان يتضمن في هيئته الكاملة اكثر من ثلاثين مادة قانونية وتمثل النسخ المكتشفة نسخاً ثانية من القانون دونت لاغراض تعليمية او لفائدة بعض المهتمين بالقانون ويعود تاريخها إلى بضعة قرون بعد حكم اور— نمو . انظر :
J.J. Finkelstein , The Laws of Ur-Nammu , JCS (1968), PP.66-82.
د. فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، بغداد ، ٩٧٣، صفحة ١٣ - ٣٦ .

وقد شملت الجرائم التي حددت عقوبتها بالتعويض جرائم اغتصاب الأمة (م/ ٥) (١) والايذاء (م/ ١٥ – ١٨) وشهادة الزور (م/٢٥ – ٢٦)، والاتهام الكاذب (م/ ١٠ – ١١). اما المادة الرابعة فقد اعطت الحق للزوج المخدوع في حالة الخيانة الزوجية بان يقتل زوجته ان هي اغرت رجلا واشارت إلى ترك الرجل (الجاني) حرا.

ومن الجدير بالاشارة ان المواد القانونية المتبقية من قانون اور-نمو لا تتطرق إلى جريمة القتل العمد والقتل الخطأ ولا إلى جرائم السرقة بأنواعها واغتصاب النساء والفتيات من الاحرار، وجميعها من الجرائم المتوقع وجودها في تلك الفترة، وربما عالج القانون هذه الحالات في المواد المفقودة من النص المسماري المتوفر لدينا.

ويذهب قانون لبت – عشتار (٢) وهو الآخر مدون باللغة السومرية ويسبق قانون حمورابي بأكثر من قرن ونصف القرن، المذهب نفسه فيحدد عقوبة جميع الجرائم التي ورد ذكرها في الجزء المتبقي من القانون وفقاً لمبدأ التعويض. وتضمنت الجرائم المذكورة جريمة السرقة (م/٩ – ١١)، وايواء الرقيق الابق (م/ ١٢ – ١٣)، والاعتداء على حرية

---

(١) تشير الارقام إلى المواد القانونية استنادا إلى الترقيم المتبع في كتاب المؤلف الموسوم (القانون في العراق القديم، الجزء الاول، موصل ١٩٧٧.)

(٢) اصدر القانون لبت –عشتار خامس حكام سلالة ايسن (١٩٣٤– ١٩٢٤ق.م) وقد امكن التعرف على القانون مدوناً على لوح من الطين مهشم إلى ثلاث قطع ويستدل من بقايا اللوح انه كان يضم في هيئته الكاملة اثنين وعشرين حقلا من الكتابة المسمارية غير ان ماتبقى من النص لا يتجاوز ثلث النص الاصلي. عثر على اللوح في مدينة نفر كما عثر على اربع كسر طينية اخرى تضم مقتبسات من القانون في الموقع نفسه ويبدو ان جميع الالواح هي عبارة عن نسخ دونت لاغراض تعليمية. يتألف النص بشكلة الحاضر من مقدمة وخاتمة تتوسطهما المواد القانونية وقد امكن قراءة ثماني وثلاثين مادة فقط ويعتقد ان القانون كان يضم اكثر من مائة مادة وتقع المواد المتبقية في النصف الثانى من المتن. حول احدث ترجمة للقانون / د. فوزى رشيد، الشرائع العراقية القديمة بغداد ١٤٧٣، صفحة ٣٧ – ٥٥.

Kramer, op·cit, PP·336-340;
M.Civil, Sumerian Law Fragments, OIU AS, 16 (1965), PP, 1-12.

الافراد (م/١٥ — ١٧) ، والاتهام الكاذب (م/٣٣) ولم تتطرق المواد المتبقية من القانون إلى جريمة القتل بنوعيها العمد والخطأ وجرائم الزنا والاغتصاب والايذاء . وقد تكشف التنقيبات المقبلة عن تكملة المواد القانونية وتبين احكام الجرائم التي لم تذكر في النص المتبقي .

أما قانون اشنونا (١) الذي يعتبر أقدم القوانين المدونة باللغة الاكدية ، فينسب إلى الاقوام العربية القديمة المعروفة بالاقوام الامورية التي وفدت العراق في الالف الثالث قبل الميلاد واقامت لها عدة دويلات في انحاء العراق المختلفة منذ مطلع العهد البابلي القديم .

ويمثل قانون اشنونا مركزاً وسطاً بين القوانين السومرية التي مر ذكرها وبين قانون حمورابي والقوانين الآشورية من حيث المبادىء القانونية المتبعة في تحديد العقوبة . فنجده يتبع مبدأ التعويض في جرائم السرقة في وضح النهار (م/١٢ — ١٣) واحتجاز الامة دون وجه حق (م/٢٢) ، أو التسبب في موتها (م/٢٣) ، واغتصاب الامة (م/٣١) ، والتصرف بالوديعة (م/٣٦)

---

(١) اشنونا (تل اسمر حالياً) هي عاصمة مملكة اقامها الاموريون في منطقة ديالى وقد اصبحت المملكة بعد سقوط سلالة اور الثالثة ذات اهمية كبيرة . كشف على الالواح الطينية التي دونت عليها مواد قانون اشنونا في موقع شادبوم (تل حرمل حالياً) القريب من بغداد خلال تنقيبات مديرية الاثار العامة برئاسة طه باقر عام ١٩٤٥و١٩٤٧ واللوحان المكتشفان يحملان النص نفسه تقريباً مع بعض الاختلافات اللغوية والكتابية ويمثلان نسخاً ثانية من قانون اشنونا ولايعرف بالضبط تاريخ صدور القانون او تاريخ كتابة النسخ المكتشفة غير ان المعتقد ان القانون صدر قبل حمورابي بما يقرب من نصف قرن . يضم القانون بهيئته الحاضرة ستون مادة قانونية تتقدمها مقدمة قصيرة .

انظر :

A·Goetze, The Laws of Eshnunna, AASOR, 31 (1956)·

طه باقر ، قانون مملكة اشنونا ، سومر (١٩٤٨) ٤/٢ص١٥٣ — ١٧٣ .

د. فوزى رشيد ، الشرائع العراقية ، بغداد ، ١٩٧٣

والأيذاء البسيط (م/٤٢ ـ ٤٧) ، وسرقة أو ايواء الرقيق الابق (م/٤٩ ـ ٥٠) ومسؤليـة اضرار العجماوات (م/٥٤ ـ ٥٧) بينما حدد القانون العقوبة وفق مبدأ القصاص بالنسبة لجريمة احتجاز الرهينة والتسبب في موتها (م/٢٤) والقتل غير العمد (م/٥٨) ، والاعتداءات البدنية الجسمية (م/٤٨) . اضافة إلى ذلك ، فقد عد القانون جريمة السرقة في ظروف مشددة (م/١٢ ـ ١٣) واغتصاب امرأة متزوجة (م/٢٦) والزنا (م/٢٨) من الجرائم الكبرى التي ترقى إلى جريمة القتل فحدد عقوبتها بالقتل أيضاً .

وينص قانون حمورابي (١) صراحة على تطبيق مبدأ القصاص بمفهومه الواسع ولا سيما بالنسبة لفئة الأويلُم من الاحرار (٢) بينما يأخذ بمبدأ التعويض لتحديد عقوبة بعض الجرائم الواقعة على الرقيق وعلى المشكيُنم ويلاحظ أن حمورابي حاول أن يطبق فكرة القصاص حتى في تحديد عقوبة التعويض ، فكان التعويض

---

(١) وهو اكمل وانضج القوانين العراقية القديمة ، اصدره الملك حمورابي سادس ملوك سلالة بابل الاولى في اواخر سني حكمه ، وحكم حمورابي في الفترة (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ق.م) وقد تم اكتشاف المسلة التي دون عليها القانون عام (١٩٠١ ـ ١٩٠٢م) من قبل البعثة الفرنسية التي كانت تعمل في مدينة سوسا عاصمة بلاد عيلام .

انظر : حول المسلة والقوانين المدونة عليها د. محمود امين ، قوانين حمورابي ، مجلة كلية الاداب ، ٣ (١٩٦١) صفحة ١ ـ ٨٤ ، د. فوزى رشيد، الشرائع العراقية القديمة بغداد / ١٩٧٣، د. عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، موصل ١٩٧٧

G·R·Driver and J-Miles , The Babyloniain Laws, Oxford, 1955-56, 1-11·

(٢) كلمة اويلم الاكدية مشتقة من الجذر الثلاثى "اول" ويقابلها في السومرية كلمة "لو" ولعل الكلمة ترتبط من حيث الاشتقاق بالكلمة العربية "اول" ويظن ان الكلمة الاكدية كانت تعني اصلا الطبقة العليا من الناس اما في النصوص المسمارية ، فقد ورد المصطلح للدلالة على مختلف الناس . ومن تحليل المواد القانونية والنصوص المسمارية التي ورد فيها هذا المصطلح يمكن القول ان المقصود بها فئة من الناس الاحرار الاغنياء او الموسورين بينما كان يقصد بالمصطلح الثانى ، وهو مشكينم الذى يقابله في العربية كلمة مسكين ، الفئة الفقيرة من الناس الاحرار ، اي ان المصطلحين لا يشيران الى طبقتين اجتماعيتين متمايزتين بل إلى فئتين من الناس اختلفت عن بعضها من الناحية الاقتصادية فحسب .

انظر حول هذا التفسير د. عامر سليمان ، المصدر السابق ، صفحة ٦ ـ ٣٧٨.

المادي موازياً قدر المستطاع للضرر الذي اوقعه الجاني أو اراد ان يوقعه بالمجني عليــه .

حدد قانون حمورابي العقوبة بالموت على جرائم مختلفة منها مايتعلق بجريمة القتل ومنها ماكان يرقى ، في نظر حمورابي ، إلى جريمة القتل ، فحددت العقوبة بالموت على جريمة القتل العمد (م/١٥٣) ، والاتهام الكاذب المتعلق بقضية قتل أو ممارسة السحر (م/١،٢) وشهادة الزور في قضية قتل (م ٣) ؛ والضرب المفضي إلى الموت (م/٢١٠) ، والتقصير في العمل والتسبب في موت شخص من فئة الاويلم أو ابن اويلم (م/٢٢٩ — ٢٣٠) ، كما نص القانون على عقوبة الموت بالنسبة لجريمة السرقة (م/٦،٧،٩،١٠،١١،١٣،٢١،٢٢، ٢٥) ، واستلام اموال مسروقة (م/٦) ؛ والاختطاف (م/١٤) ، ومساعدة أو ايــواء الـرقيـق الابــق (م/١٥،١٦،١٩) ؛ والخيــانــة الزوجيــة (م / ١٢٩ ؛ ١٣٣ ، ١٤٣) واغتصاب المرأة المتزوجة (م / ١٣٠) والزنا بالمحارم (م / ١٥٥ ، ١٥٧) وابتزاز الاموال واستغلال الوظيفة (م / ٣٣ ، ٣٤) ومساعدة المتآمرين (م / ١٠٩) والتهرب من الخدمة العسكرية(م / ٢٦) وتبدل الكاهنات (م / ٢٢٧) .

ونص القانون على ايقاع المثلة، اي قطع او بتر عضو او اكثر من اعضاء الجسم في حالة عقوق الابن المتبنى (م / ١٩٣) وعقوق الابن الحقيقي (م / ١٩٥) وغش المربية (م / ١٩٤) والاهمال في العمل (م / ٢١٨) وغش الواسم (م / ٢٢٦) وخيانة الامانة (م/ ٢٥٣) والقذف (م/ ١٢٧) وتمرد الرقيق (م / ٢٠٥ و ٢٨٢) اما المواد ١٩٦ — ١٩٧ و ٢٠٠ و ٢٠٢ فقد نصت صراحة على تطبيق مبداء القصاص بالنسبة لايذاء فئة الاويلم اي العين بالعين والسن بالسن .

اما التعويض الموازي لقيمة الضرر الذي اصاب المجني علية او الذي كان سيصيبه فقد ورد بالنسبة لشهادة الزور في قضية لاتتعلق بنفس

(م : ٤) وتلاعب القضاة (م : ٥) والسرقة في ظروف مخففة (م : ٨)
والاهمال في بعض الاعمال (م : ٤٢ — ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٢ — ٦٣
٦٥ : ٢١٩ — ٢٢٠ ، — ٢٣١ — ٢٣٣ ، ٢٣٥ — ٢٣٨ : ٢٤٠
٢٤٠ — ٢٤١ ، ٢٦٧) . والتجاوز على اموال الغير (م : ٥٧ — ٥٩)
والغش في المعاملات التجارية (م : ٥ ، ١٠٦ — ١٠٧) والاخلال بالالتزامات
(م :) والتصرف بالوديعة (م : ١١٢ — ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٤) واحتجاز
رهينة دون وجه حق (م : ١١٤) والتسبب في موت رقيق (م : ١١٦)
والادعاء الكاذب (م : ١٢٦) واغواء خطيبة الابن (م : ١٥٦) وايذاء
فئة المشكينم والرقيق (م : ١٩٨ — ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٤) والضرب
(م : ٢٠٣) والاعتداء غير المتعمد (م : ٢٠٦) والقتل غير العمد (م : ٢٠٧)
(م : ٢٠٨) ، والضرب المفضي إلى الاجهاض (م : ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٣)
والضرب المفضي إلى موت فرد من افراد فئة المشكينم (م : ٢١٢) ،
او الرقيق (م: ٢١٣) وخيانة الامانة (م: ٢٥٤—٢٥٥، ٢٦٥) والسرقة من الحقول
(م: ٢٥٩— ٢٦٠) ومسؤولية اضرار العجماوات (م: ٢٥١— ٢٥٢).

اضافة إلى ذلك ، حدد القانون عقوبة الزنا بالمحارم (م: ١٥٤، ١٥٨) بالنفي او الطرد كما نص على الجلد بالسوط لمن يعتدى بالضرب على من هو ارفع منه مرتبة (م: ٢٠٢).

وأشار القانون في عدد من المواد التي حددت العقوبة بالموت ؛ أي الاعدام، إلى كيفية تنفيذ العقوبة فنص على الالقاء بالماء (م : ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٥٥) ، والحرق بالنار (م : ٢٥ ، ١١٠ ، ١٥٧) ، والخازوق (م : ١٥٣). أما المواد الاخرى التي نصت على عقوبة الموت فقد جاءت بصيغة مبهمة ، فبعضها استخدم الفعل الاكدي داك daku بمعنى القتل بصيغة المبني للمجهول ولعل ذلك يشير إلى أن السلطة هي التي كانت تقوم بتنفيذ العقوبة ، بينما استخدمت مواد اخرى الفعل نفسه بصيغة المبني للمعلوم (للشخص الغائب الجمع) ، وربما كان المقصود من ذلك اشراك ذوي المجني عليه أو اشرافهم على تنفيذ العقوبة(١) .

---

(١) انظر

Driver and Miles. op·cit, 1,p·494.

وكذلك بالنسبة لايقاع المثلة . فقد استخدمت بعض المواد صيغة المبني للمجهول بينما استخدمت المواد الاخرى صيغة المبني للمعلوم . وشملت المثلة قطع اليد (م : ١٩٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٥٣ ،) وقطع الاذن (م : ٢٠٥ ، ٢٨٢) وقطع اللسان (م : ١٩٢) ، وقطع الثديين (او الحلمتين) (م : ١٩٤) ، وسمل العيون (م : ١٩٣ ، ١٩٦) ، وكسر العظم (م: ١٩٧) ، وقلع الاسنان (م: ٢٠٠).

وتشير المواد التي حددت العقوبة بالتعويض إلى أن التعويض المادي كان يدفع إلى المجني عليه أو ذويه وليس هناك اية اشارة إلى أن جزءاً من التعويض كان يذهب للدولة على هيئة غرامة .

أما المواد القانونية التي يطلق عليها عادة مصطلح القوانين الاشورية الوسيطة (١) فقد جاءت فيها العقوبات شديدة وقاسية مقارنة مع

---

(١) لقد ابانت الدراسات التي اجريت على مجموعة من الالواح المسمارية المكتشفة في مدينة اشور في مطلع هذا القرن إلى انها تضم مواد قانونية تعود بتاريخها إلى الفترة الواقعة بين ١٤٥٠و ١٢٥٠ق.م اي إلى ما يسمى بالعهد الاشوري الوسيط وان غالبية هذه الالواح بحالة رديئة جدا باستثناء اللوحين الاول والثاني . ويستدل من دراسة هذه الالواح انها لم تكتب من قبل شخص واحد ولا فترة زمنية واحدة ولا يمكن الجزم بتحديد المنطقة التي كانت تعمل بالقواعد والاحكام الواردة فيها وربما كانت تطبق على مدينة اشور وما جاورها . كما اختلف الباحثون في طبيعة هذه الالواح ، ويعتقد انها تمثل نوعين من النصوص الاول هو مجموعة من السوابق القضائية ومقتطفات من القوانين السائدة مع بعض التعديلات والتحويرات والثاني تفسيرات قانونية وتعديلات لبعض الاحكام والقواعد القانونية وضعها رجال القانون للاستفادة منها وقت الحاجة .

ويضم اللوح الاول مايقرب من ستين مادة قانونية خصصت غالبيتها لمعالجة القضايا الخاصة بالنساء كما فيها بعض المواد ذات العلاقة بحقوق الزوجين والاولاد كل في تركة الاخر . اما اللوح الثاني فقد ضم مايقرب من عشرين مادة تتعلق بالدرجة الاولى بالارض والعقارات . ويتضمن اللوح الثالث مايقرب من احدى عشرة مادة لا يمكن فهم معظمها بينما ضمت بقية الالواح بضع مواد فقط وغالبيتها تالف وغير مفهوم .

G.R. Driver and J.Miles The Assyrian Laws, Oxford, 1935,

G. Cardoscia, Les Lois assyriennes, Paris, 1999.

القوانين السابقة لها كقانون حمورابي ، واتبع في غالبيتها مبدأ القصاص إلى جانب التعويض . وحيث أن القوانين الآشورية الوسيطة هي ليست نصاً قانونياً رسمياً شبيهاً بقانون حمورابي ، مثلا ، لذا فقد جاءت الاحكام مفصلة وخاصة بقضايا محددة . وتذكر بعض المواد اكثر من عقوبة واحدة للجريمة الواحدة واعطت الحق للمجني عليه أو ذويه ، او للملك اذا هو نظر الدعوة ، ان يختار العقوبة التي يراها مناسبة من بين العقوبات المذكورة . وهناك بعض الحالات التي ترك فيها تحديد العقوبة إلى الاله ، أي كهنة معبد الاله ، أو الملك أو المجني عليه .

وحددت القوانين الآشورية الوسيطة العقوبة بالموت على جريمة القتل(م: ١/١٠ ، ٢/٢) ، والتسبب في موت امرأة حامل (م: ١/٥٠) والتسبب في اجهاض امرأة ليس لديها اولاد (م: ١/٥٠)، واجهاض المرأة نفسها (م: ١/٥٣) ، كما حددت العقوبة نفسها على جريمة الزنا (م: ١/١٣ ، ١/١٥) ، وممارسة السحر (م: ١/٤٧) ، وسرقة الزوجة لزوجها المريض او المتوفي (م: ١/٣)، واستلام المسروقات (م: ١/٣)، والقيام بالسمسرة دون علم ورضا المجني عليها (م: ١/٢٣) واغتصاب امرأة متزوجة (م: ١ ١٢) .

وقد تستبدل عقوبة الموت الواردة في المواد المذكورة احياناً بعقوبة اخرى ، كايقاع المثلة ، او التعويض المادي اذا رغب المجني عليه في ذلك (م: ١/١٠ ، ١/١٤ ، ١/١٥) .

اما ايقاع المثلة ، فقد حدد بالنسبة لجريمة اتلاف المرأة لاعضاء الرجل التناسلية (م: ١/٨) ، وتقبيل امرأة متزوجة (م: ١/٩) واللواط (م: ١/٢٠) كما حدد ايقاع المثلة لجريمة استلام اموال مسروقة (م: ١/٤) ، وسرقة الزوجة (م: ١/٢٤) ، والزنا (م: ١/١٥) ، وعدم ارتداء العاهرة او الامة الخمار (م: ١/٤٠) ، والتجاوز على املاك الغير (م : ٢/٨) ، وعدم القبض على العاهرة التي لاترتدي الخمار (م: ١/٤٠) .

وترد عقوبة الجلد الى جانب العقوبات الاخرى كعقوبة تكميلية (م: ١٨/١ ، ١٩/١ ، ٢١/١ ، ٤٠/١ ، ٨/٢ ، ١٠/٢ ، ١٤/٢ . ١٥/٢ . ١٨/٢ ، ٢/٣ ، ٣/٣ ، ٣/٨) .

اضافة الى ذلك ، فقد نصت القوانين الاشورية الوسيطة الى عقوبة جديدة هي الخدمة لدى الملك (اي الدولة) لمدة معينة تتراوح بين عشرين يوماً واربعين يوماً (م: ١٨/١ ، ١٩/١ ، — ٢١/١ ، ٤٠/١ : ٧/٢ — ٩ ، ١٤/٢ — ١٥ ، ١٨/٢ ، ٢/٣ ، ٣/٣ ، ٨/٣).

وجاء التعويض بصيغة مصادرة الاملاك او المبالغ المدفوعة او بدفع مبلغ معين او مضاعفة قيمة محل الجريمة عدة مرات .

واعتبر التعويض بديلاً عن العقوبات الاخرى او جزءاً مكملاً لها (م: ٣/١ ، ٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٥١ ، ٧/٢ — ٩ ، ١٢ — ١٤ . ٣ (٢ — ٤) .

ومما تجدر الاشارة إليه ان المادة ٥٧/١ والمادة — ٥٨/١ في هذه المجموعة من القوانين نصت على ضرورة حضور الكاهن عند تنفيذ العقوبة الخاصة بايقاع المثلة . كما اعطت المادة ٥٩/١ الحق للزوج ان يضرب زوجته او يقتلع شعرها او يجز اذنيها اضافة الى العقوبات المنصوص عليها في القوانين (١) .

وتشير المواد القليلة التي تنسب عادة الى العهد البابلي الحديث (٢) والخاصة بالتجاوز على اراضي الغير والغش في المعاملات والسرقة من الحقول الى

(١) تنص بعض العقود الاقتصادية من العهد الاشوري الحديث على دفع مبلغ نقدية او عينا إلى معبد المدينة في حالة عدم قيام احد الاطراف المتعاقدة بتنفيذ التزاماته ونحن ذلك يشير إلى بداية ظهور فكرة الغرامة التي تدفع عادة إلى الدولة (انظر هذه العقود في :

J.N. Post gate, The Governor's Palace Archive, London, 1973; J.Kohler and A. Ungnad, Assyrische Rechtsurkunden, Leipzig, 1913

(٢) دونت هذه المواد على لوح من الطين عثر عليه في حالة رديئة جدا تصعب قراءتها بشكل دقيق . ويفهم مما ورد في نهاية النص بان هناك الواحاً اخرى متممة لم يعثر عليها بعد . امكن ترجمة مايقرب من خمس عشرة مادة قانونية ترجمة تقريبية وتبين بانها تعود إلى فترة العهد البابلي الحديث

Drivres and Mils, The Babylonian Laws, 11, pp. 324-347.

تعويض المجني عليه . غير ان هذه المواد القليلة لاتسمح باعطاء صورة واضحة عن العقوبة بالنسبة للجرائم المختلفة في هذه الفترة .

من استعراض التطور التاريخي للعقوبة في القوانين العراقية القديمة التي وصلت الينا حتى الآن يمكن ملاحظة حقيقة ناصعة وهي ان القوانين الاقدم من حيث تاريخ صدورها او تطبيقها وهي قانون اور- نمو وقانون لبت - عشتار ، اعتمدت مبدأ التعويض اساساً في تحديد العقوبة على جميع الجرائم الواردة فيها باستثناء حالة واحدة . اما قانون اشنونا ، وهو قانون يرقى الى فترة تالية غير انه يسبق قانون حمورابي ، فانه يأخذ بمبدأ التعويض ومبدأ القصاص اي انه جاء وسطاً بين القوانين المبكرة والقوانين المتأخرة . وفي قانون حمورابي، وهو اكمل وانضج القوانين العراقية القديمة المعروفة حتى الآن ، وكذلك في مجموعة القوانين الاشورية الوسيطة ، جاء تطبيق مبدأ القصاص على نطاق اوسع حتى شمل معظم الجرائم الكبرى وبعض الجرائم الصغرى . فالتطور التاريخي للمبادىء المتبعة في تحديد العقوبة اذن كان من مبدأ التعويض الى مبدأ القصاص وليس العكس.يؤكد هذا ماسبق واشرنا اليه عن اصلاحات اوروكاجينا التي سبقت القوانين المدونة جميعاً واشارت الى اتباع مبدأ التعويض في جريمتي السرقة والقتل .

ولو تتبعنا تطور النظم القانونية لدى بعض المجتمعات البدائية ذات التاريخ المعروف لدينا او بعض المجتمعات البدائية التي ماتزال تعيش حياتها البدائية حتى الوقت الحاضر لوجدنا مايؤيد ويؤكد استنتاجنا هذا ويشير الى ان التطور في المبادىء المتبعة في تحديد العقوبة لدى هذه المجتمعات هو من مبدأ التعويض الى مبدأ القصاص ايضاً وان مبدأ القصاص لم يتبع لدى تلك المجتمعات الا بعد ان قطعت مرحلة وشوطاً كبيراً في مضمار التقدم والتطور واستقرت حياتها ونبذت عنها التقاليد والاعراف القبلية البالية تماماً كما حدث ذلك في العراق القديم خلال الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد.ومثال ذلك ان العقوبة التي كانت محددة على جرائم القتل والزنا والسرقة لدى الاقوام

الانكلوسكسونية منذ احتلالها الجزر البريطانية وحتى القرن الحادي عشر الميلادي كانت تعتمد على مبدأ التعويض وفي حدود سنة ١١٠٠ ميلادية اصبح يعاقب على الخيانة الزوجية بقتل الزوج لزوجته وعشيقها كما اصبح يعاقب على جريمة الاغتصاب بالاخصاء وسمل العيون . وفي حدود عام ١١٥٠ ميلادية غدت جريمة القتل العمد من الجرائم التي تستحق الموت ؛ غير ان عقوبة الايذاء ظلت تعتمد على مبدأ التعويض وكذلك ظلت عقوبة السرقة في اثناء النهار . اما السرقة في ظروف مشددة ، وهي السرقة اثناء الليل والتي قد تؤدي الى وقوع جريمة قتل ، فكانت عقوبتها الموت . ومنذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي كان يطبق مبدأ القصاص في تحديد عقوبة جرائم الايذاء الجسيمة .واذا ماجرينا مقارنة بين التطور الذي حدث بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر بعد الميلاد في الجزر البريطانية والتطور الذي حدث في العراق القديم بين اواخر الالف الثالث واواسط الالف الثاني قبل الميلاد لوجدنا توافقاً وتشابهاً كبيراً لايمكن ان يعزى لمحض الصدفة بل لابد انه يمثل سنة تطور النظم والقواعد القانونية بصورة عامة مع التأكيد على ان التطور الذي احرزته القوانين العراقية القديمة قد سبق تطور القوانين في الجزر البريطانية بأكثر من الفي سنة . (١)

ولو اننا حاولنا ان نضع القوانين العراقية القديمة بما فيها من مبادىء قانونية خاصة بتحديد العقوبة في موضعها من حياة المجتمع العراقي القديم، لامكننا ان نرسم الصورة التقريبية التالية عن تطور النظم القانونية قبل وخلال فترة ظهور القوانين المدونة.

فالدراسات المختلفة المتوفرة لدينا عن تاريخ العراق القديم وتاريخ مجتمعاته تشير إلى ان انتماء الفرد لم يكن للقبيلة او العشيرة بل كان، منذ الالف الثالث قبل الميلاد على اقل تقدير، إلى القرية او المدينة، وربما كان انتماء الفرد خلاف

---

(١) انظر حول هذه المقارنة :

A·S· Diamond, An Eye for An Eye, Iraq, XIX (1957), pp· 151-155·

ذلك في الفترة السابقة. ويبدو ان المجتمع العراقي القديم كان قد قطع منذ فترة مبكرة ايضاً مرحلة البدائية والقبلية وانتظم في مجتمعات مدنية تسير وفق نظم وقواعد قانونية متطورة إلى درجة كبيرة وهذا ماتؤكده النصوص القانونية المكتشفة والتي تعد وبحق اقدم النصوص القانونية المعروفة في العالم. اضافة إلى ذلك، فأن غياب اية اشارة إلى مبدأ الاخذ بالثار في النصوص القانونية المعروفة يؤكد عدم اعتراف السلطة بهذا المبدأ الذي كان ومايزال من المبادىء التي تسير عليها المجتمعات القبلية.

ومنذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد تظهر اولى المحاولات الاصلاحية في المجتمع العراقي القديم التي كان رائدها اوروكاجينا. وتشير الاصلاحات التي جاء بها اوروكا جينا إلى تقدم وتطور في النظم القانونية المتبعة حيث اشارت إلى عد بعض الجرائم المهمة كجريمة السرقة وزواج المرأة برجلين، جرائم عامة ونصت على ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للحد من حدوثها، فكان على السلطة ان تعاقب المجرم وتشهر به ليكون عبرة لغيره وبهدف المحافظة على امن وسلامة الهيئة الاجتماعية. وعلى الرغم من ان اصلاحات اوروكا جينا لم تلق اذنا صاغية ولم تجد طريقها إلى التنفيذ الا أنها من دون شك تعكس لنا التطور الذي احرزه المجتمع في نظرته إلى الجرائم وتحديد عقوبتها ممثلة بنظرة السلطة الثائرة ضد الاوضاع الفاسدة التي عمت مدينة لجش قبيل اعتلاء اوروكا جينا العرش.

وتنقصنا المعلومات الموثقة عن الوضع القانوني في الفترة التالية لعهد اوروكاجينا على الرغم من ان المعلومات المتوفرة لدينا عن الوضع السياسي والاقتصادي في هذه الفترة تشير إلى تقلبات وتغيرات سياسية واقتصادية غاية في الاهمية. فقد شهدت هذه الفترة اولى المحاولات لتوحيد دويلات المدن وضمها تحت سلطة مركزية واحدة تلك هي محاولة لوركال زاكيزي الذي قضى على اوروكاجينا ومحاولة سرجون الاكدي الذي قضى على لوركال زاكيزي . واضافة إلى ذلك، شهدت هذه الفترة قيام اول دولة مركزية قوية اسستها الاقوام

الاكدية وهي من الاقوام العربية القديمة التي وفدت العراق قادمة من شبه الجزيرة العربية. ثم اعقب الدولة الأكدية فترة من الركود السياسي تساطت خلالها الاقوام الكوتية على الوضع في القسم الجنوبي من العراق . ومنذ عهد سلالة اور الثالثة في اواخر الالف الثاني قبل الميلاد (حدود ٢١١٣ق . م) تبدأ معلوماتنا الموثقة عن النظم القانونية بالازدياد حيث يرقى تاريخ قانون اور – نمو وقانون لبت – عشتار إلى هذه الفترة ويبدو ان المجتمع كان ينظر في هذه الفترة إلى العديد من الجرائم بانها جرائم خاصة فاكتفت القوانين بتحديد العقوبة وفق مبدأ التعويض الا في بعض الحالات المهمة، كالخيانة الزوجية، حيث عد قانون اور – نمو هذه الجريمة من الجرائم العامة الكبرى التي تستوجب قتل الجاني. ومما يؤسف له ان القوانين المذكورة لاتتطرق إلى كثير من الجرائم الكبرى التي نتوقع انها كانت شائعة في تلك الفترة وربما تطرقت اليها في الجزء المفقود من النصوص المسمارية المتوفرة لدينا الآن .

ومنذ بداية العهد البابلي القديم ، تغيرت كثير من الاوضاع السياسية والاجتماعية وامتزجت الاقوام السومرية مع الاقوام الأكدية والامورية ، وهي من الاقوام العربية القديمة، ونضجت نظمها القانونية وبدأ المجتمع ينظر ، كما يستفاد من النصوص القانونية من هذه الفترة، إلى بعض الجرائم بأنها جرائم عامة تهم المجتمع وتهدد كيانه . لذا نصت القوانين على معاقبة المجرمين بجرائم القتل والسرقة في ظروف مشددة والاغتصاب والاعتداءات البدنية الجسيمة بالقتل. وحيث ان المجتمع العراقي القديم، كغيره من المجتمعات القديمة، قد فرق وميز بين الافراد من طبقة الاحرار وطبقة الرقيق، لذا فأن القوانين بدورها ميزت بين هاتين الطبقتين في فرض العقوبات على الجرائم المختلفة واتبعت مبدأ التعويض اذا كان المجني عليه من طبقة الرقيق في حين نصت على اتباع مبدأ القصاص اذا كان المجني عليه من طبقة الاحرار كما ميزت القوانين بين الحر من فئة الاويلم والحر من فئة المشكينم وعاملت المشكينم في بعض الحالات معاملة الرقيق. وظهرت في هذا العهد بعض المبادىء القانونية المتطورة التي تنم عن نضج وتقدم التفكير القانوني منها التفريق بين الجرائم التي تقع في ظروف

مشددة عن تلك التي تقع في ظروف مخففة، مثال ذلك، كانت العقوبة على السرقة في الليل تختلف عن العقوبة على السرقة في وضح النهار او السرقة من الحقل، فنصت على الاولى بالقتل وعلى الثانية بالتعويض. كما تضمنت قوانين العهد البابلي القديم ولاسيما قانون حمورابي: التأكيد على القصد الجنائي واخذه بنظر الاعتبار في تحديد العقوبة كما اعتمدت مبدأ القوة القاهرة. وكلها من المبادىء القانونية المتطورة التي ماتزال تتبع حتى في احدث القوانين.

ومما يلاحظ في القوانين الآشورية ، على الرغم من قلتها ومحدودية الحالات المذكورة في النصوص المكتشفة حتى الان، انها زادت في عدد الجرائم التي عدت جرائم عامة وحددت عقوبة القتل على جرائم القتل والزنا والسرقة وممارسة السحر والاغتصاب كما اعتمدت مبدأ القصاص وايقاع المثلة بالنسبة لعدد آخر من الجرائم. وتشير القوانين الاشورية ايضاً إلى عقوبات جديدة اخرى لم تكن متبعة في القوانين البابلية القديمة منها عقوبة الجلد بالسوط، التي لم تذكر في قانون حمورابي سوى مرة واحدة، ومنها الخدمة لدى الملك، أي الخدمة لدى الدولة، لمدة معينة وتمثل هذه العقوبات نظرة جديدة إلى الجريمة والعقوبة المحددة لها هذا بالاضافة إلى اتباع مبدأ التعويض في معظم هـذه الجرائم كبديل لبعض العقوبات البدنية الاخرى.

كما يستدل من القوانين الاشورية وبعض الوثائق اليومية الاشوريـة الحديثة على ظهور فكرة الغرامـة التي كانت تدفع إلى السلطة الممثلة بحاكم المدينة او كاهنها.

اما ماقد يقال عن بدائية ووحشية وقسوة القوانين العراقيـة القديمة بصورة عامة. ولاسيما قانون حمورابي والقوانين الاشورية، واعتمادهـا في تحديد العقوبة ،على مبدأ القصاص، وهو من المبادىء البدائية اللصيقة بالمجتمعات البدائية كالمجتمعات العربية القديمة، كما يرى البعض، فهو امر يثير التساؤل. فمن الامور المعروفة التي لاتقبل النقاش والجدال ان الاقوام الاموريـة (البابلية) والاشورية والعربية ، وجميعها من الاقوام العربية القديمة ، تمتعت بقسط وافر

من الحضارة وساهمت مساهمة فعالة في اغناء الحضارة الانسانية ونشأت بينها احدى الحضارات القليلة الاصيلة المعروفة في العالم تلك هي الحضارة العراقية القديمة ولم يقتصر نضج ورقي الحضارة العراقية القديمة على ناحية معينة بل شمل جميع النواحي الفنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية والدينية ولادل على ذلك من ظهور اقدم وانضج القوانين الاقتصادية والاجتماعية في هذه المنطقة من العالم وان الباحث في تاريخ نشوء وتطور الحضارات القديمة وتاريخ نشوء وتطور النظم القانونية ليدهش حقاً من الشوط الكبير الذي قطعه العراقيون القدماء في المضمار الحضاري. فكيف يمكن اذن ان ننسب إلى هذه الحضارة الناضجة صفة البدائية والوحشية والقسوة؟ اليس في ذلك مجانبة للواقع وتحيز واضح ضد الحضارة العراقية القديمة؟ ان التطور التاريخي لبعض المبادىء القانونية، ومنها مبدأ القصاص الذي سبق ان اشرنا إلى تطوره، يشير بما لايقبل الشك ان التطور في المبادىء المتبعة لغرض العقوبة كان من المبادىء اللصيقة بالمجتمعات البدائية إلى المبادىء الخاصة بالمجتمعات المتحضرة المتقدمة. أي من مبدأ الاخذ بالثار فمبدأ التعويض إلى مبدأ القصاص الذي يعد قمة ماوصلت اليه المبادىء القانونية العراقية القديمة.

اما قسوة العقوبات المفروضة في هذه القوانين فلا يمكن تحديد ذلك الا بمقارنتها مع القوانين القديمة والمعاصرة لها لكي نعرف هل انها كانت مغالية في فرض العقوبات ام لا . ومع ذلك فان القوانين العراقية القديمة لم تعترف بتعذيب المتهمين والتمثيل بالمذنبين وهم احياء ومن ثم قتلهم بطرق وحشية بربرية كما عرفت ذلك القوانين الاوربية في القرون الوسطى، فان كانت القوانين العراقية القديمة قاسية ووحشية فما هو الوصف الذي سنطلقه على القوانين الاوربية اذن؟ ان التطور القانوني الذي احرزه العراقيون القدماء في الالف الثالث والالف الثاني قبل الميلاد لم يتحقق في البلاد الاوربية، كما سبق واشرنا، الا في الالف الثاني بعد الميلاد، أي بعد تحققه في العراق القديم بما يقرب من ثلاثة الاف سنة وان ذلك فقط يشير إلى موقع القوانين العراقية القديمة من التاريخ البشري بصورة عامة.

الصراع الدولي في الشرق الأدنى بين القرنين
الخامس عشر والثالث قبل الميلاد

وليد محمد صالح فرحان
مركز البحوث الاثارية والحضارية

مقدمة :

شهد الشرق الادنى في النصف الاول من الالف الثاني قل الميلاد تغيرات كبيرة في تركيبه السكاني بسبب مجيء جماعات عرقية جديدة وفدت اليه من الخارج وقدر لها ان تلعب دوراً مهماً في تاريخه السياسي والحضاري فيما بعد من خلال علاقاتها المتشابكة بعضها مع البعض الاخر من جهة ومع السكان المحليين للمنطقة من جهة ثانية.

والبحث محاولة متواضعة لالقاء الضوء على مجمل سياسات دول المنطقة خلال الفترة التي اتضحت علاقاتها مع بعضها بشكل جيد ومدعم بالادلة التاريخية.
فقد شهدت الفترة تشابكاً واضحاً في احداثها التاريخية بسبب تعدد الدول الحاكمة وتنافسها للسيطرة على اكبر مساحة ممكنة ولاسيما بالنسبة للمناطق ذات الاهمية الاستراتيجية. وقد أدى تشابك الاحداث هذا ، إلى جانب كثرة المصادر التاريخية وتضاربها في تزويدنا بالمعلومات ، إلى غموض الوضع السياسي إلى درجة جعل هذه الفترة من أعقد الفترات التاريخية واكثرها غموضاً. ومن هنا تأتي أهمية البحث كمحاولة لرسم صورة عامة لتأريخ المنطقة وبيان سياسات الدول المسيطرة وعلاقاتها الدبلوماسية بعضها مع البعض الاخر ، دون الدخول في تفاصيل المعارك الحربية التي يمكن الرجوع اليها في العديد من المصادر.

لقد تركز النزاع الدولي في الدرجة الاولى للسيطرة على منطقة شمالي سوريا وما بين النهرين (منطقة الجزيرة) لكون المنطقة مركز احتكاك مباشر بين المصالح المتضاربة لمختلف الدول الحاكمة . فقد حاولت كل دولة السيطرة غير المباشرة على اكبر جزء من هذه المنطقة نظراً لاهميتها الاستراتيجية الاقتصادية والعسكرية . والحقيقة ان الصراع للسيطرة على هذه المنطقة المهمة لم يقتصر على هذه الفترة فقط ، بل حدث ايضاً في فترات تاريخية تالية ، خاصة بين الاخامينيين واليونان(خلال الربع الثالث من الالف الاول قبل الميلاد) ، ثم بين الفرثيين والرومان (القرن الاول قبل الميلاد والقرنين الاولين بعده) وكذلك بين الساسانيين والبيزنطيين قبل الاسلام.

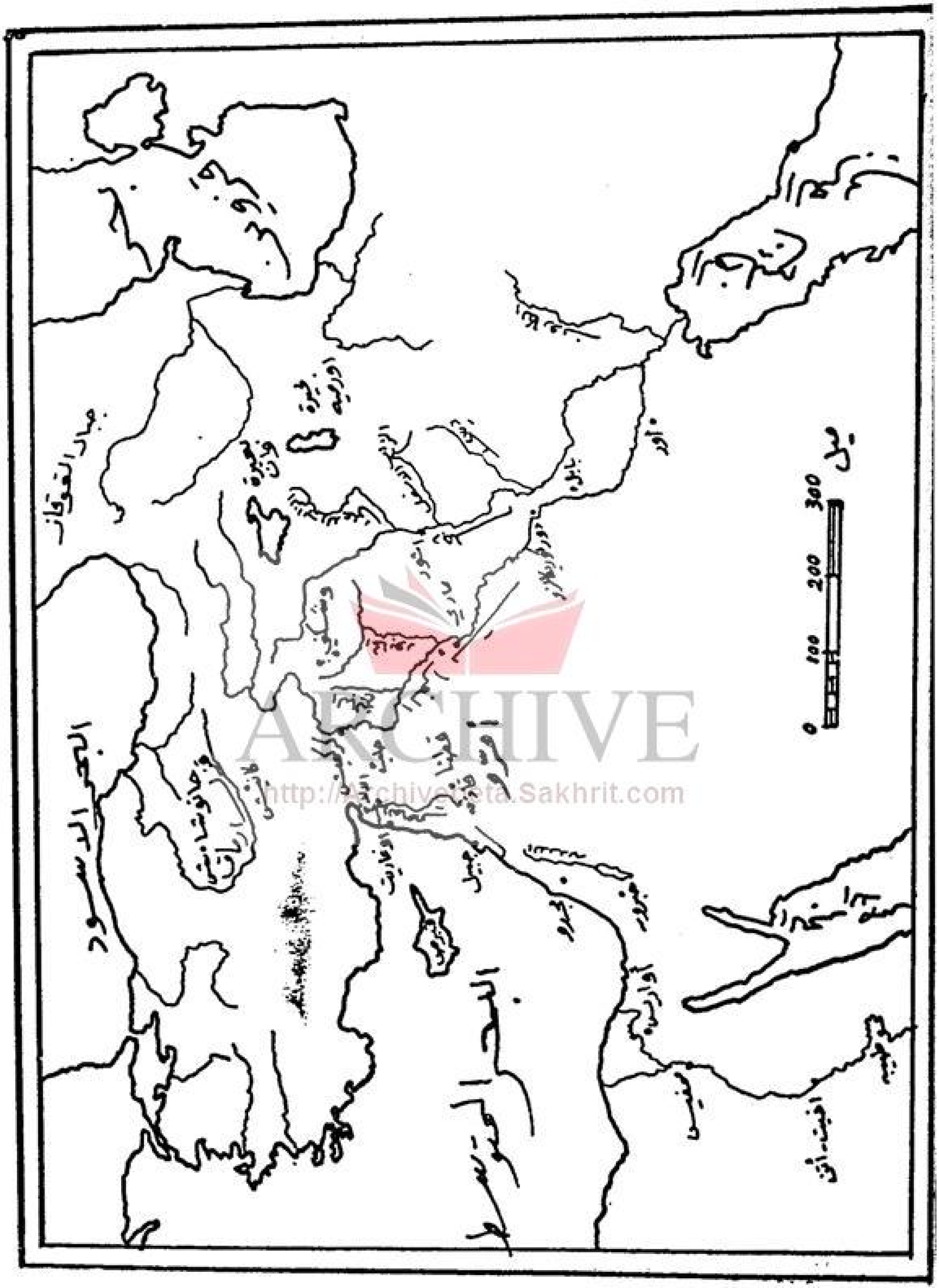
المصرية لاقامة الامبراطورية الاسيوية .اما مصر فقد ركزت جهودها العسكرية في هذه الفترة على حماية حدودها الشمالية الشرقية بعد طرد الهكسوس وذلك في بداية الامر ثم تطورت هذه السياسة الى محاولة أقامة منطقة نفوذ مصرية في بلاد الشام وبذلك دخلت مصر كقوة دولية مهمة في الصراع الدولي في المنطقة . وفي العراق كان الاشوريون في الاجزاء الشمالية من اشد المناوئين للدولة الميتانية ثم للدولة الحثية فيما بعد في النزاع على مناطق النفوذ المهمة ، في حين كانت الاجزاء الجنوبية (بلاد بابل) خاضعة لحكم الكشيين الذين كان دورهم ثانوياً الى حدما في الصراع حيث انحصر في معظمه تقريباً في النزاع الحدودي مع الدولة الاشورية : اما بلاد الشام فقد اقتسم الحكم فيها العديد من الدويلات الامورية الصغيرة التي اختلف موقفها في علاقاتها مع دول المنطقة بين التحالف مع احداها ضد الاخرى ، وهو تحالف اقرب الى الخضوع او هو خضوع كامل ، او الحياد المؤقت وانتهاز الفرص لتقوية مركزها الذاتي وتحقيق الاستقلال الكامل . وكانت هذه الدويلات في كثير من الاحيان تقوم بالدور نيابة عن الدولة المساندة لها ، اضافة الى أن اراضيها كانت مسرحاً للنزاع بين الدول الكبيرة القوية .

(١)

بعد ان تمكن المصريون من اجلاء الهكسوس (٤) عن مصر وطاردوهم الى المنطقة الجنوبية من فلسطين ، حوالي منتصف القرن السادس عشر قبل

---

(٤) حكم الهكسوس مصر فترة قرن ونصف او قرنين من الزمن أنتهت باجلائهم عنها من قبل الملك «احمس» (١٥٧٠ق.م.) .وهناك من يعتبر الهكسوس من الشعوب الهندية – الاوربية (محمد الغرب موسى، هزيمة الهكسوس. (القاهرة ١٩٦٧) ص ٣٣ – ٤٢ وكثير من المصادر الاخرى عن تاريخ مصر القديم) في حين تعتبرهم احدث الاراء من «القبائل العربية القديمة» (القبائل السامية) (د. عامر سليمان واحمد مالك الفتيات ، محاضرات في التاريخ القديم. (الموصل ١٩٧٨) ص ٢٧١–٢٧٧). ومهمايكن اصل الهكسوس فان حكمهم لمصر اثر إلى حد كبير على سياستها الخارجية بعد اجلائهم عنها .



الشرق الادنى في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد

عن: Roux, G. Ancient Iraq. Pelican Book. 1964:

ونتيجة لذلك اندلعت في بداية حكم« تحوتمس» الثالث (١٤٨٢ ـ ١٤٥٠ ق. م) ثورة واسعة ضد النفوذ المصري بزعامة أمير مدينة «قادش» (تل نبي مند حالياً) على العاصي. واستطاع هذا الحاكم توسيع حدود دولته إلى منطقة الجليل ووصل مدينة« مجدو» (تل المتسلم حالياً) التي جعل منها مركزاً لتجمع الجيوش المتحالفة . (٩) وهكذا تعرضت مصر لخطر حقيقي نظراً لكون مجدو نقطة استراتيجية مهمة على الطريق التجاري والعسكري إلى بلاد الشام ، وكان لابد من الرد على هذا التحدي الذي سيكون له نتائج سلبية بعيدة المدى فيما لو أهمل.

وتعامل تحوتمس مع هذا التحدي بشكل ايجابي (حوالي عام ١٤٨١ق. م.) حيث تمكن من استرجاع فلسطين وتوطيد النفوذ المصري في العديد من مناطق بلاد الشام . (١٠) وحاول بعد نجاحه الحربي اقامة نوع من الروابط الاجتماعية مع الدويلات المحلية بان طلب من امرائها ومن رؤساء القبائل ايضاً ارسال ابنائهم إلى مصر لتربيتهم تربية خاصة لينشأوا موالين لها متفانين في خدمتها عندما يحلوا مستقبلاً محل الحكام القدامى المعادين لمصر .(١١)

ورغم النجاح الذي حققه تحوتمس في حملته الاولى إلى بلاد الشام الا أنه لم يتمكن من اخضاع قادش الا في فترة متأخرة من حكمه (١٢) بسبب حصانتها الطبيعية التي يوفرها لها نهر العاصي . والحقيقة انه كان لقادش اهمية استراتيجية خاصة بسبب تحكمها في المدخل الشمالي لسهل البقاع المؤدي الى وسط سوريا ، ولانها تشرف على نهر الوادي الكبير الذي يؤدي إلى ساحل البحر المتوسط ، وتسيطر بشكل غير مباشر على الطريق التجاري بين سوريا والعراق . وبسبب هذه الاهمية حرص تحوتمس طيلة فترة حكمه على اخضاع قادش لسيطرته المباشرة او جعلها حليفة له على الاقل ، خاصة وانها استمرت بتزعم حركة المعارضة ضد مصر بدفع وتشجيع من الدولة الميتانية بطبيعة الحال .

---

(٩) يوبوت ، جان،المصدر السابق . ص ١١١ .

(١٠) نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الادنى القديم . ج٢. ط٦ (القاهرة ١٩٦٦) ص ١٠٢ ـ ١٠٥ .

(١١) :فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (بيروت ١٩٥٨) ص ١٤٣ .

(١٢) :نجيب ميخائيل ابراهيم . المصدر السابق . ص ١٠٦ .

ان تجدد الثورات في بلاد الشام ضد النفوذ المصري قد ارهق تحوتمس بدون شك ، الامر الذي دفعه إلى توجيه حملة عسكرية كبيرة ضد الدولة الميتانية (حوالي عام ١٤٧٠ق .م.) ليوجه اليها ضربة حاسمة وليحد من تدخلاتها في الاملاك المصرية ويوقف تحريضاتها المتواصلة للدويلات السورية . لكنه لم يحقق في حملته هذه الا نصراً جزئياً على الميتانيين قرب كركميش (١٣) (جرابلس حالياً) لأنه اضطر إلى تجديد حملاته الحربية على بلاد الشام اكثر من مرة فيما بعد (١٤) والتي تمكن نتيجتها من توطيد نفوذه في المنطقة محققاً لمصر مركزاً مهماً في الشرق الادنى من عـدة نواحي : اولا جعل مصر قوة ذات اهمية كبيرة في المنطقة واوقفها على قدم المساواة مع أقوى دولة فيها (الدولة الميتانية) ، ثانياً : ضمن التجارة مع بلاد الشام عموماً والساحل الفينيقي خاصة ، ثالثاً: حقق لمصر سمعة دولية الامر الذي دفع عدة دويلات مجاورة لمسرح الاحداث إلى اظهار توددها بارسال الهدايا إلى الفرعون كما فعل الاشوريون (١٥) والحثيون والكشيون املاً منهم في ايجاد حليف قوي ضد الدولة الميتانية يمكنه من مد يد المساعدة لهم ويتعهد بحمايتهم في الحالات الضرورية ، اضافة إلى خوفهم من قوة تحوتمس بطبيعة الحال .

(٢)

ان حملات تحوتمس على الدويلات السورية رغم انها اخضعت هذه الدويلات للنفوذ المصري الا أنها لم تقض نهائياً على طموحها في الاستقلال

---

(١٣) Breasted, J.H., Ancient Records of Egypt. Vol. 11(Chicago 1927)Nos.476f.

(١٤) : نجيب ميخائيل ابراهيم . المصدر السابق . ص ١١١ فما بعد .

(١٥) يرى «تومبسون» R.C. Thompson ان الملك الاشوري الذي بعث الهدايا إلى تحوتمس هو «بوزر – اشور » الرابع (CAH. Vol. II. 1940 .P. 231) لكن لايعرف ملك اشوري رابع بهذا الاسم وانما هم ثلاثة فقط (انظر : Gelb, I.J., 'Two Assyrian King Lists.' JNES. Vol. XIII. No. 4. PP. 209)
والراجح ان الذي قدم الهدايا للفرعون هو احد خلفاء بوزر اشور الثالث (بوزر آشور الرابع عند تومبسون)، ولعل ذلك كان من بين الاسباب التي دفعت الميتانيين إلى اخضاع بلاد آشور لسيطرتهم (انظر : وليد محمد صالح فرحان ، العلاقات السياسية للدولة الاشورية . رسالة ماجستير غير منشورة . (بغداد ١٩٧٦ ص ٤٢ – ٤٣) .

الا أن «توشرتا» تمكن اخيراً (حوالي عام ١٣٨٥ق.م.) من اعتلاء العرش الميتاني وحرص في اولى رسائله إلى امنحوتب الثالث إلى اعادة العلاقات مع مصر إلى سابق عهدها مذكراً بما كان بين البلدين من اواصر الصداقة (٢٤)، وكان امنحوتب من ناحيته مستعداً لذلك تمشياً مع سياسته السابقة تجاه الدولة الميتانية، ولذلك نراه يتزوج من ابنة توشرتا (٢٥) بعد ان سبق وان تزوج من اخته.

(٣)

وفي عهد توشرتا حدثت تطورات جديدة في الوضع السياسي للشرق الادنى. فقد برز الحثيون ثانية إلى المسرح السياسي في عهد «شبيلوليوما» (١٣٨٠ — ١٣٤٠ ق.م.) الذي تمكن من أستعادة قوة الدولة الحثية ومكانتها في التأثير على الاحداث السياسية، تلك المكانة التي فقدتها منذ اغتيال مورشيليش الاول (اوائل القرن السادس عشر ق.م.). لقد احدث مجيء شبيلوليوما إلى العرش الحثي اختلال في موازين القوى السياسيه للمنطقة وقلب الوضع رأساً على عقب لصالح الحثيين. فبعد أن امضى شبيلوليوما سنواته الاولى في تقوية مركزه داخلياً بدأ بتنفيذ هدفه الستراتيجي المتمثل بمحاولة السيطرة على شمالي سوريا، ومع انه فشل في تحقيق هذا الهدف في اولى محاولاته (٢٦) لكنه تمكن فيما بعد حتى من مهاجمة عاصمة الدولة الميتانية «وشكني» ذاتها (٢٧)، وشذب إلى حد بعيد ممتلكات هذه الدولة بالسيطرة المباشرة على الكثير من مناطق نفوذها، وجعل مناطق اخرى تسير في فلك الدولة الحثية حيث سارع العديد من الامراء السوريين إلى تقديم هدايا الخضوع والاعتراف بالسلطة الجديدة (٢٨). وقد حرص شبيلوليوما

---

(٢٤) CAH· 3rd,ed·Vol· 11· pt· 1 (1973) p· 487·

(٢٥) Bezold,Ch·, Op·Cit· pp· 11f·

(٢٦) Gurney, O·R·, Op· Cit· pp· 27f·

(٢٧) Giiterbock, H·G·, "The Deeds of Suppiluliuma"· JCS· Vol· x, No· 4· pp·111-114·

(٢٨) Gurney, O·R·, Op· Cit· p· 329·

على عدم اثارة مصر وربما اكتفى بجعل العاصي حدوداً لحملته هذه التي سيطر نتيجتها على حلب والالاخ (تل العطشانه حالياً) الا أنه لم يتمكن من السيطرة على كركميش التي ظلت موالية للميتانيين (٢٩).

ان الانتصار ت التي حققها شبيلوليوما في شمالي سوريا على حساب الدولتين الميتانية والمصرية كان لها اسباب عديدة . فرغم انها ترجع الى حد بعيد إلى مقدرة الملك الحثي واستعداده العسكري والتخطيط الجيد للحملة ، الا أنه هناك اسباب اخرى سهلت الانتصار ومهدت له قبل ذلك، من ذلك ان توشرتا لم يكن في وضع يؤهله للوقوف بوجه الحثيين والحد من توسعهم العسكري لاسيما وان أحد الطامعين في العرش الميتاني « ارتاتاما » الثاني استقل في بعض الاراضي الميتانية جنوب بحيرة «وان » وحالف شبيلوليوما ضد توشرتا (٣٠) . اما الجهة الاخرى المعنية بشأن سوريا أي مصر فان فرعونها « امنحوتب » الرابع / اختاتون (١٣٧٩ - ١٣٦٢ق .م.) كان منشغلاً باصلاحاته الدينية كلياً عن شؤون السياسة الخارجية . والحقيقة ان قبضة مصر على بلاد الشام تراخت منذ اواخر عهد سلف اخناتون ، امنحوتب الثالث، الذي لم يوجه طيلة حكمه سوى حملة واحدة إلى مدينة صيدا كانت الغاية منها الصيد والنزهة (٣١) اكثر مما كانت تهدف إلى تحقيق اغراض سياسية معينة . وينسجم هذا الامر كلياً مع الطبيعة السلمية التي اصطبغت بها سياسة امنحوتب الثالث عموماً وعدم التركيزعلى حماية ممتلكاته بالقوة بل اراد تحقيق ذلك من خلال مصاهراته السياسية وعلاقاته الودية حتّى مع الدويلات الصغيرة كما رأينا .

وفي فترة التوسع الحثي في شمالي سوريا تظهر الى المسرح السياسي العديد من الدويلات المحلية التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ المنطقة ، والتي توزع موقفها من الاحداث المستجدة بين فريقين : الفريق الاول أعتمد النفاق السياسي في علاقاته مع الحثيين والمصريين تحسباً للطوارىء في المستقبل والاستفادة من

---

(٢٩) :المصدر نفسه . ص ٢٩ ومابعدها .

(٣٠) Saggs, H·W·F·, The Greatness that was Babylon· (London 1962) p·81·

(٣١) :نجيب ميخائيل ابراهيم ، المصدر السابق . ص ١٣٩ .

اوبالط اعتبر نفسه « أخ » الفرعون اي انه مساوٍ له في المنزلة السياسية باعتبار دولته من الدول العظمى المتكافئة المركز مع مصر ومع غيرها من الدول التي يتراسل حكامها على اساس « الاخوة » .

ويبدو انه كان لرسالة آشوراوبالط الى أخناتون وقع سيء عند الملك الكشي « بورنابورياش » الثاني (١٣٧٥ — ١٣٤٧ ق.م.) الذي عبر عن استيائه من التقارب الآشوري — المصري في رسالة بعثها الى أخناتون ، استعرض في بدايتها علاقات الصداقة والتعاون بين بلاده ومصر ، ثم عاتب فيها اخناتون : « الان انا لم ارسل الاشوريين اتباعي إليك ؛ انهم يعملون حسب رأيهم الخاص . لماذا دخلوا الى بلادك ... » (٣٩) . وتشير هذه الرسالة الى محاولة الكشيين عزل بلاد آشور عن الدول العظمى وضمان مصر الى جانبهم فقط . كما تشير من ناحية ثانية الى ان مسألة تبعية الاشوريين لهم (للكشيين) كانت مجرد ادعاء وان بورنابورياش لم يكن قادراً على وضع حد لظهور آشور على المسرح بالطرق العسكرية بل حاول ذلك بالطرق الدبلوماسية . (٤٠)

(٤)

وفي حدود ١٣٥٠ ق.م. حدثت تطورات جديدة اخرى على مسرح الاحداث في الشرق الادنى ، فقد اغتيل الملك الميتاني توشرتا وهرب وريثه وابنه «متي وازا» إلى شبيلوليوما ، وبذلك اصبح الملك الحثي السيد الاعلى على الوريث الشرعي للعرش الميتاني وعلى المطالب به ، ارتاتاما الثاني ، على حد سواء (٤١) . وادت الاحــداث السريعة المتلاحقــة في الدولة الميتانية إلى تأثيرات بالغة على مجمل العلاقات الدولية والوضع السياسي والقوى المسيطرة في المنطقة . فمن ناحية استفاد اشورأوبالط من هذه الاحداث ليس فقط في تثبيت ودعم

---

(٣٩) Oppenheim, A·L., Letters from Mesopotamia. (Chicago 1967) 115f. pp. No·59. :

(٤٠) :لقد تمكن اشور اوبالط فيما بعد حتى من السيطرة الاسمية على بلاد بابل .

(٤١) Saggs, H.W·F., Op. Cit. p. 81

مركز بلاده بل والحصول على اعتراف ميتاني بهذا المركز من قبل ارتاتاما وخليفته «شوترنا» الثالث (٤٢) اللذين سيطرا مؤقتاً على الدولة الميتانية بكاملها . اما متي وازا فقد استعاد عرشه بمساعدة حثية بعد أن تزوج ابنة شبيلوليوما واصبحت دولته منذ الان بمثابة دولة حاجزة بين الاملاك الحثية في اسية الصغرى وسوريا من جهة وبلاد اشور المتنامية القوة من جهة ثانية . وهكذا فقدت الدولة الميتانية مكانتها السابقة كدولة عظمى مؤثرة في المنطقة وتوزع مركزها بين الدولتين الحثية والاشورية .اما مصر فانها فقدت في هذه الفترة كل ماتبقى لها من نفوذ فعلي في سوريا واصبحت معظم الدويلات المحلية السورية تسير في فلك السياسة الحثية ، في حين ان بابل الكشية لم يكن لها شأن يذكر في العلاقات الدولية بسبب خضوعها الاسمي لبلاد آشور (٤٣) .

ان غياب الدولة الميتانية عن المسرح السياسي وخضوعها للسيطرة الحثية من خلال حاكمها الاسمي «متي وازا» سهل على شبيلوليوما اخضاع شمالي سوريا في اواخر عهده حيث جعل المنطقة من الفرات إلى ساحل المتوسط ولاية حثية ووطد حدود ممتلكاته عند لبنان أمام مصر الضعيفة، بواسطة العديد من الدويلات المحلية التابعة (٤٤). وحدثت عندما كان شبيلوليوما يكمل فتحه لشمالي سوريا حادثة لها مدلولها السياسي. اذ تلقى رسالة من ارملة «توت عنخ امون» (١٣٦١ — ١٣٥٢ق.م). تعرض فيها الزواج من احد ابنائه: « توفي زوجي وليس لي ابن. ويقول الناس ان لك ابناء كثيرين. اذا ارسلت لي احد ابنائك(فانه) سيصبح زوجي. اني اكره ان اختار احد الخدم واجعل منه زوجاً لي» (٤٥) . وهكذا اصبح لشبيلوليوما سمعة دولية عالية في

Saggs, H. W. F, OP. cit. P, 81.

Gadd, C.J., "Assyria and Babylon, C. 1370-1300 B.C." Revised edition from CAH. Vols .1and11. 1965. p.8

وسبق ان ذكرنا ان ارتاتاما استقل ببعض الاراضي الميتانية جنوب بحيرة وان وانه حالف شبيلوليوما ضد توشرتا .

(٤٣) :راجع الهامش (٤٠) .

(٤٤) Gurney, O.R., Op. Cit. p. 30.

(٤٥) Pritchard, J.B. (ed.), Ancient Near Eastern Texts, Relating to the Old Testament. 3rd. ed. (Princton 1969) p.319.

المنطقة حتى ان المملكة المصرية ارادت مصاهرته، ولعلها كانت تواجه صعوبات داخليه فارادت بهذه المصاهرة ان تجد سنداً قوياً في الخارج . ولم يكن شبيلوليوما بالذي يفوت هذه الفرصة، اذ انه بعث أحد ابنائه إلى مصر غير ان هذا الامير قتل قبل وصوله اليها ولهذا السبب ارسل جيش حتى إلى فلسطين (٤٦) واستمرت المناوشات بين الطرفين في الفترات التالية كما سيمر ذكره. وهكذا اصبحت الدولة الحثيه سيدة الموقف في بلاد الشام لاينازعها في ذلك او يقلقها سوى القوة المتنامية لبلاد اشور، التي كانت الدولة العظمى الثانية في الشرق الادنى بعد غياب مصر والدولة الميتانية من على المسرح .

اعقب شبيلوليوما في الحكم ابنه «أرنونداش» الثالث ثم اعقبه بعد حوالي سنة اخوه مورشيليش الثاني الذي تمكن من استعادة معظم امبراطورية والده بعد ان فقدت اجزاء واسعة منها في عهد اخيه وسلفه (٤٧). وساد الشرق الادنى في هذه الفترة عهد من الهدوء النسبي، فمصر كانت منكمشة في حدودها الخاصة، وبلاد أشور كانت منشغلة بمشاكلها الحدوديه مع بلاد بابل ولم يكن خليفتا اشور أوبالط من القوة بحيث يتمكنا من اظهار أي نشاط على المسرح الخارجي ، اما الدولة الميتانية فقد سبق لها ان فقدت مكانتها السياسية كدولة مؤثرة في المنطقة .

(٥)

ان الهدوء الذي سيطر على منطقة الشرق الادنى بين حوالي عام ١٣٤٠ــ ١٣٠٠ق .م. كان أشبه بالسكون الذي يسبق العاصفة ، أذ أعقب ذلك فترة تقدر بحوالي القرن من الزمن تجدد فيها النزاع بين القوى السياسية ذات المصالح المتضاربة في بلاد الشام ولاسيما في شماليها . فمصر بدأت في عهد سلالتها التاسعة عشر بتجديد محاولتها لاعادة الامبراطورية الاسيوية حيث عاد النزاع القديم في المنطقة إلى سابق عهده وحدثت عدة مصادمات مسلحة بين «ستي» الاول(١٣٢٠ــ ١٣٠٤ق .م.) والملك الحثي «مُواتَليش» في منطقة العاصي(٤٨)

(٤٦) Gurney, O.R., Op. Cit.

(٤٧) Ibid. pp. 32ff.

(٤٨) :نجيب ميخائيل ابراهيم ، المصدر السابق . ص ٢٦٣ .

حيث الحدود الجنوبية للمتلكات الحثية ، ولم يتابع ستي تقدمه إلى المناطق الشمالية الأبعد خوفاً من مجابهة حثية شاملة لقواته ، بل أنه اقتنع ، فيما يبدو ، باستعادة فلسطين ولبنان . ولاشك ان هذه الاجزاء كانت كافية في هذه المرحلة وتمثل جزءاً هاماً من الامبراطورية المصرية السابقة، كما أستعاد ستي في حملته هذه قدراً كبيراً من سمعة مصر وأعاد اليها مجدداً فاعليتها وتأثيرها في مجرى الاحداث الدولية للمنطقة . وهناك اضافة إلى مصر والحثيين بلاد آشور التي دخلت في القرن الثالث عشر ق. م. عهداً من التوسع السريع واصبحت واحدة من أقوى دول المنطقة ومنافساً قوياً للحثيين فيها .

وقد تجدد النزاع المصري — الحثي في منطقة العاصي بعد مجيء «رعمسيس» الثاني (١٣٠٤ — ١٢٣٨ق. م.) إلى الحكم بشكل لم يحسم الموقف بين الطرفين وان كانت الكفة فيه راجحة لصالح الحثيين (٤٩) . لكن النزاع بين الجانبين لم يستمر لفترة طويلة اذ عقدت بينهما معاهدة سلام لتسوية النزاع القديم المتجدد في العام الحادي والعشرين من حكم رعمسيس الثاني (حوالي ١٢٨٤ق .م.) ومعاصره الحثي « خاتوشيليش» الثالث. وقد تعهد كل من الطرفين بعدم مهاجمة الطرف الاخر بل والدفاع عنه في حالة تعرضه لهجوم من جانب ثالث : « أذا زحف علو آخر ضد بلاد رعمسيس، حاكم مصر العظيم وارسل إلى أمير خاتي (الحثيين) العظيم قائلا: «تعال معي كساعد ضده » واذا لم يذهب خاتوشيليش شخصياً (فانه) يتوجب عليه عندئذ ان يرسل مشاته وعرباته ... »

ويلي ذلك فقرة مشابهة لصالح الحثيين كما التزم الطرفان بتسليم الهاربين إلى الطرف الاخر أياً كانت صفتهم ومرتبتهم الاجتماعية شريطة عدم التنكيل بهم او التعرض لاولادهم وأزواجهم ، بنفس الاسلوب المتبع حالياً عند تسليم الهاربين بين الدول المتحالفة (٥٠) .

ان المعاهدة الحثية — المصريه تعتبر إلى الوقت الحاضر اكمل معاهدة سلمية

---

(٤٩) Gurney, O·R., Op. Cit. p·35.

(٥٠) :راجع نص المعاهدة في :

Pritcherd, J·B·(ed·), Op· Cit· pp· 199ff.

قديمه عقدت بين دولتين متساويتين في المركز السياسي وان لم تكن اقدمها(٥١). وقد انهت المعاهدة هـــذه النزاع المصري الحثي في بـــلاد الشام ، وساد السلام في المنطقة، وانعكس ذلك على علاقات الدولة الحثية بالقوى الدولية الاخرى ولاسيما علاقتها مع بلاد اشور.

كان للمعاهدة الحثية المصرية بدون شك اسباب عديدة وظروف ممهده. فأن الصعوبات الداخلية والخارجية التي واجهت احد الطرفين او كليهما لعبت دوراً هاماً في محاولتهما تصفية نزاعهما بالطرق السلمية . فقد اعتلى خاتوشيليش الثالث العرش الحثي بعد نزاع مع ابن اخيه « أرخي — تيشوب » الخليفة الشرعي، الذي حاول الحصول على دعم مصري في نزاعه مع عمه، ولعله حصل على وعد من رعمسيس بذلك (٥٢).

ورغم ان خاتوشيليش تغلب على خصمه لكنه بقي حذراً من مصر التي قد تتخذ ملجأ لخصومه السياسيين مستقبلاً، كما ان الدولة الحثية باتت في عهده مهددة بالاخطار الخارجية على حدودها الغربية والجنوبية على حد سواء بسبب تدفق هجرات « شعوب البحر » (٥٣) إلى اسية الصغرى وشواطىء البحر المتوسط الشرقية، ثم هناك الخطر الاعظم على حدودها الجنوبية ومبعثه تزايد قوة الدولة الاشورية. وكانت مصر هي الاخرى تواجه خطر تحرك القبائل الليبية على حدودها الغربية، اضافة إلى عدم ارتياحها من النمو المتزايد للقوة الاشورية خشية ان يؤدي ذلك إلى اختلال توازن القوى في المنطقة . وهكذا وجدت مصلحة مشتركة بين خاتوشيليش ورعمسيس لانهاء خلافاتهما سلمياً طالما فشلت الحرب في تسوية النزاع بشكل حاسم لصالح أي من الطرفين.

---

(٥١) : فقد سبقتها معاهدات حثية — مصرية لا نعرف عنها سوى أشارات بسيطة في النصوص المتاخرة ، وهناك أيضاً اشارات عديدة عن المعاهدات الحدودية بين الاشوريين والكشيين في القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق. م. اما اقدم معاهدة حدودية معروفة إلى الان فهي التي عقدت بين دويلتي « لجش » و« أماء » في جنوبي العراق حوالي منتصف القرن الخامس والعشرين ق . م .

(٥٢) : عبدالعزيز صالح ، المصدر السابق . ص ٢٣٣ .

(٥٣) : اقوام هاجرت من منطقة بحر ايجة إلى اسية الصغرى وسواحل البحر المتوسط ، واسهموا في انهاء حياة الحثيين السياسية في اواخر القرن الثالث عشر ق. م.

ان ظهور الاشوريين على المسرح السياسي كقوة فاعلة في سير احداث المنطقة ، كان من بين اهم الاسباب المؤثرة على طبيعة العلاقات الثنائية بين القوى الدولية وبالذات التقارب الحثي ـ المصري وعقد معاهدة السلام بينهما . لقد سبق ان بدأت بوادر القوة الاشورية تلوح في الافق منذ عهد آشور اوبالط الاول ، (١٣٦٥ ـ ١٣٣٠ ق.م.) ، ولذا رأينا شبيلوليوما يحاول جعل الدولة الميتانية بمثابة حاجز لحماية دولته ضد القوة الآشورية المتصاعدة ، وحرص خلفاؤه كذلك على ابقاء الوضع الجديد للدولة الميتانية . وبعد مجيء خاتوشيليش الثالث الى الحكم حاول أيجاد نوع من العلاقات الودية مع الدولة الآشورية في عهد أددنراري الاول (١٣٠٧ ـ ١٢٧٥ ق.م.) (٥٤) لانه (اي خاتوشيليش) كان حذراً من فتح جبهة النزاع مع الدولة الاشورية وهو لم يحسم الموقف بعد مع مصر في النزاع على شمالي سوريا ، ولأن العلاقات الودية تلك ستضمن له حياد الآشوريين ، على الاقل ، في حالة نشوب الصدام مع رعمسيس ، ولهذا السبب ايضاً نجده (خاتوشيليش) يدخل في حلف دفاعي مع الملك الكشي « كادشمان ــ تركو » (١٢٩٧ ـ ١٢٨٠ ق.م.) الذي وعد بتقديم المساعدة الحربية اذا ماقامت الحرب ضد مصر : « منذ ان ثبتُ ووالدك علاقات دبلوماسية (بيننا) واصبحنا مثل الاخوة اتفقنا على مايلي : اننا اخوة ، ويعني ذلك اننا نعادي اعداء أي منّا ونصادق صديق اي منّا ، عندما غضبت انا وملك مصر أحدنا على الآخر ، أخبرت والدك ، كادشمانتُركو ، قائلاً : « لقد اصبح ملك مصر عدوي » وأجاب والدك كما يلي : « أذا زحف أخي ضد مصر ، سأزحف معك

(٥٤) : لايعرف شي كثير عن تفاصيل هذه العلاقات سوى اشارات بسيطة في رسالة بعثها خاتوشيليش الى اددنراري (للمزيد من التفاصيل انظر :

Rowton, M.B., "The Background of Treaty between Ramsses II and Hattusilis III." JCS. Vol.X11I,No.1 (1959) pp. 2-6; Munn-Rankin, J.M., "Assyrian Military Power 1300-1200 B.C." Revised ed. from CAH.Vols. I and II (1967) pp. 5f.

بالفعل شخصياً مع مشاتي وعرباتي ، بقدر ماموجود منها ... » (٥٥) .

ان النمو المتزايد للقوة الاشورية في عهد أددنرارى الاول كان من بين اهم الاسباب التي أدت إلى التقارب الحثي – المصرى ، كما اشير إلى ذلك قبل قليل . فقد تمكن أددنرارى من مد نفوذه إلى منطقة مابين النهرين بل وتمكن حتى من السيطرة الاسمية على الدولة الميتانية نفسها في عهد ملكها «شتوآرا» وذلك قبل مجيء خاتوشيليش إلى الحكم بفترة قصيرة(٥٦) وكان ذلك بمثابة فشل ذريع للستراتيجية الحثية الرامية إلى ابقاء الدولة الميتانية كحاجز ضد الآشوريين ، ولهذا السبب حاول خاتوشيليش ان يقيم علاقات ودية مع أددنرارى (٥٧) ليضمن تحييد الدولة الاشورية : في نزاعه مع مصر ولكي لايصطدم معها في مواجهة مباشرة في ظروف حرجة ليست في صالحه كما ذكرنا . لكن الوضع تطور فيما بعد بشكل هدد الحثيين الى حد كبير فقد ثارت الدولة الميتانية في عهد « وسشتا» ضد السلطة الاشورية ، الا ان الثوره فشلت في تحقيق هدفها وكانت النتيجة ان الحقت معظم المنطقة الميتانية إلى بلاد آشور (٥٨) وهكذا أصبح الاشوريون على احتكاك مباشر مع الحثيين الامر الذى دفع الاخيرين إلى التفكير باعادة التوازن الدولي إلى المنطقة اما : بمهادنة الدولة الاشورية والاعتراف لها بما حصلت عليه في منطقة مابين النهرين والاعتراف بالتالي بالوضع الجديد ، او التوصل إلى حل سلمي للنزاع مع مصر . وقد فضل الحثيون الخيار الثاني لان السلام مع رمسيس ليس فيه الكثير من الخسارة المادية او المعنوية بسبب ماضي مصر المعروف في المنطقة ولانهم (الحثيون) كانوا يشكون كثيرا في نوايا الاشوريين ومطامحم

---

(٥٥) : اشير إلى هذا التحالف في رسالة من خاتوشيليش إلى «كادشمان أنليل» ابن كادشمان تركو. وعن نص الرسالة راجع

Oppenheim, A·L·, Op· Cit· pp· 139-46· No· 84

Munn-Rankin, J·M·, Op· Cit· pp· 5f

(٥٧) : انظر الهامش (٥٤)

(٥٨) : Munn-Rankir, J·M·, Op· Cit· pp· 6f·

في المنطقة تلك المخاوف والشكوك التي تاكدت في رسالة تلقاها خاتوشيليش من أددنرارى (٥٩) عرض فيها عليه « الاخوة» والرغبة في زيارة جبل (الامانوس) . ان المركز الجديد الذى احرزه الاشوريون بعد سيطرتهم على الدولة الميتانية جعل اددنرارى يفكر في الحصول على اعتراف دولي بمكانته كواحد من حكام الدول العظمى في المنطقة . ويبدو ان خاتوشيليش ادرك ذلك ولذا كان رده على طلب « الاخوة» عنيفاً: « ماهذا الكلام عن الاخوة وزيارة جبل أمانوس ؟ لماذا اكتب اليك فيما يتعلق بالاخوة ؟ هل ولدنا أنا وأنت من أم واحدة ؟»(٦٠) من ناحية اخرى فسر خاتوشيليش عرض اددنرارى بزيارة الامانوس على انه تهديد خفي للسيطرة على المنطقة (٦١).

ان رد فعل خاتوشيليش على التطورات الجديدة المتمثلة خاصة بامتداد النفوذ الاشوري إلى منطقة مابين النهرين ، لم يكن المواجهة العلنية لهذا التوسع والاصطدام المباشر مع الاشوريين ، كما قد يظن . وانما كان بالتوصل إلى حل سلمي للنزاع القديم مع مصر وعقد المعاهدة مع رعمسيس ، ثم اللجوء فيما بعد إلى تحريض الميتانيين ودعمهم مادياً وعسكرياً للثورة على السيطرة الاشورية،وربما تمكنت ميتاني،نتيجة هذا الدعم،من الاستقلال عن الآشوريين في اواخر عهد أددنرارى او في بداية عهد خليفته«شلمنصر» الاول (١٢٧٤ــ ١٢٤٥م) (٦٢) الذى تمكن من اعادة اخضاع المنطقة لنفوذه المباشر والقضاء نهائياً على الدولة الميتانية (٦٣) وأخذ دورها في المسرح السياسي للمنطقة اذ لم تقم

---

(٥٩) :حول هذه الرسالة والتفاصيل المتعلقة بها انظر

Rowton, M·B·, Op· Cit· Cit· pp· 10f

Munn-Rankin, J·M·, Op· Cit· p·7

(٦٠) : ولاشك ان خاتوشيليش كان يستهزيء بالملك الاشوري في سؤاله : « هل ولدنا أنا وانت من ام واحدة ؟ » فهو يعلم جيدا ان «الاخوة» لاتعني في المراسلات الدبلوماسية علاقات قربى وانما لها مضامين سياسية .

(٦١) : Rowton, M·B·, Op· Cit· p· 10,n·46·

(٦٢) : Munn-Rankin, J·M·, Op· Cit· p·7

(٦٣) : Luckenbill, D·D·, Ancient Records of Assyria and Bebylonia· Vol· I (Chicago 1926) pp· 39f· No·116·

لتلك الدولة قائمة بعد ذلك . وهكذا حسم النزاع الحثي – الاشوري الغير المباشر لصالح الاخيرين وتحاددت ممتلكات الطرفين في شمالي سوريا وما بين النهرين بشكل مباشر .

وبسبب هذه التطورات السياسية حاول خاتوشيليش أثارة المشاكل على الحدود الجنوبية للدولة الاشورية لتخفيف سيطرتها واضعافها على منطقة ما بين النهرين . ويمكن تبين هذا الاتجاه الجديد في السياسة الحثية تجاه أشور من الرسالة التي أرسلها خاتوشيليش إلى معاصره الملك الكشي « كادشمان – انليل» (١٢٧٩ – ١٢٦٥ق.)م والتي حاول فيها اتخاذ الكشيين « رأس حربة» ضد الاشوريين « الضعفاء !»:«ان ملك بلاد اشور بكل مشاته وسلاح عرباته لايوازى مشاة بلادك ... تقدم الان وقم بغزوة في بلاد العدو (اى بـــلاد اشور) واني متشوق لسماع كم سيذبح «أخي » من الاعداء » وبعد هذا التحريض السافر يثير خاتوشيليش في الملك الكشي نزعة الثأر :« لقد اعتادوا (اى الاشوريون) ان يدعو والدك « الملك الذى يستعد للحرب لكنه يمكث في وطنه بعد ذلك » ألم يقولوا ذلك عنه دائماً؟ أخي يجب ان لاتبق في الوطن،اذهب الى بلاد الاعداء وأدحر العدو...»(٦٤).

ان خاتوشيليش ، كما يتضح من هذه الرسالة ، اضافة إلى التحريض على الاعتداء وامتثارة الكشيين بكل الوسائل ، لم يتحرج من دعوة كادشمان أنليل« بـ«أخي »وهو يعلم جيداً أنه (كاد شمان انليل» لايستحق ذلك لان مركزه السياسي ادني بكثير من مركز أددنرارى عندما رفض خاتوشيليش « أخوته» سابقاً . لكن خاتوشيليش كان يريد تحقيق هدفه في اثارة المشاكل الحدودية الاشورية الكشية باية وسيلة متاحة عملا فيما يبدو بالمثل « الغاية تبرر الواسطة » ولا يعرف ماذا كانت تحريضات خاتوشيليش ومجاملاته قد شجعت الملك الكشي على القيام بعمل عسكري على الحدود الجنوبية للدولة الاشورية .

(٦٤) :انظر نص الرسالة في :

Oppenhein, A·L·, Op· Cit· pp·139-46·No·84·

ويبدو من سير الاحداث التالية في عهد « توكلتي نورتا » الاول (١٢٤٤ –١٠٢٨ق. م) ومعاصره الحثي « تو د خالياش» الرابع ان الموقف السياسي والعسكري كان لصالح الاشوريين . فقد تلقى توكلتي نورتا التهنئة بمناسبة توليه العرش من تودخالياش الذى وجه كذلك عدة رسائل إلى اثنين من كبار القادة الاشوريين يدعوهم فيها إلى حماية سيدهم ويؤكد لهم صداقته للملك الاشورى (٦٥). ويبدو ان تودخالياش اراد اقامة علاقات ودية مع الاشوريين بعد ان أثبتوا فعلا انهم « قوة عظمى » في المنطقة . الا ان العلاقات الحثية –الاشورية لم تتطور في اتجاه سلمي بل بالعكس فقد حدثت بين الجانبين بعد فترة قصيرة جداً من بداية عهد توكلتي نورتا بعض المناوشات الحدودية في منطقة مابين النهرين (٦٦) وهنا لجأ تودخالياش إلى اسلوب الحرب الباردةفي نزاعه مع الاشوريين ، اذ الزم حاكم منطقة « أمرّو» السورية التابع له بوقف المتاجرة مع بلاد اشور كلياً ومنع مرور التجار الاشوريين في اراضيه (٦٧) محاولا من وراء ذلك فرض الحصار الاقتصادي على الدولة الاشورية وقطع الطرق التجارية بينها وبين البحر المتوسط ، وهو ما سيؤدي قطعاً إلى اثار سلبية على الاقتصاد الاشوري .

وفي اواخر عهد تودخالياش وفي عهود خلفائه تدهورالوضع السياسي فيالدولة الحثية بسبب تفاقم خطر الشعوب البحرية ، حيث تمكن احد هؤلاء وهم « الفريجيون » في اواخر القرن الثالث عشر ق.م من القضاء نهائياً على الدولة الحثية واحتلوا مكانها في السيطرة على الاوضاع السياسية في آسية الصغرى.

---

(٦٥) Munn-Rankin, J.M., Op. Cit. p.19.

(٦٦) Ibid. p. 20.

(٦٧) Koros'ec, V., "The Warefare of the Hittites from the Legal Point of View". Iraq. Vol. xxv.pt.2 (1963) p.163.

أما بلاد اشور فقد حلت فيها فترة من الضعف السياسي اثر اغتيال توكلتي نتورتا في عام ١٢٠٨ ق.م وتقلص نفوذها الخارجي إلى حد بعيد وحتى مجيء « تجلا ثبليزر» الاول للحكم عام ١١١٥ق.م .

وهكذا انتهى الصراع بين الدول القوية المتنافسة في الشرق الادنى ، ولم تشهد المنطقة فيما بعد مثل تلك العلاقات المتشابكة بالشكل الذى رأينا .

معارضات البارودي ـ موازنة نقدية

الدكتور
عمر محمد الطالب

المقدمة

– إن الشاعر في كل عصر ومصر ابن بيئته يتأثر بمعطيات عصره ويعبر عن روح ذلك العصر كما يتأثر بما يحيط به من مؤثرات البيئة التي يحيا في أرجائها .ويتأثر الشاعر بالشعراء الذين سبقوه ويختلف مقدار التأثر والتأثير بطبيعة الشاعر ونفسيته وظروفه وأخلاقه ومثله .ونحن نلمس هذا التأثر في الأدب العربي منذ عصر امرىء القيس حيث قال :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا　　نبكي الديار كما بكى ابن حذام

على الرغم من أننا لانعلم شيئاً عن ابن حذام هذا إلا من خلال بيت امرىء القيس حيث أقتدى به شاعرنا الكبير ووقف على الاطلال وبكى واستبكى كما فعل ابن حذام هذا من قبل .

وإذا انتقلنا من مفهوم التأثر والتأثير الذي لايشك فيه أي دارس للأدب فاننا نلمس في الأدب العربي ظاهرة شعرية سبقت المعارضة وإن سارت على نهجها الا وهي ظاهرة النقائض : « جمع نقيضة والمدلول الحسي لهذه اللفظة مأخوذ في الاصل من نقض البناء إذا هدمه والحبل إذا حله وضده الابرام يكون للبناء.. والمناقضة في القول: ان يتكلم بما يتناقض معناه ،والمناقضة في الشعر أن ينقض الشاعر الآخر ماقاله الأول حتى يجيء بغير ماقال ... أما المدلول المعنوي فهو يبدو في نقض العهود والمواثيق »(١).

أما الصورة الاصطلاحية للنقائض فهي :« أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجياً أو مفتخراً ،فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجياً أو مفتخراً ملتزماً البحر والقافية والروي الذي اختاره الأول ... أما المعاني فالأصل العام فيها المقابلة والاختلاف لأن الشاعر الثاني همه أن يفسد على الأول معانيه فيردها عليه إن كانت هجاء ، ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه ،وإن كانت فخراً كذبه فيها أو فسرها لصالحه هو أو وضع إزاءها لنفسه وقومه ... جانب المعنى إذا

---

(١) عبد المجيد عبد السلام المحتسب ، نقائض جرير والأخطل ، ٢٧ – ٢٨

هو مناط النقائض ومحورها وعليه تدور يتخذ عناصره من الأحساب والأنساب والأيام والمآثر والمثالب »(١).

وقد تحددت النقائض بهذا المفهوم منذ عصور ماقبل الاسلام في الأدب العربي مثل منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، وعامر بن الطفيل مع النابغة الذبياني ومنافرة قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت. وغيرها من المنافرات.

واستمرت النقائض في صدر الاسلام وخاصة بعد المعارك التي دارت بين المسلمين وغير المسلمين وخاصة بين الشعراء غير المسلمين من أمثال أبي سفيان بن الحارث وعبدالله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب الفهري وأبي عزة الجمعي وهبيرة بن أبي وهب المخزوي، فرد عليهم ثلاثة من شعراء المسلمين هم حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبدالله بن ابي رواحة وكانوا يعارضونهم بمثل قولهم بالأيام والمآثر والوقائع ويعيرونهم بالكفر في نفس الوزن والقافية والروي. ثم أصبح فن النقائض من الفنون البارزة في العصر الأموي حتى تبلورت في نقائض جرير والفرزدق والأخطل. ومضى هذا النوع من الشعر في العصور التالية.

وقد ظهر إلى جانب فن النقائض في الشعر فن آخر هو المعارضات الشعرية. وهي من مادة عرض وعارض بمعنى أخذ في ناحية منه أو دخل دخولا فيه ليست بمباحته. والمعارضة أن يعارض الرجل المرأة فيأتيها بلانكاح ولاملك، أو أن يعارض فحل الأبل النوق معارضة فيضربها من غير أن تكون من الابل التي كان الفحل رسيلا فيها وعارضته في المسير أي سرت حياله وحاذيته ويقال عارض فلان فلاناً إذا أخذ في طريق وأخذ في طريق آخر فالتقيا، وعارضته بمثل ماصنع أي أتيت اليه بمثل ماأتى وفعلت مثل مافعل (٢) ومن هذا المعنى جاء اصطلاح المعارضة في الشعر : أن ينسج شاعر على منوال قصيدة معينة لشاعر آخر أو يأتي بمثلها في وزنها وقافيتها ورويها وبعض معانيها أو في بعض أغراضها أو في موضوعها.

---

(١) احمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، ٣ - ٤.

(٢) ابن منظور، لسان العرب ج٩، ٣٥ - ٣٧، ٤٨.

وتتأتى المعارضة نتيجة لأعجاب شاعر ما بقصيدة سابقة عليه لشاعر لها مكانها وثقلها في الشعر العربي . أو نتيجة لاعتداد الشاعر بنفسه فيسعى في معارضته إلى منافسة شاعر قديم في قصيدة من قصائده المشهورة ليباريه أو يعلو عليه .

وقد ظهرت المعارضة في الشعر العربي القديم واشتد زندها في شعر المتأخرين وعني الشعر العربي الحديث بها ولاسيما في إطار المدرسة التقليدية التي تزعمها البارودي .

أما الموازنة الشعرية ،فهي من مادة وزن ، ووازنت بين الشيئين موازنة ووزاناً وهذا يوازن هذا إذا كان على زنته أو كان محاذيه (١) . ومن هذا المعنى جاء اصطلاح الموازنة الشعرية فوازن الشيء بالشيء أي ساواه في الوزن وعادله وماثله وقابله وحاذاه ووازن الشاعر قصيدة غيره: إذا نظم قصيدة من بحرها على وزنها ورويها نتيجة لاعجابه بها أو مباراتها والارتفاع عليها .
والمعارضة والموازنة غير التقليد . فالتقليد هو التقيد بموضوع وأغراض ومعاني وموسيقى وبناء القصيدة المقلدة مع خلوها من روح الشاعر المقلد وتجربته الشعرية الخاصة. اما المعارضة والموازنة فتعتمدان اساساً على صدق التجربة الشعرية للشاعر المعارض او الموازن وهو لا يتقيد بمعاني القصيدة المعارضة او الموازنة. بل يصوغها صياغة جديدة ويتناولها تناولا مختلفاً ويولد معان جديدة ويعرض صوراً جميلة ويسمو به فنه.وتظهر شخصية الشاعر الخاصة من خلال القصيدة على العكس من التقليد حيث تمحي شخصية الشاعر المقلد في داخل القصيدة وتظهر شخصية الشاعر المقلد شوهاء مرتبكة.والموازنة الشعرية غير الموازنة النقدية ، كالمناقضة والمعارضة . فالاولى يقوم بها الشاعر كما يناقض قصيدة او يعارض أخرى ، اما الموازنة النقدية فقد ظهرت منذ بدايات الشعر العربي قبل الاسلام . فقد ولع الادباء والشعراء قديماً بالموازنة بين الشعر فوازنوا بين امريء القيس وعلقمة بن عبدة ،وبين امرىء القيس وزهير والنابغة والاعشى ، وبين امرىء القيس وعبيد بن الابرص ، وبين عمرو

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ١٧ ، ٣٣٨ .

بن كلثوم والحارث بن حلزة اليشكرى ، إلى آخر ذلك . وفي العصر الاسلامي بين جرير والفرزدق والاخطل ، وبين جميل بن معمر وكثير ، وبين عمر بن أبي ربيعة وجميل ، وقد وازنوا في العصر العباسي بين ابي نواس ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية ، وبين ابن المعتز وابن الرومي ، وبين أبي تمام والبحترى ،وبين المتنبي وأبي فراس الحمداني. وإذا شاعت هذه الموازنات بين الادباء والشعراء في الادب العربي القديم فانها أخذت مكانة مرموقة لدى النقاد العرب على مضي العصور العربية منذ عصر ماقبل الاسلام حيث كانت تنصب خيمة من أدم للنابغة الذبياني في سوق عكاظ إلى جانب سرحة يحكم فيها بين الشعراء المتوافدين عليه ويوازن بينهم أيهم افضل معللاً ومناقشاً ومحكماً . وقد شاعت الموازنة النقدية في العصر الاسلامي في المجالس الادبية التي كان يقيمها أفاضل القوم والعلماء والفقهاء كما في مجالس سكينة بنت الحسين وعقيلة بنت عقيل بن أبي طالب ، وابن أبي عتيق الفقيه . وقد امتلأ كتاب الاغاني بمثل هذه الموازنات النقدية وأخبارها ، وقد ازدهرت الموازنة النقدية في مجالس خلفاء بني أمية وقام الخلفاء بدور النقاد والموازين مثل عبدالملك بن مروان وسليمان وهشام ولدي عبدالملك . وبلغت الموازنة النقدية مكانة عالية في سوق المربد ولا سيما بين شعراء النقائض . وتبلورت ظاهرة الموازنة النقدية في العصر العباسي وطرقها معظم النقاد العرب واحتلت مكانة بارزة في كتبهم مثل ابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وابن رشيق القيرواني وأبي هلال العسكري وغيرهم،حتى برزت الموازنة النقدية كتيار نقدي يقف إلى جانب التيارات الاخرى بعد ان وضع ابو القاسم الحسن بن بشر الامدي كتابه (الموازنة بين شعري ابي تمام والبحتري) والمتوفى عام ٣٧٠هـ.لم فهو يقف في موازنته بين ابي تمام والبحتري عند مجرد المفاضلة بين الشاعرين بل تعداها إلى ايضاح خصائص كل منهما وما انفرد به دون صاحبة او دون غيره من الشعراء.ويكشف لنا الامدي عن خصائص كل شاعر ويبين عما خالفه فيه غيره من الشعراء ويناقشه من الناحية الشعرية او

الانسانية وذلك مما يمكننا فهمه (١) . وقد عقد الامدى نوعين من الموازنة في كتابه ، نوعاً بين القصيدتين اذا اتفقتا في الوزن والقافية والروي بصرف النظر عن موضوع القصيدة ومعانيها وموازنة بين المعاني معنى معنى (٢). والجمع بينهما أفضل في الموازنة ، لان الموازنة للموسيقى الخارجية فقط بين القصيدتين ، ماهو الا ثوب خارجي لاغير . وقد عقب الامدي بعد الانتهاء من موازنته مستدركاً : « وقد انتهيت الان من الموازنة بينهما ، وكان الاحسن ان أوازن بين البيتين او القطعتين اذا إتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية ولكن هذا لايكاد يتفق مع اتفاق المعاني التي اليها أقصد وهي المرمى والغرض» (٣).وقد جاء هذا الاتجاه النقدي العربي القديم: « موازنة مدروسة مؤيدة بالتفصيلات التي تلم بالمعاني والالفاظ والموضوعات الشعرية بفروعها المختلفة وكان تعبيرا عن المعاناة التي لاتعرف الكلل في استقصاء موضوع الدراسة من جميع أطرافه ولهذا جاء بحثاً في النقد واضح المنهج » (٤). ثم ظهر كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، المولود في جرجان عام ٢٩٠هـ والمتوفى عام ٣٦٦هـ. وقد اعتمد في نقده على قياس الاشباه والنظائر ، وهو يحاول أن ينصف الشاعر فلا يناقش ماخطأ وده فيه بل يقيسه بأشباهه ونظائره من الشعراء المتقدمين (٥). وهو يقول في مقدمة الكتاب :« وللفضل آثار ظاهرة وللتقدم شواهد صادقة فمتى وجدت تلك الاثار وشوهدت هذه الشواهد فصاحبها فاضل متقدم. فإن عثر له من بعد على زلة ووجدت له بعقب الاحسان هفوة انتحل له عذر صادق أو رخصة سائغة (٦) .أما في العصر الحديث فقد كثرت الموازنات النقدية فوازن طه حسين بين شوقي وحافظ ووازن اخرون بين الشعراء المحدثين . ولم يظهر -حسب علمنا -كتاب نقدي مهم في

---

(١) محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، ٣٤١ (٢) م . ن ١٤٣

(٣) الآمدى ، الموازنة ، ٤٢٩ (٤) احسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،١٥٧

(٥) النقد المنهجي عند العرب ، ٢٥٢ (٦) القاضي الجرجاني ، الوساطة ص ٤ .

الموازنة النقدية غير كتاب زكي مبارك (الموازنة بين الشعراء) وقد جاء فيه وهو ينظر للموازنة النقدية الحديثة :« والموازنة بين الانواع ترجع إلى اصل واحد . وقد ظهرت هذه الفطرة واضحة وجلية حين ظهر الشعر وتبارى في قرضة الشعراء ، وليست الموازنة الا ضرباً من ضروب النقد يتميز بها الرديء من الجيد وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان ، فهي تتطلب قوة في الادب وبصرا بمناحي العرب في التعبير .. ونريد ان نبين في هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدروا قديماً وحديثاً للموازنة بين شاعرين ، جمع بينهما عصر واحد او اشتركا في الابانة عن غرض واحد وان نضع ميزاناً يعتمد عليه في وزن ما للشعر من الحسنات والسيئات ليستطيع المتأدب الفصل بين شاعرين اختلف من اجلهما الناس . وسبيلنا إلى ذلك ان نحدد شخصية الناقد الذي يرشح نفسه للموازنة وان نميز الوحدة الادبية التي يرجع اليها الناقد فيما يعني به الشعراء من تحرير المعاني واختيار الالفاظ» (١).

وقد جاءت دراستنا هذه نتيجة لدراستنا الادب العربي عبر عصوره المتعددة ووقوفنا عند البارودي الذي كثر في ديوانه عبارات مثل عارض ووازن او نظم وزن وقافية وروي قصيدة معينة أو رويها فقط او بعض معانيها بالاضافة إلى وزنها وقافيتها ورويها . وبعد دراستي لشعر البارودي بامعان ورؤية وجدت ان البحث يجب ان يقسم اربعة اقسام لكي يستقيم ويعطي فوائده. قسم خاص بالمعارضة وآخر بالموازنة وثالث يقتصر على الموسيقى الخارجية من موافقة القصيدتين في الوزن والقافية والروي او في الروي فقط ورابع خاص بالمناقضة .

اولا : المعارضة : عارض البارودي قصائد بعينها اعجب بها اعجاباً شديدا وحاول ان يباريها فمنظم في وزنها وقافيتها ورويها وبعض معانيها وأغراضها فقد عارض البارودي أبا نواس في قصيدتيه :

أبى الشوق الا ان يحن ضمير وكل مشوق بالحنين جدير(٢)

---

(١) زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء ص ٦٠٥ (٢) ديوان البارودي ج٢ ١٨ - ٢٦

و: ذهب الصبا وتولت الايام فعلى الصبا وعلى الزمان سلام(١)

قصيدتي أبي نواس الاولى في مديح الخصيب بن عبد الحميد العجمي امير مصر في عهد الرشيد .

أجارة بيتينا ابوك غيور وميسور مايرجى لديك عسير(٢)

وقصيدته الثانية التي مدح فيها الخليفة الامين :

يادار مافعلت بك الايام ضامتك والايام ليس تضام.(٣)

وسنوازن نموذجاً من هذه المعارضات :

معارضة البارودي لأبي فراس الحمداني

عارض البارودي في وزن وروي قصيدة أبي فراس قصيدته التي مطلعها :

طربت وعادتني المخيلة والسكر وأصبحت لايلوي بشيمتي الزجر (٤)

قصيدة أبي فراس الحمداني :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر (٥)

تقع قصيدة البارودي في خمسة وعشرين بيتاً بينما وتقع قصيدة أبي فراس في تسعة وثلاثين بيتاً . ابتدأ كل منهما بالغزل ، ووقع الغزل في قصيدة أبي فراس في ثمانية عشر بيتاً ، وجاءت قصيدة البارودي في أحد عشر بيتاً .

حدثنا أبو فراس عن جلده في الحب وهو معادل موضوعي لجلده على الأسر :

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لايذاع له سر

والتجلد في الحب سمة من سمات الرجولة والاخلاص في الحب ، فالحب ذوبان الذات في الموضوع «٦» وهو لايزيد لحبه أن يسيل ويذهب هدراً في شكوى أو بكاء أو توجع ، وهذه أسمى درجات الحب ، وهو على العكس من البارودي الذي لم يستطع كتمان حبه :

---

(١) ديوان البارودي حـ٣ ص٣١٥ - ٣٣٠ (٢ ، ٣) ديوان ابي نواس ٤٨٠ - ٤٨٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ .

(٤) الديوان حـ٢ ص ٤٥ (٥) الديوان ص ٨٥ - ٨٧ .

(٦) انظر زكريا ابراهيم ، مشكلة الحب ص ١٧٤ - ١٧٦ .

كاني مخمور سرت بلسانه معتقة مما يضن به البحر

فهو لم يصبر على ماأصابه ، فهو رجل لايؤمن بالحب ، فالحب عنده سحر ، والسحر خرافة فهل حبه خرافة أيضاً أم ماذا ؟

يقول أناس إنه السحر ضلّة وما هي إلاّ نظرة دونها السحر

وقد أثرت عبارات أبي فراس في البارودي فراح يقلدها . فإذا ماقال أبو فراس يصف جلده في الحب :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر اما للهوى نهي عليك ولا أمر

قال البارودي متعجباً من عتاب الناس له في عدم قدرته على التصبر والتجمل في الحب :

فكيف يعيب الناس أمري وليس لي ولا لامريء في الحب نهي ولا أمر

فهل الحب قدر مقدر على الانسان ؟ أم أنه فعل مجنون لايستطيع الانسان التصرف المتعقل تجاهه ؟ إنه لعمري لاهذا ولا ذاك ، بل هو قول شاعر يعارض قصيدة أعجب بها وأثرت في نفسه . وفي الوقت الذي سعى فيه أبو فراس للتعبير عن ذات المحب حقيقة ، وهي ذات نفسه بقوله :

معللتي بالوصل والموت دونه اذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

بدوت وأهلي حاضرون لأنني أرى ان دار العشق من اهلها قفر

وحاربت قومي في هواك وإنهم وإياي لولا حبك الماء والخمر

لجأ البارودي الى الخيال الشعري يستوحيه الصور الجميلة ، فهو لم يستطع أن يستلهم حقيقة حاله فلا ملجأ للفنان عندئذ غير الخيال فهو الوحيد القادر على اسعافه وتخليصه من ورطته فقال :

ولكنه الحب الذي لو تعلقت شرارته بالجمر لاحترق الجمر

إنها صورة رائعة وكلام جميل ولكنه يبهر اكثر مما يؤثر ، ولهذا بقيت أبيات أبي فراس تتردد على الأفواه على الرغم من طول عهدها ونسيت أبيات البارودي .

وقد لجأ البارودي الى المبالغة والتهويل في التعبير عن حب لم يكن يلوعه ويضنيه فيقول :

وكفكفت دمعاً لو أسلت شؤونه على الأرض ماشك امرؤٌ أنه البحر
حياءً وكبراً أن يقال ترجحت به صبوة أو قلّ من غربه الهجر(١)

فأين هذا القول الذي نتلمس عدم صدقه وخلو قائله من هموم الحب وأشجانه من قول أبي فراس الذي يعبر عن لواعج الرجال العشاق :

اذا الليل اضواني بسطت يد الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر
تكاد تضيء النار بين جوانحي إذا هي اذكتها الصبابة والفكر

وإذا اكتفى البارودي بالوصف الخارجي لحالة المحب . فإن أبا فراس صور لنا حالة الرجل المحب تصويراً نفسياً دقيقاً فهو يعبر عن حب عاناه وخبره لا عن حب خارجي لم يتعرف عليه الا في شعر الشعراء :

وان كان ماقال الوشاة ولم يكن فقد يهدم الايمان ماشيد الكفر
وفيت وفي بعض الوفاء مذلة لآنسة في الحي شيمتها الغدر
وقور وريعان الصبا يستفزها فتأرن احياناً كما يأرن المهر

ان الوفاء في الحب شيمة الرجال المحبين ، وقد يكون الغدر سمة من سمات هذه الصبية التي تبدو وقورة هادئه ولكنها سرعان ماتجمح كما يجمح المهر الطروب في حقل برسيم إن جموحها ناتج عن دماء الصبا وفوران الشباب . خرج أبو فراس من هذا الوصف الدقيق بينه وبين الفتاة التي يحبها الى حوار مليء بالحركة والحياة ، فيه دلال الصبية التي استفزتها مياه الشباب وريق الحياة ، وفيه تأني الرجل العاشق على دلال المحبوب :ـ

تسائلني من أنت وهي عليمة وهل بفتى مثلي على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى قتيلك . قالت أيهم ؟ فهم كثر
فقالت لقد ازرى بك الدهر بعدنا فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر

---

(١) ترجحت : مالت ، الصبوة : الحنين والشوق ، الميل : الهوى ، غرب الشيء : حده

إن هذه الأبيات الخالدة لايستطيع صياغتها شاعر فذ فقط ، بل شاعر عرف الحب وخبره . والبارودي في هذه القصيدة شاعر لايعرف العشق فآثر السلامة ولم يحاول مجاراة مثل هذه الأبيات لأنه غير قادر على فعل ذلك مهما أوتي من قدرة وبراعة وفن .

وبعد أن أحسّ أبو فراس في قرارة نفسه بأن حبه هذا يهدر كرامة الرجال رجع الى عقله وتدبر أمره قبل أن يضيعه الهوى :

وقلبت أمري لاأرى لي راحة   اذا البين أنساني ألحّ بي الهجر
فعدت الى حكم الزمان وحكمها   لها الذنب لاتجزى به ولي العذر

يحس قارىء هذين البيتين بأنه منحاز الى قائلهما شاء أم أبى فقد مرّ قائلهما بالتجربة الصعبة وشعر بالضياع بعد أن قبض الريح :

كأني أنادي دون ميثاء ظبيةً   على شرف ظمياءَ حليتها الذعر
تجفلُ حيناً ثم تدنو كأنما   تنادي طلا بالوادي أعجزه الحصر

وهذا الضياع بين الوصل والهجر لم يقاسه الشاعر وحده . بل قاساه العشاق الحقيقيون من قبل ، فلم يجد الشاعر للتعبير عن موقفها منه وموقفه منها غير هذه الصورة البدوية للظبية المذعورة الجافلة ، ولكنها في دنوها أشد لهفة لأنها تنادي صغيرها الذي حصره الوادي المنيع وأعاقه عن اللحاق بها فهي تسعى اليه راكضة متلهفة .

• • •

إن الجو النفسي الذي وصفه أبو فراس عن صدق في معاناته لحب الصبية المتراوحة بين الوقار والجموح هو معادل موضوع لجوه النفسي اثناء الأسر في بلاد الروم بين الأمل في أن يمد له ابن عمه سيف الدولة يد النجدة ، وبين احساسه بالخيبة من ابن عمه بسبب تأخره في نجدته وفكه من ربقة الأسر ، لذا فهو لم ينتقل رأساً من الغزل الى الفخر كما ادعى زكي مبارك (١).

---

(١) زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء ص ٢٣٣ .

بل ان الانتقال هو انتقال طبيعي . فقد حوى هذا الانتقال الجو النفسي ذاته الذي عاشه أبو فراس في غزله .

وقد استطاع البارودي أن ينتقل من الغزل الى الفخر بتمهيد كان فيه حسن التخلص عندما فخر في آخر الجزء الخاص بالغزل بقدرته على تحمل الحب وصبواته. وقد جاء فخر البارودي في أحد عشر بيتاً وجاء فخر أبي فراس بضعف أبيات البارودي. وقد انبعث غزل أبي فراس عن لواعج قلب فارس عاشق فانتهى الى فخر هذا الفارس بشجاعته وقدرته على القتال وحسن بلائه فيه وهو لايجد في ساحة الوغى غير ساعده وسيفه :

وإني لنزّال بكل مخوفة كثير الى نزالها النظر الشزر
وإني لجرار لكل كتيبة معودة ان لايخلّ بها النصر
فاصدي الى ان ترتوي البيض والقنا واسغب حتى يشبع الذئب والنسر

بينما جاء غزل البارودي خارجياً لامن خلال ذاته بل من خلال الشعراء الذين قرأ غزلهم أو من خلال حب يسعى إليه الفتى كحلية يزين بها مظهره لذا جاء فخره لامن خلال ذاته بل من خلال قومه وأهله وأجداده ، وهو لعمري فخر مناسب للغزل الذي سبقه :

وإني امرؤ لولا العوائق أذعنت لسلطانه البدو والمغيرة والحضر

فهو حتى عند بدئه بنفسه يلجأ الى المبالغة غير المعقولة (اذعنت لسلطانه البدو والمغيرة والحضر) ولكنه يحاول أن يوقف هذه المبالغة بايجاد العوائق التي حالت دون ذلك لأنه يخشى أن تنكشف أمام أحبائه والمعجبين به فهو لم يزد على كونه ضابطاً في الجيش وزعيماً غير حكيم في تدبير أمور الحكم (١) . لذا لم يجد متكأً غير أهله المماليك وأجداده الذين تسلطوا على الشعب العربي في مصر في غفلة من الزمن :

من النفر الغر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

---

(١) عمر الطالب نفسية البارودي من خلال شعره. مجلة اداب الرافدين . العدد ، ١٩٧٧

ويبدو أنه غير مقتنع بمجد المماليك أو هو مبهور بشكل عاطفي بمجد أجداده فلجأ الى الخيال الشعري يستلهمه ويستوحيه بما يبهر ولا يقنع ، فهو شعر جميل في اطار المقولة القديمة (أعذب الشعر أكذبه) . وهو مبهر فقط في اطار الفن ، فلم يخلق الانسان الذي يستل سيفه فتتفزع الأفلاك ويلتفت الدهر ، فاذا كان يقصد في ذلك الدور الذي لعبه المماليك في الحروب الصليبية فقد كان صلاح الدين اكثر تواضعاً ، وله الفضل الكبير في النصر لحكمته وخبرته ودهائه في شؤون الحرب والسياسة . فأين منه بمن نكص عندما دارت رحى الحرب وهرب أمام هجوم الانكليز في معركة التل الكبير التي كانت بداية للأحتلال الانكليزي لمصر عندما كان البارودي يترأس رئاسة وزارتها آنذاك (١) . لقد كانت الشهادة آنذاك أسمى من العجز الذي كان يعانيه في منفاه (٢) ، أما اجداده فقد نحروا نحر النعاج في قلعة محمد علي (٣) . وكأني بالبارودي يدرك كل ذلك لذا هرب من واقع القاهرة ومدينتها الى أجواء البراري وبداوتها وهو هروب رومانتيكي عهدناه في أدباء الرومانتيكية عندما وجدوا الهاوية فاغرة بين الواقع والحلم ، فلجأوا الى الخيال أو الى بيئة أخرى يبنون فوقها قصوراً من رمال :

لهم عمد مرفوعة ومعاقل والوية حمر وأفنية خضر (٤)
وخيل يعم الخافقين صهيلها نزائع معقود بأعرافها النصر (٥)
معودة قطع الفيافي كأنها خدارية فتخاء ليس لها وكر (٦)

وكأن البارودي قد أحس بعدم جدوى الماضي في الواقع المعاشي فانتابه اليأس والقنوط ورمى الدهر الغشوم بالتقلب وعدم الثبات . وهي سمة الرومانتيكيين المهزومين والاتكاليين الضعفاء ، واكتفى من المجد بذكر الطلول والآثار لأنه لم يتلمس ذلك المجد في واقعه .

(١ – ٣) عمر الطالب ، نفسية البارودي من خلال شعره . مجلة آداب الرافدين ، العدد ٨ ، ١٩٧٧

(٤) اخضرار الافنية : كناية عن الكرم ، (٥) نزائع : واحدتها نزيعة وهو الحصان المرح السباق (٦) الخدارية : العقاب ، فتخاء : وهي صفة للعقاب اى لينة الجناح ، ليس لها وكر : كناية عن عدم استقرارها في مكان ، والوكر ، عش الطائر

أقاموا زماناً ثم بدد شملهم ملول من الأيام شيمته الغدْر
فلم يبق منهم غير آثار نعمة تضوع برياها الاحاديث والذكر

ثم ارتجى الحكم الحياتية وسيلة للتخلص لأنه لم يجد غير الريح في قبضته وهي لعمري دلالة القنوط والاستكانة :

لعمرك ماحيٌ وان طال سيره يعد طليقاً والمنون له أسر
وما هذه الايام الاّ منازل يحل بها سفرٌ ويتركها سفر
فلاتحسبن المرء فيها بخالد ولكنه يسعى وغايته العمر

ترى هل تباهى بكل ذلك من أجل الحياة التي يتخليها ولايحياها ؟

أما أبو فراس الواثق من نفسه فقد تحدث الينا بشكل آخر ، فهو يعرف مقدار نفسه ولايعطيها اكثر من حقها ؛ فبعد أن حدثنا عن حبه وشجاعته تطرق إلى مفهوم الفروسية في القتال ؛ فهو لا يهتم بالسبي كاهتمامه بشرف الفارس. فهو لايباغت العدو بل ينذره لأنه واثق من شجاعته وقوة الجيش الذي يقودة.

ولا أصبح الحي الخلوف بغارة ولا الجيش مالم تأته قبلي النذر
ويا ربّ دار لم تخفني منيعة طلعت عليها بالردى وأنا الفجر

ثم يعود إلى ادب الفارس الشجاع فيقول :

وساحبة الأذيال نحوي لقيتها فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله ورحت ولم يكشف لابياتها ستر
ولا راح يطغيني بأثوابه الغنى ولابات يثنيني عن الكرم الفقر
وما حاجتي في المال أبغي وفوره إذا لم أفرعرضي فلا وفر الوفر

هذا هوالرجل الفارس فهو لايتصنع ولا يبالغ بل يذكر حقيقة نفسه كما هي ولا يتصيد الفخر في غير نفسه فاذا ماحاول (اصيحابه) وهي كلمة مقصودة إثناءه عن المضي في القتال ، وازن الأمر ورأى أن الاستمرار في القتال هو الاجدى لشرف الفارس المؤمن بعقيدته ونفسه وان كان الأمر يؤول إلى الموت او الاسر فهما أفضل في نفس المقاتل الشجاع من الهرب والعار :

وقال اصيحابي الفرار أو الردى فقلت هما أمران احلاهما مرّ
ولاخير في دفع الردى بمذلة كما ردها يوماً بسؤته عمرو
ولكنني أمضي لما لا يعيبني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

وهو يعامل من قبل اعدائه معاملة خاصة ، فهم يعرفون مكانته بين قومه ، واقدامه في الحرب ، فلا ينزعون عنه ثيابه كما يفعلون ببقيه الاسرى :

يمنون أن خلوا ثيابي وانما عليّ ثياب من دمائهمو حمر

ثم يخلص إلى عتاب قومه لانهم ابطأوا في فكّ أسره :

سيذكرني قومي إذا جدّ جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

فهو يذكر قومه من خلال ذاته لأنه يحسّ بمكانته وقدرته وأياديه البيضاء عليهم في دفاعه عن ثغورهم بينما هم لاهون عنه في شئونهم الخاصة :

ولو سدّ غيري ماسددت اكتفوابه وما كان يغلو التبر لونفق الصفر

ولكنه لايستطيع أن ينفصل عن قومه مع عتبه عليهم فيعود إلى ذكر مآثرهم وقيمتهم :

ونحن أناس لاتوسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لايغلهالمهر
أعز بني الدنيا وأعلا بني العلا وأكرم من فوق التراب ولافخر

واذا نظم أبو فراس الحمداني قصيدته مستعطفاً ومعاتباً سيف الدولة الحمداني ابن عمه وأميره لعدم اسراعه في دفع الفدية عنه لملك الروم بعد أن أسر وطال اسره . فان البارودي هو الآخر كان فارساً مقاتلاً لعب بالزمن ولعب به الزمن. واذا أسر ابو فراس وهو المقاتل البطل ، فقد نفي البارودي وهو المقاتل الجسور. وكلاهما أحسّ بالخيبة وكلاهما أحسّ بأنه قد خسر اكثر مما كسب وقد أعطى اكثر مما أخذ .

واذا ذهب الركبان بغزل ابي فراس وتناقلوه فان أشطراً وابياتاً من قصيدته سرت على الافواه ورددها الناس في كل زمان ومكان :

ـ لنا الصدر دون العالمين أو القبر .

ـ تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لايغله المهر
ولم يبق من قصيدة البارودي غير بيته اوغل في المبالغة :
اذا استل منهم سيدٌ غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر(١)

• • •

وقد عارض البارودي في قصيدته التي مطلعها :
من بعيني انسهانها لاينام وفؤاد قضى عليه الغرام (٢)
قصيدة المتنبي التي مطلعها :
لاافتخار الا لمن لايضام ، مدرك أو محارب لاينام (٣)
والقصيدتان متفقتان في الوزن والروي وبعض المعاني .
ومن استعراضنا للقصائد التي عارضها البارودي نجد أنه عارض درر القصائد العربية التي أعجب بها واثرت فيه تأثيراً كبيراً مما دفعه إلى هذه المعارضة الجملية.
ثانياً : ولم يكتف البارودي بمعارضة القصائد التي اعجب بها فقط ، بل ناقض معلقة عنترة ونظم في وزنها ورويها وقد جاء موضوعهما الأساس واحداً هو الفخر ، وكلاهما يفخر بشجاعته وكفاءته وقدراته العظيمة .
والغرض من التزام البارودي ما التزمه عنترة من البحر والقافية والروي والموضوع اظهار تفوقه عليه من حيث الموضوع أو المعاني ومن حيث الشاعرية او الفن نفسه(٤)
فقد ناقض البارودي في قصيدته التي مطلعها :
كم غادر الشعراء من متردم ولرب تال بذّ شأو مقدم (٥)
معلقة عنترة التي مطلعها :
هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم (٦)
حيث يقرر البارودي أن الشعراء الماضين لم يدعوا سبيلاً لشاعر بعدهم لأنهم

---

(١) ينظر / زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء ص ٣٤٧ .
(٢) ديوان البارودي حـ٣ ٥٨٨ – ٥٩٥ .
(٣) ديوان المتنبي حـ٤ ٢١٥ – ٢٢٦ .
(٤) ينظر / احمد الشايب تاريخ النقائض في الشعر العربي ص ٣ – ٤ . عبد المجيد عبد السلام المحتسب . نقائض جرير والاخطل ص ٢٨ .
(٥) الديوان ح ٣ ص ٤٨٥ – ٥٠٦ . (٦) شرح القصائد العشر ٣١٧ – ٣٧٨ .

ذكروا جميع المعاني وسبقوا اليها ، يعود ليقول ربما فاق شاعر متأخر شعراء متقدمين لما يملكه من شاعرية فذة قد لاتتوفر فيمن سبقه . وكما يوحي لنا الشطر الثاني من بيت عنترة بأنه سيعرج إلى النسيب وذكر ديار عبلة وأحوالها ، يوحي لنا الشطر الثاني من قصيدة البارودي بأنه سيعرج إلى الفخر بنفسه وذكر مآثره فيقول :

في كل عصر عبقري لاينـي   يفري الفريّ بكل قول محكم(١)

وكأنه يعني نفسه بعبقري عصره لأ نه ينظر الامور ويخرج بها مخرجاً حكيماً وهو بالاضافة إلى ذلك يقول عن نفسه بأنه شاعر لوذعي ومقاتل شجاع :

وكفاك بي رجلاً اذا اعتقل النهى   بالصمت أو رعف السنان بعندم

وكأن به يحاول تقليد بيت عنترة الخالد :

يخبرك من شهد الوقيعة أنني   أغشى الوغى واعف عند المغنم

ولكن القاريء الممحص لايجد ترابطاً كبيراً بين الحالتين اللتين اراد البارودي جمعها في البيت لانهما حالتان مختلفتان بعكس بيت عنترة الذي نجد فيه التعفف عن المغنم هو نتيجة لغشيان الحرب وحصوله على الغنيمة ولكنه يأباها لنفسه لأ نه يقاتل من أجل قومه لابسبب الغنيمة كما كان يفعل المقاتلون في العصر الجاهلي. وكأن الباروي لم يقنع نفسه بما قال فاراد ان يؤكد قوله بالبيت التالي :

أحييت انفاس القريض بمنطقي   وصرعت فرسان العجاج بلهذمي(٢)

ويبدو الشاعر تعباً من كثرة الصفات التي أودعها ذاته فأراد أن يجمع كل المفاخر مرة واحدة ليصل بنفسه إلى العلا الذي يطمح فقال :

وأفرغت ناصية العلا بفضائل   هن الكواكب في النهار المظلم

وكما انتهى عنترة من ذكر صفاته التي فخر بها وعرضها أمام عبلة ليزداد قرباً منها ووصلاً ، فانتهى بأن طلب اليها أن تسأل الفرسان إن كانت جاهلة بأمره فقال :

---

(١) يفرى الفري : يقطع الامر العجيب على وجه صالح.

(٢) اللهذم : كل شي قاطع .

هلا سألت الخيل ياابنة مالك ان كنت جاهلة بما لم تعلمي

ليعود بعد ذلك إلى ذكر شجاعته في القتال ونزاله للفرسان الأشداء. يحتذي البارودي حذو عنترة فيطلب إلى القاريء ان يسأل مصر اذا كان جاهلا بأمره فيقول :

سل مصرعني إن جهلت مكانتي تخبرك عن شرف وعز أقدم

ثم يعرج إلى الفخر بمصر وما وهبتها أياه الطبيعة من جمال وبأن أياديها عليه بيضاء لاتنسى فيقول :

فنسيمها روحي ومعدن تربها جسمي وكوثر نيلها محيا دمي
فاذا انطلقت فبالثناء على الذي أولته من فضل علي وأنعم

وما يلبث البارودي أن يعطينا سبب هذا الحب لمصر فيقول : إنها هي التي ربته وانشأته وصيرته فارساً وشاعراً معاً وكأنه يرى في نفسه صورة لعنترة الشاعر الفارس : —

ما أن خلعت بها سيور تمائمي حتى لبست بها حمائل مخذمي
وفجرّت ينبوع البيان بمنطق عذب رويت به غليل الحوّم

ولم يستطع الفكاك من أسر المعاني والألفاظ التي جاءت في معلقة عنترة وهو الذي يرى نفسه من خلاله فيقول : —

ولكم أثرت غيابه من قسطل بمهندي وحللت عقدة مبرم(١)
أختال طوراً فوق ذروة منبر وأكر طوراً فوق نهد شيظم(٢)

ناسجاً على منوال ابيات عنترة التي يقول فيها :—

ذلل ركابي حيث شئت مشايعي قلبي وأحفزه بأمر مبرم
والخيل تقتحم الخبار عوابساً من بين شيظمة وأخر شيظم

(١) القسطل: الغبار الذي تثيره الحرب .

(٢) شيظم : القوي الضخم الطويل السريع .

ولكننا لانلمس روعة الموسيقى الداخلية والصور المركبة في بيتي البارودي كما هي واضحة وجليّة في بيتي عنترة ، ويستمر البارودي في الفخر بنفسه فيؤكد بأنه قد وصل من العالي إلى درجة عالية لايستطيع تسلمها غيره ، وأنه شاعر بطبعه وقد بلغت شاعريته درجة عالية تصبي أبا نواس وتلين من عريكة مسلم بن الوليد . وأن شعره فاتن جميل لم يصل اليه غيره وينتهي من هذا المقطع إلى القول بأنه يحق له الفخر بنفسه مادام سليل الاكرمين واليهم ينتهي . ولا جديد في فخر البارودي هذا فهو طالما فخر بشجاعته وشاعريته وكريم أصله يقول :

فِقَرٌ يكاد السحر يبلغ بعض ما ... في طيّها لو كان غير محرم
أَحكمت منطقة بلهجة مغلق ... يقظ البديهة في القريض المحكم
فاذا نسبت فتنت كل مقنع ... واذا نأمت ذعرت كل ملثم (١)
كالروض تسمع منه نغمة بلبل ... والفيل تسمع منه زأرة ضيغم (٢)
فأنا ابن نفسي إن فخرت وأن أكن ... لأغرّ من سلف الأكارم أنتمي

واذا كان الشاعر الجاهلي يفخر بشربه الخمرة وتلذذه بها كما يفخر بشجاعته وكرمه ومبادراته للنساء ، فقد فخر عنترة بشربه للخمر بأبيات بلغت منتهى العذوبة والجمال حيث قال :

ولقد شربت من المدامة بعدما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة ... قرنت بأزهر في الشمال مفدم
فاذا شربت فانني مستهلك ... مالي وعرضي وآخر لم يكلم
وإذ اصحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلي وتكرمي

ولكن البارودي لم يفخر بشرب الخمرة في هذه القصيدة ولم يصف كرام القوام الذين يجالسهم في مجالس الشراب أو يصف الخمرة كما فعل في العديد من قصائده ، بل اكتفى بالتلميح وكأنه أدرك بأن عنترة لم يول الخمرة أهمية كبيرة ، فلم يذكرها إلاّ في اربعة ابيات من أبيات معلقته التي بلغت ثمانين

(١) النامة : صوت الأسد ، (٢) الغيل : الأجمة

بيتاً . فمرّ البارودي عليهما مروراً سريعاً ولمحّ بها تلميحاً دون الوقوف عندها ليخرج منها إلى وصف الطبيعة فقال : —

هذا وربت لذة باشرتها ... في ظل أخضر بالعرار منمنم (١)

والقاريء المتمعن في البيت يدرك ثقله على النفس وخاصة الشطر الأول من البيت حيث يبدو التكلف فيه واضحاً وان استطاع أن يعطي للشطر الثاني خفة ورقة ؛ فقد أراد هذا البيت جسراً يعبر عليه من الفخر إلى وصف الطبيعة . ولكن هل استطاع البارودي أن يعطي الصور المتناسقة التي اعطاها عنترة لجمال الطبيعة مع قصرها حيث قال :

أو روضة أنفاً تضمن نبتها ... غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليه كل بكر حرة ... فتركن كلّ قرارة كالدرهم
سحاً وتسكاباً فكلّ عشية ... يجري عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غرداً كفعل الشارب المترنّم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه ... قدحَ المكبِّ على الزناد الأجذم

هذه الروضة التي أنعشها المطر وترك في حفرها ماءً لامعاً كالدراهم واندفع الذباب اليها يغني وكأنه ثمل بسحر الطبيعة وجمالها . يحك رجليه نشوة وراحة كما يضرم مقطوع اليد الزناد ، والتي وصفها بأبيات قليلة مكثفة الصور رائعة الموسيقى ، مططها البارودي فانساحت صورها على الجانبين ولم تستطع الابيات التسعة ان تعطي من المجال اللفظي والمعنوي ما أعطته ابيات عنترة الخمسة قال :

طفق النسيم يحوك وشي بروده ... بأنامل تمري خيوط المرزم (٢)
فبكل أفق مزنة فياضة ... وبكل أرض جلول كالأرقم (٣)
هاتيك تجري في المساء كأنها ... سفن وهذا في الخمائل يرتمي

---

(١) بالعرار منمنم : زين بالورد .

(٢) تمرى تنزل منه المطر ، المرزم : نجوم تبشر بالمطر . (٣) الأرقم : ذكر الحيات

والروض بين موشح ومؤزر ... والزهر بين مدنر ومدرهم (١)
طلق الجبين تبسمت أزهاره ... عن درّ قطرٍ كالعقود منظم
غبق الازار كأنما جرت الصبّا ... فيه بجؤنة عنبر لم تختم (٢)
فنسيمه أرَج وطائر أيكة ... هزج وجدوله برود المبسم
يستوقف الألباب حسن روائه ... ويصيد عين الناظر المتوسم

فاذا ماحاولنا الموازنة بين الالفاظ والصور والموسيقى لانلبث ان نجد بان البارودي عجز عن الوصول إلى الروعة التي بلغها عنترة ، رغم جمال أبيات البارودي بالنسبة لعصره فروضة عنترة البكر والتي لم تطأها قدم أروع من روض البارودي التقليدي الموشح والمؤزر بالزهر ، اما كون الزهر مدنر ومدرهم فهو تقليل من قيمة الزهر ؛ لأنه أروع من الفضة والذهب بعكس الصور التي أعطاها عنترة لحفر الروض التي امتلأت بمياه المطر ، فشابهت الدراهم استدارة ولمعانا . وقد جاءت صورة الطبيعة البكر هذه والتي لم تفسدها يد الانسان بعد ، أروع من جداول البارودي الملتوية الشبيهة بالاراقم الساعية ، فاذا كان الأرقم مصدر خطر على الانسان فان الدراهم المتناثرة وسيلة لقضاء حاجاته .

أما غيوم عنترة البكر المليئة بالامطار فقد كانت اروع بكثير من غيوم البارودي الشبيهة بالسفن ، وهزج الذباب أقرب للصورة من هزج الطيور التي ذكرها البارودي والهزج ليس صوتاً للطيور ، وسح المطر وتسكابه اكثر خيراً وبركه من ارتماء المطر فوق الخمائل كما قال البارودي .

والسبب في عدم قدرة البارودي الوصول بوصفة هذا ، وهو شاعر قدير ، الشأو الذي وصل اليه عنترة : إنه لم يستوح الطبيعة التي حوله بكل أبعادها ودقتها كما استوحاها عنترة؛ لأنه وضع أمامه ابيات عنترة واراد النسج على منوالها فلم يوفق في الوصول الى مابلغته من روعة وبساطة وجمال. وانهى البارودي قصيدته بحكميات استمدها من تجاربه الحياتية الخاصة وهو طالما كررها في قصائده :

---

(١) مدنر ومدرهم : يشبه الدنانير والدراهم
(٢) الجؤنة : قطعة مستديرة مغلقة بالجلد يضع فيها العطار الطيب .

الانسان لعبة بيد الزمن يقوده كما يقاد الاسير، والفلك يدور دون تغير وهو أصم أبكم تجاه الحياة، ومادامت الامور كذلك فدع الاشياء المظلمة التي لاتفسير لها وخذ حظك من الحياة ؛ فالانسان عاجز عن بلوغ اسرار الكون، فالحياة جميلة مادام الانسان حراً غير خاضع لسيطرة حاكم ظالم فيقول :

ان الحياة شهيـة مـالم تكـن غـرضـاً لأمـرة ظـالم لم يـرحم

ويعود مرة أخرى الى الفخر بنفسه، فهو لايرضى عيش الجبناء، وهو المنتصر دائماً في الحروب التي خاضها :

لأرتضي عيش الجبـان ولا أرى فضلا لذي حسب اذا لم يقدم
ولرب ملحمة سريت قناعها عن وجه نصر بالغبار ملثم (١)

ويعود الى مقولته المعهودة بأن الانسان لو كان عالماً بالغيب لما فرح ولا ندم، وينصح الانسان أن يدع أموره الى مدبر الكون وان ينصرف الى امور نفسه :

لو كان للانسان علم بالذي في الغيب لم يفرح ولم يتندم
فدع الامور الى مدبر شأنهـا وأرغب عن الدنيا بنفسك تسلم

وقد نحت قصيدة البارودي في خاتمتها منحى يختلف عن السبيل الذي سار فيه عنترة في معلقته، فهو في القسم الاخير منها يتحدث عن بلائه في المعركة ويبلغ ذروة الابداع عندما يصف صبر حصانه على خوض المعركة وجلد الخيول فيها المستمد من جلد فرسانها وشجاعتهم. وهو فارس المعركة وسيدها :

يدعون عنتر والـرمـاح كأنها أشطان بئـر في لـبـان الادهـم

وهو لايخشى الموت ولكنه كان يخشى أن يموت قبل أن يشفي غليله بمصرع ابني ضمضم كما شفى غليله بقتل والدهما فيقول : ـ

ولقد خشيت بأن أموت ولم تكن للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم اشتمهما والناذريـن اذا لم القهما دمي
إن يفعلا فقد تركت أبـاهما جـزر السباع وكل نسر قشعم

---

(١) ملحمة : حرب شديدة.

ولقد حاول البارودي أن يصف شجاعته وبلاءه في المعارك في البيتين الآنفي الذكر ولكن هذا الفخر ضاع في أفق المواعظ الحياتية ولم يستطع اقناعنا ببلائه في المعركة كما فعل عنترة فقد مر بها مروراً سريعاً ولم يلجأ الى القص والتجسيد كما فعل عنترة في معلقته على الرغم من أن بلاءه في المعارك التي خاضها يقل عن بلاء عنترة ، وأن شجاعته فيها وحسن قيادته لجنده يشهد عليها المؤرخون ، ولكن شاعريته لم تسعفه لابراز وتجسيد هذه الشجاعة كما أبرزها عنترة ، والسبب في ذلك يعود الى أن البارودي نظم هذه القصيدة في شيخوخته مناقضاً فيها معلقة عنترة التي طالما أعجب بها وقد مضى زمن طويل على خوضه تلك المعارك في حربي كريت والقوقاز ، وقد أدت به شجاعته الى تلك النهاية الأليمة في منفاه في جزيرة سيلان لذا عجز استيحاؤه للماضي عن اعطاء الصورة المجسدة العظيمة لشجاعته كما قدمها عنترة في معلقته :ولكن قصيدة البارودي هذه وان لم تبلغ شأو معلقة عنترة فهي من درر شعر المدرسة التقليدية في الأدب العربي الحديث :

ثالثا : وقد لجأ البارودي إلى الموازنة بقصائد طلب اليه أن يوازنها أو أعجب بها فوازنها وهو أن يلجأ إلى قصيدة في وزنها وقافيتها ورويها وبعض معانيها(١) بغية الاتيان بقصيدة أفضل منها تتفوق عليها وتتجاوزها :

وقد وازن البارودي بين قصيدته التي مطلعها :

ماذا على قرة العينين لو صفحت و عاودت بوصال بعدما صفحت (٢)

قصيدة ابن النبيه التي مطلعها :

اساكني السفح كم عين بكم سفحت

نزحتم فهي بعد البعد قد نزحت (٣)

وتقع قصيدة ابن النبيه المصري في اثنين وثلاثين بيتاً ، وتقع قصيدة البارودي في مثل عدد أبيات القصيدة التي وازنها تماماً . ويعود الأمر إلى أحد الفضلاء سأله ان يوازن قصيدة ابن النبيه (٤) ، فنظم في وزنها وقافيتها وعدد ابياتها

(١) الآمدي ، الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، ص ٦ .

(٢) الديوان ١٦٤ – ١٦٩ ، (٣) الديوان :١٦٥ – ١٧٢

(٤) الديوان ص ٩٧ .

ولكنه اقتصر فيها على وصف اللهو والشراب ، وهو الجزء الأول الذي تناوله ابن النبية في قصيدته ولم يجاره في المديح الذي اعتمدت عليه قصيدة ابن النبيه والتي مدح فيها الناصر لدين الله .

وقد بدأ ابن النبيه قصيدته بالتحسر واللوعة على بعاد من يحب مستخدماً المحسنات البديعيه :

ياساكني السفح كم عين بكم سفحت نزحتم فهي بعد البعد قد نزحت
لهفي لظبية أنس منكم نفرت لابل هي الشمس زالت بعدماجنحت

وقد بدأ البارودي قصيدته مستخدماً المحسنات البديعية فقال :

ماذا على قرة العينين لو صفحت وعاودت بوصال بعدما صفحت
بايعتها القلب ايجابا بما وعدت فيالها صفقة في الحب ماربحت

ويبقى بيتا ابن النبية على الرغم من التكلف الواضح فيهما أقوى من بيتي البارودي . فمتى كان الحب صفقة تجارية تربح وتخسر ؟ وأين قوله هذا من قول ابن النبيـــه المعبر عن الاحساس بالألم لغياب المحبوب وزواله عن ناظرية، والذي يشبه الكآبة التي تبعثها في النفس لحظات الغروب . ولانجد في قصيدة ابن النبيه ذلك التوسل والتهالك الذي أبداه البارودي في قصيدته حيث قال :

قد يزعم الناس ان البخل مقطعه فما لقلبي يهواها وما سمعت ؟

وانتقل ابن النبيه إلى وصف محبوبته وصفا دقيقاً متأملا ومتماسكاً ، وقد سلك البارودي هذا المسلك ايضا فوصف حبيبته وصفاً أكثر اسهاباً ولكنه أقل عمقاً وتأثيراً .

وتظهر لنا المقارنة بين أبيات قصيدتيهما هذا الفرق ، فقد تدرج ابن النبيه في وصف محبوبته تدرجاً متسقاً متناسقاً بين الابيات بينما نجد أن البارودي لم يتبع هذا النسق المتصل المنسجم بل تناثر وصف المحبوبة بين ابيات القصيدة كلها . وهو يبدأ بوصف قوامها قائلا :

خوطيّة القد لو مر الحمام بها لم يشتبه أنها من أيكه انتزعت
خفت معاطفهـا ، لكن روادفهـا بمثل ماحملتني في الهوى رجحت

ويبدو نقل البيت الأخير واضحاً والصنعة بينّة فيه ، وقد حاول الشاعر أن يقلد قول ابن النبيه في البيتين السادس والسادس عشر :

يهتز بين وشاحيها قضيب نقا حمائم الحليّ في أفنانه صدحت

• • •

يسعى بها أديف خفت معاطفه لكن روادفـه من ثقلهـا رجحت

وشتان بين تصوير قوام المرأة بين الشاعرين فإننا نلحظ الانسجام والدقة في صور ابن النبيه ولكننا لانستسيغ (ثقل الهوى في نفسه كثقل روادف من يحب)لأن الحب ليس ثقلا يكلكل على النفس كما كلكل ثقل ليل امريءالقيس بل الحب نشوة وخفة وسعادة.

ثم يعود البارودى إلى وصف القد في البيت التالي ويمزجه مع وصف اللحاظ لأنه لايجد في نفسه القدرة على وصفها كما فعل ابن النبيه حيث يقول:

ويلاه من لحظها الفتاك ان نظرت وآه من قدها العسال ان سنحت(١)

اما ابن النبية فقد اعطى صورة معبرة وجميلـة لتأثير العينين في نفسه حيث قال :

من لي بسلم وفي أجفان مقلتها للحرب بيض حداد قط ماصفحت

ان الحرب التي تشنها العينان على ابن النبية تحرمه حرية السلام وهدوءه .

ويعود البارودي إلى وصف القد مرات عدة ويمزجه بالجمال والمشية والرائحة وكأنه يريد ذكر الظبية كتشبيه للمحبوبة كما فعل ابن النبية .

كالبدر إن سفرت والظبي ان نظرت والغصن ان خطرت والزهر إن نفحت

وقال ابن النبية :

---

(١) العسال : المهتز . سنحت . عرضت ومرت .

لهفي لظبيه أنس منكم نفرت   لابل هي الشمس زالت بعدما جنحت
هذا التناسق بين الظبية في سرعتها ورشاقتها والشمس في سنائها وتخطرها افتقدته أبيات قصيدة البارودي كما هو واضح.

ويعود البارودي إلى نفس الصورة مازجاً بين القوام الرشيق والجمال متكلفاً الجناس فيقول :

ياسرحة الامل الممنوع جانبه   وياغزالة وادي الحسن ان سرحت (١)

ويكرر البارودي ويعيد لواعج الصبابة والوجد حيث أصبح أسير هواها لايستطيع عنها فكاكاً وافضل ماقال في هذا الصدد :

ترفقي بفؤاد انت منيته   ومقلة تسوي مرآك ماطمحت

وكأنه يريد مجاراة قول بن النبية الرائع في هذا البيت:

يقتص من وجنتيها لحظ عاشقها   إن ضرجت قلبه باللحظ او جرحت

ولكن البارودي لايهتم بوصف من يحب وصفاً جزئياً متمعنا كما فعل ابن النبية حيث وصف الخال والجفنين والعينين والوجنتين والجمال والرائحة الزكية المنبعثة منها بل جاء وصفها عمومياً مسطحا مكروراً مفاخرا بأنه سحرها بأنشاده فحنت عليه ونال منها ماأراد وهي صورة يكثر ترداها في شعره فيقول:

مازلت اسحرها بالشعر تسمعه   من ذات فهم تجيد القول ان شرحت
حتى اذا علمت ماحل بي ورأت   سقمي وخانت على نفس بها افتضحت

حنت رثت عطفت مالت صبت عزمت   همت سرت وصلت عادت دنت منحت

ان الحركة الدائبة التي تلاحقت في أفعال هذا البيت أعطته حيوية وحياة افتقدته ابيات كثيرة .

فبت من وصلها في نعمة عظمت   ماشئت أوجنّة ابوابها فتحت
أنال من ثغرها الدري ماسألت   نفسي ومن خدها الوردي ماقترحت

وشكا البارودي ان تسمع فيه قول الوشاة ، وهو في موقف الضعف

---

(١) السرحة : الشجرة العظيمة الطويلة ويكنى بها عن المرأة .

وليس في موقف القوة كما هو حال ابن النبية ، يقول البارودي :

حاشاك ان تسمعي قول الوشاة بنا فانها ربما غشّت اذا نصحت

ويقول ابن النبية :

قالوا تعشق سوى هذا فقلت لهم لي همة لدني قط ماطمحت

وكما يلذ لابن النبية أن يتساقى كؤوس الراح في الرياض كذلك يفعل البارودي يقول ابن النبية .

باكرتها وحمام الروض نافرة عن البروج بكن الصبح اذ وضحت
مابين غدران ماء كاللجين صفت وأكؤس كنضار ذائب ضحت
بكر اذا ابن سماء حسها لبست ثوب الحباب حياء منه واتشحت
تشعشعت في يد الساقي وقد مزجت كأنها بنصال الماء قد ذبحت

هذه الصور الجميلة التي رسمها قلم عاشق للخمر وصب في تعاطيها ، وهذا الذبح بنصال الماء للخمرة لكي تخف وتعذب . حاول البارودي مجاراته ولكنه لم يصل الابداع الجمالي الذي حققه الأصل فيقول :

في روضة بسمت أزهارها ونمت أفنانها وسجت أظلالها وضحت
تكللت بجمان القطر واتزرت بسندس النبت والريحان واتشحت
ترنح الغصن من أشواقه طرباً لما رأى الطير في أوكارها صدحت
حمراء سلسلها الابريق في قدح كشعلة لفحت في ثلجة نصحت

إن الخفة التي انتشى بها الماء عندما اختلط بالخمرة في شطر ابن النبيه الاخير « كأنها بنصال الماء قد ذبحت » ثقلت تماماً وأضحت وكأنها رصاص مصهور في شطر البارودي الاخير « كشعلة لفحت في ثلجة نصحت » هذا التقابل بين اللفح والنصح وبين الشعلة والثلج لم يكن ثقلاً لفظياً وتركيبياً متكلفاً فحسب بل هو من حيث المعنى أثقل وطأة حتى يكاد يلهب أمعاء شاربَ خمرة البارودي. وكما يدور بالكؤوس في مجلس شراب ابن النبيه أهيف جميل استوحى جماله من مثال جمال عصره :

يسعى بها أهيف خفّت معاطفه — لكن روادفه من ثقلها رجحت

استوحاه البارودي لساقي مجلسه :

هيفاء إن نطقت غنت وان خطرت — رنت وان فوّقت الحاظها جرحت

دارت علينا بهـا الكاسات مترعة — بخمرة لو بدت في ظلمة قدحت

فاذا ثقلت روادف ساقية الخمر في مجلس الشراب الذي يصفه ابن النبيه فانما يصور لنا جمال عصره ، ضمور الخصر ، وثقل الردفين . اما أن تتفوق الساقية في ألحاظها الجارحة في مجلس الشراب الذي يؤمه البارودي وان تقدح الخمرة في الظلام فهي مبالغة طيبة وخيال متوهج .

وينتهي ابن النبيه من غزله وشرابه إلى التقدم بشعره ومديحه إلى الملك الناصر لدين الله فيقول :

في أحسن الناس اشعاري اذا نسبت — وفي أجل ملوك الارض انمدحت

وهو ملك يستحق المدح والاجلال .

أما البارودي فيقدم شعره إلى محبوبه لعله يلين ويعطف :

ما زلت أسحرها بالشعر تسمعه — من ذات فهم تجيد القول انشرحت

لينتهي بالسكر وقد تعتعه لانها لم تفارق شفتيه طوال ليله :

طارت بألبابنا سكراً ولا عجب — وهي الكميت إذا في حلبة جمحت

حتى بدا الفجر من أطراف ظلمتها — كغرة في جواد أدهم وضحت

فيا لها ليلة ما كان أحسنها — لو أنها لبثت حولاً وما برحت

ترى لماذا ينتهي به مطاف الحب دائماً إلى السكر ؟ هل لان الحب لديه لهو يلهو به كما يلهو بشرب الخمرة ؟ أم هو الفشل في الحب يقوده دائماً إلى اغراق احزانه في الخمرة لينسى جرح قلبه ؟ ام هي الموازنة اقتضت ذلك ؟ اعتقد ان الاحتمال الاخير هو الاصدق ، على الرغم من ان ابن النبيه الذى دخل البارودي لموازنة قصيدته كان صادقاً في حبه سعيداً به ، ولم يشرب خمرته الا لاكمال أنسه واتمام فرحته .

وقد سأله أحد اصدقائه ان يوازن قصيدة البحترى التي أولها (١) .

لنا ابداً بثّ نعانيه في اروى وحزوى وكم ادنتك من لوعةحزوى(٢)

فقال البارودي من بحرها وعلى وزنها في البحر الطويل ورويها حرف الواو :

أقلا ملامي في هوى الشادن الأحوى فقلبي على حمل الملامة لايقوى (٣)

رابعاً : وقد يعجب البارودي بموسيقى قصيدة عربية قديمة فينظم قصيدة في وزنها ورويها ، وهذا مايبغيه فقط ، ولكن قد تشترك بينهما بعض الصور او يتأثر بغرض من اغراض القصيدة ، ولكن الموسيقى الشعرية تبقى الاساس فهي التي فتنته في القصيدة القديمة وهذا مادعاه إلى نظم قصيدته لاغيركما فعل في قصيدته التي مطلعها :

صلة الخيال على البعاد لقاء لو كان يملك عيني الاغفاء (٤)

والتي نظمها في وزن وروي قصيدة المتنبي في مدح ابي علي الأوراجي الكاتب والتي مطلعها :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء اذ حيث كنت من الظلام ضياء (٥)

وتقع قصيدة البارودي في ستةوثلاثين بيتا خص منها ستة وعشرين بيتاً للنسيب وعشرة ابيات للحكمة . وتقع قصيدة المتنبي في سبعة واربعين بيتاً خص منها اثني عشر بيتا للنسيب وأوقف بقية الأبيات على مدح ابي علي الاوراجي .

وقد انحصرت معارضة البارودي لقصيدة المتنبي في الوزن والقافية وفي النسيب الذي ورد في مقدمة قصيدة المتنبي واختلف البارودي عن المتنبي في صلب القصيدة فلم يمدح بل انهى قصيدته بمواعظ استمدها من تجاربه الحياتية

---

(١) ديوان البارودي حـ٤ ص ١٨٩ .

(٢) ديوان البحتري حـ١ ص ٥٣ — ٥٧

(٣) ديوان البارودي جـ٤ ص ١٨٩ — ٢٠١ .

(٤) الديوان طـ١،٦٥ — ٦٩ (٥) الديوان حـ١ ١٤٠ — ١٥٥ الا زديار : افتعال الزيارة.

الخاصة كما عودنا ان يفعل . ولم يستطع البارودي في مطلع قصيدته ان يصل نسيج المتنبي ولاصوره الرائعة ، فهو مطلع عادي بيّن فيه هواجس حلم التقى فيه بمحبوبه بعدان بات النوم عسيرا عليه ،اما المتنبي فلا يحلم بل يجد سبيله في الواقع ، حيث أمن العذال من زيارته لها مادام الليل لم يشرق بعد ولكنهم لايعون بأن نورها هتك ستر الظلام :

وكأن البارودي قد أحس بضعف مطلع قصيدته تجاه مطلع قصيدةالمتنبي فضمن الشطرالأول من البيتين في بيت آخر انهى به النسيب حيث قال:

فعلام تخشين الزيارة بعدما (أمن ازديارك في الدجى الرقباء)

أوانه اعجب به اعجاباً شديداً فآثر ان يذكره وعندما اعجزه بيت المتنبي .

أسفي على أسفي الذي دلهتني عن علمه فيه عليّ خفاء

قال البارودى :

ياهاجري من غير ذنب في الهوى مهلا فهجرك والمنون سواء

وهو معنى بعيد عن الصورة والايحاء في بيت المتنبي. فكيف يحب أن يذهب بعقل صاحبه حتى انه لايدرك الأسف فيأسف على ذلك من كلام عادي قتل تكرارا و اعادة ، بأن الهجر يعني الموت.

وهكذا قصر شعر البارودي من الوصول إلى بلاغة المتنبي وحسن نسيجه وسمو معانيه وروعه صوره . يقول المتنبي :

وشكيّتي فقد السقام لأنه قد كان لما كان لي اعضاء

فالشكوى على فقد السقام ،لأن المرض لايأتي إلاّ عن طريق ألم الاعضاء. ولم يستطع البارودي أن يضاهي هذا البيت عندماقال :

أغريت لحظك بالفؤاد فشنّه ومن العيون على النفوس بلاء

فأين من يطلب المرض ليشعر بوجوده بعد أن أخذ المحبوب أعضاءه من آخر يشكو من اللحاظ لأنها تؤلمه ؟.

وتحس بأن البارودي قد أحسّ بضعف البيت الذي أورده ، فاعاد القول في البيت السابق من القصيدة حيث قال :

فأنظر إليّ تجد خيالة صـــورة لم يبق فيها للحياة ذماء (١)

ونظرات المحبوبة تصمي حشا المتنبي فتجرحه ،ويتشابه الجرح في سعته بعينها، بعد أن سددت اليه سهامها القاتلة على الرغم من دروعه المتينة التي لاتخترقها الرماح:

مثلت عينيك في حشاي جراحة فتشابها كلتاهما نجلاء

نفذت عليّ السابري وربما تندق فيه الصعدة السمراء (٢)

فكيف أثرت النظرة في نفس البارودي ؟ قال :

هي نظرة فامنن عليّ بأختها فالخمر من ألم الخمار شفاء

انا منك مطوي الفؤاد على جوى لولا الدموع ذكت به الحوباء (٣)

النظرة صدّعت رأسه ولكن مفعولها ليس أكثر من أثر الخمرة فهي تصدع الرأس إذا ما أكثر شاربها ،وكأن الشاعر هوالذي تملىّ نظراتها وليست هي التي أصمته بنظراتها.هذا بالاضافةإلى أن الجرح لم يتعد الرأس إلى القلب،فهو يسعى في طلب نظرة ثانية لعلها تبرئه من هذا الحب كما يسعف كأس الخمرة في الصباح صداع المخمور ليلاً .ويجد الشاعر بذلك متنفساً وبرءاً فيسفح حبه دموعاً ولا يحافظ على لواعج حبه كما هي الحال عند المتنبي.

وقد دهش المتنبي من تأثير عينيها فيه وهو القوي الذي لايزحزحه مزحزح ولايبلغ سمو بلاغته أحد فيقول :

انا صخرة الوادي إذا ما زوحمت وإذا نطقت فانني الجوزاء

وهو على العكس من البارودي فمحبوبه هو الاقوى لأن لواحظه تؤثر في الصخر وتخرج منه الماء :

ترنو بأحور لو تمكن لحظه من صخرة لارفضّ منها الماء (٤)

ومضى في حديث عادي يهبط عن سمو الشعر لتأكيد خصاله بالنسبة لغيره فقال:

اولم يكن بين الرجال تفاوت ماكان فيهم سادة ورعاء

---

(١) الذماء: بقية النفس (٢) السابري : الدرع المحكم ، الصعدة : القناة التي تنبت معتدلة فلا تحتاج إلى تقويم (٣) الحوباء : النفس (٤) ارفض : خرج وترشش .

وحين يثبّت المتنبي مكانته فهو الصخرة قوة والجوزاء سموقاً وان من لايدرك مقامه غبي أعمى فانه يؤكد قوة شكيمته بحديث ناقته عنه : فلولا سعة صدره وبعد مطلبه وعلو همته لاذهبت البيداء التي يقطعها فوقها، لحمها وأودت بها :

وإذ خفيت على الغبي فعاذر ان لاتراني مقلة عمياء
شيم الليالي ان تشكك ناقتي صدري بها أفضى أم البيداء

وقد سعى البارودي إلى تحقيق مكانته فتحدث عن كيد الأغبياء ووقوعهم تحت طائلة الاهواء وهو إذ يورد هذا القول يورده مورد الحكمة ، فيقول :

كيد الغبي مساءة لضميره ولمن يحاول كيده ارضاء
والناس أشباه ولكن فرقت مابينهم في الرتبة الآراء
والنفس إن صاحت زكت وإذاخلت من فطنة لعبت بها الأهواء

وإذ عرّج المتنبي إلى مدح أبي علي الاوراجي وبلغ في مدحه درجة عالية من الابداع ، انهى البارودي قصيدته بنصح سامعيه مؤكداً لهم بألا يثقوا بالناس والصحاب فهم غدارون مخادعون ومصاحبتهم ليست إلا هباء حيث يقول :

ولقد بلوت الناس في أطوارهم ومللت حتى ملني الابلاء
فإذا المودة خلة مكذوبة بين البرية والوفاء رياء
فأنفض يديك من الزمان وأهله فالسعي في طلب الصديق هباء

وإذا ما وازنا نظرة البارودي للناس بنظرة المتنبي للمدوح ينتصب أمامنا فرق عظيم بين الثقة المتجلية في قول المتنبي والشك بامر الناس والاستهانة بهم كما هو بيّن في شعر البارودي . يقول المتنبي :

يا أيها المجدي عليه روحه إذ ليس يأتيه لها استجداء
أحمد عفاتك لافجعت بفقدهم فلترك مالم يأخذوا إعطاء
لاتكثر الاموات كثرة قلة الا إذا شقيت بك الاحياء

* * *

ان هذا الاختلاف في وجهتي نظريهما إلى الناس تعتمد أساساً على أن نظرة المتنبي جاءت من خلال نظرته للفرد (أبو علي الاوراجي) الممدوح ، أما

نظرة البارودي فقد جاءت من خلال نظرته للمجتمع الذي تعامل معه البارودي وشارك في معاناته المختلفة وذاق من علاقاته بالناس حلو الحياة ومرها .

ان معارضة البارودي للمتنبي في هذه القصيدة جاءت أساساً في الوزن والروي وفي غرض النسيب المشترك بين القصيدتين .

وقد نظم البارودى في شبابه وهو في الرابعة والعشرين من عمره عام ١٨٦٣ بعد انتقاله من ديوان الخديو اسماعيل إلى الجيش (١) على وزن وروي قصيدة الشريف الرضي المشهورة .

لغير العلا مني القلى والتجنب ولولا العلا ماكنت في الحب ارغب(٢)

قصيدته المعروفة :

سواي بتحنان الاغاريد يطرب وغيري باللذات يلهو ويعجب (٣)

وقد يفتنه الايقاع الموسيقي فقط في قصيدة قديمة فيأتي بروي مثل رويها من دون اهتمام بالنواحي الشكلية والمعنوية الأخرى . فقد قال على روي قصيدة النابغة التي اولها :

أمن آل مـيّة رائح او مغتـد عجلان ذا زاد وغير مزود (٤)

وهو الدال في قصيدة النابغة قصيدته التي مطلعها :

ظن الظنون فبات غير موسـد حيران يكلأ مستنير الفرقـد (٥)

وقد سلك فيها مسالك العرب فيما كانت تتمدح به من مباشرة الحروب وارتياد المنابت وركوب الخيل وشرب الخمر والتشبيب بالنساء (٦) بينما اقتصرت قصيدة النابغة على وصف محاسن المتجردة زوجة النعمان والتشبيب بها. وخير مثال على ذلك قصيدة البارودي التي مطلعها :

---

(١) ديوان البارودي ، حـ١ ص ٨٩

(٢) ديوان الشريف الرضي ص ٨٥ — ٨٩ .

(٣) ديوان البارودي ، حـ١ ، ٨٩ — ٩٥ .

(٤) ديوان النابغة الذبياني ٢٨ — ٤١ .

(٥) ديوان البارودي ، حـ١ ١٩٦ — ٢٠٣ (٦) م . س ، حـ١ ، ١٩٦

رضيت من الدنيا بما لا أوده ... واي امرىء يقوى على الدهر زنده(١)

التي نظمها على روي قصيدة المتنبي التي مدح فيها كافوراً سنة ست واربعين وثلاثمائة والف والتي مطلعها :

أود من الأيام مالا توده ... واشكو اليها بيننا وهي جنده (٢)

وقد فخر البارودي في قصيدته وعرض بالمظالم في اواخر حكم الخديو اسماعيل لما فسد حكمه واثقل مصر بالديون . والقصيدتان من روي حرف الدال والهاء بعده حرف وصل . تقع قصيدة البارودي في ستة وخمسين بيتا ، وقصيدة المتنبي في ثمانية واربعين بيتا. قصيدة المتنبي قصيدة مديح استهلها بالصعوبات التي جابهها للوصول إلى الممدوح بينما جاءت قصيدة البارودي قصيدة فخر استهلها بالغزل ، والتشابه بيّن في الشطر الأول من البيتين.

---

(١) ديوان البارودي . جـ١ ١٨٧ – ١٩٦ .

(٢) ديوان المتنبي ، جـ٢ ١١٩ –١٣٠ .

الخاتمة

يعد البارودي رائدا لنهضة الشعر العربي الحديث ورئيساً لمدرسة المحافظين الشعرية وهو باعث للشعر العربي من سباته الطويل : « البارودي يمثل طور الانتقال أحسن تمثيل بشخصيته البارزة في الشعر فهو صلة متينة بين شعر العرب القديم والشعر العصري وهو محي دولة الشعر بعد العدم » (١) وقال عنه جرجي زيدان : « فهو من أقوى أركان النهضة الشعرية الأخيرة بمصر »(٢) ونحن نرى في معارضات البارودى مايأتي :

(١) ان معارضات البارودي ونقائضه وموازناته وتأثره بموسيقى معينة في وزنها وقافيتها ورويها لايعد تقليداً من البارودي للقصائد التي عارضها لأنه سلك فيها مسلكاً جديداً فلم يتقيد بأغراضها ومعانيها وصورها وصياغتها بل تناولها تناولا مختلفاً وولد معان جديدة وجسد صورا مختلفة وكان يسمو على القصيدة المعارضة في بعض الاجزاء ويعلو عليها او يناهزها ويساويها في اجزاء أخرى أو يهبط دونها ويبقى له فضل الاجتهاد لأن قصيدته صادرة عن تجربة شعورية خاصة ومن هذا التحديد تبتعد معارضات البارودي عن التقليد لأن شخصيته بينة فيها وواضحة المعالم وان معظم القصائد التي عارضها جاءت قصائد فريدة بالنسبة لعصره فيها الأصالة والابداع والاشراق(٣). وينحى محمد خلف الله هذا المنحى : « فقد اوتي — البارودي — طبيعة فنانة ونفساً شاعرة تفتحت بواكيرها منذ حداثته ففاض لسانه بالشعر ، واتجه بفطرته إلى الشعر العربي الأصيل ينهل من حياضه في ديوان الحماسة لأبي تمام وفي دواوين فحول الشعراء العباسيين ولاسيما الفرسان منهم كابن المعتز

---

(١) محمد صبري . شعراء العصر .

(٢) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ٣٩٥ .

(٣) ينظر : علي الحديدي ، البارودي شاعر النهضة ، علي الحديدي ، محمود سامي البارودي ، عمر الدسوقي في الادب الحديث ، وعمر الدسوقي ، محمود سامي البارودي.

والشريف الرضي وأبي فراس وجعل دأبه البحث في تلك الدواوين واغنت ذخيرة خياله الفني بكل رائق معجب من الصور والأساليب حتى أصبح كل ذلك جزء من ثروته اللغوية والأدبية واصبحت القدرة على التعبير الأصيل في طبعه »(١) . ونحن لانذهب إلى ماذهب اليه شوقي ضيف من أن معارضات انبارودي تدخل في إطار التقليد (٢) بل نراها على العكس من ذلك . فهي عمل إبداعي زاخر بالمشاعر الخاصة للبارودي وهو يتناول قصيدة ليعارضها ، وان اعجابه بالقصيدة ومحاولته السمو عليها هو الذي دفعه إلى المعارضة وليس التقليد فإن لم ينجح في مسعاه فذلك يعود إلى عوامل البيئة وتخلف الشعر في عصره ومشاعره الخاصة وقدراته الشعرية ولايعود إلى التقليد مطلقاً

(٢) ان تقسيم الديوان للقصائد بين المعارضة والمناقضة والموازنة والنسج على موسيقى القصيدة الخارجية من حيث الوزن والقافية والروي ، يدخل جميعه في باب المعارضة بالنسبة للبارودي واذا كنا قد ثبتنا منهجنا في الدراسة حسب هذه الانواع الاربعة فاننا لجأنا إلى هذا التقسيم المنهجي لغرض الدراسة وبالتالي لتقرير النتيجة التي انتهينا اليها الآن .

(٣) لقد جاءت معارضات البارودي في مقدمة قصائده الجيدة ذات الصياغة القوية والأخيلة الجميلة والمعاني الجديدة والابداع الفني وكانت منار للشعراء من بعده وفيها تصح مقولة العقاد عن البارودي : « صاحب الفضل الأول في تجديد اسلوب الشعر وانقاذه من الصناعة والتكلف العقيم ورده إلى صدق الفطرة وسلامة التعبير »(٣) .

---

(١) محمد خلف الله معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها ص ١٠٠

(٢) شوقي ضيف ، البارودي رائد الشعر الحديث ص ١٤٠ ، شوقي ضيف . الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٨٨ .

(٣) العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم ، ص ١٢

(٤) كان لمعارضات البارودي الفضل في الكشف عن روائع القصائد العربية القديمة وتقديمها للساحة الأدبية في عصر بعد فيه الشعر العربي الأصيل عن ساحة الأدب حيث شاعت الركاكة والتكلف والتصنع .

ونحن اذننهي بحثنا نقف في صف محمد حسين هيكل حين قال عن البارودي: «كانت محاكاته الأقدمين جديدة ، وكانت معارضته اياهم جديدة، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة » (١) .

ان معارضات البارودي جددت فن المعارضة الذي شاع وا نتشر في عصره وأعطاه نفساً جديداً أعاد الى هذا الفن شبابه بعد اكتهال ومنحة أصالة بعد إغراق في التقليد وجدد فناً شعريا مهما بالنسبة للأدب العربي سداه الابداع ولحمته الاصالة.

---

(١) محمد حسين هيكل ،مقدمة ديوان البارودي.

المصادر

١ — ابن منظور ، لسان العرب ،الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة بلا

٢ — ابن النبيه المصري ، الديوان ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٦٩ .

٣ — أبو فراس الحمداني، الديوان م، السليمية ، بيروت ١٨٧٣ .

٤ — أبو نؤاس ، الديوان ، دار الكتاب العربي ، بيروت بلا

٥ — إحسان عباس ، تاريخ النقد الادبي عند العرب ، دار الامانة ، بيروت ١٩٧١ .

٦ — أحمد الشايب ، النقائض في الشعر العربي . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .

٧ — الامدي ، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، دار المعارف القاهرة ١٩٧٢ .

٨ — البارودي ، الديوان ط١، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٠

٩ — البارودي ، الديوان ، ط٢، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ — ١٩٧٢

١٠ — البحتري ، الديوان ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٢

١١ — التبريزي ، شرح القصائد العشر ، مكتبة محمد علي ، القاهرة ١٩٦٤

١٢ — الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومة ،م،عيسى البابي الحلبي، بلا

١٣ — جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار مكتبة الحياة ، بلا

١٤ — حسين المرصفي ، الوسيلة الادبية للعلوم العربية م . المدارس الملكية، القاهرة ١٩٦٨

١٥ — زكريا أبراهيم ، مشكلة الحب ، القاهرة ، ١٩٧٢

١٦ — زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨

١٧ — الشريف الرضي ،الديوان،مؤسسة الاعلى للمطبوعات، بيروت،١٣١٠١ه

١٨ — شوقي ضيف ،البارودي رائد الشعر الحديث،دار المعارف ،القاهرة ١٩٦٤

١٩ — شوقي ضيف ، الادب العربي المعاصر في مصر ،دار المعارف، القاهرة بلا

٢٠ ــ عباس محمود العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم في القرن الماضي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٥

٢١ ــ عبد الحميد عبد السلام المحتسب ،نقائض جرير والاخطل ، دار الفكر القاهرة ، ١٩٧٢ .

٢٢ ــ علي الحديدي ، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة، ١٩٦٩

٢٣ ــ علي الحديدي . محمود سامي البارودي،دار الفكر العربي،القاهرة١٩٦٧

٢٤ ــ عمر الدسوقي ،في الادب العربي الحديث ،دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٤

٢٥ ــ عمر الدسوقي ، محمود سامي البارودي،دلر المعارف،القاهرة ١٩٧٠

٢٦ ــ عمر الطالب ، نفسية البارودي من خلال شعره ، مجلة آداب الرافدين، العدد ٨، ١٩٧٧

٢٧ ــ المتنبي ، الديوان ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، بلا .

٢٨ ــ محمد خلف الله . معالم التطور الحديث في اللغة العربيه وادابها ، القاهرة ١٩٦٦

٢٩ ــ محمد صبري ، شعراء مصر ، م الدرب الاحمر ، القاهرة ١٩١٠

٣٠ ــ محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، دار النهضة ، مصر ، بلا

٣١ ــ النابغة الذبياني ، الديوان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٣

مظاهر اليقظة القومية في الشعر الحديث

من ١٩٠٠ - ١٩٥٠

الدكتور
سالم أحمد الحمداني

في الوقت الذي تخوض فيه أمتنا العربية أشد معاركها ضراوة وقسوة من أجل تحقيق ذاتها وتأكيد هويتها القومية نرى أن مظاهر اليقظة القومية تمثل فكراً ناضجاً وعملاً قومياً تدرأ به هذه الامة كل ما قد يستهدفها في واقعها وفي مستقبلها .

ان فكر الامة وما ينضوي تحته من لغة وأدب وتراث وتاريخ وثقافة هو الدرع الحصين الذي تستطيع به أية أمة أن تتخطى كل الصعوبات التي تقف في سبيل وحدتها .

ان يقظتنا القومية في العصر الحديث استطاعت أن تصل أمتنا بما كان لها أيام عزها ومنعتها .

لقد كان من أسباب انفراج أزمتنا في مطلع هذا القرن اننا استطعنا أن نتوحد بفعل يقظتنا القومية وماكاد هذا القرن يتجاوز نصفه الاول حتى اتضحت معالم هذه اليقظة لتؤكد دعمها لواقع الأمة العربية ،ولتنهض بحالها ،وتشد من أزرها .

ولعل الأبعاد التي استطاع الباحث أن يتلمسها في هذه اليقظة تقوم على مسائل ثلاث :

الاولى : اللغة العربية كعامل يجتمع عليه وجدان الامة المشترك ، فهو وسيلة للتفاهم والتخاطب من جهة ، كما أنه يصل ماانقطع من واقع الامة بماضيها المشترك وتاريخها الحافل بالامجاد .

والثانية : ظهور المفهوم القومي الذي يجمع أبناء الامة الواحدة ويوحد آمالها ويرسم خطوط مستقبلها .

أما المسألة الثالثة فهي تجسيد الشعر العربي الحديث لمضامين هذه اليقظة وتمثله أبعاد ثلاثة هي :

الماضي : ويتمثل في التغني بالامجاد والبطولات والفخر بالتاريخ والحضارة فلطالما كانت هذه المضامين حوافز ، ونهوضاً .

والحاضر : ويتمثل في استعادة ارضنا المقدسة فيفلسطين ومقارعة الاستبداد ومقاومة الاستعمار كما يتمثل في الدعوة إلى الالفة والاشادة بالثورات

وهذه موضوعات لايزال شعراؤنا ينشغلون بها انشغالا شديداً ، ثم هم لايزالون يعيشونها على أنها واقع مرير تحفز على طغيان العواطف القومية وتستمد أفكارها ومعانيها من هذا الواقع .

وأخيراً : المستقبل : ويتمثل في آمال أبناء الامة في التحرر والوحدة ، ضمن هذه المسائل الثلاثة ، يستطيع الباحث أن يضع يده على مظاهر اليقظة القومية متمثلة بالماضي والحاضر والمستقبل .

أولا : اللغة العربية :

لايختلف إثنان في أهمية اللغة وخطرها ولعلها تقف في مقدمة المسائل التي يجتمع عليها أبناء الامة الواحدة ومرد ذلك كما يرى ساطع الحصري « ان وحدة اللغة ، توجد نوعاً من وحدة التفكير ووحدة الشعور وتربط الافراد بسلسلة طويلة ومعقـــــدة من الروابط الفكرية والعاطفية (١) . ومعنى ذلك أن اللغة تشكل الحجر الاساس في بناء وحدة الامة ، كما أنها تعتبر احدى المقومات الاصيلة المهمة لعناصر القومية العربية ،والحق : أن مامن لغة من لغات العالم كله استطاعت أن تجمع القلوب وتشد الاواصر ،وتوحد النفوس ، وتعمق الوجدان كما استطاعت ذلك اللغة العربية سواء ذلك في أوقات المحن أم في ساعات نشوة النصر ومن هنا يراها فؤاد الأهواني (أول عامل في تكوين القومية العربية منذ أقدم عصورها حتى اليوم (٢).

والدور الذي حققته هذه الامة ايام محنتها الطويلة القاسية ، لاكثر من ستة قرون ،مثال حي على مانقول فقد اجتازت تلك المحنة ،بفعل تلك الاصرة اللغوية التي طالما لهج بها الشعراء والأدباء والعلماء والفقهاء وغيرهم، ناهيك عن أنها كانت في نظرهم لغة العقيدة الدينية التي صمدت بوجه أعتى الضربات قسوة وشراسة .

---

(١) : في الوطنية القومية ٢٨ .

(٢) القومية العربية : ص ١٩

فاذا كان العرب قد امتلكوا بعض الروابط التي هيأت لهم أسباب الصمود والبقاء فإن اللغة كانت أقوى (هذه الروابط على الاطلاق لانها الوسيلة التي يعبر بها شعب ماعن أفكاره وأحاسيسه) (١) .

ومن هنا كان تعبير الشعراء عن أهمية اللغة في وحدة الأمة (يفوق ماكان منهم تجاه المقومات الأخرى للقومية العربية (٢) لان اللغة لم تعد وسيلة للتفاهم والتلاقي فحسب و إنما هي بالنسبة للعرب تصلهم بماضي أمتهم الذي انقطعوا عنه سنين طوالا ، وتقفهم على صورا لبطولة ، ومعطيات الحضارة ، وآفاق المعرفة وروعة الفكر الذي حققه ذلك الماضي . ولاشك أن صور الماضي تلك ، شكلت حوافز نضالية للامة وبعثتها بعثاً جديداً ، والامة التي لاتقف على صرح من التاريخ مجيد لاتستطيع أن تدفع غوائل الاحداث كالتي استطاعت الامة العربية أن تدفعها ، وتنجو من شرها .

لهذا كله (يعتز العرب بلغتهم أيما اعتزاز ، حتى المهاجرون إلى امريكا اللاتينية ،لاينسون انهم عرب ، ولايتخلفون عن مشاركة العرب في مشاعرهم ، وموازرتهم في مشكلاتهم ،منطلقين إلى هذا ببواعث من وحدة اللغة والثقافة وغيرهما) (٣) . ولعل شعراء المهجر في الامريكتين يشعرون اكثر من غيرهم بأهمية اللغة في توحيد ابناء الامة ، ذلك ان الذي يربطهم بأقطارهم وحضارتهم ومثلهم ، وقضايا امتهم ، هي اللغة ، فمنها ينطلقون إلى التعبير عن وجدانهم القومي ، وبواسطتها يؤكدون انتماءهم العربي . وبفضلها يجسدون مشاعرهم وعواطفهم العربية ، وفي قصائدها يتغنون ببلادهم ، ويحنون إلى اهليهم واحبابهم ، وبها يرتبطون بالوطن الأم . فاللغة عند هؤلاء لم تكن (غاية يقفون عندها لان طموحهم في غربتهم — بعد ان تزودوا خير زاد ثقافي قد بلغ بهم القمة التي اشرق منها فجر كامل من الشعور القومي الكامل، بعيدا

---

(١) : حازم نسيبة : القومية العربية ص ٨٤ .

(٢) : عمر دقاق : الاتجاه القومي في الشعر المعاصر ٢٠٢ .

(٣) احمد محمد الحوفي : وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث : ١٩

عن التيارات التي كانت تعكر صفو الشعور في ارض الوطن العربي نفسه) (١).

ومن هنا نجد شعراء المهجر يجسدون هذه المشاعر العربية النبيلة تجاه لغتهم في شعرهم القومي . فمن ذلك ماقاله الشاعر القروى وهو يحتج على حضارة الغرب ، ويحس بالغربة الفكرية والمكانية اذ هو يعيش مع أكثر احياء الدنيا تحضرا ،لكنه لايجد بين ظهرانيهم ماكان يجده في بلده وبين بني قومه : (٢)

حولي أعاجم يرطنون فما للضاد عند لسانهم قدر

ناس ولكن لاأنيس بهم ومدينة لكنها قفر

وهكذا يجرى شعراء المهجر في اعتزازهم بلغتهم وحبهم وتعلقهم بها .

اما شعراؤنا في المشرق العربي فقد اتخذوا من تقديس لغتهم والتغني بها مجالا لتأكيد صدة مشاعرهم القومية :

من ذلك اعجاب الشاع محمد بهجة الاثري بلغته وتقديسه لها وابداؤه العواطف النبيلة تجاهها في قوله : (٣)

أأم لغات العالمين بلاغة
وطيب مذاق واختلاف طعوم

بيانك ؟ أم نبعٌ من الخلد كوثر
ترقرق عذباً ؟ أم رحيق كروم

سقى كل لماح البيان زلاله
مصفى وروى طبع كل حليم

فدى لك ياروح الجمال وسره
لغات الورى من حادث وقديم

ولو سامني دهري بجيبك لافتدت
هواك حياتي حسبة ونعيمي

---

(١) فؤاد الشايب : دور الادب في معركة التحرير والبناء ٣٧٧/٢ .

(٢) جورج صيدح : ادبنا وأدباؤنا في المهاجر الامريكية : ٢٥ .

(٣) :ملاحم وازهار : محمد بهجة الاثرى ص ١٨ .

وتدور أبيات قسطالي الحمصي الحلبي حول هذه المعاني فهو يؤكد على جمال حروفها وعذوبة الفاظها وقوة تركيبها كما يشير الى فصاحتها وبلاغتها ويقول : (١) .

حروفها لمعان لاتطاولها
في حسنها بنت يونان ورومان
الفاظها درر تركيبها سور
آياتها غرر في كل قرآن
عزيزة الفضل لم يجحد محاسنها
الا جهول بايجاز وتبيان
لها الفصاحة تغري اينما وجدت
شهودها مثل قس او كسحبان
وفي البلاغة هل خود تضارعها
داخلها صاعد يسمو لقحطان

لاشك ان هذه العواطف الجياشة تجاه اللغة تدل على وعي عميق لقيمتها وأثرها في الوجدان العربي .

وقد شهدت الامة العربية في مطلع هذا القرن صراعاً عنيفاً مع اعدائها وكان هذا الصراع من اشد الحوافز على اللهج باللغة وتقديسها والدفاع عنها ، فهذا حليم دموس يشيد بدور اللغة ، ويطلب من بني قومه الدفاع عنها فيقول : (٢)

صونوا حمى اللغة الفسحى فليس لكم من دونها وطن يعلو له شأن

ثم يؤكد دورها في الوحدة :

ستظل رابطة تؤلف بيننا فهي الرجاء لناطق بالضاد

ويؤكد هذه الوحدة بفضل اللغة أنيس المقدسي فيقول : (٣)

---

(١) : الادب العربي المعاصر في سوريا : سامي الكيالي ص ٩٦ .
(٢) عمر دقاق : الاتجاه القومي في الشعر المعاصر : ٢٠٤ .
(٣) الاتجاهات الادبية ١٠٢/١ .

ان فرق الايمان بين جموعنا فلساننا العربي خير موحد
قربت به الاقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فت في اليد

ويشير الرصافي الى اثر اللغة في وحدة الأمة فيقول : (١)

وتجمعنا جوامع كبريات واكبرهن سيدة اللغات

ويؤكد بدوي الجبل فكره القومي الناضج حين يشيد بوحدة الارض ، ويرى، ان اللغة عامل انساني من عوامل الوحدة فيقول : (٢)

كل الربوع ربوع العرب في وطني مابين مبتعد منها ومقترب
للضاد ترجع أنساب مفرقة فالضاد افضل أم برة وأب
تفنى العصور وتبقى الضاد خالدة شجى بحلق غريب الدار مغتصب

ومن ذلك قول خليل مطران متحدثاً عن اثر اللغة في وحدة العرب: (٣)

تضمهم في سبيل الضاد جامعة كل بها لأخيه خير معوان

ولعل قصيدة شوقي التي تحدث فيها عن جمال اللغة العربية ، وأثرها وسحرها تقف في قمة هذا الاتجاه، وفيها يقول: (٤)

ان الذي ملأ اللغات محاسنا جعل الجمال وسره في الضاد

وقصائد شعرائنا في هذا المعنى كثيرة رأينا ان نكتفي بهذا القدر منها.

وأذا كان الحس القومي في بداية هذا القرن قاصراً عن ادراك الوعي العميق لفكرة القومية العربيه ، إلا أنه لم يفت الشعراء التعبير عن وعي يمتلك النضج الفكري، فيما يخص مدى فاعلية اللغة العربية ، واثرها في حياة اهلها ووحدتهم وواقعهم ومستقبلهم، وانهم كانوا يدركون ان لغتهم (جامعة اللسان، واحدى المقومات الرئيسية للشعور القومي ، والرابطة الاساسية بين الشعوب العربية) (٥) كما كانوا

---

(١) ديوانه : ٥٦٥ .

(٢) ديوانه : ١٧٣ .

(٣) ديوانه : ٣٥٧/٤

(٤) الشوقيات : ١٣٥/١.

(٥) عمر دقاق : الاتجاه القومي في الشعر المعاصر : ٢٠٢.

يدركون ان هذه اللغة هي من أقوى عناصر الوحدة القومية من القديم إلى الحديث .

ولعل من أشد مايدل على هذا الوعي لاهمية اللغة ودورها في اليقظة القومية الوقفة الشجاعة الواعية التي وقفها شعراؤنا حينما أثيرت مسألة العامية والفصحى، والتي روج لها الاستعمار ودعى اليها نفر ممن لاترتبطهم بهذه الامة وتراثها أصالة أو عراقة، فكانت الدعوة إلى الفرعونية والفينيقية وغيرها لاتهدف إلى استبدال الفصحى بالعامية فحسب، وانما تهدف إلى الاستعاضة عن ماضي الامة العربية وامجادها بأمجاد المصريين والسوريين القدماء. وبذلك يستطيع الاستعمار ان يستهدف الامة العربية بهجر لغتها والصدود عن أمجادها الحافلة بالعطاء. ولقد شمر شعراؤنا المحدثون عن سواعدهم الفتية بالوقفة الجريئة. والحس القومي النبيل، والشعور العربي الاصيل يدافعون عن اللغة التي توحد ثقافتهم وتجسد امانيهم القومية العريضة.

وهذا حافظ ابراهيم ينظم قصيدته المشهورة على لسان اللغة الفصحى فيقول(١) :

رموني بعقم في الشباب وليتني
عقمت فلم أجزع لقول عداتي

وسعتُ كتاب الله لفظاً وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات

— — — — —

انا البحر في احشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

— — — — — —

---

(١) ديوانه: (١)

ايطـربكـم مـن جانـب الغـرب نـاعـب
يدادي بـوأدي في ربيـع حـياتي

اما محمود غنيم فيشير في دفاعه عن اللغة الفصحى إلى دورها في توحيد الافكار بين العرب فيقول: (١)

وماوحد الجمع مثـل اللسان ولا اتحد الجمع الاغلب
اذا اتحد الفـكـر في مـعـشر تجمع من شمله ماانشعب

ويؤكد شوقي أثر الفصحى في وحدة ابناء الامة فيقول: (٢)

ونحن في الشرق والفصحى ذوو رحم ونحن في الجرح والآلام اخوان

ويشير علي الجارم، صراحة إلى الوحدة، بتأثير منها، ويرى أنها رمز الوحدة، ويدعو إلى حمايتها والحفاظ عليها ويقول: (٣)

وحببوا لـغـة العرب الفـصـاح لهم فان خذلانها للشرق خذلان
قـولوا لهم انهـا عـنـوان وحـدتهم فانهم حولها جند وأعـوان

وعبر عن هذه الوحدة الشاعر محمد عبد الغني حسن ببيت واحد فقال: (٤)

هـي أمـة لغـة القرآن تـربطهـا والمجد يجمعها والاصل والحب

وهكذا يجسد شعرنا الحديث مشاعر اليقظة القومية للأمة العربية.

والحق ان ظهور مسألة العامية في مطلع هذاالقرن كان مسألة خطيرة جداً، لانها كانت تستهدف الامة في شخصها وذاتها، في وقت بدأ فيه العرب يتخذون من اللغة وغيرها من عناصر القومية وسائلَ وسبلا، بها ينهضون من الكبوة التي طال أمدها. وما من شك ان تلك المعركة كانت ضاربة، لكن شعرنا وقف يستمد من ايمانه، العون، على المجالدة والصبر، حتى استطاع ان يهزم تلك الدعوة الخبيثة، التي راح أنصارها ينفثون السم الزعاف من أجل ترويجها بحجج واهية لاتنم الا عن روح اقليمي أو شعوبي أو عنصري خبيث. لكن هذه اللغة استطاعت

(١) ديوانه : ١ ٧
(٢) الشوقيات : ١٢٥/٢ .
(٣) ديوان الجارم : ١٨٢/٤
(٤) احمد الحوفي : وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث : ٢٢ .

ان تمنح اصحابها وأحبابها قوة الصمود، وعمق الايمان، بما تمتلك من اصالة، وهي هي كان لها شأن في توحيد الأمة العربية التي شقت مسارها إلى ابعد الحدود.

ثانياً المفهوم القومي :

ليس سهلا على الدارس أن يصدر حكماً سريعاً حول الفكر القومي الذي وصل في هذه المرحلة حدا كبيراً من النضج ، ذلك لان القومية مرت بأكثر من مرحلة. فقد ارتبطت بعدة عوامل سياسية وفكرية واجتماعية ودينية ، ثم أنها وليدة ظروف مختلفة ، ومن هنا فانها لم تنته إلى شكلها الواعي الابعد أن تبلورت وتجاوزت الكثير من المعوقات والواقع ان الفكرة القومية قد نشأت (في أوائل القرن التاسع عشر ، اذ كانت هناك دول كثيرة تحكم كل واحدة منها أمما عديدة ..... وكان من الطبيعي أن تتغير وتتطور أوضاع معظم الدول وفق مقتضيات «الفكرة القومية» ، ومطالب «مبدأ القوميات » (١) .

ولاشك أن هذا التاريخ لاينسحب على نشوء الفكرة القومية للامة العربية، ذلك ان الأمة العربية كانت آنئذ مثقلة بمتاعبها مع العالم المسيحي ، وربما نستطيع القول ان نشوء (فكرة القومية العربية بمعناها التام قد بدأ في البلاد العربية ..... في النصف الثاني من القرن التاسع عشر) (٢) .

ولقد بدت مظاهر هذا الاتجاه حين بدأ العرب يضيقون بمعاملة الاتراك لهم وحين ضاقت أمورهم ، وبدأوا يشعرون باستغلال الاتراك لهم في الحروب. التي كانت تنهك العثمانيين . كما كانوا بفعل عوامل النهضة الحديثة يتأثرون بما يحدث في العالم الغربي الذي بدأت أممه تسعى إلى التحرر من أرتباطاتها بغيرها من الدول القومية ، وكانو أيضاً يسمعون عن اشتعال الوعي القومي الذي بدأت طلائعه تصل إلى كل مكان من العالم .

---

(١) ساطع الحصرى : نشوء الفكرة القومية ص ١٠ .

(٢) : المصدر نفسه ص ١٧٧ .

كذلك اتيح لبعض العرب المتنورين ان ينشئوا (جمعيات تطالب بحقوق العرب في السلطنة العثمانية

كالجمعية التي تأسست سنة ١٨٨١ باسم « جمعية حفظ حقوق الملة العربية» وقد نشرت نداءً إلى العرب . . . . تحت عنوان » بيانات الامة العربية) تدعوهم فيه إلى الاتحاد و لمطالبة بالحقوق القومية) (١) .

والحق ن هذه لجمعية كانت نواة لجمعيات تلتها بعدئذ حين أمعن الاتراك في قسوة العرب — ومن هذه لجمعيات : (العربية الفتاة) و (الجمعية القحطانية) وجمعية العهد وغيرها ، ولاننسى ان تفكير بعض العرب في أحقيتهم بالخلافة والمطالبة بذلك كان من الحوافز التي نبهت الاذهان إلى هذه الافكار وان كان مثل هذا التفكير ممتزجاً باعتقاد ديني .

ولاشك ان هذه الصورة التي أشرنا اليها تتفق تمام الاتفاق مع اولى مراحل المفهوم القومي العربي ، ذلك أن التفكير به لم يصل مرحلة النضج ، فمن جهة، كان العرب — رغم احساسهم بظلم الاتراك لهم — يرتبطون معهم بشعور ديني فياض ، تمثل عندهم بنظام الخلافة ، ومن ناحية أخرى لم تتبلور في أذهانهم المفاهيم القومية الحديثة التي شاعة في اوربا ، كما كانت العاطفة الدينية لاتزال تربطهم بالعثمانيين باعتبارهم مسلمين ، وتبعدهم عن الاوربيين باعتبارهم مسيحيين بل كان الكثيرون منهم يعتبرون الحرب التي شنتها اوربا على الدولة العثمانية امتدادا للحروب الصليبية

ولذلك بقي المفهوم القومي يرتبط لفترة طويلة بالمفهوم الاسلامي وكأنهما مفهوم واحد وقد أشار إلى هذه المسألة أغلب الذين أرخوا للحركة القومية وتاريخها الطويل (فالناحية الاسلامية بمدلولها الثقافي والتاريخي بقيت حتى الفترة الحديثة تخالط الحركة القومية وتتداخل معها ، ذلك لان الاسلام والعروبة ، اقترنا فترة طويلة قبل أن تتميز المسالك) (٢) .

---

(١) انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية ص ١٠٣

(٢) : منيف الرزاز وعبد العزيز الدورى وآخرون : دراسات في القومية ص ٢١

ويقول عبد المنعم خلاف (نحن أذن حين نجعل الدين أصلا من أصول القومية العربية ، انما نعتمد في ذلك على التاريخ المشترك لسكان هذه المنطقة والماضي الطويل الذي انحدر مع الزمان جيلا بعد جيل) (١) .

ولاشك أن ذلك الجيل من المفكرين لم ينزع من ذهنه هذا التفكير على اختلاف طبقاته ورجاله ، فالشبيبي محمد رضا كان يرى (الاعتداء على جزء من الدولة العثمانية اعتداء على الأسلام والمسلمين (٢) .

وقد كان الرصافي وحافظ وابو المحاسن ومحمد حبيب العبيدي والرافعي وغيرهم يضربون على هذا الوتر .

ومن هنا يمكن اعتبار اختلاط المفهومين القومي والاسلامي ، مرحلة أولى من مراحل الفكر القومي .

ومما يلفت النظر في هذا الشأن ، أن اقطاب الحركة القوميه الذين أسسوا الجمعيات السرية على عهد الاتحاديين والذين طالبوا بالحقوق القومية المشروعة للعرب كانوا يؤمنون بهذا المفهوم في كثير من منشوراتهم التي أصدروها.والواقع ان هذا الاتجاه لم يضعف أثره الا بعد أن اسقط الاتحاديون نظام الخلافة والغوا لقبها ونادوا بالدعوة الطورانية . وكان هذا الالغاء أيذاناً بالتنكيل بالعرب الذين رأوا في الخلافة آصرة قوية تجمعهم بالاتراك وبهذا ايضاً يسفر الاتحاديون الاتراك عن نيتهم في الدعوة إلى الطورانية ، مما أثار حفيظة الكثيرين من المفكرين العرب بالدعوة إلى القومية العربية .

وقد تجلت هذه الدعوة أول الأمر ببعض (صيحات أثنين من المفكرين الادباء وهما عبدالرحمن الكواكبي «١٨٤٩ — ١٩٠٢» وابراهيم اليازجي «١٨٤٧ — ١٩٠٦» (٣). ولم يقف أنيس المقدسي عند أثر هذين الرجلين في الدعوة إلى القومية العربية ، وانما يضيف اليهما أسماء جماعة آخرين منهم

---

(١) احمد فؤاد الاهواني : القومية العربية ص ٥٦.

(٢) قصي سالم علوان : الشبيبي شاعرا ص ٢١٨ .

(٣) انيس المقدسي المقدسي : الاتجاهات الادبية ص ١٠٣ .

أديب أسحق ويوسف النبهاني ونجيب العازوري الذي اصدر كتاباً أسماه يقظة الامة العربية » (١) .

غير أن هذه الدعوات لم تتبلور إلى مفهوم قومي ناضج الابعد الحرب العالمية الثانية : فقد كان العرب طيلة الثلث الاول في هذا القرن ينشغلون بمقارعة الاستعمار ومقاومة استبداد الحكام ،وخصوصاً ان الأمة العربية كانت قد تقطعت أوصالها بفعل معاهدة (سايكس بيكو) التي جزأت الوطن العربي إلى أجزاء متعددة تحت السيطرة الانكليزية والفرنسية ، ولذلك فقد انشغل المفكرون والادباء باثارة الحوافز الوطنية كل في قطره دون أن تجمعهم آصرة العروبة بشكلها الصحيح العميق . ولذلك فقد كانت تلك الصيحات أقرب إلى الناحية الوطنية منها إلى الناحية القومية الناضجة ، فكنا نجد شعراء العراق مثال الرصافي والجواهري والشبيبي يتوجهون بقصائدهم إلى الشعب العراقي ويثيرون نخوته الوطنية ضد الانكليز والحكام ، وكذلك وجدنا في مصر أمثال هذه الصيحات عند حافظ ومحرم والجارم وفي سوريا عند عمر أبي ريشة وغيره . وبذلك يشوب الدعوة إلى القومية دعوات وطنية تختلط بها لكنها تمدها بروح المقاومة والثورة .

وتنتهي الحرب العالمية الثانية ، وتبرز القضية الفلسطينية ، ويتنبه المفكرون العرب الى واقعهم ، ويشعرون معه أن المأساة الكبرى في واقعهم تكمن في الفرقة التي قضت من عضدهم ، وينادي الشعراء وعلى رأسهم الفلسطينيون الى توحيد الصفوف وجمع الكلمة ، ويستجيب الكثيرون الى الدعوة القومية الخالصة لتصبح أقرب الى العمق من تلك الدعوات التي اختلطت بمفاهيم دينية ووطنية ، وحيث ان العرب المسيحيين كانوا أشد اتصالا بأوربا من العرب المسلمين ، لذلك (نجد التفكير في القومية العربية بدأ عند العرب المسيحيين قبل أن يبدأ عند المسلمين منهم) (٢) .

---

(١) : المصدر السابق ص ١١٢ .

(٢) :ساطع الحصري : نشوء الفكرة القومية ص ١٧٧ .

ولاشك ان شعور الامة العربية بواقعها المتمزق ، المتمثل بالسيطرة الاستعمارية على اراضيها ، وكذلك شعورها بالواقع المتهرىء نتيجة هزيمتهم أمام أسرائيل مما انتهى بها الى معاهدة التقسيم ، كل ذلك قد حدا ببعض المفكرين الى تحسس الواقع من خلال منطلق جديد للمفهوم القومي الذي يقوم أول مايقوم على الدعوة لوحدة الامة العربية ونضالها ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية.

وانطلاقاً من هذا الواقع فقد سلك ، المفهوم القومي منعطفاً جديداً يتأثر من ناحية بالمفاهيم القومية الغربية اذ يتخذ من بعض فلسفاتها متكأ جديداً ولكنه يحاول ان يلائم بينها وبين حاجات الامة ومعطياتها الثقافية ، ومن ناحية أخرى يطرح عن هذا المفهوم القومي المعاصر ماعلق به من مفاهيم دينية وماأختلط به من عناصر الاقليمية او الوطنية الضيقة التي تعني بقضايا محددة بعيدة عن آفاق الفكر الناضج الذي يجعل من القومية مفهوماً واسعاً شاملا لايتناقض مع الدعوات الانسانية الشاملة.ولسنا هنا بصدد تقويم الاتجاه الآخر من الحكم عليه ، فهو لايعيننا في هذا البحث بقدر مايعنينا تجسيد الشعر له وتعبيره عن مضامينه ، والا فانه لابد من القول انه قد صارت له منعطفات جديدة حين تأثر ببعض المفاهيم والاتجاهات العالمية المختلفة ، مما أدى الى ظهور تيارات ومدارس جديدة لاتخفى على الواعين من ابناء الامة العربية .

وبعد فهل استطاع شعرنا الحديث ان يعبر عن المراحل المختلفة التي مرّ بها المفهوم القومي ، وهل تمكن شعراؤنا من تجسيد الأماني القومية التي نبضت بها قلوب الملايين من أبناء هذة الامة في مختلف مراحل تطور هذا المفهوم .

لاشك ان الشعر العربي قد عبر عما كانت تصبو اليه جماهير الامة العربية منذ أوائل هذا القرن وإنه قد رافق هذا المفهوم في مراحله المختلفة . ويكفي ان نلقي ضوء على بعض ماقيل من شعر قومي لندرك الى أي مدى كان

اختلاط المفهومين الديني والقومي ، وماقيمة هذا الاختلاط من الناحيتين الفكرية والنضالية ، ثم ماأثره في يقظة الامة ؟

فشعراء (مصر حافظوا على الوحدة الاسلامية والقومية في شعرهم ومن هؤلاء أحمد محرم وعبدا لمطلب وشوقي وحافظ وخليل مطران ، ومنهم شعراء لبنان كقول وصفي قرنفلي وهو مسيحي :

أوعار على فتى يعربي يتغنى بالسيد العدناني
أفكنا لولا الرسول سوى العبدان بئست معيشة العبدان) (١)

وحين اشتدت المحنة بدمشق سنة ١٩٤٧ وقف الشاعر العراقي محمد بهجة الاثري يصرخ بأعلى صوته غيرة على العروبة والاسلام فقال : (٢)

ياحرة لم تدن يوماً لاسرها ويافتاة المطاعيم المطاعين
ان العروبة والاسلام مافتئا هنا بواديك في عز وتمكين
هما جناحاك مد الله ظلهما على البرية من دنيا ومن دين

ويختلط المفهوم القومي بالمفهوم الاسلامي في أبيات أمين ناصر الدين التي يرد فيها على جريدة (أقدام) التي كانت تروج للطورانية ويقول : (٣)

أنسيت قدر العرب يا (أقدام) وهم على هام النجوم مقام
نحن الالى بنت النبوة بيننا ذاك البناء فازهر الاسلام
نحن الألي بلسانهم قد أنزلت آي الكتاب وذلك الالهام

ولعل الحروب التى كانت تستهدف تقويض الدولة التثمانية الاسلامية من اوربا المسيحية ــ والتي كانت تعتبر لدى العرب المسلمين امتداداً للحروب الصليبية منذ عهد صلاح الدين . كانت من اكبر الحوافز التي نبهت العرب الى خطر ذلك التهديد الصليبي ، وقد وضعت هذه المسألة امام العرب مسؤولية

---

(١) يوسف عز الدين : تطور الفكر القومي : ١٦ .

(٢) ملاحم وازهار : ص ١٩٥ .

(٣) انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية : ١٣٠ .

كبيرة وكأنها تمتحن موقفهم ، وكان طبيعياً ان تنتصر آصرة الدين حتى في احلك المواقف التي كان يشعر فيها العرب باستبداد الترك معهم وظلمهم لهم حتى (أن الشيخ فؤاد الخطيب الذي غدا بعد ذلك شاعر الثورة العربية الكبرى التي قامت ضد حكم الاستانة هو نفسه الذي يخاطب الترك بقوله :

اخواننا الاتراك مدوا لنا يداً
من الود انا قد مددنا لكم يداً (١)

ولاشك ان الذي يربط هذا الاخاء هو الدين وحسب .

ويختلط هذان المفهومان في شعر الرصافي بحيث انك لاتجد بينها حداً فاصلا حتى في حديثه عن الوحدة (٢) :

إذا جمعتنا وحدة وطنية
فماذا علينا ان تعدد اديان

اذا القوم عمتهم امور ثلاثة
لسان وأوطان وبالله ايمان

فأي اعتقاد مانع من اخوة
بها قال انجيل كما قال قرآن

ويظهر هذا الطابع المختلط لدى الشعراء المسيحيين بحيث يشكل ظاهرة ايجابية للوحدة القومية ، كقول الشاعر القروي : (٣)

انا العروبة لي في كل مملكة
انجيل حب ولي قرآن انعام

شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت
عروبتي مثلي الاعلى وإسلامي

وإذا كان الاسلام قد شد من ازر العروبة في مرحلة اختلاط المفهومين تلك بل هو قد غذاه وامداه بطاقة فكرية ضخمة وصار في كثير من اوقات المحن قاعدة صلبة ينطلق منها العرب توحده ثقافة عربية وإسلامية تضرب

---

(١) : عمر دقاق : الاتجاه القومي في الشعر المعاصر ، ٣٨ .

(٢) : ديوانه : ٤٠٢ و ٤٠٣ .

(٣) ديوانه : ٤٥١ .

بجذورها الى عصر الامويين والعباسيين ، فان هذا المفهوم القومي قد جابهه على النقيض من ذلك مفهوم آخر يفت من عضده ويخدعه بأسم الوطنية والتاريخ وعراقة الفكر ذلك هو الاتجاه الاقليمي الذي سعى الى خلقه الاستعمار وبه خلق (كيانات صغيرة متعددة في قلب العالم العربي وخلق اوطان متميزة تتسم حدودها بالقداسة وكان أبعد هذه النزعات خطراً الفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان)(١) وإذا (كان الشعر العربي قد اصيب بالتشرد عندما تسربت هذه الاختلاطات الموبؤة الى الجسد العربي في دور نقاهته حيث كان بعض الشعراء يمضون في اناشيد وثنية خادعة يهللون بها لأمجاد مزيفة...(٢)

في هذا الوقت بالذات ، وإزاء هذه الظاهرة المريضة والخطيرة ، يبرز الوجه الناصع للثقافة القومية في وحدة الموقف ، ووحدة الفكر ، ليقاوم تلك الدعوة المزعومة ، فإذا بنا نسمع صيحات الرصافي والاثري وحافظ ومردم والبزم ، ذودا عن العربية وفكرها .

والحق (ان التنديد لم يصدر عن شعراء مصر ، وانما صدر عن شعراء الشام والعراق بالدرجة الاولى (٣) ، فهذا هو الرصافي يقول : (٤)

من جور مصر على العروبة انها تتعمد التمصير في آدابهـا
من اين كانت مصر في اقباطها كمواطن الاعراب في اعرابها
ابت العروبة ان يفوق هزارها صرد زقى في مصر زقي غرابها)

على ان هذه الاصوات التي روجّت للاقليمية قابليتها أصوات أخرى مخلصة تدعو إلى الوطنية دون أن تمتلك بعد الرؤية الذي ينتهي بها إلى الدعوة القومية العميقة المتأثرة بالدعوات القومية الغربية من ذلك أبيات محمد بهجة الاثرى التي

---

(١) عمر دقاق : الاتجاه القومي : ١٠٤.
(٢) انظر : الادب في معركة التحرير والبناء :فؤاد الشايب : ٣٧٢ .
(٣) عمر دقاق : اتجاهالقومي في الشعر المعاصر : ١١٩ .
(٤) : ديوانه :١٧

تبدو فيها الروح الوطنية المتعانقة مع العروبة الصافية والتي يقول فيها. (١)

وطني بلاد الضاد حيث هفا به   نطق وان ادعى فتى بغداد

اني أوقع صلك تغديتي لها   بدمي وآنف خطه بمداد

ولاشك ان هذه الابيات تبين عن عواطف وطنية نبيلة تجاه الوطن. وقد يختلط هذا المفهوم الوطني الخالص مع المفهوم الديني بحيث لاتستطيع ان تفرق بين المفهومين وهذا يدل على ان المفهوم القومي بقي إلى نهاية النصف الاول من هذا القرن يتأرجح بين الدين والوطنية والعروبة. من ذلك ابيات الاثري الوطنية التي يقول فيها :—

الا في سبيل الله والوطن الغالي   بعادي عن داري وعرسي وأطفالي

أرى كل ماتحوى يداى لخالقي   به كل حق ثم للوطن الغالي .(٢)

ويبدوان هذه الابيات نظمت في المنفى حيث كانت سلطات العهد البائد قد أبعدت الشاعر عن بغداد، فحن اليها ونظم بشأنها قصيدته تلك. غير ان معالم الدعوة الواعية للقومية العربية بدأت تتوضح شيئاً فشيئاً من بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وعلى الخصوص بعد صدور قرار التقسيم، فسرعان ماامتد مفهوم القومية العربية اعصاراً قويا شديد التأثير في نفوس العرب حتى أولئك الذين كانوا يتحمسون للخلافة العثمانية ولعل السبب في ذلك، ان هذه أنطلقت من صميم ظروف العرب وانها كانت الرد الحاسم على الواقع المتهرىء الذي واجه الامة العربية. وقد اسهم الشعر الحديث في التعبير عن هذا التيار اسهاماً شديداً يدل على فهم صحيح للاتجاه القومي الواعي الذي انطلق من صميم مشاكل العرب ولايعني هذا ان تلك الدعوة لم تكن لها جذور ممتدة قبل اربعينات هذا القرن فهذا هو الكاظمي يدعو إلى وحدة العرب دعوة فيها فهم عميق يقول فيه : (٣):

ايها العرب تعالوا نلتقي   في طريق المجد حتى نصلا

---

(١) ملاحم وازهار ١٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٩٧

(٣) ديوانه : ٢٩٥/١ .

نلتقي تحت لواء واحد	سجل النصر له اذ سجلا
ونولي الامر فينا قائداً	يبعث العزم ويحيى الاملا

وترتفع عواطف العروبة في دم محمد مهدي البصير فيعبر عن استعداده للموت في سبيل العروبة اذ يقول. (١)

وغلى الدم العربي فيَّ فواجبي	تضميخ مجدى بالدم المهراق

ويصرخ خليل مردم بالعرب ويستفز نخوتهم من أجل عروبتهم ووحدتهم ويدعوهم إلى تحسسهم واقعهم في أبيات قوية شديدة ويقول: (٢)

بني العروبة كم من صيحة ذهبت	لو يستثار بها الموتى اذن ثاروا
ان الحوادث لو ادركتم عبر	فأين لاأين ألباب وأنصار
الرحم واشجة والدار جامعة	فلم تقطع أرحام وأقطار

وفي أبياته الثائرة القوية يدعو كاظم السوداني دعوة صريحة إلى استخدام القوة في الذود عن العروبة والوطن ويقول: (٣)

بني يعرب خلو السلم قد حانت الحرب	وأنتم بها اولى وأجدر ياعرب
بني يعرب نهضا ليس يجدى احتجاجكم	لقد جلت الجلى وقد عظم الخطب
سلوا جيوش الناهضين وحربهم	وكيف عن الاوطان في بأسهم ذبوا
غداة دعتهم غيرة عربية	وهل غيرة الا وقد سنها العرب

ويلاحظ في هذه الابيات التأكيد على عنصر العروبة. ومعنى هذا ان دارس الأدب لايستطيع ان يضع حدوداً محددة للظواهر الادبية اذ ان هذه الابيات نظمت في العشرينات من هذا القرن وهي تدل على وعي جيد لعنصر العروبة.

وجدير بالملاحظة ان التعبير عن المفهوم القومي يجيىء أحياناً بلفظة العروبة كما رأينا، كما يجيىء بلفظة القومية أحياناً أخرى، من ذلك مايقوله فوزي المعلوف تعبيراً عن المفهوم القومي:

---

(١) ابراهيم الوائلي : ثورة العشرين في الشعر العراقي : ٥١ .
(٢) : سامي الكيالي المصدر المصدر السابق : ١٥١ .
(٣) : ابراهيم فالوائلي . المصدر السابق : ٧٥ .

فلتحي قومية كانت لنا نسباً يضم اشتاتها مافاتنا النسب
ومن يكون بلا قوم يدل بهم فلا يشرفه دين ولا لقب(١)
وهذا أبو ريشة يقول :
هل ترى فوقها سوى كل حر يقحم الموت في سبيل العروبة
ويقف على رأس هذه القصائد القومية قصيدة ابراهيم اليازجي التي يقول فيها :(٢)
أولستم العرب الكرام ومن هم الشم المعاطس
وقصديته البائية وهي أشهر ماقيل في هذا المفهوم وفيها يقول :
تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب
أما اللهج بذكر العروبة بالتفكير القومي الناضج فيظهر في هذه الابيات للكاظمي ويقول فيها : (٣) :
امم العروبة لانجاة لمدبر يبغي النجاة ولاحياة لمحجم
كوني جميعاً فالتفرق لم يزل مذ كان من نذر القضاء المبرم
ضمّي القوى وتجمعي في وحدة عربية تحمي اللواء وتحتمي
أما الرصافي فهو من اكثر الشعراء تغنياً بالعروبة وامجادها وماضيها ويظهر ذلك في كثير من قصائده التي منها : الى الشبان ، ويقظة الشرق، وإلى الامة العربية ، وصبح الاماني ، وبعد النزوح ، ونحن والحالة العالمية ، ورؤيا صادقة، وقصر الحمراء ، وفي هذه القصائد من النضج في وضوح الرؤية ما يدل على طول باع الرصافي في هذا الشعر .
وهذا أبو الفضل الوليد يؤكد على مفهوم العروبة وأهميته فيقول :(٤)
الشام اخت للعراق وفيهما نور العروبة للضليل الناشد
اهلوهما ابناء عم كلهم عرب بآداب لهم وعوائد
ولسنا في عجلة من ايراد النصوص فلنا معها في الصفحات المقبلة صحبة طويلة.

---

(١) ديوانه: ٣٠
(٢) يوسف عز الدين : تطور الفكر القومي ١٠ - ١١" .
(٣) ديوانه : ٢٥١/١ .
(٤) عمر دقاق _ الاتجاه القومي ٢٤٧ .

ولعل من أشد ما اجتمعت حوله قصائد الشعراء هو هذا المفهوم الذي رأينا في قصائده نضجاً قومياً وبعدا واضحاً . ولولا أن يبرز هذا التيار بشكله الواضح العميق ، ولولا أنه رصد احداث العروبة ، ودعا ابناء الأمة إلى الوحدة وغيرها ، ولولا أنه جسد في فكره الواضح آمال الأمة العربية وآلامها ، وصور ماضيها وتغنى بمواقفها ، لولا ذلك كله ما كانت قلوب الشعراء في قصائدهم لتجتمع ولتجعل يقظتهم القومية قوة تحفزهم على النهوض من الكبوة الطويلة .

وهذه القضايا هي التي اجمع عليها الشعراء واجتمعوا ، فصارت موضوعات جديدة لم يألفها شعراء القرن الماضي حيث لم يكن أمامهم مايعبرون عنه في هذا المجـال .

ثالثاً : مضامين اليقظة القومية في الشعر الحديث :

١ ـ المــاضي :

وهذا هو البعد الأول الذي تجتمع عليه يقظتنا القومية وهو بعد يمتلك من العطاء والخلود ويكتنز من الفكر والعلوم مايجعل اثارته والرجوع اليه حافزا من الحوافز التي تنهض بوضع الأمة وتستفزها لتخطي مايمكن أن يكون عائقاً على النهوض .

ان الذين يتجاهلون حضارات العالم مخطئون وخصوصاً اذا كانت الامة بحاجة إلى ماتستند عليه وتنطلق منه في مجاهدة الواقع المتخلف .

وحين افاقت الأمة العربية من نومها الطويل في نهاية القرن التاسع عشر ، وجدت نفسها اسيرة ظروف صعبة تتقاذفها وتقذف بها إلى شاطيء المجهول ، وكان أشد مايؤلم المفكرين ان ينقطع ابناء الأمة عن تاريخهم الحضاري الحافل بالامجاد وبذلك بدا وكأن سلسلة من حلقات التاريخ العربي والاسلامي قد انقطعت وبانقطاعها تنفصل الأمة عن ذلك المجد .

وكانت صورة واقع الأمة مهلهلة ومعتمة يحيط بها ويؤثر فيها ثلاثة من العوامل: الاستعمار الاوربي الذي يحقد على امتنا والاحتلال العثماني بجهله وغبائه

وعنجهيته التي اضاعت فرصة العمر بخسارة العرب وثالثه الاثا في الأمة في ابنائها: جهل وضعف وخور في العزيمة وهذا كله يشكل افلاساً شديداً لايمكن تداركه الا بصعوبة .

فما العمل اذن ، وكيف يستطيع قادة الفكر والادب ان يغيروا معالم الصورة المشوهة وبأي شيء ؟

حين قامت اوربا بنهضتها الحديثة منذ نهاية القرن السابع عشر، كان ادباؤها ينهلون من تراث اليونان والرومان ماحقق لهم الخلود في انتاجهم.

فاذا ماالتفتنا إلى تاريخنا وجدنا ماهو اعظم مجداً واكثر عطاء في كل جوانب العلم، والمعرفة والفلسفة والاخلاق. ولسنا بحاجة إلى ان ندلل على هذا القول ولكننا نكتفي بالاشارة إلى ماأثر من تراثنا المجيد في اوربا نفسها بل يكفي ان نشير إلى بعض ماأثر تأثيراً شديداً في فكر الغرب وأدبه من مثل قصص الف ليلة وليلة وقصة معراج الرسول وكتاب الفتوحات المكية وغيرها من المصادر التي كان لها صدى بارز في اعمال الكثيرين من ادباء الغرب ومفكريهم ولاشك اننا أحق بأن نفيد من هذا التراث لاننا اقرب من غيرنا اليه ولانه بالنسبة لنا يمثل الاصالة المتكاملة ولانه يعبر عن بيئتنا كل التعبير وبذلك تنطلق من المنطلق نفسه ونضرب على الوتر عينه ونستعيد ماكان لنا من صور الماضي بكل مايحمل من عطاء زاخر .

والحق ايضاً ان امتنا لم تستطع النهوض من كبوتها الا بعد أن اجتازت الاختبار الكبير الصعب، وكان من حسن الحظ انها اجتازته بنجاح بعودة البارودي وشوقي ومطران والرصافي والجواهري وابو ريشة وغيرهم إلى تراثنا الادبي الذي كان خير منطلق والذي ادى بعد ذلك إلى تأكيد شخصيتنا الثقافية ومعايشة العصر وقد احسن هؤلاء اختيار الطريق تماماً كما فعل شعراء الكلاسيكية في اوربا. لكن المهم عندنا هنا هو ان هؤلاء اجتمعوا على مايحفز ابناء الامة ويقيلها من عثرتها وينهضها من كبوتها فوصلوا الحاضر بالماضي

وتغنوا بالمآثر واعتزوا بالابطال وطاولوا بالفتوحات وفخروا بالامجاد وذكروا الصورة المشرقة والاعمال الكبيرة ونفضوا عن الصورة التي قدم بها العهد الغبار الذي ضيع بعض معالمها فكان لنا ذلك خير حافز ومنه استمد ابناء امتنا القوة والعون . من ذلك اعتزاز حافظ ابراهيم بعمر بن الخطاب في عمريته المشهورة التي يقول فيها : (١)

هذي مناقبه في عهد دولته ... للشاهدين وللاعقاب احكيها
لعل في أمة الاسلام نابته ... تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى في بعض ماشادت اوائلها ... عن الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها ان ترى ماكان من (عمر) ... حتى ينبه منها عين غافيها

وهكذا يحاول حافظ أن يجلو صورة الماضي من أجل بناء المستقبل .

وفي استلهام التاريخ تبرز وحدة الافكار فاذا بالشعراء يكثرون من الاعتزاز بالامجاد والزهو بالابطال والاشادة بالمعالي والافتخار بذكر العروبة ومن هذا القبيل قصيدة (الأمة العربية) للرصافي التي يقول فيها (٢) :

العرب اكبر أمة مشهورة ... بفتوحها وعلومها وبيانها
فالمجد مأثور بكل صراحة ... عن قيسها ابداً وعن قحطانها
وهم الالى خضعت لهم امم الورى ... من تركها طرا إلى اسبانها
والروم قد نزلت لهم عن ملكها ... والفرس عما شيد من ايوانها

فالرصافي يؤكد هنا على الفتوحات وهو حافز كبير يعيد إلى الاذهان مواقف العرب وبطولاتهم . وقد ربط هذا بلفظة العرب .

ويقول مصطفى الغلاييني (٣) :

وسل ان جهلت العرب اندلساً وما ... أقاموا من الامجاد فيها وبقوا

ومن أشد الشعراء اعتزاز بامجاد العرب الشاعر محمد حبيب العبيدي الذي

---

(١) ديوانه : ٧٧/١.
(٢) ديوانه : ١٣٩ .
(٣) ديوانه : ١٠٥

امتلأت قصائده باستعراض تاريخ العرب وفتوحاتهم وهو في هذه القصائد يفاخر الأمم بما قدم الاجداد . وها هو في هذه القصيدة يستعرض كبار الوقائع والاعمال التي خلفها العرب (١) فقال :

ونحن اباة الضيم من مهد تبع ... اذ الناس غربان ونحن نسورها

. . . .

عبرنا لافريقيا وهي منيعة ... يعز على قوم سوانا عبورها
فقرطبة في الغرب تزهو نجومها ... وفي الشرق بغداد تضيء بدورها
خلقنا بسيف العدل سيف حضارة ... يشعشع حتى الان في الكون نورها

والقصيدة طويلة وكلها على هذا النمط من الفخر والزهو بمآثر الاباء والاجداد. ولاشك ان طرق هذه الموضوعات يساعد على النهوض ويحفز الهمم لان القول فيه يقوم على الخيال وانما هو يجسد الواقع التاريخي الذي شهد به الاعداء ومنه أستفادوا . وفيما عدا الاشادة بالفتوحات والتغني بالبطولات اجتمع الشعراء على المباهاة بالتاريخ بصورة عامة حتى لنجد الكثير من القصائد التي استوحت من التاريخ العربي العام معانيها وافكارها وصارت هذه القصائد حوافز شديدة في وقت كانت الأمة العربية بامس الحاجة اليها

من ذلك قصيدة بشارة الخوري التي كانت لها رفع قوي والتي يقول فيها :(٢):

سائل العلياء عنا والزمانا ... هل خفرنا ذمة مذ عرفانا
المرؤات التي عاشت بنا ... لم تزل تجري سعيراً في دمانا

وقدصارت هذه القصيدة من الاناشيد التي تغني بها العرب ، ومثلها أيضاً قصيدة خليل مردم التي يقول فيها : (٣):

نفوس اباة وماض مجيد ... وروح الاضاحي رقيب عنيد
فمنا الوليد ومنا الرشيد ... فلم لانسود ولم لانشيد

---

(٢) ديوان ذكرى حبيب: ٨٥ .

(٣) : ديوان الهوى والشباب : ١٦٥ .

(٤) ديوانه ٣٦٩ .

ويعتز ناجي القشطيني بما كان للعرب من عز وبما طاولوا به من فتوحات ويضرب لذلك أمثله فيذكر كيف دالت دولة الفرس على يد العرب وكيف دخلوا أفريقيا ويعتز بتاريخ أمته العظيم المشرق ويقول : (١)

فسل دولة الفرس عن عزنا وكيف احتفظنا بايوانها
وسل مابنينا بافريقيا من بني او ربا ورومانها
وان شئت فانظر تواريخهم تجد فضل قومي - بعنوانها
وهل أمة ماسوى أمتي جميع العلوم بقرآنها

وهكذا تكون العودة إلى التاريخ عنصراً مهماً من عناصر الحفز ومجالا واسعاً تلتقي عليه يقظتنا القومية .

والجدير بالاشارة ان استلهام التاريخ لدى شعرائنا المحدثين لم يكن منقطعاً عن الواقع ، وهذا منطلق صحيح لان الاعتماد على التاريخ انما جاء لخدمة الحاضر وتغيير ملامح صورته . ومن هنا ارتبط الحاضر بالماضي فاذا بشعرائنا يربطون بين قضايا امتهم وبين مايمكن ان يرتبط بها كحافز من الحوافز من ذلك قول الياس قنصل : (٢)

انرضى الهوان ونحن قوم ملاءنا صفحة التاريخ فخرا
ايرهبنا الحديد وقد بنينا بحد السيف مجداً مشمخرا

كذلك التقت يقظتهم القومية في النظرة إلى التاريخ نظرة شاملة ، فهم لم يعكسوا صور الفتوحات والبطولات وحسب وانما اشاروا إلى الجوانب المشرقة الاخرى من الحضارة العربية .

فهذا رشيد أيوب يشير إلى تفوق العرب وسيادتهم ولكنه لم ينس الجانب العلمي الذي ارتفعت به ناصية العرب فقال : (٣)

فكم من دولة سدنا وشدنا بهمة أحد من البيض الرقاق مضاربا
فما روت الايام من عهد آدم إلى اليوم عن شعب يفوق الاعاربا

---

(١) ديوان اللهفات : ٥٩

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٣ .

(٣) احمد الحوفي : وحدة الثقافة والتاريخ ٣٤٠ .

وحين يتحدث عبدالمسيح الانطاكي عن العرب يشير إلى روعة ادبهم وكرم اخلاقهم وتحقيقهم الحرية والاخاء والمساواة . وهي جوانب انسانية طالما دعى اليها مفكروا الغرب وساستهم . وفي ذلك يقول : (١)

تنبيك آدابها عنها وقد بقيت — مروية عبرة كبرى لقاريها
أما شمائلها الغراء التي بلغت — بها الفخار فليس العد يحصيها
فمن مكارم اخلاق الى كرم — إلى النفوس تناهت في تعاليها
ان عاهدت حفظت رغم الزمان عهو... — د الاصدقاء بالأرواح تغديها
بالاشتراكية الكبرى فلا.. رتب — تنسيء ذوي الجاه منها عن ادانيها
ولا ضخامة القاب تميز من — بين الاعارب علويها وسفليها
وان أحكامها شورى يصح لها — شيوخها اذ تنادى مستشاريها

وهكذا لم يترك الشاعر مكرمة من المكارم ولا مأثرة من المآثر ولا صورة من روعة الخلق وحسن التعامل الا واشار اليه وهذه المعاني كثيرة قل من الشعراء من لم يتطرق اليها . ولاشك انها تشكل حوافز في وقت كنا بأمس الحاجة إلى هذه الحوافز لان اليقظات القومية تبدأ عادة بتذكر التاريخ القومي وبالاهتمام به اهتماماً خاصاً) .(٢)

الحاضر :

الكلام الذي اشرنا اليه في معرض الحديث عن الماضي والذي عكس صورة الامه العربية في بدء نهضتها قد القى على عاتق الشاعر العربي مسؤولية جسيمة ذلك لان الشاعر اشد شعورا من غيره بما يجرى حوله ثم انه اكثر احساسا بالذي يجرى ولعله ايضا يمتلك قوة ابعد في الرؤية يضاف إلى ذلك كله مايتيح له ثقافته من تمثيل دور الطليعة في النضال، كل ذلك يشكل امام الشاعر مسؤولية قومية يستطيع بها ان يؤدى دوره في خدمتها .

وقد تجلى ذلك في وحدة مواقف الشعراء وفي يقظتهم القومية ايضا . ولعل خطورة الاحداث التي مرت بها الامة العربية في مطلع هذا القرن هي التي

---

(١) سامي الكيالي : الادب العربي المعاصر في سوريا ٨٥ .
(٢) ساطع الحصرى : الوطنية والقومية ٣١ .

وحدت بين هؤلاء الشعراء (وقد ظل موضوع استنفار العرب وحضهم على الثورة .. يحضى باهتمام شعراء الشرق العربي طيلة العهد الاستعمارى ، وهذه الظاهرة في الشعر المعاصر تشير إلى ريادة الشعر للوجدان الجماعي في نفوس العرب واسهامه في زرع بذور الوعي القومي والتمهيد للانتفاضات الشعبية في العالم العربي ولئن اختلفت الاراء حول مدى تأثير الشعر في توجيه ضمير الامة واثارة مشاعرها القومية ليس بوسع احد ان ينكر الدور القيادى للادب في هذا المجال) . (١)

لقد خرجت الامه العربية بعد الحرب الاولى خاصة منهكة القوى مقطعة الاوصال وزادها سوء انها راحت ضحية التآمر الاستعمارى الذي جزء ارضها الكبيرة الى دويلات هزيلة يسيطر عليها الاستعمار اويسوسها حكام هزيلون ربطوا انفسهم بقدر غيرهم وهم لاهون بحظهم من الحياة عن الامة التي يتقاذفها فقر وجهل .

وكان الشعراء انئذ يمثلون الطليعة الواعية المثقفة فوقفوا يجسدون امال الامة ويدعون إلى مقاومة الاستبداد ومقاومة الاستعمار وطرد الاحتلال من البلاد. من ذلك ما قاله الشاعر مصطفى الغلاييني يفضح اساليب الاستعمار ويكتب عن حقيقتها (٢)

لاتخدعونا بالفاظ اذا سمعت ... تحلو وان تختبرها مر معناها
فما (الحماية) الا السهم يقصدنا ... وما (الوصاية) الا النار نصلاها

ولعل من إجراء الشعراء في حملتهم على الانتداب ، الرصافي وقد عرف الرجل بمواقفه الصلبة التي لاتلين ، وقد شن حملة قاسية في عشرات من قصائده على الاحتلال والانتداب .

ومن ذلك قوله : (٣)

---

(٢) عمر دقاق : الاتجاه القومي ٣٣٩ .
(٣) عمر دقاق : الاتجاه القومي ٢٧٩ .
(١) ديوانه : ٣٢٩ .

يأهل لندن مـاأرضت سياستكم اهـل العراقين لابدوا ولا حضرا
ان انتدابكم في قلب مـوطننا جرح نداويه لكن لم يزل غبرا
لم يكفه انه للحكم مغتصب حتى غدا يقتـل الاراء والفكرا

ويتصل بهذا ، الكلام على المعاهدات والاحلاف التي ربطت العرب بعجلة السياسة الاستعمارية . ولعل شعراء العراق كانوا اسبق من غيرهم الى هذا الميدان نظراً لكثرة ماربط فيه بلدهم بها وللظروف الصعبة التي واجهها العراقيون من سياسة الانكليز . وهذا هو الجواهري يتهكم في تصويره للمحتل في معاهداته واحلافه فيقول : (١)

و (تصريح) يمـطـطـه قـوى كلـوح الطـين اذ يدحوه داح
و (حلف) لست ادري من ذهول أ عن جـد يدبـر ام مـزاح
ولست بعارف ابـداً حليفـاً يـهـدده حليـف باكتسـاح

وحين يصور الزهاوي المعاهدات العراقية الانكليزية تضيق نفسه فيقول :(٢)

الشعب بالقيد الثقيل مكبـل حتى يكـاد اذا تحـرك يقعـد
تلغـى معـاهدة وأخـرى تعقـد والشعـب يستفتـى لها ويهـدد

وفي هذا البيت الطريف يحسن الرصافي تشبيه طرفي المعاهدة فيقول (٣) :

والعهـد بين الانكليز وبيننـا كالعهـد بين الشاة والرئبال

ولاشك ان هذه القصائد قد اسهمت (في تعميق الشعور بالخطر لدى الجماهير ، وتبصير العرب بما يحيق بهم من مكر وسوء . ، كما ساعدت في تكوين الوجدان الجماعي العربي عن طريق تركيز الوعي السياسي والافكار والمفاهيم الاجتماعية).(٤)

والجدير بالملاحظة ان هذا الاتجاه في الشعر القومي قد كثر كثرة ملحوظة لدى كل شعراء الامة العربية وخصوصاً من بعد الاحتلال الانكليزي والفرنسي

---

(١) ديوانه : ١٣٨ .
(٢) ديوان الاوشال : ١١١ .
(٣) ديوانه : ٥١٢ .
(٤) عمر دقاق ـ الاتجاه القومي ٢٨٩ .

للعراق وسوريا ومصر ومن هنا فان هذا الاتجاه في الشعر السياسي يشكل انعطافاً خطيراً في الشعر القومي . وما من شعر اجتمعت عليه يقظتنا القومية في هذه الفترة كهذا الشعر ، لان ماقبله كان يتلهى بموضوعات الخلافة والتعبير عنها والالتفاف حولها . ولكن الفترة التي امتدت من نهاية الحرب الاولى حتى منتصف هذا القرن تميزت بهذا الطابع القومي وخصوصاً بمقاومة الاستعمار وفضح اساليبه الملتوية المصطنعة وهذا يؤكد التحول الكبير في فكر القصيدة السياسية ولعل ذلك ان يتبلور اكثر حين تبرز المشكلة الفلسطينية التي احتلت اسمى مكان في شعر شعرائنا المحدثين كما سنرى .

على ان هذا النضج في الفكر القومي لم يترك الشعراء في مجابهة مع الاحتلال والانتداب فحسب ، فقد كان اولئك يدركون ان ماحل بالبلاد من فساد وتخلف ، ليس سببه الاستعمار فقط ، بل سببه الحكام المتواطئون معه . يضاف الى ذلك ان الشعراء ربطوا بين حال البلاد وبين القائمين على امرها ومن هنا تناولوا الحكم بالنقد والتجريح ، والتهكم والتنديد .

من ذلك قصيدة (بغداد في الاسر) لام نزار الملائكة وفيها تندد بالعسف والطغيان وتفضح اساليب الحكام فتقول (١) :

سجلي ياحياة عهد الطواغيت ... واكتبي العز بالدم السكاب

جرعوها الاس صنوفا فعانت ... غمم الذل والردى والعذاب

ارهبوها بالكيد في حلك الليـ ... ـل وبثوا السموم بين الروابي

احكموا حولها القيود فباتت ... من اسار الطغاة في جلباب

افزعوا الامنين بالنفي والشنـ ... ـق وجاؤا بكل ظلم عجاب

حشروا في السجون ابطالها الصيـ ... ـد وغلوا جحافلا للشباب

---

(١) ديوانها : انشودة المجد ١٠٧ - ١٠٩

والقصيدة طويلة وكلها تجري على هذا النمط من تصوير الحياة السياسية ، والتنديد بأساليب الحكام .

ويحتل الرصافي في هذا المجال مكان الصدارة بين شعراء العروبة. وقد سجل في شعره السياسي والاجتماعي صوراً حية باساليب مختلفة ، امتلكت قوة التأثير وروعة التصوير، كقوله يتحدث عن الوزارة ايام الحكم الملكي، وفيها يربط بين الحكام وبين الانكليز (١):

ان الوزارة لاابالك عندنا ثوب يفصل في معامل (لندنا)
لايرتديه سوى امرىء اضحى له طبعاً وداد الانكليز وديدنا

ويتوعد الجواهري في هذا البيت الحكام الفاسدين فيقول :(٢)

لابد ان يثب الزمان وينثني حكم الطغاة مقلم الاظفار

واقتران هذا النقد للحكم بالتحريض على مجابهة الاستعمار، والثورة عليه، ظاهرة طبيعية لان منطلقها وحدة الفكر القومي، التي لاتفرق بين طغيان الحاكم وقهر المستعمر. ومن هنا كان اختلاط الموضوعات السياسية في معانيها المختلفة، ولاضير في ذلك، لان الهدف في كل الاحوال تطهير بلاد العروبة من الاستعمار وظلالة الحكام.

ولعل اخطر المسائل التي ارتبطت بحركة الجماهير العربية هي مسألة فلسطين وقد زادت مأساتها شعبنا العربي قدرة على التحمل كما حققت وعياً قومياً لم يسبق له مثيل، وعززت نضاله، وعمقت تنظيماته الفكرية والسياسية، ومن هنا شغل الادب العربي وشعره بخاصة، نفسه بها، بل لقد ارتبط الشعر بها ارتباطاً عضوياً لاعهد له بمثله من قبل.

وجدير بالذكر أن الشاعر العربي قد التفت إلى هذه القضية منذ ثلاثينات هذا القرن، وان موقف شاعرنا المعاصر هو وليد جيل من الشعراء رافقوا عز الدين القسام وثورته، وان شعراء العروبة كلهم أدلوا بدلائهم في معالجة هذه

(١) ديوانه : ٤٩٦ .
(٢) ديوانه : ١٢٠.

المسألة وبيان خطرها. فاذا كان الامر كذلك فانه يصير دليلا على وعي شاعرنا الحديث وعلى يقظته القومية، لان القصيدة العربية الحديثة قد رافقت المشكلة الفلسطينية وهي في مهدها الاول. ولذلك فانه من الصعوبة بمكان ان يستطيع دارس الادب استقصاء كل ماقيل بشأن هذه المسألة.

والحق أيضاً ان مامن شاعر في قطر من أقطار العروبة، قد أهمل معالجة المشكلة الفلسطينية، ولعل السبب، أنها استطاعت توحيد جهود الشعراء على مختلف مذاهبهم واتجاهاتهم، الفكرية، القومية والدينية ومن هنا كانت هذه الكثرة الكاثرة من الشعراء الذين عالجوها بروح قومية تمتلك الاصالة والعمق.

ولو شئنا ان نتابع قصائد الشعراء الفلسطينيين لاتعبتنا المتابعة ولكننا نذكر على سبيل الاستشهاد محاولة الشاعر ابراهيم طوقان ايقاظ قومه بتذكيرهم بخطر الهجرة اليهودية اذ يقول: (١)

بني وطني هل يقظة بعد رقدة وهل من شعاع بين تلك الغياهب
يهاجر ألف ثم ألف مهربا ويدخل الف سائحاً غير آيب
هو الالف لم تعرف فلسطين ضربة أشد وأنكى منه يوماً لضارب

الا تدل هذه الابيات على وعي عميق للمشكلة الفلسطينية؟ لاشك في ذلك وأشد من ذلك وعياً تنبيه الشاعر نفسه على خطر بين الارض التي كانت بداية الاستيطان لليهود ،وهو وعي يدل على فهم للخطر الذي يتهدد العرب من جرائه،ويقول:(٢)

يابائع الارض لم تحفل بعاقبة ولاتعلمت ان الخصم خداع
لقد جنيت على الاحفاد والهفي وهم عبيد وخدام واتباع
وغرك الذهب اللماع تحرزه ان السراب كما تدريه خداع

ولقد لهج شعراء فلسطين بذكر قرار التقسيم واستنكروه وبكوا من أجله ولاموا الحكام والأمة بسببه من ذلك قول محمود الحوت رافضاً ماقرره المتفقون عليه:(٣)

(١) كامل السوانيرى : الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين : ٢٠٧ .
(٢) : المصدر نفسه : ٢٠٨ .
(٣) المصدر نفسه : ٤٤٤ .

قـل للألى اتـفقـوا عـلـى تمزيقهم وطـن الحـدود
ان الـقـرار سيمحـي بـدم الشهيـدة والشهيد

ويبكي عيسى الناعوري ماحل بفلسطين بعد التقسيم في ابيات مؤثرة فيقول : (١)

لهفي على وطن الاباة تمزقت أشلاؤه ببرائن الظلام
وديـاره واحسـرتـاه لديـاره حمل تمزق في يد الضرغام
عاث الغريـب بها وشـرد أهلها فتشرقـوا في الارض كالاغنـام

وهكذا تمتلك هذه القصائد بعداً في الرؤية ووعياً للمشكلة وتقديراً لخطرها وكأن هؤلاء الشعراء كانوا يتنبأون بما سيحل بالامة بعد قرار التقسيم .

وينقم الشاعر أبو سلمى على الحكام العرب الذين باعوا الارض المقدسة ودنسوها حين خانوا القضية الكبرى فيقول : (٢)

يارفاق الدهر هل فـرقكم في الورى عاذر عدو أم محب
زعماء دنـسـوا تـاريخكم وملـوك شـردوكم دو ذنب

وللشاعر مصطفى الكيلاني قصيدة مماثلة (٣)

ويثور مصطفى الكيلاني على العرب ويحرضهم على حمل السلاح لاستعادة الحق المغتصب ويقول : (٤)

بني يعرب ماللسيف في كفكم نبأ فما أضيع الامال فيكم وأفينا
أيعرب يدري أن غدوتم أذلـة لعمري لقد سودتُم وجه يعربا
فلا تدعوا ـميناً ـ أبوه يعرب أعوذ بربي أن يكون لكم أبا

وهكذا يبدو التأكيد على عنصر العروبة في هذه الابيات وذلك لان المشكلة الفلسطينية ارتبطت بها منذ بدايتها .

---

(١) المرجع السابق : ٤٥٧ .
(٢) المرجع نفسه : ٤٥٩ .
(٣) تراجع في المرجع نفسه ص ٤٦١ .
(٤) المرجع نفسه : ٤٦٢ .

وفي المعنى نفسه (الحض على الثورة) قصائد كثيرة لعبد الرحيم محمود وإبراهيم طوقان وعبدالرحمن كيالي ووهيب رشيد العطار وأبو سلمى (١) .

وقد أثارت قضية فلسطين موضوعات كثيرة ومعاني عديدة ، ولعل من أهم المعاني التي تدل على يقظة قومية عميقة التأكيد على التضامن والإخاء . من ذلك قول إبراهيم طوقان : (٢) :

لاتفتحوا باب الشقاق فإنه ... باب على سود العواقب مغلق
والله لايرجى الخلاص وأمركم ... فوض وشمل العاملين ممزق
أين الصفوف تنسقت فكأنما ... هي حائط دون الهوان وخندق
أين القلوب تآلفت فتدافعت ... تغشى اللهيب وكل قلب فيلق
أين الاكف تصافحت وتساجلت ... تبني وتصنع للخلاص وتنفق

وقد أشار إلى هذه المعاني أغلب الشعراء الفلسطينيين بل مامن موضوع يخطر على بال الا وقد عالجه الشاعر الفلسطيني بوعي الفكر وعمق النظرة وحرارة العاطفة وصدق التجربة.

اما شعراء الاقطار العربية فقد هبوا مسرعين يعبرون عن الوجدان الجماعي الذي يؤكد اليقظة القومية ، واذا كان الشاعر الفلسطيني قد عاش الاحداث بنفسه فان الشاعر العربي في كل اقطار العروبة قد عاشها بوجدانه ، فهذا علي الجارم يفدى نفسه من اجل قلب العروبة النابض ، ولذلك فهو يحرض أبناء العروبة على الجهاد ويدفعهم إلى الموت ويقول : (٣)

نفسي فداء فلسطين وما لقيت ... وهل يناجي الهوى الا فلسطينا
قلب العروبة ان تطعنه زعنفة ... كنالها ولاشقاها طواعينا
بني العروبة هذا اليوم يومكم ... سيروا إلى الموت ان الموت يحينا

في الموت حياة للعرب.... هكذا يرى علي الجارم بوعيه ويقظته ، ان افكار الشعراء في قصائد فلسطين لترتفع عن المستوى المطلوب في فكرها وعاطفتها.

---

(١) تراجع في المرجع نفسه : ص ٢١٥ – ٢١٩ .
(٢) المرجع نفسه : ٢١١ .
(٣) المرجع السابق : ٤٩٤ .

ولقد اختلفت مواقف الشعراء احياناً تجاه نكبة التقسيم فلقد استدرجت العاطفة الصادقة بعض الشعراء اوقل أغلب الشعراء فاذا هم يبكونها دماء و دموعا فهذا هو الشاعر عمر أبو ريشة يقف خاشعاً حينا باكيا حيناً آخر، اذ هو يسمع بما جرى لارض فلسطين ويقول: (١).

أمتي هل لك بين الامم منبر للسيف أو للقلم
اتلقاك وطرفي مطرق خجلا من أمسك المنصرم
ويكاد الدمع يهمي عابثا ببقايا كبرياء الالم
أمتي كم غصة دامية خنقت نجوى علاك في دمي

وفي المعنى نفسه يتوجع الشاعر أنور العطار فيعبر عن ألمه ويقول : (٢)

عليك سلام العرب ينذي مواجعاً ويشرب دمع العين غرباً إلى غرب
يا طول شجوي ان خلصت إلى ولم ترجعي يادارة العرب للعرب

ويتصدى خالد الشواف – من العراق – لهذه القضية وينعى على الذين اسهموا بخلقها ويتهكم بالواقع العربي ويقول : (٣)

بالأمس كانت فلسطين قضيتنا والقدس في يومنا والباقيات غدا
ساسة العرب سقيتم شعوبكم من كرمة الخير القتال ماقصدا

ومثل هذا المعنى عند الجواهري وام نزار والجواهري وغيره .

ويتحسر الشاعر السعودي فؤاد شاكر على ضياع فلسطين ويقول : (٤)

واضيعتاه وواها أيها العرب فيم الجمود وهذا الكون يصطخب

ومثل ذلك للشاعر السعودي حسن القرشي وطاهر زمخشري وابراهيم هاشم ومحمد حسن عواد.ولعل من المهم ان نشير إلى قصيدة مطلعها :

اصبري في الحادث المستفحل انما العزة ان تستقتلي

---

(١) المرجع السابق : ٥١١ .

(٢) المرجع السابق : ٥١٤

(٣) المرجع السابق : ٥٢٥ .

(٤) المرجع نفسه ص ٥٣٤ .

كان الشاعر العراقي محمد بهجة الاثري قد نظمها وهو يتنبأ بالخطر الذي ينتظر أرضنا المقدسه (١) .

ولو حاولنا ان نمثل لشعراء الاقطار العربية كلها لطال بنا الوقت ولكننا نكتفي بذكر بعض من نعرف أنه عالج المسألة الفلسطينية خلال النصف الاول من هذا القرن وهم : من الكويت عبدالله زكريا الانصاري ومن حضرموت: أحمد السقاف وعلي أحمد باكثير ومن السودان عبدالرحيم عثمان ومن ليبيا أحمد فؤاد شبيب ورفيق المهدوي ومن المغرب محمد اليمني وصالح الخرفي ومن المهاجر الامريكية الياس فرحات وجورج صيدح والشاعر القرويَ ومن مصر العوضي الوكيل ومحمد عبدالغني حسن ومحمد الماحي وكمال النجمي ومحمود حسن اسماعيل واحمد زكي أبو شادي وغيرهم .

المستقبل :

الحديث عن المستقبل يتعلق بمصير الامة وحلم الاجيال بتجسيد آمالها وبناء مستقبلها والعمل على اسعاد الابناء وتحقيق مايصبو اليه الاحفاد .

ولئن استطاعت امتنا ان تحقق انتصاراتها بطرد المستعمرين من البلاد وتحقيق حياة افضل لجماهير الامة الا أنها من جانب آخر خاضت ولاتزال تخوض أشد المعارك ضد التخلف والرجعية والصهيونية وليس سهلا على امتنا ان تنهض بأعباء هذه المعارك وهي ممزقة الاوصال مفككة الاجزاء . والاستعمار بدوره يدرك ذلك ولهذا فانه طالما استهدف امتنا بتفريق الشمل وبث الاحقاد بين ابناء الوطن الواحد وامتنا تدرك هذا منذ خرجت من الحرب العظمى الاولى أوصالا ممزقة ودويلات مفرقة . ولذلك كان حلم الاجيال ولايزال ان تلتئم هذه الامة في وحدة واحدة تسد كل ثغرة وتقطع على الاعداء كل فرصة للنيل من كرامتها وعزتها.

---

(١) ديوان ملاحم وازهار : ١٣٠.

وقد اسهم شعرنا الحديث في الدعوة إلى هذا الهدف النبيل وراح الشعراء منذ مطلع هذا القرن بل ومن قبله يحضون ابناء الامة على بناء الوحدة العربية ويجسدون في قصائدهم احلام الامة وعواطفها القومية واهدافها الانسانية.

ومنذ اكثر من نصف قرن دعا الكاظمي دعوة صريحة إلى اقامة الوحدة ببنائها تحت علم واحد وقائد واحد وقال : (١)

ايها العرب تعالوا نلتقي في طريق المجد حتى نصلا
نلتقي تحت لواء واحد سجل النصر له اذ سجلا
ونولي الامر فينا قائدا يبعث العزم ويحيي الاملا

— — — —

هو للدين وللدنيا يد تطلق الايدي وتبرى الشللا

واذا كانت المفاهيم الدينية تختلط في هذه الابيات مع المفاهيم القومية فذلك لان القومية العربية لم تتضح فيها آنئذ خطوطها الفكرية كما هي عليه الآن . الا انه مما لاشك فيه ان هذه الابيات تصدر عن حس عربي خالص وتؤكد حرارة العاطفة القومية .

ومن الانصاف ان نذكر ان هدف الوحدة الذي تدعو اليه جماهير امتنا العربية في كل اقطار العروبة ، كان الامل الذي داعب شعراءنا ومفكرينا قبل نصف قرن من الزمان وأكثر ، وكانت العواطف الصادقة هي التي تهتف به وتدعو اليه .

من ذلك الدعوة الصريحة التي نادى بها الشاعر العراقي محمد بهجة الاثري بقوله : (٢) .

لعمر العلى لن يبلغ (العرب) العلى
وهم فرق شتى وشمل مدمر

---

(١) ديوانه : ١/٢٩٥.
(٢) ملاحم وازهار : ١٨٩ .

ألا فاسلكوها وحـــــدة عربيـــــــة

لها من هدى الاسلام روح ومظهر .

واذا كان اختلاط المفهومين ، العربي الاسلامي ، واضحا في هذه الدعوة فان في أبياته التالية دعوة عربية تمتلك الوعي الصادق : (١)

الزغـــاريـــد هاتفات سرورا والاغاريد هازجات هــــديلا
لمست في بغداد روحــا يعربيا فأوسعته قبــــــولا
تلك بغداد في ذراها ونجد وبلاد الشام عرضا وطولا
ان ماكان أمس حلما تجلى واقعيا وصدق التأميـــلا
يكذب المرجفون ما ثم الا أمة وحدت هــوى وسبيلا

لاشك ان في هذه الدعوة فكرا واعيا وعاطفة صادقة. ويبقى من المهم ان نعرف ان شاعرنا هذا قد نظم ابياته هذه والابيات التي سبقها سنة ١٩٣٦ ولهذا التاريخ أهمية في الحكم على القيمة التاريخية والفكرية للابيات وذلك معناه ان شعرنا العربي الحديث كان اصيلا كل الاصالة في دعواته الفكرية واهدافه السياسية .

وفي ديوان (انشودة المجد) لام نزار الملائكة تتلألأ قصائد الوحدة ، بلى انها تشكل الخيط الفكري الذي تتضح فيه وحدة القصائد وموضوعاتها بل نحن نجد فيما عدا صدق العاطفة وضوحا في الفكر ونضجا وذلك في قولها : (٢)

تلك امنيات الفؤاد المعنى أشرقت في جوائها الناظرات
فاسر ياقلب في مواكبها الزهر وناغ المفاخر الحاليات

أما هذا الحلم فهو عند الشاعرة الامل الذي يربط الحاضر بالماضي :

هات انشودة البطولـــة واخشع دونها ولتعد إلى الذكريـــات
ومسيل الدماء والعسكر الجرا ر والسادرين في الفلوات

(١) المرجع نفسه : ١٩١ .
(٢) ديوان الثورة المجد : ٨٠ .

وصليل السيوف والهجمات السمـــــر والقائمين بالمعجزات
انها العزة المهانـــة ثارت في حنايا الضلوع كالجمرات

أرايت كيف ارتبط تحقيق الوحدة با (العزة) و (انشودة البطولة) و (المعجزات) و (صليل السيوف) و (امنية الفؤاد) وغيرها من معاني الصمود الا يدل هذا الربط على وعي بخطورة الوحدة واهميتها ؟

ان الدعوة إلى الوحدة العربية — وفيها مافيها من صدق العواطف ونبلها قد امدت القصيدة العربية الحديثة بطاقة فكرية لايستهان بها .

وهذه الطاقة التي لمسنا بعض نبضاتها في قصائد الاثري و أم نزار هي النبع الثر الذي سرت مياهه إلى الاجيال اللاحقة من بعدهم فاذا هي تصبح اشد عمقاً واكثر نضجا ، كما نرى ذلك في قصائد جيل الستينات ذلك لان وعي جماهير الامة صار يدعم قصائد الشعراء ويدفع بها إلى هذه الدعوات التي صارت لازمة من لوازم تجسيد امل الجماهير .

ومن هنا فان هذه الدعوة إلى الوحدة قد اكدت اليقظة القومية التي ارتبطت ارتباطا عضويا بالمواقف القومية وذلك لان (أهم مزايا الامة العربية ، أن شخصيتها من الناحية الثقافية تتجاوز حدود ارضها وابنائها إلى رقعة واسعة من العالم، وانها حملت إلى الناس ثقافة انسانية تلقفتها شعوب كثيرة وتأثرت بها أمم وأجيال) (١).

---

(١) : محمد المبارك : الامة العربية في معركة تحقيق الذات : ١٩٩.

مراجع البحث

الكتب :

١. الاتجاه القومي في الشعر الحديث ، عمر الدقاق ، القاهرة ١٩٦١ .

٢. الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث . انيس المقدسي ، بيروت ١٩٦٧

٣. الادب العربي المعاصر في سوريا . سامي الكيالي ، القاهرة ١٩٥٩ .

٤. الادب والقومية العربية . اسحق موسى الحسيني . القاهرة ١٩٦٥ .

٥. ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية. جورج صيدح ؛ بيروت ١٩٥٧ .

٦. الامة العربية في معركة تحقيق الذات . محمد المبارك . دمشق ١٩٥٩ .

٧. تطور الفكر القومي . يوسف عز الدين بغداد ١٩٦٧ .

٨. ثورة العشرين في الشعر العراقي . ابراهيم الوائلي بغداد ١٩٦٨ .

٩. دراسات، في القومية. منيف الرزاز ــ والدوري واخرون، بيروت ١٩٧٠

١٠. دور الادب في معركة التحرير والبناء . مؤتمر الادباء العربي الخامس بغداد ١٩٦٥ .

١١. الشبيبي شاعرا . قصي سالم علوان ــ بغداد ــ ١٩٧٥ .

١٢. الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين . كامل السوافيري ــ القاهرة ٩٦٤

١٣. القومية العربية . أحمد فؤاد الاهواني . القاهرة ــ ١٩٦٠ .

١٤. القومية العربية . حازم نسيبة ــ بيروت ــ ١٩٥٩ .

١٥. وحدة الثقافة والتاريخ في الشعر العربي الحديث . احمد محمد الحوفي القاهرة ــ ١٩٦٥ .

١٦. وحدة اللغة والوطن في الشعر العربي الحديث ــ أحمد محمد الحوفي القاهرة ــ ١٩٦٤ .

١٧. الوطنية والقومية . ساطع الحصري . بيروت ١٩٥٧ .

١٨. يقظة العرب . جورج انطونيوس بيروت. ١٩٦٢ .

الدواوين :

١. ديوان الياس فرحات . سان باولو . ١٩٣٢ .
٢. ديوانه الاوشال . الزهاوى . بغداد ١٩٣٤ .
٣. ديوانه انشودة المجد . أم نزار الملائكة . بغداد ١٩٦٨ .
٤. ديوان بدوى الجبل صيدا ١٩٢٥ .
٥. ديوان حافظ ابراهيم . القاهرة ١٩٣٣ .
٦. ديوان خليل مردم . دمشق ١٩٦٠ .
٨. ديوان ذكرى حبيب . محمد حبيب العبيدى . الموصل ١٩٦٦ .
٩. ديوان الرصافي . القاهرة ١٩٥٣ .
١٠. ديوان الشوقيات . أحمد شوقي . القاهرة ١٩٥١ .
١١.ديوان علي الجارم . القاهرة ١٩٤٧ .
١٢.ديوان فؤاد الخطيب . القاهرة . ١٩٥٩ .
١٣. ديوان فوزى المعلوف . بيروت . ١٩٥٧ .
١٤.ديوان القروى . سان باولو . ١٩٥٢ .
١٥.ديوان الكاظمي . مصر ١٩٤٨ .
١٦.ديوان مصطفى الغلاييني . حيفا ١٩٢٥ .
١٧. ديوان ملاحم وازهار . محمد بهجة الاثرى . القاهرة ١٩٧٤.
١٨.ديوان وحي الاربعين . عباس محمود العقاد . القاهرة . ١٩٣٣ .
١٩.ديوان الهوى والشباب . بشارى الخورى . القاهرة ١٩٥٣ .

استشهاد النحويّين بالرجز

عبدالجبار علوان حسين **النايلة**

بسم الله الرحمن الرحيم .وبه استعين

مقدمة

هذا بحث بكر لم يتطرق اليه – في أغلب الظن – أحد من الباحثين قبلي، أردته أن يكون دراسة لاستشهاد النحويين برجز الرجاز ،والمقصود بهم في هذاالبحث، تلك الفئة القليلة التي كان أولها الأغلب العجلي ،وأبرز رجالها : أبو النجم العجلي، والعجاج،ورؤبة بن العجاج ، وقد اشتهرت بالرجز وأنصرفت إلى نظمه وتقصيده انصراف الشعراء إلى الشعر وتقصيدهم إياه ، فعالجت فيه مختلف الأغراض التي عالجها الشعر ، كالمديح ،والهجاء ، والفخر ،والرثاء ،والوصف ... الخ،وقد اقتصرت في هذا البحث على ذكر الاستشهاد برجزهم وتبيان منزلتهم لدى أئمة العربية .

وكنت قمت بدراسة مفصلة لاستشهاد النحويين بالشعراء على اختلاف طبقاتهم ،واختلاف النحويين في ذلك(١) ، فأردت أن يكون هذا البحث أخا تلك الدراسة ، تكملة لعناصر البحث ،وإن كان في قلبي منه شيء ،ذلك ان المصادر لم تسعف – على الرغم من كثرة البحث بأكثر مما توصلت اليه ، ويكفي أن اضرب مثلا قول ابن جني :«إن رؤبة وأباه العجاج كانا يرتجلان الألفاظ»(٢) وقد تناقل آخرون هذه الرواية في كتبهم ، فإذا رجعنا إلى المصادر وجدناهاخالية من ذكر الالفاظ المرتجلة التي ارتجلاها ،وهذ ماحدا ببعض الباحثين المحدثين إلى أن ينفي ارتجالهما (٣). هذا وأمثاله من العقبات كانت تعترض سبيلي،الأمر الذي جعلني أتتبع كتب النحو والشواهد واستقريها ، لعلي أظفر بشيء مما تنافر هنا وهناك للوصول إلى كشف الحجب عن بعض الحقائق ،فكنت بعدعناء أصل إلى الشيء المطلوب و كأني أنحت حجراً .ومما كان يخفف من عنائي أن رائدي خدمة اللغة العربية ، فلعليّ أكون قد قمت ولو بعمل ضئيل لخدمتها ،والله الموفق .

---

(١) مخطوطة لدى الباحث لم تنشر بعد .

(٢) ابن جني ، الخصائص ٢/٢٥ .

(٣) هو د . ابراهيم أنيس ، في كتابه : من اسرار اللغة ص ٨٥ ط (١) ١٩٥٠ م .

لمحة عن الرجز والرجاز :

الرجز « بحر من بحور الشعر ، تسمى قصائده بالأراجيز ،وأحدهما ارجوزة ويسمى المنصرف إلى نظم الأراجيز ،المنقطع اليها راجزاً (١)، وهو قديم جداً قدم الشعر بل ربما كان أقدم منه ،حتى ليقال : « إن الشعر قد بدأ على شكل أراجيز ومقطوعات غنائية (٢)». وقدمه – كما يبدو – يعود إلى سهولة نظمه وجريانه على الألسنة ،لهذا يستطيع المرء أن يعبر به عما تجيش به نفسه من عواطف تثيرها الأحداث الطارئة والانفعالات النفسية في أثناء المبارزة والقتال ، أوحداء الأبل في الحل أو الترحال ، أو عند المتح أو الصيد أو غير ذلك.

كان العرب في الجاهلية ينظمون أبياتاً من الرجز في حروبهم أو سلمهم،وفي حلهم أو ترحالهم ، وفي مضاربهم أو دواوينهم أو عند سمرهم بمجالسهم .ولم تكن عناية المسلمين بالرجز بأقل من عناية الجاهلين ،فقد كان النبي (ص)يحب الرجز ويعجبه الاستماع اليه (٣) وفي مغازيه ووقائعه ارتجز كبار المسلمين وقوادهم في كل واقعة اشتركوا فيها كما ارتفعت أصواتهم بالرجز في الفتوحات العربية الاسلامية ،إذ يظهر أنه كان وسيلة من وسائل اثارة النخوة والحمية ،وبث روح الشجاعة والاقدام في نفوس المنشدين والسامعين ،وذا أثر فعال في نفسياتهم. وكتب التاريخ العربي الاسلامي تزخر بالرجز الذي قيل في الغزوات والفتوحات كما احتوت كتب اللغة والنحو والأدب والأمالي على كثير منه .

كان الذين ينظمون الرجز في الجاهلية كثيرين ،غير أنهم لم يكونوا قد اطالوا فيه أو قصدوه او عالجوا به مختلف الاغراض التي عالجها القصيد ، او اقتصروا عليه وانقطعوا اليه حتى تميزوا به ، اذ لم يكن الرجز بمعناه الاصطلاحي وبروزه فناً متميزاً عن القصيد له رجاله المتخصصون به المنصرفون اليه ، الذين دعوا بـ(الرّجاز) قبل ظهور الاغلب العجلي . فهو اول من اطال الرجز وقصّده، « وكان

(١) محمد توفيق البكري ، اراجيز العرب ص ٣

(٢) ينظر ابن رشيق القيرواني ،العمدة ١٨٩/١ .

(٣) ينظر اراجيز العرب ص ٤ .

الرجل قبله يقول البيت والبيتين اذا فاخر او شاتم»(١). ومما يدلك على طول باع هذا الراجز ان العجاج ، وهو الراجز المشهور الذى جاء بعده قد ذكره مفتخراً في رجزه بأنه كالاغلب ، بقوله :

أنـي أنـا الأ غلـبُ أضحى قد نُشِرْ (٢)

فقد كان الأ غلب شاعراً راجزاً مجيداً متمكناً من الشعر تمكنه من الرجز ، يدل على ذلك ردّه على سؤال عامل عمر بن الخطاب (رض) عندما طلب اليه ان يخبره هو والشاعر لبيد عما قالا من الشعر في الاسلام :

أَرَجزاً سألتَ أم قَصيـدا فقد سألتَ هيّناً موجودا (٣)

فالأ غلب « ارجز الرجاز وأرصنهم كلاماً وأصحّهم معاني » (٤). قال ابن سلاّم : « الأ غلب اول من رجز »(٥)، وقد ردّ قوله هذا ابن رشيق (٦). ويظهر أنه لم يفهم مغزاه ، حيث يبدو أن ابن سلام حينما قال هذا لم يعن ان الاغلب اول من قال الرجز من العرب . فهذا بعيد صدوره عن رجل عالم بشعر العرب مثله، وهو يعلم حق العلم ان الرجز قديم ، وانما عنى أنه أول من نحا بالرجز منحى القصيد . وإلى هذا ذهب بعض الباحثين المحدثين (٧) . والواقع ان الأ غلب من الرجاز الذين جعلوا للرجز المكانة اللائقة ، لأ نه سلك مسلك الشعراء في إطالة الرجز واستخدمه في الاغراض التي استخدم فيها القصيد كالمدح والهجاء والرثاء والوصف و ... و ... الخ وفتح للرجاز الذين جاءوا من بعده طريقاً صالحة لم تسلك من قبل .

الشاهد واهميته في النحو :

بعد هذه اللمحة عن الرجز والرجاز ، يجدر بي ان اذكر شيئاً عن الشاهد

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٢/١١ه .

(٢) المصدر نفسه ٢/١١ه .

(٣) ينظر ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ١/١٣٥ .

(٤) الآمدي ، المؤتلف والمختلف ص ٢٣ . ط (١) بالقاهرة سنة ١٩٦١ م.

(٥) طبقات فحول الشعراء ٢/٧٣٧

(٦) ينظر العمدة ١/٩٠ .

(٧) ينظر هامش (٢) لمحقق كتاب طبقات فحول الشعراء ٢/٧٣٧ .

وأهميته في علم النحو ، وهل يجدر بنا دراسة موضوع كهذا ؟

« للشاهد معان مختلفة ، ففي اللغة هو : اللسان ، من قولهم : لفلان شاهد حسن ، أى لسان مبين وتعبير حسن ، او هو من علم أمراً فيذكر ماعلم ، أو من يؤدى ماعنده من الشهادة . والشهادة : هي الخبر القاطع . والشاهد في النحو : ما يذكر لإثبات القاعدة ، كآية من التنزيل ، او قول من اقوال العرب الموثوق بعربيتهم .. والحجة : الدليل والبرهان ، وجمع الحجة حجج وحجاج ، واحتج بالشيء : اتخذه حجة » (١) ومن هنا كان على النحوي الذى يريد إثبات قاعدته أن يأتي بشاهد أو حجة لتكون برهاناً ساطعاً ودليلاً نافعاً وخبراً قاطعاً على صحة قاعدته ، « فلا غنى لكل نحوي من شاهد يستشهد به ليسند قاعدته ، ويؤيد به وجهة نظره ، ويدعم به مذهبه في مسألة ما ، لاسيما اذا كان فيها اختلاف في الآراء ، او كانت خارجة عن القياس » (٢) فالاحتجاج او الاستشهاد في النحو : « يراد به اثبات صحة قاعدة ، او استعمال كلمة او تركيب ، بدليل نقلي صح سنده إلى عربي فصيح سليم السليقة » (٣) ، ومن هنا كان للشاهد اهمية كبيرة في علم النحو ، فهو جانب مهم من جوانبه ، فلم يكن بعيداً عن الصواب من قال : « ان الشاهد في علم النحو هو النحو » (٤) ، وكانت قيمة العالم تتجلّى في معرفته بالشواهد ، واستخراجه لها من الكلام الفصيح ، واستحضاره إياها عند الحاجة ، وكان هذا شأن العلماء البصريين ، فقد كانوا يستكثرون منها ويحفظونها ويأتون بها عند مناسبتها وحاجتهم اليها ، قال الاصمعي : « سألت ابا عمرو بن العلاء عن الف مسألة ، فأجابني فيها بألف حجه . فقد كانوا يولون الشواهد اهتماماً زائداً وكان من بينهم حفظة للكثير من الشواهد ... كذلك كان للكوفيين — بوجه خاص — عناية فائقة بالشواهد (٥). وبهذا تظهر اهمية دراسة هذا الموضوع لعلاقته الوثيقة بالنحو .

---

(١) عبد الجبار علوان النايله ، الشواهد والاستشهاد في النحو ص ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١ .

(٣) سعيد الافغاني ، في اصول النحو ص ٦ ط (٢) دمشق ١٩٥٧ م .

(٤) هو الشيخ محمد الطنطاوي في كتابه : نشأة النحو ص ١٩٢ . ط (٤) القاهرة ١٩٥٤ م.

(٥) ينظر الشواهد والاستشهاد في النحو ص ٢٢ — ٢٣ .

النحاة الاوّلون والاستشهاد بالرجز :

عندما وضع أبو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٧هـ اللبنات الاولى في صرح علم النحو ، واخذ تلامذته يتلقون عنه مبادىء هذا العلم ويتدارسونه ، كان لابد لهؤلاء الدارسين الاوائل – وهم بصدد ترسيخ اسسه واقامة دعائمه ، وتأصيل اصوله – من الاعتماد على مانطق به العرب الفصحاء ومحاكاتهم في اساليب كلامهم وطرائف استعمالاتهم للغة ، وتدوين مايمكنهم تدوينه من المرويات ، لكي يستخرجوا الشواهد التي يستندون اليها في وضع الضوابط النحوية للغة ، على ان امر السماع والاستشهاد بكلام العرب بالنسبة لهؤلاء الدارسين الأوائل كان سهلا يسيراً ، لأن النحو كان مايزال في بدئه ، وهو آخذ بالنمو والتطور شيئاً فشيئاً ، فحاجتهم إلى السماع كانت قليلة ، كما كانوا هم أنفسهم من الفصحاء . فقد كان ابو الاسود من افصح الناس (١)، كما كان نصر بن عاصم المتوفى سنة ٨٩هـ احد القراء الفصحاء (٢)، ويحيى بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩هـ عالماً قد روى عنه الحديث (٣)،وميمون الاقرن ، وهو استاذ عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي المتوفى سنة ١١٧هـ الذى «فرّع النحو وقاسه.. وكان رئيس الناس وواحدهم (٤)». وهؤلاءهم الرواد الاوائل في النحو الذين وضعوا اسسه واقاموا دعائمه . لكن الحاجة إلى السماع ومشافهة الاعراب الفصحاء بغية الاستشهاد بكلامهم كانت تزداد لدى النحاة الذين جاءوا بعد هؤلاء ، كلما ساروا قدماً في توسيع ابواب النحو اولا ، وزاد تفشي العجمة في المجتمع البصري ثانياً ، فيزداد تحري النحاة عن مصادر الشواهد .

وتجدر الاشارة إلى ان النحاة الذين جاءوا من بعد من ذكرنا ، قاموا بمشافهة العرب الخلّص وسمعوا منهم بغية الحصول على الشواهد النحوية لتقييد القواعد

---

(١) ابو سعيد السيرافي ، اخبار النحويين البصريين ص ١٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧ .

(٤) ابو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ص ١٢ .

كما قاموا في الوقت نفسه بجمع اللغة فدوّنوا كل ماامكنهم تدوينه من المرويات وهذا شيء طبيعي في تلك المرحلة « لان القواعد النحوية تابعة للموضوعات . اللغوية، فمعرفة معاني الكلام سابقة لاستخراج قوانين تركيبيه وضبط قواعده، فالمعاني اللغوية اساس للقواعد النحوية ، ومن لم يكن متبحراً في معرفة موضوعات اللغة لايتمكن من استخراج قواعدها وضبط اصولها » (١) فامتزجت الحركة النحوية باللغوية في تلك الآونة للسبب المتقدم ، ولذا كان « المجتهدون من النحاة هم انفسهم رواة اللغة الأوّلون » (٢) كأبي عمرو بن العلاء المتوفي سنة ١٥٤هـ والخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفي سنة ١٧٠هـ والاخفش الأكبر المتوفى سنة ١٧٧هـ ويونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٢هـ وأبي زيد الانصاري المتوفى سنة ٢١٥هـ وعبد الملك بن قريب الاصمعي المتوفى سنة ٤١٦هـ مثلا .

ومما يؤسف له ان كتب النحويين المار ذكرهم جميعاً لم تصل الينا ، لأن « علم الطبقة الاولى من النحاة البصريين كان محفوظاً في صدورهم مروياً بالسنتهم ، وانما كان تدوينهم له كتابة اوراق لم تبلغ حد الكتب المنظمة المنفصلة، او انها كانت كتباً مختصرة ، كالمختصر الذى ينسب لأبي الاسود » (٣) (التعليقة) وكتاب (الهمز) الذى عمله عبدالله بن ابي اسواق (٤) . وعلى الرغم من نشاط التأليف في الطبقة التي تلت هؤلاء ، الا انه لم يصل الينا شيء مما ألفوه، ككتب ابي عمرو بن العلاء التي قيل أنه احرقها عندما تنسك ، وكتب عيسى ابن عمر . واقدم كتاب وصلنا هو كتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٨هـ ، ولو رجعنا لوجدنا حافلا بالرجز الذى قاله ابو النجم والعجاج ورؤبه وغيرهم، وسيكون اعتمادنا عليه كثيرا لأنه « يمثل حصيلة جهود متواصلة للمدرسة النحوية البصرية مذ نشأت ، وخلاصة لنحو هذه المدرسة ، وغاية التطور الذى

---

(١) طه الراوى ، تاريخ علوم اللغة العربية ص ٧٤ . ط (١) بغداد سنة ١٣٦٩ هـ .

(٢) تاريخ علوم اللغة العربية ص ٧٤ – ٧٥ .

(٣) احمد الاسكندري ، تاريخ آداب اللغة العربية ص ٩٢ – ٩٣ ط (١) القاهرة ١٩١٢م.

(٤) مراتب النحويين ص ١٢ .

وصل اليه النحو ، كما ان شواهده حصيلة هذه المدرسة من الشواهد التي كان العلماء السابقون لسيبويه يتداولونها ويتناقلونها شفوياً في حلقاتهم التدريسية (١) او مما كان مدوناً في كتبهم التي لم تصل الينا ، او الشواهد التي استخرجها سيبويه نفسه مما سمعه من الاعراب الفصحاء أو الرواة ، أو شواهد النحاة الذين قرأوا الكتاب ودونوها عليه ممن عاصر سيبويه كالأخفش الاوسط المتوفى سنة١١٥هـ، او الذين جاءوا بعده كأبي عمر الجرمي المتوفى سنة ٢٢٥هـ وأبي عثمان المازني المتوفى سنة ٢٤٩هـ وأبي العباس المبرّد المتوفي سنة ٢٨٠هـ.

استشهاد سيبويه والنحويين من بعده بالرجز :

لقد كان اقبال العلماء على الرجز كثيراً لخواصه التي أشرنا اليها كسهولة نظمه وجريانه على الألسنة ،وقرب أسلوبه من الكلام المنثور ،اضافة إلى جزالة الفاظه ،وبعده عن زخرف الكلام ،وعدم افراطه في الخيال ،والرجز الصق بطبيعة البدو منه إلى الحضر ، لذلك كان أشهر الرجاز الذين لمعت أسماؤهم في الرجز بدواً توارثوه أبناً عن أب ، فقد كان رؤبة وأبوه العجاج وجد رؤبة وابنه عقبة رجازاً تخصصوا فيه وتوارثوه (٢). وتظهر هذه الحقيقة واضحة إذا مارجعنا إلى كتب العربية حيث نجد أغلب شواهدها من الرجز ،فقد كانت الأراجيز معيناً لاينضب لعلماء اللغة الذين دوّنوها ووضعوا معاجمها ، وأئمة النحو الذين أقاموا قواعدها ،إذ استقوا منها الأمثلة والشواهد ، لتوثيق ألفاظ اللغة ، وتوضيح معاني كلماتها ، وتبيان صحتها ، واسناد المسائل النحوية إلى أسس متينة ، ويكفي أن نذكر هاهنا للدلالة على قيمة هذه الاراجيز في هذا المجال ان سيبويه قد استشهد بكثير من أراجيز أبي النجم ، والعجاج ، ورؤبة ،وأبي نخيلة، وخطام المجاشعي،وتداول النحويون بعده تلك الشواهد في كتبهم —سواء كانت من الرجز أو الشعر — فقد وثقوا بها وعدوها أصح الشواهد (٣) ، فكانت عمدتهم

(١) ينظر الشواهد والاستشهاد في النحو ص ٨٤ .

(٢) ينظر اخبار النحويين البصريين ص ٦٩ وابن المعتز ، طبقات الشعراء ص ٢٥ — ٢٦

(٣) عبد القادر البغدادي ، خزانه الادب ٨/١ .

في الاستشهاد تضاف إلى شواهدهم التي ينشدونها، حتى كان قسم منهم يشير عند استشهاده بها ؛ إلى أنها من أبيات الكتاب أو من شواهد سيبويه ، لكي يثبت بها القاعدة ، لصحتها واعتزازه بها ، كما كان ابن جني والزمخشري يفعلان ذلك مثلاً ، قال البغدادي : « ولكون أبيات سيبويه أصح الشواهد التزمنا في هذا الشرح أن ننص على ماوجد فيه منها بيتاً بيتاً ونميزها عن غيرها ليرتفع شأنها ويظهر رجحانها »(١). وهو يبغي أن يميز شواهد سيبويه التي استشهد بها رضي الدين الاسترابادي المتوفى سنة ٦٨٦هـ في شرحه على الكافية . فما استشهد به سيبويه والنحويون من بعده من الرجز كثير لايسع ذكره بحث كهذا، لذا سنكتفي بذكر بعض الامثلة التي تلقي ضوءاً كافياً على هذه المسألة . من ذلك مثلاً استشهاد سيبويه برجز أبي النجم:

ياناقُ سيري عَنَقاً فَسِيحاً ... إلى سُليمانَ فَنَستَريحَا

على نصب المضارع بـ (أن) مضمرة بعد الفاء إذا كان مسبوقاً بفعل طلبي(٢) . ومن النحويين الذين استشهدوا بهذا الرجز على هذه المسألة : المبرد (٣)، وابن جني (٤) وابن عقيل (٥) وابن هشام (٦)، والسيوطي(٧)، والاشموني (٨) . وقد اتفق النحويون جميعاً في هذه المسألة ، قال أبو حيان : « ولانعلم خلافاً في نصب الفعل جواباً للأمر إلا مانقل عن العلاء بن سيابة – قالوا وهو معلم الفراء – انه كان لايجيز ذلك ، وهو محجوج بثبوته عن العرب وأنشد سيبويه لأبي النجم...»(٩) .

---

(١) خزانه الادب ٨/١ .

(٢) الكتاب ٤٢١/١ .

(٣) ابو العباس المبرد ، المقتضب ١٤/٢ .

(٤) ابن جني ، سر صناعة الاعراب ٢٧٢/١ ، ط (١) بالقاهرة ١٩٥٥ م .

(٥) شرح ابن عقيل ٢١٩/٢ .

(٦) اوضح المسالك ص ١٦١ ، شرح شذور الذهب ص ٢٧٢ ، شرح قطر الندى ص ٧١.

(٧) السيوطي ، همع الهوامع ١٠/٢ .

(٨) شرح الأشموني ٣٠٢/٣ .

(٩) العيني ، شرح الشواهد الصغرى ٣٠٢/٣ ، همع الهوامع ١٠/٢ .

ثم ذكر الرجز السابق ذكره .ويظهر من قول أبي حيان مبلغ اعتزاز النحاة بشواهد سيبويه لوثاقتها وصحتها أولاً ، وأهمية الرجز في الاستشهاد ثانياً .وأغلب الظن أن هذا الرجز هو شاهد النحويين الوحيد في هذه المسألة .

ومن ذلك أيضاً استشهاد سيبويه في باب (ماينتصب فيه المصدر ...) على حذف الفعل برجز العجاج :

أَطَرباً وأَنتَ قِنَّسْرِيُّ والدهرُ بالإنسانِ دَوَّارِيُّ (١)

قال :« إنما أراد : أتطرب أي انت في حال طرب، ولم يرد أن يخبر عما مضى ولاعما يستقبل »(٢). ثم استشهد به النحويون بعده.قال المبرّد في باب (المصادر في الاستفهام على جهة التقدير وعلى المسألة): « وذلك قولك : اقياماً وقد قعد الناس. لم تقل هذا سائلاً ،ولكن قلته موبخاً منكراً لما هو عليه ،ولولا دلالة الحال لم يجز الإضمار :؛ لأن الفعل يضمر إذا دلّ عليه دال ... ومثله : أقعوداً وقد سار الناس ، كما قال :

أَطَرباً وأَنتَ قِنَّسْرِيُّ(٣)

ثم أعاد الاستشهاد بالرجز وأضاف : «انما رأى نفسه في حال طرب مع سنه، فوبخها بذلك »(٤). واستشهد به الرضي (٥)، وتبعه ابن هشام (٦) على أن الهمزة للإنكار فيقتضي ان مابعدها واقع وان فاعله ملام نحو : (أتعبدون ماتنحتون) كما أستشهد به ابن مالك على وجوب حذف عامل المصدر الواقع في توبيخ ، والمشهور أنه منصوب على أنه مفعول مطلق »(٧) .

---

(١) البيتان في ديوان العجاج ص ٣١٠ واراجيز العرب ص ١٧٤ .

(٢) الكتاب ١٧٠/١.

(٣) المقتضب ٢٢٨/٣.

(٤) االمقتضب ٢٦٤/٣ وانظر ص ٢٨٩.

(٥) خزانة الادب ٥١١/٤.

(٦) مغني اللبيب ١٨/١.

(٧) جلال الدين السيوطي، شرح شواهد المغني ٤٩/١.

ومن ذلك أيضاً رجز للعجاج :

يركبُ كلَّ عاقرٍ جُمهورِ مَخافةً وزَعِلَ المَحبورِ

والهول من تهول الهبور(١)

وقد استشهد به أئمة النحويين على نصب مخافة وزعل المحبور والهول على المفعول لأجله ، وخالفهم بعض النحويين على أن زعل المحبور والهول منصوبان على الحال فمن استشهد به على الرأي الاول : سيبويه (٢) ، وابن السراج (٣) ، وابن يعيش(٤) والرضي (٥) « وفيه رد على الجرمي في زعمه أن المسمى مفعولاً لأجله هو حال فيلزم تنكيره .وبيان الرد أن الأول معرّف بالاضافة وهي اضافة معنوية، والثاني بأل فلا يكونان حالين فتعين ان يكون كلاً منهما مفعولاً لأجله. وقال ابن بري في شرح أبيات الايضاح: وانتصاب مخافة وزعل والهول المعطوفين عليه على المفعول له .وأصله اللام فلما سقط الخافض تعدّى اليه الفعل ، والرياشي زعم أنه لايكون ، إلا نكرة كالحال والتمييز »(٦).

ومن ذلك أيضاً استشهاد سيبويه برجز رؤبة :

بِنا تميماً يُكْشَفُ الضَبابُ

على نصب تميم باضمار فعل على معنى الاختصاص والفخر ،أي أخص تميماً (٧)، وكذا استشهاده بقول رؤبة معتمداً عليه وحده في إعمال (فعّال) صيغة مبالغة لاسم الفاعل : برأسِ دمّاغٍ رؤوسَ العزِّ (٨)

---

(١) ديوان العجاج ص ٢٣٠، اراجيز العرب ص٩٢.

(٢) الكتاب ١/١٨٥. ويروى: تهول القبور بدلا من تهول الهبور.

(٣) كتاب الاصول ١/٢٥١.

(٤) شرح المفصل ٢/٥٤.

(٥) خزانة الادب ١/٤٨٨.

(٦) خزانة الادب ١/٤٨٨.

(٧) الكتاب ١/٢٥٥،٣٢٧.

(٨) الكتاب ١/٥٨.

وفي مسألة اكتساب المذكر التأنيث من المضاف اليه المؤنث ،وعكس ذلك بشرط صلاحية المضاف للاستغناء عنه بالمضاف اليه كقولهم : قطعت بعض أصابعه ، نرى سيبويه (١) يستشهد برجز للأغلب العجلي :

طولُ الليالي أسرعتْ في نقضي أخذنَ بعضي وتركنَ بَعضي

ثم يتبعه في الاستشهاد النحويون الذين أتوا بعده (٢). ونراه يخالف استاذه الخليل مستشهداً برجز راجز ، في مسألة الحمل على الجوار في النعت ، قال سيبويه : « قال الخليل : لايقولون الا هذان .جحراً ضب خربان، من قبل ان الضب واحد والجحر جحران . وانما يغلطون اذا كان الآخر بعده الاول وكان مذكراً مثله او مؤنثا ، وقال : هذه جحرة ضباب خربة لأن الضباب مؤنثة ولأن الجحرة مؤنثة، والعدّة واحدة ، فغلطوا ، فهذا قول الخليل. ولانرى هذا والأول الا سواء،لأنه اذا قال : هذا جحر ضب متهدم ،ففيه من البيان انه ليس بالضب مثل مافي التثنية من البيان انه ليس بالضب،وقال العجاج :

كأن غَزْلَ العنكبوت المُرْمَلَ

والغزل مذكر والعنكبوت انثى» (٣) فقد استشهد سيبويه بقول العجاج على «إجراء المرمل على العنكبوت نعتاً لها في اللفظ لقرب جوارها منه. وكان الخليل رحمة الله لايجيز مثل هذا حتى يكون المتجاوران مستويين في التعريف والتنكير والتأنيث والتذكير والإفراد والجمع كقولهم : هذا جحر ضب خرب ، وجحرا ضبين خربين وحجرة ضباب خربة . وسيبويه يجيز الحمل على الجوار

---

(١) الكتاب ٢٦/١.

(٢) ممن استشهد به من النحويين على الغرض الذي استشهد به سيبويه نفسه: المبرد في المقتضب ١٩٩/٤ - ٢٠٠ والرضي في شرح الكافية (الخزانة ١٦٨/٢) وابن هشام في المغني ٥١٣/٢ والاشموني في شرحه على الألفية ٢٤٨/٢.

(٣) الكتاب ٢١٧/١.

وان اختلف المتجاوران اذا لم يشكل المعنى كقولك: هذا جحرا ضب خربين، وهذا جحر ضبين خرب ، واحتج ببيت العجاج هذا لأنه حمل المرمل وهو مذكر على العنكبوت وهي مؤنثة »(١) .

ان رجز الرجاز كان مصدراً فياضاً للعلماء لاستخراج الأمثلة والشواهد منه،والاستناد اليها في تقعيد القاعدة مما جاء موافقاً أقيسة النحويين من الرجز، أو مما خالف ، فجاء على لغات قليلة فأوله النحويون او حملوه على الضرورة او الشذوذ

البصريون وتأويل الرجز :

تشدد البصريون في سماعهم ، فلم يسمعوا الا من قبائل قليلة كانت تقطن في بوادي نجد والحجاز عدّوها فصيحة كقبائل قيس واسد وتميم وهذيل، مدفوعين بحرصهم الزائد على حفظ اللغة وسلامتها ، حيث رأوا حفظها في تشددهم ، وبسبب هذا التضييق في السماع ، كان استقراؤهم اللغة ناقصاً ، حيث ذهب عنهم سماع كثير من كلام العرب ، لأن اللغة العربية لغة واسعة ، تتكلم بها قبائل كثيرة،فلا تمثلها قبائل قليلة تتجاوز اصابع اليد الواحدة بقليل ، فلما وضعوا احكامهم واقيستهم بمقتضى ذلك الاستقراء الناقص ، أعتزوا بها وأستمسكوا،ولما حاولوا ان يطبقوها على كلام العرب ، وجدوا أنفسهم امام اقوال فصحاء من الرجاز تخالف ماتواضعوا عليه ، فماذا يصنعون ؟ لايستطيعون ترك أحكامهم ، لأنهم أرادوا ان تسير قواعدهم مطردة في نظام منسق ، ولا يتجاهلون رجز رجاز فصحاء جاء مخالفاً اقيستهم وقواعدهم بلجاوا إلى التأويل والتعليل ليردوا اقوال الفصحاء الخارجة عما وضعوه إلى قواعدهم(٢) على انهم حينما يؤولون شاهداً لكي يتفق وقاعدتهم لايستشهدون به على تقعيد القاعدة،قال ابو البركات الانباري المتوفى سنة ٥٧٧هـ : « واذا جاز ان يحمل البيت على وجه سائغ في العربية ، فقط سقط الاحتجاج به » (٣) ومن أقوالهم

---

(١) الاعلم الشنتمري ، تحصيل عين الذهب على هامش الكتاب ٢١٨/١

(٢) ينظر الشواهد والاستشهاد في النحو ص ١٥٧ – ١٦٢.

(٣) ابو البركات الانباري، الانصاف في مسائل الخلاف ٦٠/١.

ايضاً : « اذا دخل الدليل الاحتمال سقط به الاستدلال » (١) فمن امثلة الرجز الذي رده البصريون واوّلوه قول العجاج :

يا ليت ايام الصبا رواجعا .

وقد جاء فيه نصب خبر ليت على لغة قومه بني تميم ، قال ابن سلام : « وهي لغة لهم ، سمعت ابا عون الحرمازى يقول : ليت اباك منطلقاً ، وليت زيداً قاعداً . واخبرني أبو يعلى : ان منشأه بلاد العجاج فأخذها عنهم »(٢) . وقال البغدادى : « وزعم ابو حنيفة الدينوري في كتاب النبات ان نصب الجزأين بليت لغه بني تميم »(٣) . ولم يقبله البصريون لأنه جاء مخالفاً الشائع الكثير في لسان العرب فأولوه ، قال سيبويه : « قوله : ياليت أيام الصبا رواجعا كقوله : الا ماء بارداً ، كأنه قال ـ الا ماء لنا باردا ، وكأنه قال : ياليت ايام الصبا اقبلت رواجع »(٤) .

وتابعهُ النحويون البصريون ومن سار على مذهبهم في هذا التأويل (٥)، قال ابن السراج ، وهو يردد كلام سيبويه : « كأنه (اي الراجز) قال ياليت ايام الصبا لنا رواجعا او أقبلت رواجعاً »(٦).

وكان بعض النحويين الكوفيين اصوب منهجاً حينما اعتد بهذا الرجز واستشهد به ، وسنأتي على ذكر ذلك ، مع امثلة اخرى للرجز الذي استشهد به الكوفيون واوله البصريون او عدوه من الشاذ الذي يحفظ ولايقاس عليه. على أن الكسائي اتبع طريقة البصريين فأول البيت ، وان كان البصريون ردوا تأويله ، فقد قدر (رواجع) خبراً لكان المحذوفة ، لأن كان تستعمل

---

(١) السيوطي، الاقتراح في علم اصول النحو ص٢٨. ط دلي سنة ١٣١٤هـ.

(٢) طبقات فحول الشعراء ٧٩/١.

(٣) خزانة الادب ٢٩١/٤.

(٤) الكتاب ٢٨٤/١.

(٥) ينظر المفصل ص ٢٨ - ٢٩ وشرح المفصل ٨٤/٨ وخزانة الادب ٢٩١/٤ ومغني اللبيب ٢٨٥/١ وهمع الهوامع ١٤٤/١ ولسان العرب ٨٧/٢ (ليت).

(٦) كتاب الاصول ٢٠١/١.

كثيرا هنا ، قال تعالى : (ياليتها كانت القاضية) ، وقال تعالى : (ياليتني كنت معهم) وقال الشاعر : ياليتها كانت لأهلي ابلا .

وقد بين البصريون ضعف تأويله ،(١) واعترض عليه بأن تقدم إن ولو الشرطتيين شرط لكثرة حذف كان مع اسمها وبقاء خبرها (٢).

الرجز والضرورة :

حينما كان النحويون البصريون يجدون الرجز لايحتمل تأويلا او تقديراً يلجأون إلى حمله على الضرورة ، فهي وسيلة من وسائل التخلص مما جاء مخالفاً القواعد من الشواهد ، فالضرورة كانت ذريعة النحويين في التخلص مما لايتفق والقاعدة من اقوال الفصحاء ، ولو تتبعنا استشهاد البصريين بالنظم سواء اكان من القصيد ام الرجز لوجدنا ان كثيراً من الشواهد التي جاءت على غير مايبتغيه النحاة مما لايتفق وقياسهم حملت على الضرورة . على ان قسماً منها ماكان ضرورة حقاً وقسماً آخر لم يكن كذلك (٣) ولو كان النحويون مصيبين في منهجهم لتنكبوا هذه الطريق ، طريق اعتمادهم الكلي على النظم ، ولقللوا ماامكنهم التقليل من اعتمادهم عليه ، وقد رأوا هذا احد عيوبه ولاعتمدوا على النثر المتمثل في كلام العرب المعتاد ، فان احتجوا بأن النثر الجاهلي لم يصل اليهم منه الا النزر اليسير ، فعندهم القرآن الكريم فهو النص النثرى الوحيد الذي يمكن الاطمئنان اليه ، والاعتماد عليه فضلا عن انه غاية في الفصاحة . ولكنهم وقد ارتضوا هذا النهج ، كان لابد ان يسيروا به إلى نهاية المطاف ، مما ادى إلى كثرة الأخذ والرد بينهم ، وعدم استناد قسم من المسائل النحوية إلى اسس متينة ثابتة ومن امثلة ماحمله البصريون من الرجز على الضرورة ، رجز الاغلب الذي يقوله فيه :

جاريةٌ من قيسٍ بنِ ثعلبةْ كريمةٌ اخوالها والحسبةْ

استشهد به سيبويه على تنوين (قيس) ضرورة ، والمستعمل في الكلام حذف التنوين

---

(١) خزانة الادب ٢٩١/٤.

(٢) مغني اللبيب ٢٨٥/١.

(٣) ينظر الشواهد والاستشهاد في النحو ص١٦٢ — ١٦٩.

من الاسم العلم اذا نعت بابن مضاف إلى علم (١). كذلك استشهد به المبرّد(٢) وابن جني (٣) والزمخشري (٤) والرضي (٥) وابن هشام(٦) كاستشهاد سيبويه نفسه

ومن الرجز الذي حمل على الضرورة أيضا قول ابي النجم :

تضلُّ منه إبلي بالهوْجَــــلِ   في لجةٍ أمسِكْ فلاناً عن فُـلِ

استشهد به سيبويه على ان بعض الأسماء المخصوصة بالنداء مثل (فل) اي (فلان) قد استعمل مجروراً في الشعر ضرورة (٧) وقد تبعه النحويون في الاستشهاد قال المبرد : « وقد يضطر الشاعر فيستعمل هذا في غير النداء ، لانها في النداء معارف فينقلها على ذلك ، وذلك قوله : في لجة امسك فلانا عن فل»(٨)وممن تبع سيبويه أيضا في الاستشهاد ابن السراج(٩) والزجاجي ،(١٠)والرضي(١١) وابن هشام(١٢)، وابن عقيل (١٣) والسيوطي(١٤)وكذلك مما حمل على الضرورة رجز لخطام المجاشعي:

ظَرْفُ عَجوزٍ فيه ثِنتا حَنْظَلِ

---

(١) الكتاب ١٤٨/٢.

(٢) المقتضب ٣١٥/٢.

(٣) الخصائص ٤٩١/٢.

(٤) المفصل ص ٣٩.

(٥) خزانة الادب ٣٢١/١.

(٦) مغني اللبيب ٦٤٤/٢.

(٧) الكتاب ٣٣٣/١.

(٨) المقتضب ٢٣٨/٤.

(٩) كتاب الاصول ٤٤٦/١.

(١٠) الجمل ص ١٧٦.

(١١) خزانة الادب ٤٠١/١.

(١٢) اوضح المسالك ص ١٤٣.

(١٣) شرح ابن عقيل ٢١٩/٢.

(١٤) همع الهوامع ١٧٧/١. طبعة دار المعرفة بيروت.

استشهد به النحويون على انه اضاف ثنتاً إلى حنظل ضرورة ، والقياس : حنظلتان بدون العدد (١) . فقال الزمخشري عند كلامه على العدد : « انك لاتقول في الواحد والاثنين: واحد رجال ولا إثنا دراهم، بل تلفظ الجنس مفرداً وبه مثنى كقولك : رجل ورجلان فتحصل لك الدلالتان معاً بلفظة واحدة، وقد عمل على القياس المرفوض من قال : ظرف عجوز فيه ثنتا حنظل(٢)

حمل الرجز على القلة او الندرة او الشذوذ :

البصريون ومن سار على مذهبهم من النحويين لايقيسون في أغلب الأحيان الا على الكثير الشائع في لسان العرب فاذا خالف الشاهد القياس ، وكان قائله فصيحاً وورد في رواية لايرقى اليها الشك ، ولم يقبل تأويلاً ، وليس فيه ضرورة، فهو عندهم : إما من القليل او النادر او الغريب او الشاذ ، فالشاذ(٣) عند البصريين كما عرّفه ابن جني : « مافارق عليه بابه وانفرد عن ذلك إلى غيره حملاً لهذا الموضع على احكام غيره » (٤). وكل ماذكرناه من القليل او النادر أو الغريب ولا سيما الشاذ يحفظ عند البصريين ولا يقاس عليه ، قال سيبويه : « فلا ينبغي لك ان تقيس على الشاذ المنكر في القياس » (٥). فليس البيت الشاذ — كما يقول المبرّد — بحجة على الأصل المجمع عليه (٦)، فاذا جعلت النوادر والشواذ غرضك ، واعتمدت عليها في مقاييسك كثرت زلاّتك . (٧)

---

(١) ينظر الكتاب ١١٧/٢، ٢٠٢ والمقتضب ١٥٦/٤ وخزانة الادب ٣١٤/٣ والمخصص ١١٠/١٢، ١٩٦/١٣، ٩٨/١٦، ٨٩/١٧. طبعة المكتب التجاري، بيروت.

(٢) المفصل ص ٢١٢ — ٢١٣.

(٣) الشاذ في اللغة: هو ماانفرد عن الجمهور وندر. وشذ الشيء: ندر عن جمهوره... وشذاذ الناس متفرقوهم (لسان العرب ٤٩٤/٣ شذذ).

(٤) الخصائص ٩٦/١ — ٩٧.

(٥) الكتاب ٣٩٨/١.

(٦) لسان العرب ١٢٢/٧ (بيض).

(٧) جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر ٤٩/٢. ط (٢) حيدر آباد الدكن سنة ١٣٥٩هـ.

ومن امثلة ماعدّه البصريون من القليل مما جاء في الرجز قول رؤبة مفتن بوزن مفعول في رجز له حيث قال :

يُعْرِضْنَ إعراضاً لدينِ المفتَنِ

استشهد به سيبويه على انه « وضع المفتن موضع المفتون وهي قليلة » (١) . ومن امثلة المجموع النادرة التي استعملها العجاج (راي) جمع (راية) في قوله الذي استشهد به سيبويه : (٢)

وَخَطَرَتْ أيدي الكُماةِ وخَطَرْ   رايٌ اذا أورَدَهُ الطَعْنُ صَدَرْ

قال الاعلم : « الشاهد فيه جمع راية على راي ، كما قالوا تمرة وتمر ، واكثر مايجيء هذا في الاجناس المخلوقة ولا يكاد يقع فيمايصنعه الادميون إلا نادرا (٣) »

ومما ورد في رجز الرجاز من كلمات عدّت من الغريب استعمالهم (سمي) بوزن (فعول) ، جمع سماء فقد ورد هذا الجمع في رجز رؤبة وأبي نخيلة . استشهد به سيبويه في باب (تكسير ماعدة حروفه اربعة للجمع) فقال : « وأما ماكان مؤنثاً فانهم اذا كسروه على بناء ادنى العدد كسروه على أفعل؛ وذلك قولك عَناق وأعنُق وقالوا في الجميع : عُنوق وكسروها على فُعول كما كسروها على أفعل ... ونظير عُنُوق قول بعض العرب في السماء (سُمي) ؛ وقال أبو نخيلة :

كَنَهْوَرٌ كان من أعقابِ السُمِيِ (٤)

قال الاعلم : « الشاهد فيه جمع سماء على سمي ووزنه فعول ، قلبت واوه إلى الياء التي بعدها وكسر ماقبلها لتثبت ياء مد الكسرة ، ونظيره من السالم : عناق واعنق ، وهو جمع غريب » (٥) وقد ذكر هذا الجمع الغريب ابن منظور

---

(١) تحصيل عين الذهب ٢٤٦/٢.

(٢) الكتاب ١٨٩/٢.

(٣) تحصيل عين الذهب ١٨٩/٢.

(٤) الكتاب ١٩٤/٢. وقد استشهد به ابن منظور في/اللسان ١٥٣/٥ كنهر، وعزاه إلى ابن نخيلة.

(٥) تحصيل عين الذهب ١٩٤/٢.

مستشهدا ببيت رجز لرؤبة ورد فيه؛ فقال «والسماء: المطر مذكر ... ومنهم من يؤنثه وان كان بمعنى المطر، كما تذكر السماء وان كانت مؤنثة، كقوله تعالى: (السماء منفطر به) ... ويجمع على اسمية وسُمي على فعول؛ قال رؤبة:

تلفّهُ الارواح والسُّمِيُّ في دفء أرطاةٍ لها حَنِيُّ (١)

ومن امثلة ماحمل من الرجز على الشذوذ قول رؤبة وقد انشده سيبويه:

مابالُ عيني كالشَّعِيبِ العَيِّنِ (٢)

فقد جاء فيه بناء العيّن على فيعَل وهو شاذ في المعتلِ؛ قال الأعلم: «لم يسمع الا في هذه الكلمة وكان قياسها ان تكسر العين. فيقال عَيِّن كما قيل: سيّد وهيّن وليّن ونحو ذلك، وهو بناء يختص به المعتل ولا يكون في الصحيح، كما يختص الصحيح بفعيل مفتوحة العين نحو: صيرف وحيدر وهو كثير» (٣)، وقال ابن جني بعد انشاده بيت رؤبة المار ذكره: «حملوه على فعيل مما اعتلت عينه، وهذا شاذ، ووافق من هذا ـ عندي ـ ان يكون: فوعلاً او فعولاً حتى لا يرتكب شذوذه» (٤) واستشهد الرضي ايضاً برجز رؤبة وقال: «وفيعل ـ بفتح العين ـ لايكون الا في الصحيح العين اسماً كان او صفة، كالشيلم والغيلم والنيرب والصيرف. وقد جاء حرف واحد في المعتل بالفتح؛ قال:

وما بالُ عيني كالشَّعيب العيّنِ (٥)

ومما حمله بعض النحويين على الشذوذ وأوّله آخرون رجزَ رؤبة الذى يقول فيه:

اكثرتَ في العَذْلِ مُلحّاً دائماً لاتعذُلَنْ إني عَسَيْتُ صائماً

وقد جاء مخالفاً لما قرروه موافقة لما سمعوه من اللغات الشائعة من ان خبر عسى لابدّ ان يكون «أن مع الفعل متأولاً بالمصدر كقولنا: عسى زيد

---

(١) لسان العرب ٢٩٩/١٤ (سما).

(٢) الكتاب ٣٧٢/٢ والبيت في ديوان رؤبة ص ١٦٠. والشعيب: القربة. والعين: الخلق البالية.

(٣) تحصيل عين الذهب ٣٧٢/٢.

(٤) الخصائص ٣١٤/٣ - ٣١٥.

(٥) رضي الدين الاستراباذي، شرح الشافية ١٥٠/١. طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٥م.

أن يقوم » (١) . قال ابن جني عن استعمال ان بعد كاد : « هو قليل شاذ في الاستعمال ، وان لم يكن قبيحاً ولا مأبياً في القياس ... ومثله استعمال مفعول عسى اسماً صريحاً ، نحو قولك: عسى زيد قائماً ، هذا هو القياس، غير ان السماع ورد بحظره والاقتصار على ترك الاسم ههنا ، وذلك قولهم عسى زيد ان يقوم ، و(عسى اللهُ ان يأتي بالفتح)، وقد جاء عنهم شيء منه ، انشدنا أبو علي : أكثرت في العدل ... الشاهد ، ومنه المثل السائر :(عسى الغوير أبؤسا) (٢). وذهب ابن مالك إلى جعل مجيء الخبر اسما بعد عسى من النادر (٣) ، في حين ذهب آخرون إلى التأويل ؛ قال ابو علي الفارسي مؤولا المثل: «جعل عسى بمعنى كان ونزله منزلته(٤) »، وأما ابن هشام فقد أول الرجز والمثل بقوله : « والصواب أنهما (أي الرجز والمثل) مما حذف فيه الخبر : أي يكون أبؤساً ، وأكون صائماً ، لأن ، في ذلك ابقاء لها على الاستعمال الأصلي ولأن الموجود كونه صائماً ، لا نفس الصائم »(٥) .أما ابن يعيش فقد ذهب إلى أن الرجز من الضرورة وقال: «ومن قال عسى زيد يفعل فقد أجرى عسى مجرى كان ويجعل الفعل في موضع الخبر كأنه قال : عسى زيد فاعلاً ، وقد صرّح الراجز عند الضرورة بذلك ، كما صرحوا في المثل ...»(٦)

هذه أمثلة من الرجز الذي استشهد به النحويون البصريون ومن سار على مذهبهم من النحاة المتأخرين ، وعدّوه من القليل أو النادر أو الشاذ الذي يحفظ ولايقاس عليه كما ذكرنا . ومن يتتبع استشهاد البصريين بالشواهد في كتبهم النحوية يجد كثرة ماشذذوه من أقوال من يوثق بعربيتهم من فحول الرجاز أوالشعراء ، وحتّى نصوص نثرية تعد قمة في الفصاحة تمثلت في آيات من القرآن الكريم أوقراءات

(١) المفصل ص ٢٦٩.
(٢) الخصائص، ينظر ص٩٧ - ٩٨، ١٠٠.
(٣) شرح ابن عقيل ٢٧٧/١.
(٤) الميداني، مجمع الامثال ٤٧٧/١. طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢هـ.
(٥) مغني اللبيب ١٥٢/١.
(٦) شرح المفصل ١٢٢/٧.

قرأ بها قراء لهم مكانتهم بين القراء ، كالقراء السبعة مثلاً .تلك الآيات أو القراءات أو الأبيات من الرجز أو الشعر عدّت شاذة لأنها جاءت مخالفة لاصول النحويين أولاً ،ولم تقبل تأويلاً ثانياً ،فهل كان حقاً ثمة شذوذ في اللغة ؟ وهل في الكلام العربي الموثوق بعربيته شذوذ ؟ ومن أين أتى هذا الشذوذ في كلامه ؟

الواقع أن العلماء لم ينظروا إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية ، شأنها شأن أي ظاهرة في الوجود ، وانما نظروا اليها انها في حالة كمال تام وغير خاضعة للتطور ،ولذا قالوا بتوقيفها وانها موحاة من الله عز وجل إلى آدم (١) ، فما سماه البصريون شاذاً لم يكن في حقيقته إلاأثراً من آثار التطور ، فاننا لانعرف عن طفولة اللغة العربية شيئاً ،ولابد أنها بدأت بسيطة قريبة من الفطرة حتّى وصلت إلى ماهي عليه من النضج يوم نزل بها القرآن الكريم ، « وان القرآن تناولها وهي بين يدي التطور ، لم تستقر بعد على أكمل الوجوه ، وقد ظهر هذا جلياً في كل باب من أبواب النحو ، ومن علائمه وجود الكثرة المخالفة لما يقرره العلماء من قوانين في البناء أو الاعراب أو الاعلال أو الافعال أو الجموع أو تخصيص الموازين أوهمز المعل أو التذكير والتأنيث ، والتعدي واللزوم ، وكان لها ظواهر في كل مامن العربية في جوهرها وطبيعتها ، مما يشير إلى قلقها وعدم استقرارها ،وقد غمض على علماء العربية السابقين وجه تعليله »،(٢) يضاف إلى ذلك ماذكرناه عن نقص استقرائهم اللغة بسبب تضييقهم من رقعة السماع ، لهذا لجأوا إلى التأويل ، ليردّوا ماخرج عن قواعدهم إلى القاعدة لكي تسير اللغة في نظام منسق وعلى سفن واضح لاتحيد عنه ، وهذا ليس من شأن اللغات ولا من خصائصها ، حيث يبقى كثير من كلماتها واساليب استعمالها خارج دائرة القواعد فلا يخضع لها ولا للتأويل، فلم يبق امامهم من سبيل الا نعته بالشذوذ .

---

(١) ينظر جلال الدين السيوطي، المزهر ١/٧ – ٣٤.

(٢) عبد الله العلايلي، مقدمة لدرس لغة العرب ص٢٤٣ – ٢٤٤ باختصار. ط (١) بالقاهرة.

موقف العلماء البصريين من الرجاز :

تبوأ الرجاز منزلة سامية لدى العلماء من بين الشعراء الاسلاميين ، وأصبحوا يتمتعون بحظوة ممتازة بعد ان كان الشاعر في العصر الجاهلي هو المفضّل ، فقد كان الشاعر لسان قبيلته ، يذب عن احسابها ، ويعدد مفاخرها وأيامها ، ويمدح صيدها وفرسانها ، ويشيد بكرم رؤسائها ، ويخلد مآثرها ، حيث لم يكن للرجال المتخصصين بالرجز وجود ، واذا كان هناك من يقول الرجز ، فانما يقول البيت منه او البيتين عند الحاجة اليه كما ذكرنا ، وقد عزف عنه فحول الشعراء الجاهليين ، فلم نسمع عن راجز جاهلي له شهرة امرىء القيس او زهير او النابغة الذبياني مثلا ، ثم تغير الحال بظهور فئة الرجاز الذين مرّ ذكرهم ، وتطوّر العلماء في دراسة النحو ، وتدوين اللغة وأزدياد تفشي اللحن وانتشار العجمة في المجتمع البصرى في أواخر القرن الاول الهجرى وما بعده ، وأزدياد الحاجة إلى سماع أقوال الفصحاء وتدوينها بغية استخراج الامثلة والشواهد للاستفادة منها في دراسة النحو . ففي الوقت الذى كان قسماً من العلماء « كعبد الله بن أبي اسحاق البصرى وأبي عمرو بن العلاء يلحّنون الفرزدق والكميت وذا الرمة واضرابهم (وهم من فحول الشعراء الاسلاميين) ويعدّونهم من المولّدين » (١) ، كانوا يجلّون الرجاز ويبوئونهم مكانة محترمة ، فلم تذكر المصادر شيئاً عن ملاحاة أو خصومة وقعت بين الرجاز وبين العلماء ، كما وقعت بين الشعراء الاسلاميين والعلماء كالخصومة التي حدثت بين الفرزدق وابن أبي اسحاق وبين عبد الصمد بن المعذّل وابي عثمان المازلي (٢) مثلا . فعن ابي عبيدة معمر بن المثنى انه قال « مازالت الشعراء تغلب حتى قال ابو النجم :

تغلب حتى قال ابو النجم :

الحمدُ للهِ الوَهُوبِ المجزْلِ

---

(١) ينظر خزانة الأدب ٣/١.

(٢) ينظر مراتب النحويين ص ١٢ واخبار النحوين البصريين ص ٢١ — ٦٣ — ٦٥

وقال العجاج : قَد جَبَرَ الدينَ الاله فَجَبَرْ

وقال رؤبه وقاتم الاعماقِ خاوى المُختَرقْ

فانتصفوا منهم »(١). وفي قول ابي عبيدة دليل على ان الشاعر كان فائقاً الراجز في الجاهلية، حتى قيض للرجز رجال استطاعوا ان ينهضوا به إلى مستوى القصيد، بحيث حازوا اعجاب العلماء، وغدوا مقصدهم في سماع اراجيزهم، وهذه الأبيات الثلاثة التي ذكرها ابو عبيدة هي مطالع ثلاث اراجيز، تعد من عيون الرجز، وقداعجب بهاالعلماء ايما إعجاب، حتى «قال يونس بن حبيب أن العجاج اشعر اهل الرجز والقصيد؛ وقال: انما هو كلام وأجودهم كلاماً أشعرهم والعجاج ليس في شعره شيء يستطيع احد ان يقول: لو كان مكانه غيره لكان اجود، وذكر انه صنع ارجوزته:

قد جَبَرَ الدينَ الإلهُ فَجَبَرْ

في نحو من مائتي بيت، وهي موقوفة مقيدة، ولو اطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت كلها منصوبة »(٢) ولكننا نرى في كلام يونس مبالغة وان حكمه هذا مبني على اعجابه برجز العجاج لفصاحته وبداوته وكثرة مايمد علماء اللغة وائمة النحو من الشواهد، والا فأين فحول الشعراء المخضرمين بله الجاهليين؟ على اننا بصدد اعجاب العلماء بالارجوزات الثلاث، فان في كلام يونس دليل واضح على اعجابه باحداها. اما عن ارجوزة ابي النجم اللامية التي قيل عنها « هي اجود ارجوزة للعرب » (٣)، فيكفي ان نقول عنها، انه عندما ألقاها في المربد، لقيت استحساناً من السامعين، حتى لم يتمالك رؤبة — وهو منافس أبي النجم — أن قال: « هذه ام الرجز (٤) » فظلت زماناً تدعى بهذا الاسم. ولقد افاد العلماء من هذه الأراجيز في دراساتهم النحوية فاستخرجوا منها كثيراً من الشواهد التي استندوا اليها في الاستشهاد، ولا نعدو الحقيقة اذا ماقلنا انه لايخلو كتاب نحوي من بيت او ابيات منها.

(١) الأغاني ١٠/١٥٧ – ١٥٨.

(٢) الأغاني ٢٠/٣٢٠.

(٣) الشعر والشعراء ٢/٥٠٣.

(٤) الأغاني ١٠/١٥٨.

ان الرجاز الاسلاميين وان كانوا قد تبوأوا مكانة مرموقة لدى ائمة العربية حيث احتفوا بهم وعدّوا رجزهم مصدراً لدراساتهم النحوية فاستخرجوا منه الشواهد التي تفيدهم في دراساتهم ، إلا ان مكانتهم هذه تفاوتت تبعاً لفصاحتهم وحدّة سلائقهم وأيغالهم في البداوة ، وبعدهم عن الحضر ، واحتواء اراجيزهم على الغريب وبصرهم باللغة . عن الاصمعي قال : « قيل لبعض رواة العرب : من ارجز الناس ؟ قال : بنو عجل ثم بنو سعد ثم بنو عجل ثم بنو سعد، يريد الاغلب ثم العجاج ثم ابا النجم ثم رؤبة »،(١) وذهب ابن سلام هذا المذهب فجعلهم طبقة واحدة ، ونص على ذلك بقوله: « الطبقة التاسعة من الاسلاميين وهم رجاز » (٢) فجعل أولهم الاغلب وآخرهم رؤبة ، غير أنه جعل أبا النجم قبل العجاج،فجاء ترتيبه أياهم ترتيباً زمنياً كما فعل مع الشعراء الاخرين في طبقاته » (٣). ومع ذلك فهناك من كان يفضل ابا النجم على العجاج ، كأبي عمرو بن العلاء الذى فضله في شيء واحد ، هو اجادته في الوصف اكثر من العجاج بقوله :« كان ابو النجم ابلغ في النعت من العجاج » (٤) اى انه كان يجيد الوصف اجادة تامة بحيث يعطي الموصوف حقه ويرسم له صورة واضحة لدى السامع . اما في غير هذا فكان يفضل العجاج ،فقد كان يقول :« ختم الشعر بذي الرمة والرجز برؤبة العجاج»(٥) ومعنى قوله هذا انه لم يأت راجز بعدهما يحل محلهما وينافسهما المنزلة الرفيعة التي تبوآها لدى العلماء لفصاحتهما وقوة سليقتهما وسعة علمها باللغة ، وكان الاصمعي يرى هذا الرأى في تفضيل العجاج على أبي النجم ، فقد كان يستجيد بعض رجز ابي النجم ويضعف بعضه ، لان له — كما يرى — رديئاً كثيراً حتى قال مرة :« لايعجبني شاعر اسمه الفضل بن قدامة ، يعني

---

(١) الأغاني ١٠/١٥٩.

(٢) طبقات فحول الشعراء ٢/٧٣٧ – ٧٦٧.

(٣) المصدر نفسه ص٢٢ للمحقق.

(٤) المصدر نفسه ٢/٧٥٣.

(٥) المزهر ٢/٤٨٤.

أبا النجم ، (١) وقال ايضاً « أخطأ ابو النجم في اشياء اخذت عليه » على ان ذلك لايعني أن أئمة النحو شايعوا الاصمعي في رأيه واعرضوا عن الاستشهاد برجزه ، ذلك أن وجود بعض الهنات الهينات في رجزه لايغض من قدره راجزاً من فحول الرجاز ، فقد مرَّ بنا أن سيبويه — وهو أمام النحاة البصريين — والنحويين كانوا يستشهدون بأبي النجم. وهكذا نرى أن أئمة العربية لم يتفقوا على رأي واحد في هذه القضية ، شأنهم في القضايا الاخرى ، فلكل وجهة نظر مختلفة، مردها ثقافة العالم ، وسعة اطلاعه وكثرة سماعه اللغة ، أو اعجاب يملك لب العالم فيستولي على رأيه بحيث يجعله يصدر حكماً عاطفياً بعيداً عن الصواب ، كما مرّ بنا من حكم يونس في رجز العجاج وتفضيله اياه على جميع الشعراء والرجاز .

والواقع ان الراجزين اللذين لمع اسماهما بين الرجاز هما العجاج وابنه رؤبة ، فقد أدّيا بالرجز مختلف الأغراض التي للقصيد من المدح والهجاء إلى الغزل والوصف ، اضافة إلى جزالة الألفاظ التي يستعملاها في الأراجيز ، ومتانة تراكيبها ، وقوة اسلوبها محاكاة للغة البدوية ، وكانا لقوة فصاحتهما باللغة ان سمت بهما طبيعتهما فتصرّفا فيها ، وقد ذكرنا في مقدمتنا رواية ابن جني عن ارتجالهما الفاظاً لم يسمعاها ولاسبقا اليها ، واذا كان ابن جني لم يذكر الالفاظ التي ارتجلاها، كما اغفلت المصادر الاخرى ذكر ذلك ، فلا يعني ان الرواية غير صحيحة وانهما لم يرتجلا لفظاً كما ذهب بعض الباحثين المحدثين ،(٢) فان الباحث المثابر لايعدم بصيصاً من النور يهتدي به اليها ، فلا بدّ ان يجد أمثلة لذلك ، منها — مثلاً — إطلاق رؤبة دار الصيارفة ، تسمية (دار الظالمين) فأخذها الناس عنه وصاروا يطلقوتها على دار للصيارفة (٣) . ومثل آخر لفظ ورد في رجز للعجاج ، لم يسمع في اللغة من قبل وهو قوله) (قِنَّسري) ومعناه: الكبير في السن ؛قال العجاج :

---

(١) محمد بن عمران المرزباني، الموشح ص٢١٣ طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٣هـ، الاغاني ١٠/١٦٩.

(٢) ينظر مقدمة هذا البحث.

(٣) الأغاني ٢٠/٣٢١.

أطـربـاً وانـتَ قِنّسـرِيٌ والدهـرُ بـالانسان دواريُّ
أفنـى القُرونَ وهـو قَعْسَرِيُّ (١)

ذكر في المخصص : قال أبو علي : «ولم أسمع بالقنسري إلا في إلا في شعر العجاج » (٢). وقال الاعلم: «القنسري :الشيخ، وهو غير معروف في اللغة ولم يسمع إلا في هذا البيت وحده » (٣) ، وفي اللسان : « القنسري : الكبير المسن الذي اتى عليه الدهر ... قيل لم يسمع هذا إلا في بيت العجاج ». (٤)

ومن ذلك أيضاً استعمال رؤبة مصدراً لم يسمع الا في قوله :

قـد كنـت داينـتُ بـهـا حسّانا مخـافـة الافـلاسِ واِلليانا
يُحْسِنُ بيعَ الاصلِ والقِيـانـا (٥)

قال الأعلم : «والليان مصدر لويته بالدين ليّاً ولياناً اذا مطلته. وهذا المثال في المصادر لم يسمع إلا في هذا وفي قوله : شنئته شنآناً ، فيمن سكن النون »، (٦) وفي اللسان : «والوي بحقي والوالي : جحدني إياه ، ولويت الدين . وقال أبو عبيدة : اللي هو المطل » .(٧)

ومن الكلمات الغريبة التي ارتجلها رؤبة هي (زمن الفِطَحْل) ؛ قال المبرّد : «وحدّثني غير واحد من اصحابنا ، قال : قيل لرؤبة : ماقولك :

لـو انني عُمّرتُ سـنَّ الحسْـلِ أو عُمـرَ نوحٍ زَمَنَ الفِطَحْلِ

ما زمن الفطحل ؟ قال : أيام كانت السّلام رطاباً» .(٨) وقال المبرد ايضاً : «قوله: سن الحسل . مثل ؛ تضربه العرب في طول العمر» (٩) ،

---

(١) ديوان العجاج ص ٣١٠، اراجيز العرب ص ١٧٤.
(٢) ابن سيدة، المخصص ٤٥/١.
(٣) تحصيل عين الذهب ١٧٠/١.
(٤) لسان العرب ١١٧/٥ (قنسر).
(٥) ديوان رؤبه ص ١٨٧.
(٦) تحصيل عين الذهب ٩٨/١.
(٧) لسان العرب ٢٦٣/١٥ (لوي).
(٨) و (٩) المبرد، الكامل ١٩٩/٢.

لقد كان رؤبة راجزاً لايجارى ، كانت اللغة طوع يديه يتصرّف فيها كيف يشاء ، فلا يعجزه شيء من أمرها ، وهو القائل مدللاً على ذلك :

لاينظرُ النحويُ فيها نظري وان لوى لَحْيَيْهِ بالتحكُّرَ
وهوَ دَهِيُ العلم والتعَبّرِ حتى استقامت بي على التبسُّرِ(١)

وقد شهد له أبوه العجاج بأنه أرجز الناس ، (٢) «وقد اخذ عنه وجوه أهل اللغة وكانوا يقتدون به ويحتجّون بشعره ويجعلونه اماماً » (٣)، فها ذا ابن سلاّم يقول : «اخبرني يونس بن حبيب : ان التأبين مدح الميّت والثناء عليه، والمدح للحي ، مستنداً إلى قول رؤبة ومستشهداً به :

فأمدحْ بلالاً غيرَ مامؤَّبنِ (٤)

وكثيراً ماكان سيبويه يعتمد على مايسمعه يونس بن حبيب من رؤبة من رجز أو اقوال أو مرويات ، فيستشهد بها لوضع قاعدة نحوية ، أو لغوية، أو لتوفيق اقواله(٥)، ونجده احياناً يتحفظ ، ولكن لايناقش قول رؤبة لوثاقته عنده ، ولكن يعلّق القول على رواية يونس فيقول مثلاً: «وزعم يونس ان رؤبة يقول: ماجاءت حاجتك فرفع ».(٦) وفي أحيان اخرى كان سماع يونس لانشاد رؤبة شعراً ليس له ، ومع ذلك يأخذ انشاده حجة كقول سيبويه مثلاً «وزعم يونس أن رؤبة بن العجاج كان ينشد هذا البيت رفعاً وهو لبعض مذحج (وهو هني بن أحمر الكناني):

عَجَبٌ لتِلكَ قَضِيَةٌ وإقامتي فيكم على تلكَ القضيةِ أعجبُ(٧)

---

(١) ديوان رؤبة ص٦١.

(٢) ينظر اخبار النحويين البصريين ص ٦٩ والسيوطي، شرح شواهد المغني ٩٥٢/٢ .

(٣) الاغاني ٣١٢/٢٠.

(٤) طبقات فحول الشعراء ٣٠٩/١. قوله: غير مامؤبن: اي غير هالك، يدعو له بطول العمر. والبيت في ديوانه ص ١٦٢.

(٥) الكتاب: ينظر مثلا ١٨٢/١، ٢٤١، ٢٨٩، ٢٩٧، ٩٦/٢.

(٦) الكتاب ٣٥/١.

(٧) الكتاب ١٦٥/١.

أو قوله: «وقد كان رؤبة بن العجاج ينشد هذا البيت رفعاً وهو قول النابغة الذبياني.

قالتْ ألا ليتما هـذا الحمـامُ لنا ... إلى حمامتنا او نصفه فقدِ

وقد استشهد به على الغاء عمل ليت عند دخول ماعليها ، (١) معتمداً على انشاد رؤبة برفع الحمام ، مما يدلّ دلالة واضحة على مكانة رؤبة لدى أئمة العربية راجزاً يؤخذ رجزه حجّة ، راوية يعتمد على مروياته . فقد كان أئمة اللغة وعلماء النحو يسألونه عند كلّ مايهمهم أمره من اسرارها وخفاياها ومعانيها. عن محمد بن سلام قال : «سمعت رجلاً يسأل يونس عن معنى : (صفرَ الوِطابُ) في قول امريء القيس :

وقـاهـم جـدّهـم ببني أبيهـم ... وبالأشقيـنِ مـا كان العقابُ
وافلتهن علبـاءَ جـريـضـاً ... ولـو ادركنـه صَفِرَ الوطابُ

فقال : سألنا رؤبة عنه فقال : لو ادركوه قتلوه وساقوا إبله ، فصفرت وطابه من اللبن »، (٢) كما كانوا يسألونه عن كلّ مايشكل عليهم أمره ، ويأخذون قوله سنداً وحجّة . قال الزجاجي في شرح ادب الكاتب : «سئل رؤبة عن الشنب فأراهم حبّة رقان » (٣). وفي اللسان : الشنب : البياض والبريق والتحديد في الاسنان ، ورقانة شنباء : امليسية وليس فيها حب انما هي ماء في قشر على خلقة الحب من غير عجم ، قال الأصمعي : سألت رؤبة عن الشنب فأخذ حبّة رقان وأومأ إلى بصيصها » .(٤) ولم يكن العلماء وحدهم يقصدون رؤبة لسؤاله عن شيء غمض أو أمر اشكل فحسب وانما كان شعراء زمانه يقصدونه للأغراض نفسها ، وهذا شيء طبيعي ، فاذا كان العلماء يقصدونه سائلين عن كل مايهمهم معرفته عن امور اللغة ، فأولى الشعراء — وهم دون العلماء في العلم — ان يفعلوا ذلك، قال ابن سلام : «وحدثني أبو يحي الضبيّ قال : لقي

---

(١) الكتاب ١/٢٨٢.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/٥٣.

(٣) المزهر ١/١٤٤.

(٤) لسان العرب ١/٤٨٩ (شنب).

ذو الرمة رؤبة فقال له ذو الرّمة : مايعني الراعي بقوله :

أناخا بأشْوالٍ طـرُوقـاً بخُبّةٍ قليلاً وقد أعين سهيلٌ فعدّدا

فجعل رؤبه مرة ههنا ومرّة ههنا، إلى أن قال : هي أرض بين المكلئة والمجدبة. وكذلك هي » .(١)

ومما يدلك على مكانة رؤبة لدى ائمة العربية هو أنهم حينما تحيّروا في بيت الفرزدق :

وَعض زمـانٍ يـاابنَ مروانَ لم يدعْ من المالِ الا مُسْحتاً أو مجرفُ(٢)

وكيف انه عطف مرفوعاً على منصوب ، سألوا رؤبة عن روايته الصحيحة ؛ قال ابو عمرو بن العلاء ؛ « قلت ليونس : لعلَ الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه ؟ فقال : لا، كان ينشدها على الرفع . وانشد فيها رؤبة على الرفع » (٣)

ويكفي للدلالة على اعتداد العلماء برؤية أن كلامه المعتاد حجّة وان كان فيه مخالفه للكلام المألوف، كقوله : — وقد قيل له : كيف أصبحت ؟ — خير عافاك الله. أخذوا يستشهدون به على حذف الحروف من الكلم مستشهدين بهذا القول الذي مانظن أن رؤبة قال إلا اختصاراً ، فقد استشهد به ابن جني على حذف اللام من قولهم : ويلمّه. « قال: وانما أصلها : ويل لامّه ... حذف لام (ويل) وتنوينه، وحذفت همزة أم ، فبقي : ويلمّه . فاللام الآن لام الجر ، ألا تراها مكسورة ؟ وقد يجوز أن تكون اللام المحذوفة هي لام الجر ، كما حذف الجر من قوله : الله افعل وقول رؤبة: خير عافاك الله (٤) » وقد جعل النحويون الجر بغير (ربّ) محذوفاً على قسمين : مطّرد وغير مطّرد . فغير المطّرد كقول رؤبة لمن قال له : كيف اصبحت ؟ خير والحمد لله. التقدير على خير . (٥)

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٢/٥٦١ – ٥٦٢.

(٢) المجرف : الذي تجرفته السنة وقشرته ، ويروى ايضاً : او مجلف. والمجلف : الذي ذهب ماله.

(٣) طبقات فحول الشعراء ٢/٥٦١ – ٥٦٢.

(٤) الخصائص ٣/١٥٠.

(٥) ينظر المفصل ص٢٩٢ ومغني اللبيب٢/٦٤٠ واوضح المسالك ص٩٦ وشرح ابن عقيل ٢/٣٩.

وعلى كل فقد كان رؤبه مقصد العلماء والشعراء والمتأدبين والدارسين ، وعندما استقر به المقام في البصرة اتخذ له مجلساً في رحبة بني تميم ، يعقده كلّ يوم جمعة حيث يختلف اليه ائمة العربية للسماع والأخذ والبحث في مختلف شؤون اللغة وآدابها ، وكانت كثرة من يجتمع في ذلك المجلس تسد الطريق على المارّة . (١)

أما فصاحته فكانت مما لايختلف فيها اثنان ، فقد كان علماء اللغة وائمة النحو يعتدون بفصاحة رؤبة أيّما اعتد، فيونس بن حبيب يدفعه اعتداده بفصاحة رؤبة إلى القول : «أن رؤبة أفصح من معد بن عدنان»،ويفخر بأنه غلام رؤبة(٢)، فقد كان شديد الاختصاص به ، وفياً له، يحفظ جانبه غيابه ، فعندما اراد (شبيل بن عزرة الضبعي) الانتقاص من علم رؤبة في اللغة في حلقه ابي عمرو بن العلاء تصدّى له يونس واوقفه عند حدّه ، وردّ عليه رداً جعله يترك الحلقة مغاضباً (٣).

وعلى الرغم من اختلاف العلماء في أفصح الشعراء او الرجاز ، وكل منهم يذهب مذهباً في ذلك ، فعالم يعتد بشاعر ويجعله حجة مستشهداً بقوله مستنداً اليه في وضع القاعدة النحوية ، وآخر لايعتد به ولايجعله حجة بل يجعله محدثاً ، فقد اتفقت كلمتهم على أن رؤبة أفصح الرجاز ، فقد تقدّم رأي يونس فيه حيث عدّه أفصح من معد بن عدنان ، وهو بشهادة أبية العجاج ارجز الناس . (٤) وقد مرّ بنا أن أبا عمرو بن العلاء جعل ختام الرجز برؤبة وأبيه العجاج ، أي أنه لايجوز أن يأتي راجز بعدهما يحتل مكانتها وينافسهما منزلتهما لدى العلماء . وليس أدل على فصاحة رؤبة وسعة علمة باللغة من قول الخليل بن أحمد الفراهيدي وهو أمام في اللغة ، امام في النحو حين انصرف مع الناس من جنازة رؤبة : «دفنّا الشعر واللغة والفصاحة اليوم ». (٥) وتبرز حقيقة اعتداد العلماء بفصاحة

---

(١) ينظر طبقات فحول الشعراء ٥٦٥/٢.

(٢) ينظر مراتب النحويين ص ٢٢ والأغاني ٢١٣/٢٠ – ٢١٤.

(٣) ينظر مراتب النحويين ص ٢٣ .

(٤) ينظر اخبار النحويين البصريين ص ٦٩.

(٥) الأغاني ٣٢٤/٢٠ .

رؤبة ماثلة في كتب النحويين ، حيث نجد رؤبة متصدراً جميع الرجاز في الكتب النحوية التي تيسر لي استقراء شواهدها (١) .

استشهاد الكوفيين بالرجز :

يظهر لنا جلياً موقف الكوفيين من الرجاز اذا ماعلمنا شيئاً عن منهجهم العام في الاستشهاد بالشواهد والقياس في النحو ، فالكوفيون « توسعوا في السماع من العرب فسمعوا من المناطق التي سمع منها البصريون ، كما سمعوا من مناطق أخرى لم يعتد البصريون بفصاحة أهلها، ثم اخذوا عن اعراب كثيرين لم يوثق بعضهم البصريون ، كذلك توسّعوا في الرواية فقبلوا كل ماوصلهم عن العرب من نصوص صحّت روايتها عندهم . فمن هذا المبدأ رسم الكوفيون منهجهم العام في الاستشهاد بالشواهد والقياس عليها ، فقد اعتدوا بكل المرويات التي سمعوها وصحّت روايتها عندهم دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء تأويلها ، فاستخرجوا قواعدهم من ظاهر الكلام وأباحوا القياس على كلّ ماروي لهم سواء كان كثيراً ، أو قليلاً ، أو نادراً ، قياسياً كان أو شاذاً (في نظر البصريين) دون مبالاة بتعدد القواعد والاصول.ومضوا على هذا المنهج في الاستشهاد ، فكانوا يقبلون ماينفرد به العربي مخالفاً قبيلته ويقيسون عليه ، وهم على صواب ، ذلك أن العربي الأصيل قد يبتكر ويجدد ، وعلى هذا الابتكار والتجديد قامت لغته وعليها عاشت ونمت وارتقت ... فقد استشهدوا بالشاهد المروي بروايات مختلفة وبالمجهول قائله بل وحتى بالمصنوع وبالبيت الواحد وبنصف بيت »، (٢) وهكذا اختلف الكوفيون مع البصريين في الاستشهاد برجز الرجاز ، فالبصريون اعتدوا بالرجاز ، ولكنهم فضّلوا بعضاً على بعض لفصاحته ومعرفته باللغة كأبي النجم والعجاج وابنه رؤبة ، وتوقفوا عن قبول ماجاء في رجز بعض الرجّاز المتأخرين كالعماني الراجز مثلاً ، مما لايتفق وأقيستهم التي وضعوها ،أو مما ورد على لغات قليلة

---

(١) الكتب هي : كتاب سيبويه ومقتضب المبرد ومفصل الزمخشري واضداد ابن الانباري وشرح ابن عقيل.

(٢) الشواهد والاستشهاد في النحو ص ١٧٧.

أو مما عدّ لحناً ، حيث لم أجد سيبويه قد استشهد في كتابه بشيء من رجزه . أما الكوفيون الذين اعتدوا – كماتقدم – بكل مسموع صحّت روايته عندهم ، فقد اعتدوا بجميع الرجاز لأنهم ساروا على طريقتهم في السماع ، ولذا عدّوا – جميع الرجاز الاسلاميين – بما فيهم العماني الذي كان يعد من ساقه الرجاز ممن يصح الاستشهاد برجزهم ، في دراساتهم اللغوية والنحوية. (١)

ولا بدّ أن نشير إلى أن الباحث يجد عناءاً عند بحثه استشهاد الكوفيين بالرجز في المسائل النحوية ، ذلك أن كتبهم التي الفوها في هذا العلم لم تصل الينا، وكل ماوصلنا عنهم كتب غير خاصة بالنحو، (٢) أهمها كتاب (معاني القرآن) لأبي زكريا يحيى بن زياد الفرّاء المتوفى سنة ٢٠٧هـ وهو كتاب تفسير وفيه آراء الفراء النحوية وشواهده أيضاً ، ومجالس ابي العباس أحمد بن يحيى ثعلب المتوفي سنة ٢٩١هـ وهو يحتوي على مسائل لغوية ونحوية وادبية ، ولولا مانجده في كتب المتأخرين من النحويين غير الكوفيين لجهلنا كل شيءعن استشهادهم بالرجز ، وسنعتمد – مضطرين – على معاني القرآن وكتب النحاة المتأخرين لإعطاء صور لابأس بها عن استشهاد الكوفيين بالرجز .

من ذلك مثلاً استشهاد الفراء على نصب المضارع في جواب الأمر برجز ابي النجم :

ياناقُ سيري عنقاً فسيحاً إلى سليمان فنستريحا (٣)

ثم أعاد الاستشهاد به ثانية وقال: «وكان شيخ لنا يقال له : العلاء بن سيابة وهو الذي علّم مُعاذاً الهراء واصحابه – يقول لانصب بالفاء جواباً للأمر»(٤) وقد مرّ بنا أن ابا حيان النحوي ذكر اجماع النحويين على نصب المضارع في جواب الأمر الا العلاء بن سيابة فانه خالف ذلك الاجماع .

---

(١) ينظر على سبيل المثال : معاني القرآن ٢٣٥/١، ٣٩٥، ٤٣٢، ٤٧٨، ٧٩/٢، ٢٥٩، ٣٣٩، ١٧١٣، ١١٨، ١٥٨، ١٥٩، ومجالس ثعلب ٧/١، ٣٩، ٥٨/٢، ٨٣٢/٣، ١٦٥/٤، ١٨٢، ٢٢٨/٥، ٢٧٠/٦ .

(٢) ينظر ماوصلنا من كتبهم بصورة مفصلة في الشواهد والاستشهاد في النحو ص١٠٨

(٣) معاني القرآن ٤٧٨/١.

(٤) معاني القرآن ٧٩/٢.

ومن ذلك أيضا استشهاده برجز للعجاج عند تفسيره قوله تعالى : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً» على نصب الاسم المجرور بنزع الخافض ، أي عند حذف حرف الجر ؛ فقال : «وجاء التفسير : اختار منهم سبعين رجلاً. وانما استجيز وقوع الفعل عليهم اذ طرحت (من) لأ نه مأخوذ من قولك: هؤلاء خير القوم وخير من القوم . فلما جازت الاضافة مكان (من) ولم يتغير المعنى استجازوا أن يقولوا : اخترتكم رجلاً ، واخترت منكم رجلا قال الراجز:

تحتَ الذي اختارَ له اللهُ الشجرْ (١)

واستشهد أيضاً على تصويب قراءة من قرأ (أحد) بدون تنوين بقول الأغلب العجلي الذي مرّ بنا ان البصريين حملوه على الضرورة ؛ فقال : «وقد سمعت كثيراً من القراء الفصحاء يقرءون (قل هو اللهُ أحدْ أللهُ الصمدْ) فيحذفون النون من (أحدْ) لاستقبالها السكون ... وربما ادخلوا النون في التمام مع ذكر الأب ؛ انشدني بعضهم :

جاريةٌ من قيسِ بنِ ثعلبةْ كأنّها حليةُ سيفٍ مُذهبةْ (٢)

ومن ذلك أيضاً استشهاد الكوفيين بالرجز على نصب المبتدأ والخبر بالحروف المشبهة بالفعل (إنّ واخواتها)، فقد استشهد الفراء برجز ينسب للعجاج جاء مخالفاً قياس البصريين واللغة الشائعة ، وذلك قوله :

ياليتَ أيامَ الصبا رواجعاً

استشهد به على نصب المبتدأ والخبر بـ ليت ، (٣) لأن ليت — على رأيه — «أشربت معنى تمنيت ،فاذا قلت : ليت زيداً قائماً ، كان المعنى : تمنيت قيام زيد (٤)» ، وقد مربنا ان البصريين أوّلوا هذا الشاهد ، الذي جاء على لغة بني تميم ، لكي يتفق مع ماقرروه من قواعد . غير ان الكوفيين قد جوزوا أيضاً نصب المبتدأ والخبر بالحروف الخمسة الباقية ، ومنها كأن ،(٥) فقد جوّز

(١) معاني القرآن ١/٣٩٥.
(٢) معاني القرآن ١/٤٣٢.
(٣) صدر الدين الكنغراوي،الموفي في النحوالكوفي ص٤٥ .
(٤) شرح المفصل ٨/٨٤.
(٥) الموفي في النحو الكوفي ص٤٥.

أصحاب الفراء ذلك مستندين إلى الرجز المار ذكره ، وإلى رجز العماني الذي عدّه بعض البصريين لحناً وقبله آخرون (١) :

كـأنّ اذنيـه اذا تـشـوّفـا   قـادمـةً او قـامـاً مُحرّفـا

وإلى قول راجز آخر :

إن العـجوزَ حيـةً جـروزا

وقول الآخر : الا ليتـنـي حـجراً بواد

وإلى ماروي من قول الرسول (ص) : «إن قعر جهنم لسبعين خريفاً » وإلى ماسمع من قول العرب : لعلّ زيداً أخانا .(٢)

والحق ان السماع يخدم الكوفيين في هذه المسألة ، ولاسيما انه لغة كما ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام وابن الطراوة وابن السيد (٣)، وما ذكره ابن سلام نقلاً عن الثقات من أنه لغة قبيلة معتد بفصاحتها لدى جمهور النحويين ، الا وهي قبيلة تميم، أما التأويل ففي رأينا انه يربك النحو ولايزيده الا تعقيداً .

ومما ذهب اليه الكوفيون مستشهدين بالرجز ومستندين اليه هو تجويزهم تقديم حرف الاستثناء في أول الكلام ،نحو قولهم : « الا زيداً ماجاءني من أحد » و« إلا طعامك ما أكل زيد» (٤) . «نص عليه الكسائي . وقالوا : الدليل على جواز تقديمه ان العرب قد استعملته متقدّماً واستشهدوا برجز العجاج :

وبلـدةٍ ليسَ بهـا طـوريٌ   ولا خـلا الجنّ بهـا انسيُ

وقد قدّم الاستثناء على جملة الكلام ،واصل العبارة :ولا انسي بها خلا الجن»(٥) .
قال ابن السراج : «وحكي عن الاحمر انه كان يجيز : ماقام صغير وماخلا اخاك كبير ، وانما قاسه على قول الشاعر :

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في الكامل للمبرد ١٤١/٣ وفي خزانة الأدب ٢٩٢/٤.

(٢) السيوطي، همع الهوامع ١٣٤/١.

(٣) المصدر نفسه ١٣٤/١.

(٤) الموفي في النحو الكوفي ص ٧٢.

(٥) ابو البركات الانباري، الانصاف في مسائل الخلاف ٢٧٣/١ .

وبـلدة لـيـس بـهـا طـوريٌّ ولاخلاص الجن بها انسـيُ (١)

ولم يرتض البصريون ذلك وذهبوا إلى أن « تقديم المستثنى غير المنسوب والمنسوب اليه شاذ» .(٢) وبما ان قائل الرجز ممن يوثق بعربيته لدى البصريين ، فلم يطعنوا في قائله وانما أوّلوه على : تقدير مستثنى منه محذوف ، وقيل تقديره « ولا بها انسي خلا الجن ؛ فـ« بها» مقدّرة بعد «لا» وتقديم الاستثناء فيه للضرورة ؛ فلا يكون فيه حجة ». (٣)

وهكذا نرى الكوفيين يتخففون كثيراً من التأويل ويحترمون المسموع من كلام العرب الفصحاء ويستشهدون به ويقيسون عليه مكوّنين قاعدة له، فلا يهمهم تعدد القواعد والاصول بقدر مايهمهم اخذ كلام العرب الموثوق بعربيتهم بنظر الاعتبار ، وبذلك لايتعسفون على اللغة و لا يتحكّمون بألسنة مظلميها، ومن هنا كان منهجهم أقرب إلى المنهج الوصفي الذي يضع قواعد اللغة على وفق نطق أهلها ، ولايفترض افتراضات لم تدر في خلد الناطقين بها .

---

(١) كتاب الاصول ١/٢٧٣ .

(٢) خزانة الادب ٢/٢.

(٣) الانصاف ١/٢٧٧.

مصادر البحث

١ ــ أخبار النحويين البصريين : السيرافي . تحـ طه الزيني ومحمد خفاجي ، ط (١) القاهرة ١٩٥٥ .

٢ ــ أراجيز العرب : محمد توفيق البكري . ط (٢)، القاهرة ١٣٤٦هـ

٣ ــ كتاب الاصول : ابن السراج . تحـ د. عبد الحسين الفتلي .: النجف ١٩٧٣م .

٤ ــ الاغاني : ابو الفرج الأصبهاني ، طبعة دار الثقافة بيروت.

٥ ــ الانصاف في مسائل الخلاف : أبو البركات الانباري ، ، ط (٤) ، القاهرة ١٩٦١ م.

٦ ــ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ابن هشام .ط (٢)، القاهرة ١٩٥٠م .

٧ ــ تحصيل عين الذهب (شرح شواهد سيبويه) : الأعلم الشنتمري ، بولاق ١٣١٦هـ

٨ ــ خزانة الأدب : عبدالقادر بن عمر البغدادي ، وبهامشه كتاب (المقاصد النحوية) شرح الشواهد الكبرى لمحمود بن أحمد العيني ، ط (١) بولاق ، القاهرة ١٢٩٩ هـ.

٩ ــ الخصائص : ابن جني . تحـ محمد علي النجار ،ط (٢) القاهرة ١٩٥٢م .

١٠ ــ ديوان رؤبة بن العجاج : تصحيح وليم بن آلورد البروسي ط(١) ليبسك ١٩٠٣م.

١١ ــ ديوان العجاج . رواية الاصمعي وشرحه . تحـ عزة حسن . بيروت ١٩٧١م.

١٢ ــ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ط(١٣)، القاهرة ١٩٦٢م.

١٣ ــ شرح الأشموني وعليه حاشية الصبان وشرح الشواهد الصغرى للعيني ، القاهرة .

١٤ ــ شرح شذور الذهب : ابن هشام . ط(١١)، القاهرة ١٩٦٨ م.

١٥ ــ شرح شواهد المغني لابن هشام : السيوطي .ط(١)، دمشق ١٩٦٦م .

١٦ — شرح المفصل للزمخشري : ابن يعيش .ط (١) نشر : ادارة الطباعة المنيرية القاهرة .

١٧ — الشعر والشعراء : ابن قتيبة .ط(٢) دار الثقافة ،بيروت ١٩٦٩م.

١٨ — الشواهد والاستشهاد في النحو : عبدالجبار علوان النايلة ، ط(١) بغداد ١٩٥٦ م.

١٩ — طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحي . شرح :محمد محمود شاكر ط(٢) القاهرة ١٩٧٤ م.

٢٠ — العمدة : ابن رشيق القيرواني .ط(٢) ،القاهرة ١٣٧٠ هـ = ١٩٥٠م .

٢١ — كتاب سيبويه .ط(١)، بولاق ١٣١٦ هـ وبهامشه كتاب تحصيل عين الذهب للأعلم .

٢٢ — لسان العرب : إبن منظور .دار صادر، دار بيروت .

٢٣ — مجالس ثعلب : تح عبدالسلام محمد هارون .ط (٢) بيروت .

٢٤ — مراتب النحويين : أبو الطيب اللغوي . تح محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٥ م .

٢٥ — المزهر في علوم اللغة وأنواعها : السيوطي : تح محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة .

٢٦ —معاني القرآن : الفراء .تحقيق : محمد علي النجار وآخرون ،القاهرة ١٩٥٥— ١٩٧٢ م .

٢٧ — مغني اللبيب : أبن هشام . تح محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة(بدون تاريخ).

٢٨ — المفصل في علم العربية : الزمخشري .ط(١) بمصر ، ١٣٢٣هـ .

٢٩ — المقتضب : أبو العباس المبرّد . تح محمد عبدالخالق عضيمة . ط (١) القاهرة ٨٥ — ١٣٨٨هـ.

وهناك مصادر أخرى اكتفينا بذكرها في هوامش البحث .

منهج ابن حجر في كتابه هدي الساري

عبد الرزاق قاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

(منهج ابن حجر (١) في كتابه هدي الساري)

يقرر التشريع الاسلامي للحديث النبوي المكانه التالية للقرآن الكريم في كونهما الاصلين في الاحكام الشرعية ، لذلك عني علماؤه المتخصصون بالحرص على تحري الصحيح من الضعيف فيه وكان ممن نهض بمهمة التحري والتدقيق للصحيح من السنة النبوية الشيخ البخاري (٢) الذي نشط في جمع الحديث الصحيح حفاظا على سلامته من الدخيل عليه .

وكان ترغيب شيخه اسحق بن راهوية (٣) لطلابه حافزا له على العزم لهذا الجهد العظيم فقد تحدث البخارى عن ذلك بقوله :(كنا عند اسحق بن راهوية فقال: لو جمعتم كتابا مختصراً لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقع ذلك في قلبي فاخذت في جمع الجامع الصحيح (٤) .

وقد نال صحيح البخاري عناية كبار علماء الحديث ومنهم الامام احمد بن حنبل وغيره من المحدثين الذين شهدوا له بالصحة المطلقة (٥) . فيقول الامام النووى

---

(١) ابن حجر : احمد بن علي بن محمد العسقلاني القاهري. يعرف بابن حجر وهو لقب آبائه. له مصنفات كثيرة في الحديث والفقه والاصول وفنون الادب، وله ديوان شعر مطبوع جمعه وصححه وعلق عليه الدكتور السيد ابو الفضل واشهر مصنفاته في علم الحديث الاصابه في تمييز الصحابه وفتح الباري بشرح صحيح البخاري توفي سنة ٨٥٢ محمد السخاوي : الضوء اللامع ج ٢ ص٣٦

(٢) البخاري :ابو عبد الله بن اسماعيل البخاري (١٩٤ – ٢٥٦) الامام في علم الحديث والتاريخ الكبير في الرجال. وجامعه الصحيح في الحديث اصح كتب الحديث الصحاح، ونقل الخطيب البغدادي اجماع علماء الحرمين والحجاز والشام والعراقين على امامته.
احمد بن علي الخطيب البغدادي (٤٦٣) تاريخ بغداد ج٢ ص٤ – ٢٨)

(٣) اسحق بن راهويه: الحافظ ابو يعقوب التميمي عالم نيسابور وشيخ اهل المشرق (١٦٦ – ٢٣٨) وهو من شيوخ البخاري، شهد له علماء الحديث بالحفظ، قال عنه الامام احمد بن حنبل (لااعلم لاسحاق بالعراق نظيراً...) (محمد الذهبي، تذكرة الحفاظ ج٢ ص ٤٣٣ – ٤٣٤

(٤) هدى الساري ج١ ص ١٨.

(٥) المصدر نفسه ج١ ص ١٩.

(ت ٦٧٦) في مقدمة شرحه لصحيح مسلم : (اتفق العلماء رحمهم الله على ان اصح الكتب بعد القرآن العزيز الصحيحان البخاري ومسلم ، وتلقتهما الامة بالقبول ، وكتاب البخاري اصحهما واكثرهما فوائد اومعارف ظاهرة وغامضة وقد صح ان مسلماً كان ممن يستفيد من البخاري ، ويعترف بانه ليس له نظير في علم الحديث وهذا الذي ذكرناه من ترجيح البخاري هو المذهب المختار الذي قاله الجماهير واهل الاتقان والحذق والغوص على اسرار الحديث (١).
لذلك تقدم إلى شرحه ودراسته عدد كبير من العلماء (٢) يعد شرح أبن حجر شهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ — ٨٥٢) الموسوم بفتح الباري اشملها وأحسنها . وقد قدم له بمقدمه بجزأين تبين قواعده وتشير إلى أصوله في جمعها بعشرة فصول سماها (هدى الساري) جمعت مجالات في التشريع واللغة والترجيح بين الاسانيد من حيث التوثيق والعدالة أو الضعف و التعليق والانقطاع وما اليها . وقد أردت في دراستها ان اوضح الخطوط التي انتهجت في شرح صحيح البخاري وتناولت أمثلة تطبيقية منها .
وقد اوضح السبب الباعث للبخاري على تصنيف كتابه (٣) وتوسع بيان دواعي تنظيمه بالشكل الذي هو عليه من تحري الصحة وتعاقب تراجم كتبه وأبوابه بالصورة الفائقة على سواه . وعلل ذلك بنظرة في اثار من سلفه من علماء الحديث الذين تنوعت مصنفاتهم في تدوينه . وكانت هذه المصنفات تجمع بين الحديث النبوي وبين المشهور من اقوال الصحابة وفتاوي التابعين وهؤلاء هم رجال الطبقة

---

(١) السيوطي: تدريب الراوي ج١ ص ٩١ وينظر للنووي شروح البخاري ص٧ .
(٢) من اهم شروح البخاري : شرح الشيخ احمد ابن محمد البستي الخطابي (ت٣٣٨)
وشرح محمد بن يوسف الكرماني (ت٧٨٦) واسمه الكواكب الدراري في شرح البخاري.
وشرح محمد ابن يعقوب الفيروز ابادي صاحب القاموس المحيط (ت٨١٧)
وشرح محمود بن محمد العيني (ت ٨٥٥)
وشرح الشيخ احمد بن محمد القسطلاني (ت٩٢٣)
وهذه الشروح متوسعه في دراسة اسانيد الحديث ومعانيه ولغة المقاصد الفقهية وغيرها.
(٣) هدى الساري ج١ ص ١٧
(٤) المصدر نفسه ج١ ص ١٧ — ١٨

الثالثة (الجيل الثالث) من اهل الحديث كالامامين مالك بن انس واحمد بن حنبل يقول أبن حجر : (ثم حدث في اواخر عصر التابعين تدوين الاثار وتبويب الاخبار لما انتشر العلماء في الامصار وكثر الابتداع ... فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح وسعيد بن عروبة وغيرهما ، وكانوا يصنفون كل باب على حده ، الى ان قام كبار اهل الطبقة الثالثة فدونوا الاحكام، فصنف الامام مالك الموطأ وتوخى فيه القوى من حديث اهل الحجاز ، ومزجه باقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم ؛ وصنف بن جريح بمكة ، والاوزاعي بالشام ، والثوري بالكوفة ، وأبو سلمة بن دينار بالبصرة ، ثم تلاهم كثير من اهل عصرهم في النهج على منوالهم إلى ان رأى بعض ألائمة منهم أن يفرد حديث النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وذلك على رأس المائتين .

وكانت هذه المصنفات تتنوع من حيث تنظيمها وتدوين موادها الى أنواع عدة منها:
أ. فقد دون بعضهم الحديث في كتابه حسب اسانيد الرجال كالامام احمد بن حنبل . وتتسم هذه المصنفات بانها تثبت الاحاديث تبعاً لكل سند يروى عن احد الصحابة ثم يتلوه سند اخر عن صحابي ثان حسب طبقات الصحابة ابتداء من المبشرين بالجنة ثم الذين يلونهم:

وصف مؤلف الفتح الرباني مسند ألامام أحمد بن حنبل بقوله : (وقد سلك ألامام أحمد – رحمه الله تعالى – في كتابه مسلكا يتفق مع أهل عصره ، فرتبه على مسانيد الصحابة ، ثم رد كل مارواه عن الرسول صلى الله عليه وسلم من الاحاديث بدون نظر إلى ترتيبها أو موضوعات ثم يقضي بصحابي أخر وهكذا ... وكان هذا الترتيب مفيدا في القديم لعناية الناس بالحفظ واعتمادهم عليه ... اما الآن وقد صار اعتماد الناس على الضبط الكتابي فقد وقف ذلك حائلا دون الانتفاع بكتاب عظيم وأصل كبير كالمسند)(١)

---

(١) احمد عبد الرحمن البنا : الفتح الرباني في ترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني ج ١ص ١٠/١٢ .

وكان هذا حافزا للمؤلف على اعادة تنظيم مسند الامام أحمد تنظيماً جديدا حسب المواضيع الفقهية المتقاربة فيه

ب. وكان النوع الثاني من مصنفات الحديث يُعْنى بسرد الحديث حسب ابواب الفقه ، ومنه الصحيح والمرسل والمنقطع ، وإلى جانبها النظر الفقهي ، ويتضح هذا في موطأ الامام مالك ، الذي يرقى بصحة مافيه إلى مصاف الصحيحين البخارى ومسلم . ويعد معهما في الطبقة الاولى من كتب الحديث (١) ولابد ان تكون ظاهرة الوضع في الحديث عاملا اخر في حرص البخارى على جمع صحيحه حيث نشط الوضاعون في اخر القرن الاول الهجري والثاني (٢) لذلك نلاحظ البخاري حين يرى هذه المصنفات تجمع بين الصحيح والضعيف ويرقب خطر الوضع في الحديث يعزم على تدوين الصحيح حسب شروط دقيقة (٣) . ونلحظ ابن حجر يتجه إلى بيان مراد البخاري في جمع صحيحه (٤) ويوكد انه لم يقتصر فيه على جمع الحديث ، بل تجاوزه إلى الاشارات والنظرات الفقهية المفرقة على ابواب كتابه لاستنباط الاحكام منها .

وبهذا يراه قد سلك في منهجه رسما خاصا واسلوبا متميزا من سواه(٥). واستشهد بقول النووى في تأييدنظرته حيث يقول (ليس مقصود البخاري

---

(١) الدهلوي : حجة الله البالغة ج١ ص ٢٨١. وينظر : الدكتور مصطفى السباعي في السنة ومكانته في التشريع الاسلامي ص ٤٨٦.

(٢) السيوطي: تدريب الراوي ج١ ص ٢٧٤ – ٢٩١ وينظر اكرم العمري في بحوث في التاريخ السنة المشرفة ص ١٩.

(٣) شروط الصحة عند البخاري هي الشروط العامه عند علماء الحديث هي (الاسلام والعقل والبلوغ والعداله والضبط في الحفظ او الكتابة. اما الشروط الخاصة عنده فهي: المعاصره واللقاء والسماع بين الراوي اللاحق مع الراوي السابق، وحرصه على تقديم الرواه من الطبقة الاولى. (ينظر ابن كثير: الباعث الحثيث ٢٢/٢٥)

(٤) هدى الساري ج١ ص١٩

(٥) المصدر نفسه ج١ ص١٩

الاقتصار على الاحاديث فقط بل مراده الاستنباط منها والاستدلال لابواب ارادها). وقد رأى ان من المفيد عرض طريقة البخاري في صحيحه وتلخص بالنقاط الآتية :ـ

المسألة الاولى : في احوال تراجم الصحيح (١) وهي على وجوه :

أ انه حين يورد ترجمتين متتاليتين ليس بينهما حديث يريد الاشارة إلى ان الترجمة الاولى عامة تخصصها الترجمة الثانية (٢) ومثالها في الصحيح كثير ، منها : ماجاء في البابين المتعاقبين (باب ماجاء في العلم وقوله تعالى ـ وقل رب زدني علما) .

و (باب القراءة والعرض على المحدث) (٣) فهو يقول عنهما : (انما غاير بينهما بالعطف لما بينهما من العموم والخصوص لأن الطالب اذا قرأ كان اعم من العرض وغيره ، ولايقع العرض الا بالقراءة لان العرض عبارة عما يعارض به الطالب اصل شيخه معه او مع غيره بحضرته ،فهو اخص من القراة

(ب. انه قد يذكر حديثا لايترجم له نظراً منه إلى اهميته ، ومثاله حديث (انما الاعمال بالنيات) حيث اورده في باب كيف كان بدء الوحي وتلاه بقوله تعالى (إنا اوحينا اليك كما اوحينا إلى نوح والنبيين من بعده سورة النساء (١٦٣) . ثم اورد الحديث المذكور . وكانه اراد التأكيد به لاهميته في واجب الاخلاص ، وان النية اصل لكل عمل فكان بهذا الحديث بمثابة افتتاحية الصحيح وخطبته التي انتهجها المصنفون الاولون . (٤)

ج. انه يورد الحديث الموافق لشروطه بصيغة التحديث للترجمة التي يجعلها مصطلحه في الباب وان وجد حديثا صالحا للحجة لايوافق شروطه جعله في الباب

---

(١) تراجم الصحيح : هذه تسمية الشارح لعنوانات الصحيح وهو مصطلح متداول وقديم بين اهل العلم.

(٢) هدى الساري ج١ ص١٩ — ٢٠

(٣) فتح الباري ج١ ص ١٥٧

(٤) المصدر نفسه ج١ ص ١٠ —٢٠

مغايراً للصيغة التي يسوق بها ماهو من شرطه . ومثال ذلك رواية الحديث الثاني من باب فضل من علم وعلم حيث رواه بصيغة : قال اسحاق ....(١)

د. انه اذا وجد الحديث الذي يستأنس به وليس على شرطه وكان مقبولا عند غيره استعمل لفظ الحديث او معناه ترجمة للباب ثم اورد في ذلك اما آية من كتاب لله تشهد او حديثا يؤيد عموم مادل عليه . ومثال ذلك (باب لاتقبل صلاة بغير وضوء) وهو لفظ حديث على شرط الامامين مسلم وابي اود وغيرهما (٢) و (باب اثنان فما فوقهما جماعة) (٣) .

ومثال الترجمةالتي يعقبها بآية(باب مايكره من كثرة السوأل وتكلف مالا يعنيه) (٤) وقوله تعالى (لاتسألوا عن اشياء ان تبدلكم تسؤكم) سورة المائدة (١٠١) ومثال الترجمة بآية ثم يتلوها الخبر التاريخي عن سيرة النبي صلى لله عليه وسلم او ممارساته في ادارته : (باب قول الله تعالى — وامرهم شورى بينهم) سورة الشورى (٣٨) وشاورهم في لامر (آل عمران ١٥٩) وان المشاورة قبل العزم والتبيين .... (٥)

ه. وقد ياتي بالترجمة مطابقة للحديث التالي لها مؤكدا في الترجمة حكمة الاحاديث التالية لها . مثل(باب ماكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم (٦) بالموعظة والعلم كي لاينفروا ثم اعقبها برواية ابن مسعود قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الايام كراهة السآمة علينا،وبحديث انس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) (٧) .

---

(١) المصدر نفسه ج١ ص ١٨٧

(٢) المصدر نفسه ج١ ص ٢٤٥-

(٣) هدى الساري ج١ ص ٢٥

(٤) فتح الباري ج١٧ص٢٤

(٥) المصدر نفسه ج١٧ص١٠٢

(٦) (يتخولهم) بالخاء المعجمه أي يتعهدهم ويراعي في الوقت المناسب الموعظة (فتح الباري ج١ ص ١٧١ — ١٧٢)

(٧) فتح الباري ج١ ص ١٧١ — ١٧٢

و. وقد تأتي الترجمة بلفظ المترجم له او بعضه او بمعناه ، وكأنه هنا يشير إلى قاعدة العموم والخصوص الاصولية التي لاحظها عند البخارى ، فيقول: (وهذا في الغالب قد يأتي من ذلك مايكون في لفظ الترجمة احتمال لاكثر من معنى واحد، فيعين احد الاحتمالين بما يذكر تحتها من الحديث ، وقد يوجد فيه ما هو العكس من ذلك ؛ بان يكون الاحتمال في الحديث والتعيين في الترجمة والترجمة هنا بيان لتأويل ذلك الحديث ، نائبة مناب قول الفقية مثلا : المراد بهذا الحديث العام الخصوص ، او بهذا الحديث الخاص العموم، اشعارا بالقياس لوجود العلة الجامعة ... ويأتي في المطلق والمقيد نظير ماذكره في الخاص والعام (١) .....) ومثال ذلك : (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم علمه الكتاب) ثم جاء بعده بحديث ابن عباس قال (ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (اللهم علمه الكتاب) .

ووصف ابن حجر طريقة الصحيح هذه قائلا : استعمل (البخارى) لفظ الحديث ترجمة تمسكا بان ذلك لايختص جوازه بابن عباس ... ويحتمل ان يكون لابن عباس نفسه ، لتقدم ذكره في الحديث الذى قبل هذه الترجمة اشارة إلى جوابه الصائب بفضل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له (٢)

ز. ويرى ابن حجر في بيان الوجوه والصور الكثيرة لتراجم البخارى انواعاً وافرة يضيق بها البحث ان اتجه الحرص على استقصائها مع الامثلة، حتى أنه يقول : ولهذا اشتهر من قول جمع من الفضلاء فقه البخارى في تراجمه (٣).

وقد ينسب إلى ظاهرة الغموض في فهم المناسبة بين الترجمة والحديث التالي لها ، تعليلا يبرر فيه هذه الظاهرة عند من لم تتضح له المناسبة بينهما . فيعزو الامر إلى مقصد البخارى في شحذ الاذهان بالرجوع إلى حديث سابق يفسر الخفاء ، فكانه يحيل عليه او يومي بالرمز والاشارة اليه ، وهذا النوع من

---

(١) هدى الساري ج١ ص ٢٤ — ٢٥

(٢) فتح الباري ج١ ص ١٧٩

(٣) هدى الساري ج١ ص ٢٥

التراجم يرد الكثير منه في شرح المشكل وتفسير الغامض ، وتأويل الظاهر وتفضيل المجمل . فهو يقول عنها : وهذا الموضع هو معظم ما يشكل من تراجم هذا الكتاب (١)

ح. يلحظ ابن حجر في التراجم التي ترد بصيغة الاستفهام (٢) نظرة خاصة عند البخارى فيقول عنه انه يحرص على ابقاء حرية الاجتهاد والنظر والتأمل في حكم هذه الترجمة مع الاحاديث التي تليها لاحتمالها الوجوه المتعددة مثل (باب اى الاسلام افضل ؟) (٣) و (باب هل يجعل للنساء يوماً على حده في العلم ؟) (٤) و (باب هل يكون كذا ؟ او (من قال كذا؟) (٥) و (باب هل تصلي المرأة في ثوب حاضت فيه ؟) (٦)

ط. وقد اغاض ابن حجر واستغرق في التماس التعليلات الفقهية في تراجم البخارى مؤكدا انها كانت مقصوده عنده . مثل ان يترجم بامر مختص ببعض الوقائع لايظهر في بادىء الامر اثرها كقوله (باب استياك الامام بحضره رعيته) فيقول : انه لما كان الاستياك قد يظن انه من افعال المهنة .

فلعل بعض الناس يتوهم ان اخفاءه اولى مراعاة للمروءة فلما وقع في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم استاك بحضرة الناس ، دل انه من باب التطييب لامن الباب الاخر (٧) ويؤيده في هذه النظرة مااثبته الدهلوى في شرح تراجم أبواب البخارى من بيان مقصد البخارى في تراجمه وانه ينحو فيها إلى اتجاهات كثيرة فيقول عنه (واراد ان يفرغ جهده في الاستنباط من حديث

---

(١) المصدر نفسه ج١ ص٢٥

(٢) المصدر نفسه ج١ ص ٢٥

(٣) فتح الباري ج ١ ص ٦١

(٤) المصدر نفسه ج١ ص ٢٠٦

(٥) هدى الساري ج١ ص ٢٥

(٦) فتح الباري ج١ ص٤٢٨

(٧) هدى الساري ج١ ص٢٥

رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستنبط من كل حديث مسائل كثيره جدا ، وهذا امر لم يسبقه اليه غيره . غير أنه استحسن ان يفرق في الاحاديث في الابواب ويودع في تراجم الابواب سر الاستنباط (١) .

ي- وقد نرى ان ابن حجر يبدى نوعاً من التلوم والانفعال ممن يشكك في حسن اختيار البخارى لتراجمه او يعسر عليه فهم مراده منها . فيصفه بقلة التجربة او الممارسة في هذا الميدان ، وان هذه النظرات من البخارى تتطلب خبرة ومهارة وفقها حتى نراه يعقد لهذا المعترض شبهاً فأورد المثل العربي المشهور ، فيقول (٢) ولنشرع في بيان ما خفي على بعض من لم يمعن النظر ، واعترض على البخارى اعتراض شاب غر على شيخ مجرب او مكتهل واوردها إيراد سعد ،وسعد مشتمل ماهكذا تورد ياسعد الابل٥

المسألة الثانية - بيان احوال طبقات الرواة عند البخارى : انه حين يبحث عن رواة صحيح البخارى ويوازنهم مع رواة الصحاح الاخر ، يقرر أن شروطه كانت اكثر شدة ودقة من سواه ، وهي التي اهلته لان يتصدر كتب صحيح الحديث . ويلخص القول فيها بالآتي :

أ. ان شرط البخارى ان يخرج الحديث المتفق على ثقة رواته إلى الصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات الاثبات . (٣)

ب. ان يكون اسناده متصلا غير مقطوع .

ج. اذا كان الصحابي راويان فصاعدا فحسن. وان لم يكن الا راو واحد وصح الطريق اليه كفى.

د. يعود الى تفسير اتجاه البخارى في اختيار رواته إلى نظرة ابي بكر الحازمي . (٤) الذي يقول :

---

(١) الدهلوى: شرح تراجم ابواب البخاري ص ٧

(٢) هدى الساري ج١ ص ٢٤

(٣) المصدر نفسه ج١ ص٢٠

(٤) ابو بكر الحازمي: محمد بن موس (٥٤٩ - ٤) الحافظ المؤرخ الفقيه، توفي ببغداد، وله مؤلفات كثيرة منها شروط الائمة الخمسة البخاري ومسلم وابي داود والترمذي والنسائي.
عمر كحاله: ممعجم المؤلفين ج٢ ص ٦٤

٥. جمهرة الامثال: ابو هلال العسكري ج١ ص ٩٣

(وهذا باب فيه غموض ، وطريق ايضاحه معرفة طبقات الرواه عن راوي الاصل ومراتب مداركهم ، فلنوضح ذلك بمثال : وهو أن تعلم أن أصحاب الزهري مثلا على خمس طبقات، ولكل طبقة منها ميزة على التي تليها، فمن كان في الطبقة الاولى فهو الغاية في الصحة، وهو مقصد البخاري، والطبقة الثانية شاركت الأولى في التثبيت إلا أن الاولى جمعت بين الحفظ والاتقان، وبين طول الملازمة للزهري، حتى كان فيهم من يزامله في السفر ويلازمه في الحضر. والطبقة الثانية لم تلازم الزهري إلا مدة يسيرة فلم تمارس حديثه ، فكانوا في الاتقان دون الأولى وهم شرط مسلم .ثم أنه يصنف الطبقات الخمسة ويورد لها نماذج من الرواة حسب المعالم التي اوضحها . فالطبقة الاولى نحو مالك بن أنس وسفيان بن عيينه. والثانية نحو الليث بن سعد والاوزاعي. والثالثة نحو جعفر بن برقان وسفيان بن حسين ، والرابعة نحو زمعة بن صالح ومعاوية بن يحيي الصدفي ، والخامسة نحو عبدالقدوس بن حبيب والحكم بن عبدالله ويؤكد ابن حجر أن البخاري يحرص في رواياته على اختيار رجال الطبقة الاولى وقد يخرج لرجال الطبقة الثانية من غير استيعاب . أما رجال الطبقة الثانية فأكثر ما يخرج لها تعليقاً (١) وربما خرج اليسير من حديث الثالثة تعليقاً أيضاً (٢)

المسألة الثالثة : يناقش ابن حجر درجة صحيح البخاري في الافضلية بين كتب الحديث ويرجح تقدمه عليها بفضل شروطه العالية ، فيقول : (فقد قررنا أن مدار الحديث الصحيح على الاتصال واتقان الرجال وعدم العلل . وعند التأمل يظهر أن كتاب البخاري أتقن رجالاً وأشد اتصالاً .... (٣) ثم

---

(١) التعليق في الحديث: هو ان يحذف من مبدأ اسناده راو اواكثر. ويفعله البخاري في بعض اسانيده للاختصار خشيه التطويل ان كان الحديث مما يلتحق بشرطه او هو صحيح على شرط غيره (النووي: شرح البخاري ص١٤

(٢) هدى الساري، ج١ ص٢١ – ٢٧

(٣) المصدر نفسه ج١ ص٢٢

أشار إلى صحة الاسناد في السند بثبوت اجتماع الراويين اللاحق من السابق ، والشرط الاخير (السماع) مما انفرد به البخاري دون سواه (١)

وقد خصص ابن حجر جانباً من مناقشاته في بيان ظاهرة تكرار الحديث أو تقطيعه (٢) في الصحيح فأجاب عن حالة التكرار بما نقله عن المقدسي (٣) من ايضاح المقاصد والفوائد ، وزاد عليها من استقرائه للصحيح ، بعد تأكيده أن الحديث المكرر لايكون الا بسند جديد ، وخلاصتها : —

١. أنه كان يخرج الحديث عن صحابي ثم يورده عن صحابي آخر ، وغرضه منه أن يزيل الغرابة عن الحديث وبخاصة مايفعله في أهل الطبقتين الثانية والثالثة.

٢. انه صحح أحاديث على هذه القاعدة يشتمل كل حديث منها على معان متغايرة فيورده في كل باب من طريق غير الطريق الاولى . ويبدو لي أن مثل هذا التكرار هو مايقوم مقام المتابعات أو الشواهد للحديث السابق لزيادة توثيقه .

٣. ومنها أحاديث يرويها بعض الرواة تامة ويرويها بعضهم مختصرة ، فيوردها كما جاءت لبزيل الشبهة عن ناقليها .

٤. لاحظ لدى البخاري تكراراً في بعض الاحاديث التي تختلف بكلمة واحدة تحتمل أكثر من معنى فيعبر عنها الحديث الآخر بعبارة اخرى تحتمل معنى اخر ، فيورده بطرقه اذا صحت على شرطه ، ويفرد لكل لفظه بابا مفيداً .

٥. وجد ابن حجر تفسيرا اخر في سبب التكرار ، فهو يورد الحديث موصولا تارة ومرسلا اخرى . وفائدة ايراده مرسلا اشاره للقارىء بانه لاتأثير له عنده في الحديث الموصول الذى اعتمده .

---

(١) المصدر نفسه ج١ ص٢٣

(٢) المصدر نفسه/ ينظر الفصل الثالث ج١ ص٢٦/٧

(٣) المقدسي: ابو الفضل محمد بن طاهر (٤٨١/٥٠٧) وهو من علماء الحديث وحفاظه. أبو حجر لسان الميزان ج٥ ص٢٠٧)......

٦. وقد رأى ان من عوامل التكرار لديه تعارض الحديثين في الوقف والرفع ، ويبدو لي انه قصد في اعادته ان ينبه القارىء لمتابعة ظاهرة الوقف في هذا الحديث ، وانها عنده بمنزلة الشاهد للمرفوع .

٧. ويلحظ سبباً اخر في التكرار بزيادة راو في سند الحديث على مثله في سند الحديث الاول وهما صحيحان عنده ليشير عنده بان الزيادة كانت صحيحة بسماع الراوي من شيخ حدثه به عن اخر ثم لقي الاخر فحدثه به ؛ فكان يرويه على الوجهين .

٨. ولاحظ عنده تكرار الحديث المروي عنعنه ، فيورده من طريق اخرى مصرحاً فيها بالسماع على ماعرف من اسلوبه في اشتراط اللقاء في المعنعن(١) .

وكان جواب ابن حجر عن ظاهرة تقطيع الحديث في الابواب او اقتصاره منه على بعضه على احوال متنوعة ، فهو في هاتين الحالتين يراعي الاصول الاتية :ـ

١. ان كان متن الحديث قصيرا او مرتبطاً بعضه ببعض وقد اشتمل على حكمين فصاعدا فانه يعيده بحسب ذلك مراعياً مع ذلك عدم اخلائه من فائدة حديثيه وهي ايراده له عن شيخ سوى الشيخ الذي اخذ عنه قبل ذلك ، فيفيد بذلك تكثير الطرق لذلك الحديث .

٢. وان كان متن الحديث مشتملا على جمل متعددة لاتعلق لاحداها بالاخرى فانه يخرج كل جملة منها في باب مستقل فرارا من التطويل .

٣. كما يقرر انه لم يجده يقتصر على بعض المتن ثم لايذكر الباقي في موضع آخر ، فيقول (فانه لايقع له ذلك في الغالب الاحيث يكون المحذوف موقوفاً على الصحابي وفيه شيء قد يحكم برفعه فيقتصر على الجملة التي يحكم لها بالرفع ويحذف الباقي لانه لاتعلق له بموضوع كتابه ، كما وقع له من حديث هزيل بن شرحبيل عن عبدالله بن مسعود انه قال (ان اهل الاسلام

---

(١) هدى الساري ج١ ص٢٢ - ٢٥

لايسيبون) (١)، وان اهل الجاهلية يسيبون،هكذا اورده وهو مختصر من حديث موقوف اوله (جاء رجل إلى عبدالله بن مسعود فقال اني اعتقت عبدا سائبة ،فمات وترك مالا ولم يدع وارثاً ، فقال عبدالله: ان اهل الاسلام لايسيبون وان اهل الجاهلية كانوا يسيبون، فأنت ولي نعمته فلك ميراثه . فاذا تأثمت وتحرجت في شيء فنحن نقبله منك ونجعله في بيت المال). فاقتصر البخاري على مايعطي حكم الرفع من هذا الحديث الموقوف . وهو قوله (ان اهل الاسلام لايسيبون) لانه يستدعي بعمومه النقل عن صاحب الشرع لذلك الحكم ،واختصر الباقي لانه ليس من موضوع كتابه ، وهذا من اخفى المواضع التي وقعت له من هذا الجنس (٢).

وبهذا التحليل يؤكد ابن حجر سلامة نظرة البخاري في تكراره او اختصاره للحديث وان هذه الطريقة مقصودة عنده تبعاً لقواعد الحديث التي التزم بها .

وقد لاحظ ابن حجر تناول البخاري للاحاديث المعلقة مرفوعة او موقوفة (٣) فتولى بيان السبب في ايرادها ، وقسم المعلقات المرفوعة إلى قسمين :

١. المعلق الذي وجد في موضع اخر من كتابه موصولا .
٢. المعلق الذي لايوجد فيه الا معلقاً .

وعزا سبب التعليق في النوع الاول إلى ان المعلق عنده صحيح ولكنه لم يوافق شرطه كاملا فاورده معلقاً ومختصرا خشية التطويل .

اما النوع الثاني : فقد جعله على صورتين : الاولى : ان يورده بصيغة التمريض « قيل ونحوه » والثانية : ان يورده بصيغة الحزم .

---

(١) (لايسيبون) من الفعل ساب بمعنى ترك. والسائبه: العبد يعتق على ان لاولاً له (ابن منظور: لسان العرب ج١ ص ٤٦٠

(٢) المصدر نفسه ج١ ص٢٧ - ٣٠

وقد أجاب عن صيغه الجزم بقوله : تستفاد منها الصحة إلى من علق عنه......
ثم جعلها على شكلين : الاول : ما يلتحق بشرطة ولكنه لم يوصل اسناده لكونه اخرج مايقوم مقامه فاكتفى به معلقاً ، ولم يهمله بل اورده بصيغة التعليق طلباً للاختصار . أووصل اليه مسموعاً بغير صيغة التحديث وما إلى ذلك من الاعتبارات الكثيرة في قواعده التي نزلت به عن مستوى الموصول حسب شروطه . ويستعمل لهذا النوع صيغة قال فلان .. والثاني : مالايلتحق بشرطه : فقد يكون صحيحاً على شرط غيره ، وقد يكون ضعيفاً عنده لانقطاع يسير في اسناده .

اما الصيغة الثانية – وهي صيغة التمريض – للمعلق غير المؤيد بحديث موصول فيقول عنها ، انها لاتفيد الصحة إلى من علق عنه ، لكنه وجد فيه ما هو صحيح وهو على نوعين .

الاول: ماهو صحيح عند غير البخاري ، وقليل منه ماهو على شرطه ، لذلك لايستعمله تعليقاً الا في المعنى .

الثاني : ماكان صحيحاً الا انه ليس على شرطه .

الثالث : ما كان عنده ضعيفاً ، ولكنه قوي بما عرف من العمل على موافقته وقد ذكر لهذه الانواع نماذج عده من الاحاديث .(١)

واما الحديث المعلق الموقوف (٢): فانه يؤكد عن البخاري بانه يجزم منه بما صح عنده ولو لم يكن على شرطه . ولا يجزم بما كان في اسناده ضعف او انقطاع الا حيث يكون معضدا بمجيئه من وجه آخر : او بشهرته عمن قاله.وانما يورد مايورد من الموقوفات من فتاوى الصحابة والتابعين ومن تفاسيرهم لكثير من الايات على طريق الاستئناس والتقوية لما يختاره من المذاهب في المسائل التي فيها الخلاف بين الأئمة .

---

(١) المصدر نفسه ج١ ص٢٨ – ٢٩

(٢) المصدر نفسه ج ١ص ٢٩

وقد عني ابن حجر بمعالجة تعاليق البخاري فجاء بالاشارات إلى الاحاديث التي تجعلها موصولة (١) وأضاف اليها المتابعات . وقد جمعها في مصنف خاص بها سماه (تعليق التعليق) شمل الاحاديث المرفوعة ، الاثار الموقوفة ووصفه بأنه مهم في بابه ولم يسبقه احد في مثله ، وتلاحظ هذه المعالجة فيما جاء به في هذا الفصل مرتبة على تسلسل تراجم البخاري في صحيحه ولكنه يقدمها بعنوان مصنفه المشار اليه . ويبدو انه اكتفى بوصف ماجاء به بانه ملخص منه (٢) .

فنجد في الباب الاول « بدء الوحي » عن الحديث الثالث الذي رواه يحيى ابن بكير (٣) ان له متابعة وصلها البخاري في بابي الانبياء والتفسير واثبت اشارته إلى ذلك في اخر الحديث حيث قال تابعه عبدالله بن يوسف وأبو صالح ، وتابعه هلال بن رداد عن الزهري .. (٤) فكان جهد ابن حجر بهذا البحث الكاشف لخفاء المعلقات ومتابعاتها قد قدم خدمة علمية جيدة في بيان هذه المعلقات الموصولة في مواقعها من الصحيح توثيقاً لصحة طريقة البخاري في صحيحه .

ومثال ذلك حديث (باب لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين) (٥) فقد اورد البخاري في آخره قوله : تابعه ابو أسامة . فقال ابن حجر عنه متابعة ابي اسامة وصلها المؤلف في احاديث الانبياء (٦).

وقد تسلسلت هذه الاحاديث حسب تعاقب ابواب الصحيح مشيرا إلى

---

(١) تعليق التعليق اشار ابن حجر بهذا العنوان إلى تصنيفه الذي جمعه في الفصل الرابع من مقدمته المتمثل ببيان الاحاديث المعلقه وما تابعها في ابواب الجامع الصحيح. وهو يقول عنه: وهذا الفصل من النفائس المستجاده، وهو مستحق لان يفرد بالتصنيف (هدى الساري ج١ ص٩١)

(٢) هدى الساري ج١ ص٣٠

(٣) فتح الباري ج١ ص٢٤

(٤) المصدر نفسه ج١ ص٣٢

(٥) المصدر نفسه ج٩ ص ٤٣٢

(٦) هدى الساري ج١ ص٦٨

المتابعات لها في ابواب صحيح البخاري او غيره من كتب الحديث الصحيح المشهورة .

وقد نحا ابن حجرنحو وجهة اخرى في بيان الالفاظ الغريبة(١) على ترتيب الحروف الهجائية ، وقد راعى فيه ظاهر اللفظ من حديث البخاري ، ولم يوردها حسب مادتها تيسيرا على القارىء ورأى ان يذكر التبرير لعملية بيان المعاني في فصل مستقل في مقدمته مع انه كان قد او ضحها في شرح الصحيح حرصاً منه على تمام الفائدة في موضع واحد .

ومنهجه في هذه الدراسة تلمح منها الظواهر اللغوية الاتية :

أ. وضع كل مجموعة من الكلمات المتفقة في الحرفين الاولين نحو (فصل آ) :(٢)ومن كلماته(آجن): فهو يقول فيها : متغير الريح ، آنفاً : اى قريباً ونحو (فصل آء ب) : ومن كلماته : الاب وهو ماتأكله الانعام و (فصل ار) ومن كلماته ارب : بمعنى احتاج . وتوالت معاني الالفاظ فيه حتى فصل (ى ن)

ولدى المقابلة لمعنى اللفظ في كتب اللغة يتضح لي انه قد افاد منها ، بل انه قد يذكر نفس المعنى الذى يأتي فيها بالنص . فكلمة (آجن) التي معناها عنده « المتغير الريح » يورد فيها ابن منظور صاحب القاموس قوله : الماء المتغير الطعم واللون . (٣) وكلمة (آنفاً) بمعنى قريباً جاءت عند ابن منظور بمعنى قريب منها قائلا : جاءوا آنفاً اى قُبَيلاً بضم القاف وفتح الباء . (٤) ونقل صاحب القاموس فيها معنى (سالفاً) وهي كما يظهر قريبة المعنى بهما (٥) وفي كلمة (أرب) يورد ابن منظور معنى مطابقاً فيقول

---

(١) هدى الساري ج١ ص ٩١ — ٢٢٨
(٢) المصدر نفسه ج١ ص٩١— ٩٥
(٣) ابن منظور : لسان العرب ج١٦ ص١٤٥ ، محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس ج٦ ص١١٨
(٤) المصدر نفسه ج١٠ ص ٣٥٧
(٥) تاج العروس ٦ص ٤٧

الاربة والارب : الحاجة (١) فمما سبق يتبين انه يفيد لمعاني الالفاظ في الجامع الصحيح من كتب اللغة ولا يتجاوزها

ب. لم يشر ابن حجر إلى مواضع هذه الالفاظ من احاديث ابواب الصحيح ويبدو لي أنه لو اشار اليها لامكن القارىء من العودة إلى تفصيل ماذكره في هذا الفصل في مواقعه نظرا لتعدد الاقوال في بعض الالفاظ واحتمال جعل الكلمة فعلا مرة واسماً اخرى كما في (أرب) بمعنى احتاج (٢) ويظهر أنه اراد بهذا المنهج ان يجعل هذا الفصل كالمعجم لشرحه فتح الباري .

ج. وقد يستشهد بقول أئمة اللغة في ضبط اللفظ ، كما فعل في استشهاده على ضبط كلمة (ايم الله) في ذكر احتمال ان تكون همزتها للوصل او القطع ببيتين من منظومه ابن مالك (٣) .

د. يستشهد لبيان المعنى بقول فصحاء العرب مثل قس بن ساعدة حيث نقل عنه في معنى (الأب) انه المتهيء للمرعى . (٤) وقول عمر بن الخطاب في قوله «ما استأثر بها عليكم» في بيان معنى آثر ناسا في القسمة(٥) اى فضلهم .

هـ. ينحو في ضبط الكلمة — اضافة إلى الحركات — إلى ذكر الاصطلاح النحوي لبيان لفظ الكلمة مثل قوله في لفظه (أتينا) على البناء للمفعول (٦)

و. يشير إلى المعاني المجازية او العرفية للالفاظ او الجملة ، مثل قوله في معنى (حتى تاتي ابو منزلنا) اى صاحبه (٧) وقوله : (أنا اذا اصبح بنا

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ج١ ص ٢٠٢

(٢) هدى الساري ج١ ص٩٥

(٣) المصدر نفسه ج١ ص١٠١

(٤) المصدر نفسه ج١ ص٩٢

(٥) المصدر نفسه ج١ ص٩٣

(٦) المصدر نفسه ج١ ص٩٢

(٧) ومثل هذا التعبير نجده شائعاً في اللغة الدارجه.

ابينا) (١) اى ابينا الفراء وهي بهذا مروية بالباء الموحدة وذكر روايتها بالتاء المثناة اى اجبنا الداعي . وقوله : (وكانت بنت ابيها) (٢) اى في الشهامة وقوه النفس ، وقوله في : لاأبالك ، ، (٣) كلمة حث على الفعل اى أعمل عمل من لا معاون له .

ز. يرجح بين معاني الالفاظ بعباره (وهو الاصوب) فيما يراه من تعدد المعاني كما في كلمة (أثخن) وهي المبالغة في الافحام (٤) فهو يقول في معناها : أي يبالغ ، وقيل والمراد المبالغة في قتال الكفار يقال أثخنه المرض إذا أوهنه وقول عائشة : حتى أثخنت عليها « أي بالغت في افحامها » ولبعضهم بالمهملة قبلها نون ، وهو أصوب ... » ، وقد أورد ابن منظور حديث عائشة بهذا المعنى ولم يتطرق إلى صورة المهملة التي قبلها نون – حسب قول ابن حجر (٥) . ووجدت في تاج العروس مثل مانقل ابن حجر وابن منظور وبتفصيل ، ولم يعرج أيضاً على صورة المهملة التي قبلها نون (٦) فيبدو أن ابن حجر اعتمد في روايتها ووصفها بقوله « وهو الاصوب » على غير أهل اللغة ، ولذلك يبدو لي أن تصويبه مرجوحاً .

ح. يورد الاخبار التاريخية التي حملتها اللفظة وتعارف عليها العرب في تحاورهم مثل كلمة (أحابيش) (حيث قال فيها ، هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشاً . والتحبيش : التجميع وقال الزبير : تحالفت قريش وبنو الحرث بن عبد مناف بن كنانة وعضل والقارة على بني ليث بن بكر فسموا يومئذ الاحابيش .. قال الواقدي :وكان بنو عبدالمطلب هم الذين عقدوا حلف الاحابيش .

---

(١) (٢) – (٣): هدى الساري ج١ ص٩٢
(٤)المصدر نفسه ج١ ٩٣ص
(٥) ابن منظور: لسان العرب – مادة ثخن ج١٦ ص٢٢٦
(٦) محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس ج٩ ص١٥٤

ط. يشير إلى المصطلحات الفقهية في التعريف بالتعابير أو الجمل المنقولة مجازاً في نظام خراج الارض، مثل قوله في (من أهل الارض) أي الذمة. قيل لهم ذلك لأنهم أقروا بارضهم على أن يعطوا الجزية للدولة (١).

ك. يذكر اللغات الواردة في نطق طائفة من الالفاظ حين يعرض لمعانيها مثل كلمة: (أف) بتشديد الفاء وضم أوله، التي تستعمل جواباً عما لايستذوق وعما يتضجر منه، فيقول: ان فيها عشر لغات. ويشير اليها في بيت من منظومة ابن مالك (٢).

ل. أشار في بيان معنى اللفظ إلى أن الكلمة قد تكون من لسان غير العرب، وانها من المعرب، مثل لفظة (الاواه) (٣) أي الرحيم بلسان الحبشة ... وقيل المتضرع، وقيل الكثير البكاء أو الدعاء، ونقل عن آخرين: الاواه: شفقاً وفرقاً، استشهد بشطر بيت: تأوه آهة الرجل الحزين، بعد الهمزة ويبدو أنه باستشهاده هذا يرجح كونها من أصل عربي (٤).

م. وقد وجدته يشير إلى أسماء المدن ويضبط لفظها، وبيان مواقعها واحوالها، فهو حين يذكر أسم (ايلياء) يقول بكسر الهمزه واللام بينهما ياء أخيرة ساكنة، وقبل الالف مثلها مفتوحة: أي بيت المقدس (٥) ووهم من قال ايله هنا. وايله بفتح اوله وسكون الياء أيضاً وفتح اللام: ساحل القلزم، كانت مدينة معروفة ثم خربت، وهي بين مصر والحجاز (٦)

---

(١) هدى الساري ج١ ص٩٦

(٢) المصدر نفسه ج١ ص٩٨

(٣) المصدر نفسه ج١ ص١٠١

(٤) جاء القول في لسان العرب (ورجل اواه: كثير الحزن، وقيل هو الدعاء إلى الخير وقيل الفقيه وقيل المؤمن بلغه الحبشة وقيل الرحيم الرقيق ابن منظور ج١٧ ص٣٦٦

(٥) وحي لسان العرب (وايلياء مدينة بيت المقدس، ومنهم من يقصر الياء فيقول الياء وكانهما روميان...)

ابن منظور ج١٣ ص٤٢

(٦) هدى الساري ج١ ص ١٠١

ن. وقد يشير إلى بعض الاحوال اللغوية ويقربها إلى القارئ، ببيان سبب أحداثها فنراه يقول في (فصل أع) قوله (أع أع) حكاية الصوت الخارج عندوضع السواك في الفم (١) ومراده كما يبدو لي أن السواك لو وضع بالفم بصورة قد يتزلق إلى البلعوم لاحدث صوتاً هو هذا الصوت الذي وصفه .وهذه الطريقة في تقريب الصوت وتصويره متبعة في الدراسات اللغوية الحديثة.(٢)

س. يقدم ابن حجر عملية معجمية في تقليب اللفظ وبيان معاني اشتقاق اللفظ، كما فعل ذلك في لفظة (الابصار) حيث ذكر معنى مشتقات (بصر) فقال : والمستبصر(٣)هو الداخل في الأمر على بصيره أي على عمد .(٤) وهو كقوله(وأضله الله على علم) سورة الجاثية (٢٣).

ع . أشار الى أقوال علماء اللغة في المعاني المستفادة منهم كالجوهري ، أو إلى علماء الشريعة في الترجيح بين معاني اللفظ القرآني أو النبوي مثل (البحيرة) حيث نقل عن ابن المسيب قوله فيها : هي التي يمنع درها للطواغيت أو أن يصف بعض المعاني بالغرابة انطلاقاً من ترجيحه بين المعاني(٥) وتتعاقب معاني الالفاظ الغريبة تستوفي الوضوح والبيان وبالنمط السابق الذي أخذت نماذج منه تكاد تشكل خطته العامة في بيان معاني الالفاظ(٦) وقد لاحظ ابن حجر ظاهرة الائتلاف والاختلاف من الاسماء والكنى والالقاب والانساب (٧) مما وقع في صحيح البخاري فخصص له بحثاً

---

(١) هدى الساري ج١ ص٩٧

(٢) اخبرني بذلك الزميل الدكتور عرفه حسين المتخصص بعلم اللغه من المانيا والمدرس حالياً في كلية التربية بجامعة الموصل.

(٣) هدى الساري ج١ ص١٠٦

(٤) يقول ابن منظور : (وكانوا في دينهم ذوى بصائر) لسان العرب ج٥ ص١٣١

(٥) هدى الساري ج١ ص ١٠٣ — ١٠٧

(٦) المصدر نفسه ج١ ص٩١— ٢٢٨

(٧) ينظر هدى الساري ج١ ص٢٢٨ — ٢٤٢

مرتباً حسب حروف الهجاء ممن له ذكرٌ أو رواية فيه وضبط الاسماء المفردة .وقد جعله قسمين : —

الاول : في المشتبه في الصحيح خاصة

الثاني : في المشتبه بغيره مما وقع خارجاً عن الصحيح

ويتسم منهجه في هذا الفصل بالآتي :

د. .انه حين يذكر الاسماء المشتبهه ببعضها للتعريف بها أو بيان الفرق بينها في الصحيح يشير إلى اختلاف بعضها عن بعض في علامات الاعجام والحركات ويعطي لكل منها دلالته على الراوي ان كان وارداً في الصحيح ،وان كان غير وارد فيه يقول :

(لم يأت مذكوراً في صحيح البخاري) (١)

ب. عند ذكر اسم من لم يرو للبخاري في مقابلة المذكور المشابه له في رسم الحرف يعلل بقوله انما نذكر مثل هذا ليستفاد في الجملة (٢) وجاء هذا القول في التعريف بالراوي ، مثال ذلك (اخرم) بالخاء المنسجمة والزاى(زيد بن أخزم من شيوخ البخاري ، روى عنه في كتاب المناقب ثم يذكر الاسم الذي قد يوهم به وهو (اخزم) فيقول : وبالحاء المهملة من اجداد عباد بن منصور لكنه لم يقع سياق نسب عباد في الصحيح . (٣)

ج. يحيل القارىء احياناً إلى موقع الاسم المعرف به في الحديث في احد كتب الصحيح مثل قوله (له ذكر في اخر كتاب الجنائز) (٤) او روى عنه في كتاب المناقب (٥) او ان يشير إلى حادثة معينة فيها ذكر للراوي

---

(١) المصدر نفسه ج١ ص٢٣٣

(٢) المصدر نفسه ج١ ص٢٢٩

(٣) المصدر نفسه ج١ ص٢٢٩ – ٢٣٣

(٤) المصدر نفسه ج١ ص٢٢٩

(٥و٦) المصدر نفسه ج١ ص ٢٢٨

المعرف به او روايته ، فيقول ، له ذكر في الحديث الطويل في قصة صلح الحديبية (١) .

د. يشير إلى حالة اختلاف الحروف في الاسماء من حيث تقدم بعضها على بعض ويعرف بها حذرا من اللبس في اختلاطها او توهم القارىء فيها بفعل من التصحيف او التحريف فمنها قوله في (بشار) بالباء الموحدة وتشديد الشين المعجمة والدبندار محمد بن بشار البصرى شيخ البخاري .... ثم يقول متحولا إلى وصف من يقاربه — وبقية من فيه (صحيح البخاري) بهذه الصورة بالياء التحتانية وتخفيف السين (ويريد بها اسم يسار) . ويضيف قائلا: وبتقديم السين وتثقيل الياء التحتانية بو المنهال سيار بن سلامة تابعي(٢) ومثل ذلك ماشار اليه من التصحيف في المفردات من الالفاظ التي عرف بها سابقاً فيقول في معنى (ابنوا اهلي) بتخفيف الياء اى اتهموهم وذكروهم بالسوء ووقع عند الاصيلي بالتشديد، قال ثابت. التأبين : ذكر الشيء وتتبعه والتخفيف بمعناه ووقع عند عبدوس بتقديم النون وهو تصحيف لان التأنيب اللوم وليس هذا موضعه (٣) .

هـ. يعطي للاسماء المتقاربة فوارق دقيقة تحول دون اللبس والتشابه بينها اضافة إلى اعجام الحروف وحركاتها فيحدد نسبها إلى البلد الذي تنتسب اليه قائلا : «وا ما (ثور) ففيه رجلان ، ربما اشتبها ، مدني وشامي ، فالمدني : ثور بن يزيد، اول اسم ابيه ياء مثناه من تحت ثم زاى مكسورة والشامي ثور بن زيد ، اول اسم ابيه الزاى المفتوحة » (٤) ومثله المخرم بضم الميم وفتح الخاء نسبة إلى موضع ببغداد (٥) .

و. يصوب ما وقع في الصحيح من توهم نساخ الصحيح ، فهو حين يعرف بالراوي (الربيع) يقول: أنه كثير ،وبالضم وفتح الباء وتثقيل الياء الاخيرة

---

(١) المصدر نفسه ج ١ص٢٢٨

(٢) المصدر نفسه ج١ ص٢٢٩

(٣) المصدر نفسه ج١ ص٩٢

(٤) المصدر نفسه ج١ ص٣٣٠

(٥) المصدر نفسه ج١ ص٢٣٧

(الربيع) امرأتان: بنت معوذ بن عفراء صحابية لها رواية وبنت النضر رواية وبنت النضر عمة انس بن مالك لهاذكر.ووقع في الجهاد ام الربيع بنت البراء والصواب انها بنت النضر وسننبه عليه ان شاء اللهتعالى(١).

ز . اشار إلى التحريف الحاصل عند بعض رواة البخاري وصححها فقال عند التحريف باسم (العدوى) كثير ، وبالذال المعجمه الساكنه والراء (وبريدبة العذرى) : عبدالله بن ثعلبة بن صغير العذرى رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير،روى عنه الزهرى وقد نسبه احمد بن صالح في حديث رواة عنه فقال :العدوى كالاول فصحفه(٢) وانما هو من بني عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن قضاعة (٣) .

ومن الظواهر اللغوية المتكررة في القسم الثاني : استقصاؤه للاسماء التي تقارب او تقابل الاسماء المعرف بها والاشارة إلى مالم يرد منها في الصحيح او يشير إلى نسبة البلد مثل قوله : (زبيد) بالباء الموجده وليس في الجامع زبيد بياءين متتاليتين من تحت (الزبيدي) بضم الزاي نسبة إلى القبيلة وليس في الجامع الصحيح من ينسب إلى البلد(٤) ومثل قوله في (يسره) بفتح الياء الاخيرة والسين المهملة : هو ابن صفوان شيخ البخاري ، وليس في الجامع بالياء الموحدة المضمومة ولا المكسورة مع الشين المعجمة ولا المهملة شيء (٥) .

وقد نهج نفس المسلك في مئات الاسماء وعرف بها بالشكل المخصص لئلا يلتبس بعضها ببعض في الرواية . كما انه بهذا التصنيف للاسماء

---

(١) المصدر نفسه ج. ص٢٣٢

(٢) ذكر التصحيف وهو يريد التحريف لا ن التعبير حاصل في ابدال حروف الكلمة وهو التحريف وليس في اعجامها الذى يسمى تصحيفاً . وهو توهم منه .

(٣) هدى السارى ج. ص٢٣٦

(٤) المصدر نفسه ج.ص٢٤١

(٥) المصدر نفسه ج. ص٢٤٢ .

والالقاب والكنى المتقاربة قد قدم قائمة بالاعلام. وقد حرص ابن حجر ايضا على بيان الاسماء المهملة من اسم الاب او اللقب (١)

التي يكثر اشتراكها وقدم له بذكر الداعي إلى كتابته من وقوع اعتراض بعض الناس على البخاري بسبب ايراده احاديث عن شيوخ لايزيد على تسميتهم لما يحصل في ذلك من اللبس او التوهم بين الرواة . اخذ بالتعريف بهولاء بعد الاشارة إلى حديث الباب الذي ذكروا فيه فيدون انسابهم او القابهم المميزة حسبما وردت في الصحيح او غيره من الصحاح

وجعل هذا الفصل مقسوماً إلى فصول فرعية ومرتبة حسب حروف المعجم

فالاول منها عمن ذكر باسم احمد ، وجعله على نوعين :

أ. فيمن لم ينسب إلى ابيه وهو سبع تراجم ، وقد ذكرها في اسانيدها ونسب كلا منهم إلى ابيه والجدير بالذكر انه لم يثبت هذا النسب الا بعد ان ناقش المعارضين له في النسبه فاثبتها من تحقيقات المحققين ، واستدل على احدهم وهو : (أحمد بن صالح) انه بهذا الاسم ، وقد روى عنه البخاري في غير الجامع الصحيح في بقية كتبه . وان من ادعوا انه (أحمد بن اخي ابن وهب) قد توهموا فيه ، لانه ليس من شرطه (٢) .

ب. فيمن ذكر منسوباً لكنه لم يتميز . فقال عن (أحمد بن واقد) جاء ذكره في كتاب الصلاة ، وهو احمدبن عبدالملك بن واقد، نسبه إلى جده(٣) وقد استمر على هذا النهج في سائر الاسماء حسب ترتيب الحروف.

---

(١) المصدر نفسه ج.ص٢٤٣

(٢) المصدر نفسه ج.ص٢٤٤ — ٢٤٥

(٣) المصدر نفسه ج. ص٢٤٦

الثاني : تناول فيه الذين اشتهروا بالكنية ، وقد جمعهم مرتبين على حروف المعجم بعد تجاوزه صيغة الكنية. ومثاله : (أبو الاسود عن عروه وعكرمة : اسمه محمد بن عبدالرحمن ، ابو اسيد الساعدي صحابي اسمه مالك بن ربيعة..)(١) و (أبــــو الشعثاء . جابر بن زيد تابعي ، ابو الشعثاء المحاربي : اسمه سليم بن الاسود وهو اكبر من الذي قبله) (٢) وجعل اخر هذا الفصل في التعريف بكنى النساء ، نحو : ام سلمه ام المؤمنين – رضي الله عنها – : هند بنت أبي امية بن المغيرة المخرومية ، ام كلثوم : بنت عقبة بن ابي معيط كنيتها اسماها(٣)

الثالث : فيمن ذكر باسم ابيه او جده او نحو ذلك ، فاوضح اسماءهم المميزة لهم ، نحو قوله : ابن حلحلة محمد بن عمر بن حلحلة نسب إلى جده وابن الحنيفة محمد بن علي بن ابي طالب , والحنفية اسمها خولة كانت من سبي اليمامة(٤)

الرابع : وقد تناول نوعاً اخر اقتضاه البيان والتعريف وهو في تسميته مَنْ ذكر بنسبه ، فاوضح اسماءهم . نحو قوله : البراء : ابو العالية ، نسب إلى برى السهام . القمي : هو يعقوب بن عبدالله ، له موضع واحد في الطب (٥).

كما تولى توضيح الاعلام فيمن يذكر بلقب ونحوه . فهو يذكر اسم هذا اللقب او يوضح ما يقتضي البيان ان اشتهر بلقب يشبه الكنية . نحو : مسدد : اسمه عبدالملك . النبيل : ابو عاصم الضحاك بن مخلد ، ابو الزناد : لقب وكنيته ابو عبد الرحمن (٦).

ويلاحظ حرصه على ادراج التعريف بشيء من التفصيل عن بعض من عرفوا باللقب او الكنية او الاسم المجرد من النسب او ان يعرف بمتحدث عنه غير مذكور

---

(١) المصدر نفسه ج.ص٢٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ج.ص٢٦٩ .

(٣) المصدر نفسه ج.ص٢٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ج.ص٢٧٢ .

(٥) المصدر نفسه ج. ١ ص ٢٧٤ .

(٦) المصدر نفسه ج. ٢ص٢٧٥ .

الاسم من سائل او مخاطب او امير او جار او رجل او إمرأة وما اليهما من الاسماء العامة .

وقد يشير اليهم ببعض رواياتهم في الصحيح . وجعل ترتيبها حسب كتب وأبواب الجامع الصحيح فيقول مثلاً في كتاب الايمان : (وقال معاذ بن ابن جبل (اجلس بنا) المقول له ذلك : هو الاود بن هلال . اسماعيل ابن خالد ، ويقول فيمن سأل اي العلم افضل؟ السائل: هو ابو ذر في كتاب العتق .... قوله (فترك رجلا هو اعجبهم إلي)هو (جعيل بن سراقة) (١). وعلى هذا النهج صار يسرد كل من لم يصرح به فعرف به . وان وجد في الرواية متحدثاً عنه لم يعرف اسمه ذكر ذلك . فقال في حديث عائشة في باب الكسوف (ان يهوديه) : لم اقف على اسمها . (٢) وتراه يختم بحثه هذا الذي توسع فيه بياناً وإيضاحاً للرواة وبترجيح ومناقشة بقوله : (والى هنا انتهى الكلام على تعيين المهمل وتسمية المبهم فيما حصل الوقوف عليه مما في الجامع الصحيح . .(٣)ثم تقدم ابن حجر الى دراسة آراء ناقد الحديث الدار قطني وغيره من النقاد (٤) فقد عرض عدداً من أحاديث الصحيح التي توجه إليها النقد ، وناقشهم في انتقاد بعض الرواة ، وخلص من هذه الدراسة الى اثبات عدالة هؤلاء الرواة وتوثيقهم .

وقد سلك في هذه الدراسة مسلكاً منظماً في العرض والمناقشه يتضح بالنقاط الآتية :

١. انه يتقدم بتقرير قضية علمية يرتضيها البحث الموضوعي ، حيث اعترف مسبقاً بوجود ثغرة للطعن بآراء المتقدين ، وحين بدأ تحليله لهذه الروايات وجد انها قد تأيدت بروايات صحيحة تعضدها المتابعات

---

(١) المصدر نفسه ج اص٣ – ٤ .

(٢) المصدر نفسه ج٢ص٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ص١٠٥ .

(٤) ينظر الفصل الثامن من هدى السارى ج٢ ص١٠٥

٢. واستدل على دعواه هذه بقول شيخ علماء النقد في الحديث ابي عمرو بن الصلاح (١) فقال : وقبل الخوض فيه ينبغي لكل منصف ان يعلم ان هذه الاحاديث وان كان اكثرها لايقدح في أصل موضوع الكتاب ؛ فإن جميعها وارد من جهة أخرى ، وهي ماادعاه الامام ابو عمرو بن الصلاح وغيره من الاجماع على تلقي هذا الكتاب بالقبول والتسليم لصحة جميع مافيه ، فإن هذه المواضع متنازع في صحتها ، فلم يحصل لها من التلقي ماحصل لمعظم الكتاب . وقد تعرض لذلك ابن الصلاح في قوله : الا مواضع يسيره انتقدها عليه الدار قطني وغيره ، وصرح بذلك في مقدمة شرح مسلم له : ماأخذ عليهما (يعني على البخاري ومسلم) وقدح فيه معتمد من الحفاظ فهو مستثنى مما ذكرناه لعدم الاجماع على تلقيه بالقبول . ويأتي وصف ابن حجر لهذا الاستثناء بقوله : وهو احتراز حسن (٢) .

٣. يستشهد بقول النووي في مقدمة شرح صحيح الامام مسلم : (قد استدرك جماعة على البخاري ومسلم احاديث اخلافيها بشرطهما ، (٣) وجاء القول في موضع آخر (فصل) : (قد استدرك الدار قطني على البخاري ومسلم أحاديث وطعن في بعضها وذلك الطعن الذي ذكره فاسد ، مبني على قواعد لبعض المحدثين ضعيفة جداً ، مخالفه لما عليه الجمهور من اهل الفقه والاصول وغيرهم فلا تغتر بذلك) (٤) .

٤. افاد ابن حجر من هذه الاقوال ان ماانتقد من الاحاديث ينحصر في المعلقات منها ، وهي على نوعين :
الاول : فيما ذكرت لها احاديث موصولة متابعة لها ، دفعت عنها دواعي النقد ، لان الصحيح خاص بالمستندات المتصله

---

(١) ابو عمرو بن الصلاح : المحدث الاصولي المشهور بكتابة علوم الحديث (٥٧٧-٦٤٣) (عمر كحالة : معجم المؤلفين ج ٦ص٢٥٧)
(٢) هدى السارى ج٢ ص ١٠٥
(٣) هدى السارى ج٢ ص ١٠٥ - ١٠٨
(٤) النووى : شرح البخارى ص١١ - المطبعة المنيرية ١٣٤٧

الثاني : الاحاديث المعلقة التي لم تتصل ، فان مافي الصحيح منها قليل ، وإنما ذكرت استئناساً واستشهاداً (١) .

٥. استنتج ابن حجر الاسباب التي دعت البخاري الى تخريج هذه الاحاديث المعلقة ، فقال : ان مراده منها ان يجمع في صحيحه اكثر الاحاديث التي يحتج بها . فجعل ماوافق شرطه مساقاً سياق اصل الكتاب . وما كان على غير شرطه غاير السياق في ايراده . (٢) مثل ان يروي للنوع الثاني باسلوب القول وليس بصيغة التحديث ، وهو خاص بما لم يسمعه من شيوخه (٣) وغرضه في هذه الطريقة التمييز بين الموصول والمعلق .

٦. وقد عرض نوعاً آخر من الاحاديث التي توجه إليها النقد في الصحيح : وهي الاحاديث التي طعن فيها لوجود علل في اسانيدها . وقد حصرها بمائة وعشرة احاديث ، منها اثنان وثلاثون وافق الامام مسلم البخاري في تخريجها . وقد ناقش الناقدين لها بجواب علمي . يحمل الحجة التي يؤيدها علماء الحديث الثقات فقال : (والجواب على سبيل الاجمال ان نقول : لاريب في تقديم البخاري ثم مسلم على اهل عصرهما . ومن بعده من أئمة هذا الفن في معرفة الصحيح والمعلل ، فانهم لايختلفون في ان علي بن المديني كان اعلم اقرانه بعلل الحديث ، وعنه اخذ البخاري ذلك ؛ حتى كان يقول : مااستصغرت نفسي عند أحد الا عند علي بن المديني (٤) ومع ذلك كان المديني يعجب به ويفخر ، وزاد الحاكم في عد صحيحي البخاري ومسلم ميزاناً لصحة الحديث ، وان ماذكر فيهما هو غاية في الصحة والتوثيق(٥) .

---

(١) هدى الساري ج٢ ص١٠٥ .

(٢) المصدر السابق بنفس الجزء والصفحة .

(٣) المصدر نفسه ج١ ص٢٧ – ٢٨ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ص١٠٦ .

(٥) الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري (ت٤٠٥) : معرفة علوم الحديث ص٧٤ – ٧٥ – ٧٨/ بيروت سنة ١٩٧٧ .

٧ وحين بدأ البحث في الاحاديث المنتقدة (وهي مائة وعشرة) صنفها الى اقسام ستة :

الاول : فيما اختلف الرواة فيه بالزيادة والنقص من رجال الاسناد . واتخذ الموقف المعتدل في هذه المناقشة فقال : ان اخرج صاحب الصحيح الطريق المزيده ، وعلله الناقد بالطريق الناقصه ، فهو تعليل مردود ، لان الزيادة في الاسناد لاتضر ، اذ قد يكون سمعه بواسطة عن شيخه ، ثم لقيه فسمعه منه . وإن روى ناقصاً من احد الرواة فهو منقطع ، والمنقطع من قسم الضعيف ، والضعيف لايعل الصحيح (١) ولنضرب لذلك مثلا الحديث الثاني حيث قال الدار قطني (٢) : في حديث ابن عباس في قصة القبرين الذي رواه الاعشى في الصحيحين عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس . وقد خالفه منصور فقال عن مجاهد عن ابن عباس . وأخرج البخاري حديث منصور واسقط طاوساً . فقال ابن حجر : ان هذا الحديث اخرجه البخاري في طرق عدة ، فرواه عن عثمان بن ابي شيبه عن جرير في صحيحه بكتاب الطهاره ، ورواه في الادب المفرد عن محمد بن سلام عن عبيدة بن حميد . وكلاهما عن المنصور كما اخرجه عن طريق اخرى من حديث الاعمش ، ورواه الائمة الستة من حديث الاعمش ، وذكر منهم ابا داؤد والنسائي وإبن خزينة بأنهم نقلوه عن منصور . وأضاف عن الترمذي روايته له عن منصور وقوله في رواية الاعمش بأنها اصح لانه متضمن للزيادة . وهذه الزيادات ليست بعلة ، لأن مجاهداً لم يكن مدلساً وسماعه عن ابن عباس صحيح . ومنصور عند علماء الحديث اتقن من الاعمش مع ان الاعمش أيضاً من الحفاظ ، فالحديث كيفما دار دار على ثقة ، والاسناد كيفما لوحظ كان متصلا . فمثل هذا الاعتراض لايقدح في صحة الحديث اذا لم يكن راويه مدلساً . (٣)

---

(١) هدى السارى ح ٢ص١٠٦.

(٢) الدار القطني : الحافظ علي بن عمر ٣٠٦ — ٣٨٥ (ينسب الى محلة دار القطن ببغداد) سنن الدار قطني — المقدمة ٩/١ المطبعة الفنية ١٩٦٦

(٣) هدى السارى ج ٢ ص١٠٩

وقد وجدتُ الحديث في الصحيح برواية منصور عن مجاهد عن ابن عباس (١) ثم اعاد قسماً من الحديث ترجمة باب ، تأكيداً لصحة ماروواه اولا باسقاط طاوس . ولاحظتُ رواية قريبة للدار قطني في سننه (٢) برواية مجاهد عن ابن عباس . ورواه البخاري بنص يقارب ماجاء في صحيحه عن جابر ابن عبدالله (٣)

وفي هذه المعالجة للدراسة اعتراضات الدار قطني تتضح دقة تتبع ابن حجر في استقصائه للروايات المتعددة والمختلفة الواردة في كتب الحديث الاخرى كالترمذي وأبي داؤد والنسائي تدعمه في ذلك ثقافة حديثية واسعة واطلاع واف .

وجاء القسم الثاني فيما تختلف الرواة فيه بتغيير الرواة في بعض الاسناد ، وكان الثالث منها فيما تفرد بعض الرواة بزيادة فيه دون من هو اكثر عدداً أو أكثر ضبطاً ممن لم يذكر هذه الزيادة ، وكان الرابع فيما تفرد به بعض الرواة ممن ضعف في الرواية ، اما الخامس منها فكان فيما حكم فيه بالوهم على بعض رجال الصحيح ، والسادس فيما اختلف فيه بتغيين بعض الفاظ المتن .

والملاحظ عنده أنه يناقش هذه النقود حسب الخطة التي عرضها في القسم الاول ، ويستشهد لكل رأي يقف عنده ، وينتهي منها بأثبات سلامة الصحيح من النقود التي اجمع عليها علماء الحديث ، وان ماوجه الى هذه الاحاديث من نقد لايثلم في صحتها ، لانه خارج عنها (٤) ولعل البارز من هذه النقود مما يوهن الحديث وجود الراوي الضعيف في السند — كما في القسم الرابع — فيورد ابن حجر لمثل هذه الحالة الحديث الثالث والاربعين ، فيرى ان له متابعاً يعضده ويقويه ، ويثبت عدم انفراد الضعيف فيه (٥) وقد رأيت ابن حجر في ختام هذا الفصل يعترف

---

(١) فتح الباري ج١ص٣٢٩

(٢) سنن الدار قطني ج١ص١٣٨ .

(٣) البخارى : الادب المفرد — الحديث رقم ٧٣٥/ تحقيق فؤاد عبد الباقي ١٣٧٥ هـ

(٤) هدى السارى ج٢ ص١٠٦ — ١٠٧

(٥) المصدر نفسه ١٢٣/٢

بفضل الدار قطني وحرصه على تقفي الصحة في نقده ، وجوابه هذا يمثل المواقف العلمية التي يحرص عليها العالم سواء كانت له او عليه : انطلاقاً من مبدأ الانصاف والبحث العلمي. كما كانت هذه المناقشة قد خدمت الحديث النبوي ، ونشطت البحث في الوقوف على الصحيح ، وأعطت التقيم المناسب للجامع الصحيح وأكدت نظرة العلماء الذين قدموه على سائر المصنفات (١)

وإتماماً للفائدة العلمية فقد تعقب ابن حجر احاديث على شرط الدار قطني لم يكن متعرضاً لها فاوضح سلامتها مما تُنتقد ولو انه لم يطلع عليها لئلا يشيرابها من لايعرف واقع حالها فيثير حولها الشبهات (٢)

وقد تناول ابن حجر اسماء الذين طعن فيهم من رواة الصحيح . وأجاب عن الاعتراضات الموجهة اليهم وميز من اخرج له منهم الاصول او في المتابعات والاستشهادات ورتبهم على حروف المعجم

وقد افتتح ديباجته بفاتحة تماثل مقدمة الفصل السابق تنم عن طريقته العلمية في كشف الحقائق فيقول : (وقبل الخوض فيه ينبغي لكل منصف ان يعلم ان تخريج صاحب الصحيح لأي راو كان ، مقتض لعدالته عنده . وصحة ضبطه وعدم غفلته ، ولا سيما ماانضاف الى ذلك من اطباق جمهور الأئمة على تسمية الكتابين بالصحيحين ...) (٣)

يلاحظ استعماله في مناقشة النقاد القواعد المنطقية التي تعد مبدأ في الحوار مسلماً به لدى الجميع فيقول : ولا شك ان المدعي لمعرفته – يريد به معرفة الراوي من حيث العدالة – مقدم على من يدعي عدم معرفته، لما مع المثبت من زيادة العلم. (٤)

كما قرر أن التهم القادحة في الراوي لم تكن اعتباطية ؛ بل انها هي التي اجمع عليها علماء الجرح والتعديل ، ومدارها على خمسة انواع وهي :

---

(١) المصدر نفسه ١٤٣/٢

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه

(٤) المصدر نفسه ج٢ ص١٤٤

جهاله الراوي أو الخطأ عنده في الرواية ، او مخالفته للراوي العدل ، أو انقطاع السند ، واخرها ابتداع الراوي الداعي إلى بدعته .

ولوحظ في نقاشه تاكيده جانباً مهماً اخر : وهو أن النقود قد تتجه إلى الراوي حسب اطلاعه — وفق نظرات لاتتفق والنقد البناء ، مثل أن يكون الطعن بالراوي بسبب الاختلاف في الاتجاه المذهبي أو أن يكون طعناً من الورعين المتزمتين رواة دخلوا في أمر الدنيا أو الحكم ، أو أن يصدر التضعيف بدافع من المجاملة لخصوم الراوي ، واشد من ذلك — على حد قوله — تضعيف من ضعف من هو اوثق منه ،أو أعلى قدرا أو أعرف بالحديث (١) وكل هذا النقد لايعبأ به . ومثال هذا ما وصف به الناقد (الازدي) حيث انه اتهم احد رواة البخاري بالتضعيف . فيقول ابن حجر في بيان تحقيقه عن هذا الراوي : (احمد بن شبيب بن سعيد الحبطي ، روى عنه البخاري احاديث بعضها قال فيه حدثنا: وبعضها قال فيه قال أحمد بن شبيب . ووثقه أبو حاتم الرازي . وقال ابن عدي : وثقه أهل العراق . وكتب عنه علي بن المديني . وقال أبو الفتح الازدي : منكر الحديث غير مرضي ، ولا عبرة بقول الازدي لانه هو ضعيف : فكيف يعتمد في تضعيف الثقات . وسياتي في ترجمة ابيه ثناء ابن عدي على احاديثه (٢) وقد روى له النسائي وابو داود في كتاب الناسخ والمنسوخ (٣)

وبهذا يتضح في منهجه انه يتابع النقاد الضعفاء أو غير المعتد بعلميتهم في رجال الحديث. ومن منهجه انه يورد الاستدلالات المستفيضة حين يجد نقدا لاحد رواة البخاري من أحد اصحاب الكتب الصحيحة كالامام النسائي (٤)

---

(١) المصدر نفسه ج٢ ص١٤٤ — ٤٥

(٢) ينظر هدى السارى ج٢ ص١٧٣

(٣) المصدر نفسه ج٢ ص١٤٥

(٤) النسائي احمد بن شعيب بن علي الحافظ (٢١٤ — ٣٠٣) له له مصنفات كثير في الحديث اهمها كتاب السنن (الشوكاني : نيل الاوطار ج١ص١١) .

ابن عدى : عبدالله بن احمد الجرجاني صاحب كتاب الكامل في الجرح والتعديل (٢٧٧ — ٣٦٥ الذهبي : تذكره الحافظ . ترجمة (٨٩٣)ج ٣ص٩٤٠

الذي انتقد الراوي أحمد بن صالح ، فقال ابن حجر في رده ، انه ثقة . واورد شهادة من عدله من علماء الحديث الكبار ، ونقل عن ابن حيان توهم النسائي في نقده وان أمام الحديث يحيى بن معين (١) قد وثقه ، وكذا الترمذي . وقد نراه لايكتفي بتشخيص الوهم عند الناقد بل يوضح عنده التناقض ويرده بذكر الثقات من رجال الصحيح بقبول راوي البخاري وعدالته ، فيقول في اثبات عدالة (ابان بن يزيد العطار) قال أحمد ، ثابت في كل المشايخ ، وقال ابن معين : ثقة ، كان القطان يروى عنه .... وروى له مسلم وابو داود والترمذي والنسائي (٢) ونراه لم يكتف ببيان عدالة الرواة الذين توجه اليهم النقد . بل فرع فصلين صغيرين وجد من المفيد الاشارة اليهما اتماماً للفائدة العلمية .

الاول : في بيان الرواة الذين جاءت احاديثهم في الصحيح معلقة ، وتوجهت اليهم الانتقادات فاجاب عنهم موضحاً درجة كل منهم ومشيراً إلى أن احاديثهم لم يوردها البخاري الا في مقام الاستشهاد واكثار الطرق . ومثاله حديث حريث بن ابي مطر الفزاري ، ضعفه النسائي وآخرون وليس له سوى موضع في الأضاحي متابعة (٣)

الثاني : في تمييز اسباب الطعن في الرواة المذكورين فاصبح من يصلح منهم للاحتجاج به ومن لايصلح . هو على صورتين : (٤)

الصورة الاولى : فيمن ضعف بسبب الاعتقاد المذهبي فيرى فيه انه لايمنع اعتقاده في قبول الرواية مالم يكن داعية إلى نحلته بحماسة وتعنت . ومن هؤلاء من رمي بالقدر أو الرفض المغالي أو النصب والارجاء أو الانتماء إلى

---

(١) يحيى بن معين بن عون الغطفاني ، ابو زكريا البغدادى ، ثقة حافظ مشهور إمام الجرح والتعديل مات سنة ثلاث وثلاثين ومائتين (ابن حجر : تقريب التهذيب ج٢ ص٣٥٨

(٢) هدى السارى ج٢ ص١٤٧

(٣) هدى السارى ج٢ ص٢٢٨

(٤) المصدر نفسه ج٢ ص ٢٣١ — ٢٣٣

الخوارج المكفرين للائمة كالاباضيةالذين يزينون الخروج عليهم زهم العقدية وامثالهم

الصورة الثانية : فيمن ضعف بامر مردود (١) لايقبله أهل الجرح والتعديل – لكونه ليس مجمعاً عليه في رفض – كالتحامل أو التعنت أو عدم الاعتماد على المضعف لكونه من غير أهل النقد ، او لكونه قليل الخبرة . بحديث من تكلم فيه أو بحاله ، ونحو ذلك . ويلتحق به من تكلم فيه بامر لايقدح في جميع حديثه كمن ضعف في بعض شيوخه دون بعض ومن اختلط أو تغير حفظه ، أو كان ضابطاً لكتابه دون الضبط لحفظه . فان هولاء جميعاً لا يحمل اطلاق الضعف عليهم ،بل الصواب في أمرهم التفصيل . ومثاله:

حميد بن قيس الاعرج : اختلف فيه قول الامام أحمد،ووصفه الترمذي بانه ثقه . وقال ابن عدي : انما يجيىء الانكار من جهة من يروى عنه واحتج به الجماعة(٢) وحميد بن ابي حميد الطويل : وهو من الثقات المشهورين المتفق على الاحتجاج به،ولو أنه كان من المدلسين لحديث انس الذي سمعه من ثابت . ونقل عن ابي سعد انه كان ثقه كثير الحديث ، وذكر قول يحيى بن يعلى المحازي ان (زائدة) طرح لحديث حميد الطويل، ولكن ابن حجر يقول : (قلت : انما تركه زائده لدخوله في شيء من أمر الخلفاء (٣)

وقد ختم ابن حجر قوله في هذه الدراسة بكلمات المتحقق الواثق قائلا:

فجميع من ذكر في هذين الفصلين ممن احتج به البخاري لا يلحقه في ذلك عيب لما فسرناه . واما من عدا من ذكر فيهما ممن وصف بسوء الضبط أو الوهم أو الغلط ونحو ذلك ، وهو القسم الثالث فلم يخرج لهم الا ماتوبعوا عليه عنده او عند غيره) (٤) .

---

(١) هدى الساري ج٢ ص ٢٣١–٢٣٣

(٢) المصدر نفسه ج٢ ص١٦٢

(٣) المصدر نفسه ج٢ص١٦١ – ١٦٢

(٤) المصدر نفسه ج٢ ص٢٣٧

ويختم ابن حجر مقدمته (هدى الساري) بان يتناول فيها مواضيع متعددة ويجعل القول في عدد احاديث الجامع الصحيح (١) فنقل عن ابن الصلاح في علوم الحديث انها بالمكرر خمسة وسبعون ومائتان وسبعة آلاف حديث ، وبغير المكرر اربعة آلاف حديث واشار إلى قيد النووي بانه ارادبها الاحاديث المسندة فقال مجيباً له : انه بقوله المسندة قد اخرج الاحاديث المعلقة واحاديث التراجم والمتابعات (٢) وكان العدد عند النووي مثيلا للعدد الذي رآه ابن الصلاح المذكور آنفاً (٣) وقد ناقش هذا التصور وقرر ان العلماء المتعاقبين حسب العصور اعتمد بعضهم على بعض في ذلك قائلا: وانما اوردت هذا القدر ليتبين منه ان كثيراً من المحدثين وغيرهم يستروحون بنقل كلام من يتقدمهم مقلدين له ويكون الاول مااتقن ولاحرر بل يتبعونه تحسيناً للظن به، والاتقان بخلاف ذلك . ويريد به التدقيق والتحري في الوصول إلى القضايا العلمية. فهو ينقل ما رآه النووي عند عبدالله السرخسي في عدد احاديث كتاب الوحي بانه خمسة احاديث ، فيقول : بل انها سبعة ، ويبين ذلك من أنه لم يعد حديثين . ثم ذكر هذه الاحاديث باوصافها. (٤)

فيلاحظ في نقاشه التتبع الجاد غير المعتمد على من سبقه ولو كانوا ثقات المحدثين ، أو كان موضوع البحث تبعاً وغير اصيل في الشكل ، بل انه يعده ذا خطورة ، وغرضاً يقصده ، لما يترتب عليه من ملاحظة الربط بين هذه الاحاديث والافادة من التناسق الموضوعي بينها .

وقد واصل تصحيحه لاعداد احاديث الصحيح على هذا النحو وبتفصيل واف ، فيروى العدد عمن سبقه ويقابله بالرقم الصحيح عنده ؛ فيقول مثلا: (الوضوء: مائه وتسعة احاديث.(قلت) : بل مائة وخمسة عشر حديثاً

---

(١) ينظر الفصل العاشر من هدى الساری ح٢ ص١٣٧

(٢) هدى الساری ح٢ ص٢٣٧

(٣) السيوطي : تدريب الراوى في شرح وتقريب النواوى ح١ ص١٠٢

(٤) هدى الساری ح٢ ص٢٣٨

على التحرير . . . . المزارعة والشرب ـ: تسعة وعشرون (قلت) بل المزارعة فقط ثلاثون حديثاً ، والشرب هو الذي عدده تسعه وعشرون .. الصفوف ثمانية عشر (قلت) بل اربعة عشر وقد حررتهـــا وكررت مراجعتها .. الصلح اثنان وعشرون (قلت) :بل عشرون فقط ... (١) ثم انه يحصر جميع احاديث الصحيح با لمكرر سوى المعلقات والمتابعات ــ حسبما حرره واتقنه ــ بسبعه الاف وثلاثمائة وسبعة وسبعين حديثاً ، وهو بزيادة مـائة واثنين وعشرين حديثاً . (٢)

كما أنه بين ان جملة الاحاديث من المعلقات والمتابعات على حسب احصائه الف وثلاثمائة واحد واربعون حديثاً ، واكثرها مكرر قـد كرت في الصحيح اصول متونة . (٣)

أما الاحاديث المعلقة التي لم تذكر في الكتاب من طريق اخرى فقد افردها في كتاب مفرد باسانيدها إلى من علق عنه . (٤)

واشار إلى المتابعات واختلاف الروايات فيها فذكر انها ثلاثمائة وواحد واربعون حديثاً (٥) وبعد هذا التحقيق في عدد احاديث الصحيح يخلص إلى القول بان جميع مافي الكتاب بالمكرر تسعة الاف واثنان وثمانون حديثاً.

ولم يدخل في هذا العدد ما ورد في الصحيح من الموقوفات على الصحابة والمقطوعات على التابعين فمن بعدهم . واشار بانه استوعب وصل جميع ذلك في كتابه (تعليق التعليق) الذي ضمنه في الفصل الرابع من مقدمتـه موضوعه البحث . (٦)

وقد رأى ابن حجر أن يضيف ظاهره فنية إلى بحوثه المتقدمة وهي ملاحظة التناسب والتناسق بين ابواب الصحيح ، وحسن وضع تسميات ترجم الابواب

---

(١) هدى السارى ح٢ ص٢٣٧ – ٢٣٨

(٢) المصدر نفسه ح٢ ص٢٤٠

(٣ – ٤ – ٥) المصدر نفسه ح٢ ص٢٤٢

(٦) هدى السارى ح١ ص٣٠ – ٩١

فيه . وقد لاحظها بالشكل الذي يرضيه عن شيخه ابي حفص عمر البلقيني(١). فنقلها واشار إلى بعضها بالتوضيح للافادة منها بشكل اشمل فيروى عنه قائلا: (قال رضي الله عنه: بدأ البخاري بقوله كيف بدأ الوحي(٢) ولم يقل كتاب الوحي، ولا كتاب بدء الوحي لان بدء الوحي من بعض مايشتمل عليه الوحي) ثم اضاف ابن حجر قائلا: ويظهر لي أنه انما عراه من باب لان كل باب ياتي بعده ينقسم منه، فهو ام الأبواب، فلا يكون قسيماً لها. وقد سرد المناسبة بين الابواب حسبما نقله عن شيخه وعلق على بعضها بزيادة في بيان الحكمة أو الملامح التي عناها البخاري في صحيحه، وكلها من مقاصده في تنظيمه للجامع الصحيح، كما بدالهما. (٣)

ويبدو له أن من المفيد ان يشير إلى مالكل صحابي في صحيح البخاري من الاحاديث الموصولة والمعلقة فيرتبهم على حروف المعجم حسب اسمائهم(٤) أما الذين لاتعرف اسماؤهم او اختلف فيها فقد رتبهم حسب كناهم التي اشتهروا بهـــا (٥) وحسب هذا القسم استطاع أن يحصر احاديث الصحيح ليؤكد مخالفته للنووي ومن سبقه في عددها، وانها بالقدر الذي ذكره آنفاً (٩٠٨٢) حديثاً باستثناء الموقوفات على الصحابة والمقطوعات على التابعين ومن بعدهم. (٦)

كما أنه عني بذكر الصحابيات بفقرة مستقلة مرتبات حسب حروف المعجم وذكر عدد أحاديثهن (٧). ومما يلاحظ لدى ابن حجر انه كان يعتمد في آرائه ومناقشاته على مـــا يراه في موضوع البحث ثم ينعطف إلى تعزيز آرائه باقوال من سبقه من العلمـاء في كل فن . ففي الاخبار التاريخية ينقل عن ابن

---

(١) البلقيني : عمر بن رسلان . من كبار علماء عصره (٧٢٤ – ٨٠٥) وهو من الحفاظ للحديث ومن رجال النقد وهو شيخ ابن حجر (شذرات الذهب ابن العماد ج ٧ ص٥٢

(٢) وفي فتح الباري : (كيف كان بدء الوحي) ج١ ص٨

(٣) هدى الساري ج٢ ص٢٤٢ – ٢٤٦

(٤.٥.٦.٧): المصدر نفسه ج٢ ص٢٤٢ – ٢٤٩

سعد(١) والواقدي (٢) وفي احوال اصحاب الحديث يروى اقوال الحازمي (٣) والبلقيني (٤) والمقدسي (٥) وفي نقد الاحاديث ينقل اقوال علماء الجرح والتعديل مثل أحمد بن حنبل (٦) ويحيى بن معين (٧) والنسائي (٨) وفي دلالات الحديث ينقل عن الكرماني والخطابي (٩) وفي اللغة يستشهد بالجوهري (١٠) بل تلاحظ لديه مجموعة كبيرة من الشخصيات العلمية يعود إلى آرائها في التوضيح والاستدلال .

وقد اتم ابن حجر دراسة مباحث الجامع الصحيح قائلا : فجمع ما في الصحيح من المتون الموصولة بلا تكرير على التحرير : الفا حديث وستمائة حديث وحديثان . ومن المتون المعلقة المرفوعة التي لم يوصلها في موضع آخر من الجامع المذكور مائة وتسعة وخمسون حديثاً . فجميع ذلك الفا حديث وسبعمائة وواحد وستون حديثاً (١١)

وقد اضاف إلى هذه الاطراف فضل الامام البخاري في ترجمة منفصلة، واعقبها بذكر شيوخه الذين كتب عنهم او حدث عنهم . وذكر طبقاتهم الخمس . كما ذكر سيرته وشمائله ، وثناء علماء الحديث عليه من اقرانه وغيرهم ، واستشهد بجملة من الاخبار الشاهدة لسعة حفظه واطلاعه على

---

(١) المصدر نفسه ج٢ ص١٦١
(٢) المصدر نفسه ج١ ص٩٤وج ٢ ص٤
(٣) المصدر نفسه ج١ ص٢٠
(٤) المصدر نفسه ج٢ ص٢٤٢
(٥) ج١ ص٢٠ – ٢٦
(٦.٧.٨): المصدر نفسه ج٢ ص١٤٧
(٩) فتح البارى ج١ ص١٦
(١٠) هدى السارى ج١ ص٩٤ .
(١١) المصدر نفسه ج٢ ص٢٤٩

علل الحديث كما رأى أن يلحق لهذا فصل الجامع الصحيح واعترف النقاد له بالشمول والصحة ، وحكى ما وقع للبخاري من جهود ومعاناه ، ثم ذكر تصانيفه والرواة عنه وختم مقالاته بخبر رجوعه إلى بخارى وما رافق ذلك من احداث (١) .

فكانت هذه الدراسة — كما يبدولي — منهجاً دقيقاً يسلكه ابن حجر في ايضاح ما خفي على بعض الدارسين لصحيح البخاري ، وكشف مقاصده الحديثية والفقهية في جامعه . فقدم بهذا خدمة عظيمة لتراث السنة النبوية ولكل الباحثين فيها .

---

(١) المصدر نفسه ج٢ ص٢٥٠ – ٢٦٦

« المصــــادر والمراجع »

١ . الادب المفرد : محمد بن اسماعيل البخاري ــ تحقيق فوآد عبدالباقي ــ سنة ١٣٧٥هـ

٢ . الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث : احمد محمد شاكر ــ مطبعة علي صبيح وأولاده بميدان الازهر . الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨ .

٣ . بحوث في تاريخ السنة المشرفه : اكرم العمري ــ مطبعة الارشاد في بغداد سنة ١٩٧٢ .

٤ . تاج العروس : محمد مرتضى الزبيدي ــ المطبعة الخيرية . الطبعة الاولى سنة ١٣٠٦ هـ

٥ . تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت .

٦ . تدريب الراوي : السيوطي ــ دار الكتب الحديثه ــ الطبعة الثانية ١٩٦٦

٧ . تذكرة الحفاظ : محمد الذهبي : دار التراث العربي ــ بيروت سنة ١٣٧٤ هـ

٨ . تقريب التهذيب : احمد بن علي بن حجر العسقلاني ــ المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ــ تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ــ الناشر محمد سلطان .

٩ . جمهرة الامثال : ابو هلال العسكري ــ تحقيق محمد ابي الفضل إبراهيم وعبدالحميد قطامش ــ طبع المؤسسة العربية الحديثة ــ القاهرة سنة ١٩٦٤.

١٠. حجة الله البالغة : احمد بن عبدالرحيم المعروف بشاه ولي الله الدهلوي ــ تحقيق السيد سابق . نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة ــ مطبعة الاستقلال الكبرى .

١١. السنه ومكانتها في التشريع الاسلامي ، مصطفى السباعي ــ مكتبة دار العروبة بالقاهرة سبة ١٩٦١ .

١٢. سنن الدار قطني : الحافظ علي بن عمر الدار قطني ــ المطبعة الفنية ــ ١٩٦٦.

١٣. شذرات الذهب : ابن العماد ـ المكتبة التجارية للطباعة ـ بيروت .
١٤. شرح تراجم ابواب البخاري : الدهلوي ـ الناشر زكريا علي يوسف ـ مطبعة العاصمة بالقاهره
١٥. شروح البخاري : النووي ـ المطبعة المنيرية ـ ١٣٤٧هـ .
١٦. الضوء اللامع : محمد السخاوي ـ نشر مكتبة الحياة ـ بيروت .
١٧. فتح البارى : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ مطبعه البابي الحلبي ـ القاهرة سنة ١٩٥٩ .
١٨. الفتح الرباني : احمد عبدالرحمن البنا ـ الطبعة الاولى ـ سنة ١٣٥٤هـ بالقاهرة .
١٩. لسان العرب : ابن منظور ـ طبعة بولاق المصوره ،
٢٠. لسان الميزان : احمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ مصور عن الطبعة الاولى في دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد سنة ١٣٢٩ هـ
٢١. معجم المؤلفين : عمر كحالة ـ مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٩٦٠ .
٢٢. معرفة علوم الحديث : الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري ـ بيروت سنة ١٩٧٧ .
٢٣. نيل الاوطار : محمد بن علي بن محمد الشوكاني ـ شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة .